كريم مروة

المقاومة

أفكار للنقاش عن الجذور والتجربة والآفاق

قدم له :
جورج حاوي

الفارابي
١٩٨٥

المقاومة

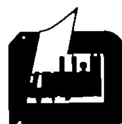
الفكر المعاش

عن الجذور والتجربة والآفاق

كريم مروة

المقاومة

أفكار للنقاش عن الجذور والتجربة والآفاق



١٩٨٥

كريم مروة: المقـــاومة

الطبعة الأولى: تشرين الثاني ١٩٨٥

الناشـر: دار الفارابي، بيروت، ص. ب ٣١٨١ ـ تلفون ٣١٧٢٠٥

مقدمة

بقلم: جورج حاوي

قيل الكثير في المقاومة الوطنية اللبنانية، وسيقال في المقاومة أكثر من ذلك في المستقبل. ولعل العمل الذي ينجزه الرفيق العزيز كريم مروة يشكل أهم الأبحاث التي صدرت حتى الآن حول هذا الموضوع. وأهميته تكمن في ذاته، وفيما سيفسحه من مجال أمام أبحاث لاحقة تكمله وتطور الموضوعات الأساسية والهامة التي تطرق اليها أو توقف عندها الكتاب الراهن. والموضوعات هذه كثيرة. يمكن أن لا تكون قد وردت في العمل الذي نحن بصدده وفق تراتب معين، أو أن لا تكون قد حظيت كلها بنفس الاهتمام من البحث كماً ونوعاً، أو يمكن أن لا يكون بينها الترابط الكامل في الصياغة التي تمت في ظروف صعبة. فالرفيق كريم مروه لم يتفرغ لانجاز كتابه، بل أنجزه على دفعات وفي غمرة انشغاله بالمهام اليومية النضالية في موقع المسؤولية الأساسية التي يتحملها في هذه المرحلة الصعبة المعقدة. أهم ما في الأمر ان الكتاب يعالج جملة من المواضيع الهامة ويطرح جملة من المسائل الكبيرة على بساط البحث. وسيجد القارىء فيه، وبخاصة القارىء الملتزم بقضية المقاومة الوطنية اللبنانية، فائدة كبرى. ففيه الكثير من الزاد الفكري والسياسي، وحتى التنظيمي، وخاصة التعبوي،... الذي نحن في أمس الحاجة اليه في مثل هذا المنعطف التاريخي الذي تجتازه الحركة الثورية في لبنان، بجانبيها الأساسيين، المتممين لبعضهما بعضاً والمترابطين ترابط وجهي ميدالية واحدة، والمشكلين معاً ركني الثورة الوطنية الديمقراطية ومجاليها، عنيت بهما

المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال، والحركة الثورية الداخلية الهادفة الى اسقاط حكم التسلط الطائفي ـ الطبقي واقامة حكم وطني ديمقراطي. ولعل كل واحدة من الموضوعات الكبرى التي يثيرها الموضوع تتطلب كتاباً خاصاً وأكثر: نشوء جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ـ الجذور التاريخية للمقاومة ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والقضية الوطنية اللبنانية، أو بالأحرى مفهوم «الوطنية اللبنانية» ـ المقاومة الوطنية اللبنانية ومسألة التحرير ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والحرب الأهلية اللبنانية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والثورة الوطنية الديمقراطية في لبنان ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والفكر الديني ودور التيارات الدينية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والصراع داخل الكيان الصهيوني ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية وحركة التحرر الوطني العربية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية ونسبة القوى الإقليمية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية والحركة الثورية العالمية ـ المقاومة الوطنية اللبنانية ضد إسرائيل وأميركا ونهج التدخل العدواني الامبريالي... وأخيراً وليس آخراً... المقاومة الوطنية اللبنانية وحزب الطبقة العاملة اللبنانية...

ان الأمر ذاته يقال حول الجوانب النضالية الملموسة للمقاومة. لقد كتب شعبنا، وكتب مقاتلو جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، فصولاً رائعة ومبدعة في ميدان البطولة. وكل فصل من هذه الفصول يصلح عنواناً لكتاب وموضوعاً لدراسة لا أبالغ اذا قلت ان بعضها سيتضمن دون شك اضافات هامة للتراث الثوري في مجال التنظيم، والعمل العسكري وسواهما. كما ان كل فصل من هذه الفصول يشكل مادة لانتاج فكري وأدبي وثقافي غزير: انتفاضات القرى ـ الجمع بين كل أشكال النضال ـ بطولات النساء والشيوخ والأطفال العاديين في ظل الاحتلال ـ أبطال معسكرات الاعتقال ـ العمليات العسكرية للمقاومة ـ العمليات النوعية وبخاصة العمليات الاستشهادية ـ شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية ـ أهالي الشهداء...

الموضوع كبير جداً في تشعبه، وفي غناه. حسب الرفيق كريم مروه انه امتلك الجرأة لطرحه. ففي ذلك جهد فكري، هام، هو بذاته انعكاس وخلاصة للجهد الفكري الجماعي لحزبنا، منذ مؤتمره الثاني وفي مؤتمريه الثالث والرابع، وعبر أبحاث ومقررات لجنته المركزية ومكتبه السياسي وكتابات وخطب مسؤوليه وجهد صحافته وكتابه... ولكنه أيضاً بداية لمرحلة جديدة متقدمة في مجال هذا الجهد الفكري نفسه على أبواب مؤتمرنا الخامس، وفي مرحلة متقدمة من مراحل نضوج الحركة الثورية في بلادنا.

ولعل بين أهم ما في الكتاب ما يقدمه الرفيق كريم مروه من رؤية لتاريخ المقاومة الوطنية

اللبنانية. واذا كان السادس عشر من أيلول ١٩٨٢ هو اليوم الذي صدر فيه بياننا التاريخي بالاعلان عن قيام جبهة المقاومة، فإن الرفيق كريم مروه يعود في كتابه بأصول المقاومة الوطنية اللبنانية بعيداً في التاريخ ليجد جذورها في المقاومة التي نظمتها شعوبنا العربية، ومن بينها شعبنا اللبناني ضد السيطرة العثمانية. ومن هناك الى «العاميات»، الى الثورة السورية ومختلف جوانب النضال ضد الاستعمار الفرنسي ومعركة الاستقلال، الى التصدي لسياسة الأحلاف والتدخلات الامبريالية التي بلغت ذروتها في انتفاضة عام ١٩٥٨، الى انطلاقة المقاومة الفلسطينية وانشاء «الحرس الشعبي»... مروراً بالتصدي للاحتلال الاسرائيلي صيف عام ١٩٨٢ وصولاً الى انطلاقة جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال في السادس عشر من أيلول من العام نفسه.

ولا يستهدف الرفيق مروه من العرض التاريخي السريع الذي يقدمه اجراء دراسة تاريخية دقيقة للمراحل الملموسة من تاريخنا. أراد فقط أن يظهر ذلك التواصل، ذلك الخيط، الذي يربط المقاومة اليوم بكل تلك التقاليد النضالية المشرقة لشعبنا العربي، في لبنان وسوريا وفلسطين بخاصة، وفي سائر الأقطار العربية بعامة، فيجعلها وريثة شرعية لها ومطورة لأفضل ما فيها من ايجابيات وبطولات وتقاليد كفاحية.

أما النقطة الثانية البالغة الأهمية فهي في توقف الرفيق كريم مروه عند شعار التحرير، ومعالجته للموضوع بما يشكله من تطور نوعي في عمل المقاومة الوطنية اللبنانية. ومن الواضح إننا، عندما طرحنا شعار التحرير، بعد السادس من شباط ١٩٨٤، نظرنا ليس فقط الى التطور الكمي والنوعي لعمليات أبطال المقاومة في الجنوب، بل الى جملة من العوامل أهمها تغير نسبة القوى الاقليمية تغيراً نسبياً في غير صالح اسرائيل، وتغير نسبة القوى الداخلية في غير صالح الخيار الإسرائيلي، والإنهيار الحاصل في مؤسسات السلطة والخلل الكبير في مجمل أسس النظام... وبالاستناد الى كل ذلك... طرحنا شعار. «الأرض لمن يحررها» أي اننا تعرضنا للجانب الداخلي في عملية التحرير، للسلطة البديلة عن سلطة الاحتلال... فعلنا ذلك في وقت كان الآخرون يطرحون حلولاً تتفاوت في شكلها وتلتقي في محتواها على تسليم الجيش (جيش النظام اللبناني وحكم الكتائب) المسؤولية الأمنية عن الجنوب، أي السلطة السياسية على المناطق المحررة... وبغض النظر عن الواقع القائم الآن في الجنوب، وهو واقع مؤقت ولا يمكن أن يستمر، فإن شعار التحرير قد أثبت انه الشعار الواقعي الحقيقي الوحيد... وليس المفاوضات تحت أية صيغة من الصيغ. وذلك يعني ان ملف الصراع مع العدو الإسرائيلي سيظل مفتوحاً، في لبنان، ومن لبنان، كجزء من الصراع

العام العربي الإسرائيلي، مع ما يتطلبه ذلك من انتظام للعلاقة بين الأطراف الوطنية والقومية لهذا الصراع، أخذاً بعين الاعتبار خصائص الساحة اللبنانية وامكانياتها، ومصلحة الحركة الثورية فيها.

ولا بد كذلك من الإشارة سريعاً الى أهمية ما يتوقف عنده الرفيق كريم مروه في علاقة المقاومة الوطنية اللبنانية بالحرب الأهلية اللبنانية، مثبتاً بالمنطق العلمي الصحيح حقيقة هذه العلاقة العضوية الخاصة في مواجهة موقفين خاطئين: واحدهما يفصل المقاومة عن الحرب الأهلية فصلاً ارادياً لا علاقة له بالواقع، والثاني يحولها أحد الأشكال العادية للحرب الأهلية مع ما في الحرب الأهلية من ايجابيات وسلبيات، من حسنات ومن شوائب..

أما علاقة المقاومة بالتورة الوطنية الديمقراطية فهي كذلك احدى أبرز النقاط الهامة التي يتعرض لها الكتاب مفتتحاً بذلك معالجة جادة لأكثر المواضيع أهمية في مسار الحركة التورية اللبنانية.

يبقى أن نقول أخيراً ان للكتاب أهمية خاصة في علاقة موضوع المقاومة الوطنية اللبنانية، بل بمجمل التجربة النضالية لشعبنا اللبناني وقوانا التقدمية، وحزبنا الشيوعي اللبناني، علاقة هذه التجربة النضالية الحية بواقع حركة التحرر الوطني العربية، بأزمتها الراهنة، وبآفاق الخروج منها، وفق ما نتصوره نحن في الحزب الشيوعي اللبناني، وما ندعو إليه، من نشوء حركة ثورية عربية من نوع جديد.

أهمية الكتاب، في هذا الوقت بالذات، انه يطلق حواراً، ويثير نقاشاً، ويوسع آفاقاً، ويستحث هماً، ويجند طاقات...

وليس أجدر من حزب الطبقة العاملة لتولي هذه المهمة الصعبة. وليس أجدر من الرفيق كريم مروه للمبادرة في هذا المجال.

بيروت في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٨٥

مدخل

لماذا هذا الكتاب عن المقاومة ؟.

لماذا ، الآن ، قبل أن تستكمل المقاومة مهمتها الأساسية في تحرير كامل الأرض من الاحتلال ؟.

لماذا هذا الشكل المحدد في معالجة موضوع المقاومة وليس شكلاً آخر ؟.

جوابي البسيط على ذلك هو أنني أحاول أن أتصدى لمعالجة ، من وجهة نظر ماركسية ، لموضوع المقاومة ليس في جانب واحد منها ، بل في كل جوانبها . وفي هذه المعالجة أحاول أن أضع المقاومة في غير المكان الذي يضعها فيه الحدث الذي تنتجه كل يوم ، بل في موقعها الحقيقي من الصراع الجاري على الساحة اللبنانية ، وفي كل جبهاته .

المهمة ، إذن ، صعبة ، ودقيقة . والجانب التاريخي في الكتاب ليس تاريخاً بل هو محاولة للربط الصحيح بين حاضر المقاومة ، كوجه من وجوه الكفاح الوطني الثوري ، وماضيها ، وبين الآفاق الرحبة التي يتجه إليه ، بحزم وثبات ، هذا الكفاح الثوري ، الذي تشكل المقاومة جزءاً فاعلاً ومؤثراً فيه . اما الأفكار التي أطرحها ، في هذا السياق من المعالجة ، فتحتمل الكثير من النقاش . فلست أزعم أن ما أورده من أفكار وآراء هو الحقيقة التي لا تقبل الجدل .

على العكس من ذلك فإن ما أهدف إليه ، فيما اطرحه من أفكار تتناول الجذور والتجربة والآفاق ، هو إثارة النقاش .

إنني فيما أكتب ، أدعو كل المعنيين في موضوع المقاومة ، ممن أسهموا في تأسيس نواتها الأولى ، وممن شاركوا ويشاركون في نضالها ، وممن ينظرون إليها كظاهرة تستوجب الاهتمام والتطوير ، ادعوهم جميعاً إلى النقاش الذي نطمح ، في أيامنا هذه ، أن يكون غنياً ، وأن يكون هادفاً ، وأن يكون مثقفاً للجماهير ، مسهماً في تعميق وعيها الوطني والديمقراطي ، وأن يجري بحرية كاملة ، وفي ظل أقصى الديمقراطية .

غير أنني ، في محاولتي هذه ، حرصت شديد الحرص أن أكون ، في آن معاً ، موضوعياً في النظرة إلى المقاومة ، وفي تحديد موقعها في مجرى الأحداث ، وفي التطور الذي تشهده الحركة الوطنية الثورية في لبنان ، ومدافعاً بحماس عن وجهة النظر التي أتبناها وانطلق في تعميقها من موقعي السياسي والفكري والطبقي .

الصدق والصراحة هما اللذان رافقا ، بأمانة ، محاولتي هذه ، ولم أخنهما .

هل نجحت في محاولتي ؟ هل بررت ، فيما كتبت ، ضرورة أن يصدر ، الآن ، وفي هذا الشكل بالتحديد ، كتاب عن المقاومة ؟ .

الجواب هو عند القارىء ! .

كريم مروة

بيروت في ٢٠ تشرين الثانى ١٩٨٥

كيف ولدت جبهة المقاومة وتطورت؟

لم تولد جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية فجأة. لم تولد من فراغ. انها استمرار، بشكل جديد، لتراث غني من الكفاح الوطني الثوري اللبناني والعربي والعالمي من أجل الحرية. عمرها بعيد في التاريخ. كانت موجودة، بشكل معين، في ظل السيطرة العثمانية. وجدت، كذلك، نماذج منها في مقاومة الانتداب الفرنسي. وبعد الاستقلال نشأت حركة معادية للصهيونية تحولت، بعد قيام اسرائيل، إلى حركة سياسية، وحتى عسكرية، ضد العدوان الاسرائيلي، في شتى اشكاله، وفي مختلف مراحله.

وكان نشوء المقاومة الفلسطينية، واستقرار قواها الأساسية في لبنان، إثر مجازر ايلول في الاردن، أساساً في تطوير روح المقاومة الوطنية اللبنانية ضد عدوان اسرائيل المتكرر، ومن أجل الدفاع عن الاستقلال، وفي النضال الديمقراطي العام. إن للثورة الفلسطينية فضلاً كبيراً على الحركة الوطنية اللبنانية في هذا المجال. منها ومن شجاعة ابطالها الفدائيين تعلم الوطنيون اللبنانيون حمل السلاح واستخدامه في الكفاح الوطني الثوري على جميع جبهاته. وكان التصدي للعدوان الاسرائيلي طيلة السبعينات، كما كانت الحرب الاهلية، ميدان التجربة الحية لهذا الكفاح. ولذلك فعندما وقع الاجتياح الاسرائيلي كانت لدى القوى الوطنية اللبنانية ذخيرة من التجربة ومن الغنى والتنوع في الكفاح، ومن الصواب والخطأ في الممارسة، ما جعلها قادرة على مواجهة هذا الاجتياح وتحمّل أعباء وموجبات التصدي له. الحصار كان التجربة الأساسية. وفي قلبه

نمت الفكرة وتطورت وتحولت إلى فعل. فكان السادس عشر من أيلول (١٩٨٢)، اليوم التاريخي لولادة جبهة المقاومة الوطنية.

١ الاستنفار العام عشية الاجتياح

لم يكن احد يعلم عشية الاجتياح الاسرائيلي ان اجتياحاً من هذا النوع، وبهذا الحجم، سيقع فعلاً. وكانت المعلومات المتداولة والتقديرات تؤكد، بنوع من الجزم، ان عدواناً كبيراً سيحصل. غير ان الآراء تفاوتت حول حجم هذا العدوان وحول مكان وقوعه. بعضهم قال انه سيقتصر على منطقة جنوب الليطاني. البعض الآخر أكد انه سيطال الجنوب كله. وكان رأينا نحن الشيوعيين، في اجتماع اللجنة المركزية لحزبنا المكرس لبحث هذا الموضوع، والمنعقد في شهر آذار ١٩٨٢، ان اجتياحاً كبيراً لم نشهد له مثيلاً سيحصل وسيصل الاسرائيليون فيه إلى ابواب بيروت. وسوف يحاولون اقتحام العاصمة واحتلالها. لم يكن هذا الذي قاله الرفيق جورج حاوي الامين العام، في تقريره امام الاجتماع، معلومات نملكها. كان نوعاً من التقدير السياسي للظروف التي كانت سائدة آنذاك.فقد كنا نعتبر ان الوضع اللبناني لم يعد ممكناً التسامح مع استمرار بقائه على النحو الذي كان فيه. فلا الثورة الفلسطينية مسموح لها ان تبقى وأن تتطور وان يكون لها مركز ثقل في بلد عربي مثل لبنان تعصف فيه حرب اهلية جامحة وشاملة، ويقع، جغرافياً، في قلب المنطقة التي هي موضع اهتمام رئيسي لدى الدوائر الامبريالية، اي على حدود اسرائيل، وعلى بوابة الشرق، العربي والآسيوي. ولا الحركة الوطنية اللبنانية كان مسموحاً لها ان تتطور لكي تصبح، في شكل ممارستها للكفاح، وفي الاهداف التي تضعها امامها، وفي تحالفها مع الثورة الفلسطينية، وفي العلاقة التي انشأتها مع سوريا، قوة جذب، في قلب الحركة الثورية العربية، وقوة مثال.

من هنا كان لا بد ان تفكر القوى المتضررة من هذا الواقع، ومن احتمالات تطوره، (اسرائيل والامبريالية الاميركية والانظمة الرجعية العربية) في الشكل الذي ينبغي لها ان تتصدى به لهذا الواقع، وان تدمره قبل ان تستفحل النتائج المترتبة عليه. وهو الامر الذي تجسد في البداية، بشعارات ترددت، هنا وهناك، حول بيروت كمركز رئيسي «للارهاب الدولي» لا بد من ضربه والقضاء عليه. ولسنا نريد هنا ان نسجل كل الاحداث وكل

المواقف السياسية التي حفلت بها تلك الفترة. ولكننا لا نستطيع الا ان نشير، على الاقل، إلى ما المحت إليه في كثير من المناسبات، حتى وسائل الاعلام الغربية ذاتها، من اعداد خفي وسريع وجدي، لخطة تشارك فيها الدول الامبريالية، بزعامة الولايات المتحدة الاميركية، وتواطؤ الانظمة العربية الرجعية. وهذه الخطة سرعان ما عبرت عن نفسها في قمة فرساي وما اتخذ في هذه القمة من قرار اوكل إلى اسرائيل أمر تنفيذه: قرار تحطيم مركز «الارهاب الدولي» هذا بالقضاء على كل من الثورة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية، في وقت واحد.

هذا الذي كان يسود في المتداول من المعلومات والتقديرات حول الاجتياح الاسرائيلي قبل أن يقع، ولّد في الأجواء السياسية والشعبية قلقاً كبيراً، لبنانياً وفلسطينياً وسورياً. صحيح ان التقديرات والتوقعات كانت متفاوتة، ولكن الجميع ادركوا ضرورة اتخاذ التدابير لمواجهة مثل هذا الاحتمال. ومع ذلك فلم تكن هذه التدابير في مستوى المتوقع من الاحداث.

أعلن الاستنفار العام في صفوف الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية خلال شهر نيسان ١٩٨٢. وبدأت، في ضوء هذا القرار، حملة تعبئة سياسية وحملة اعداد للمقاومة. وللامانة التاريخية نذكر، اننا نحن الشيوعيين كنا في مقدمة الذين بدأوا ذلك الاستنفار وتلك التعبئة. ولكننا كنا في الحزب وفي الحركة الوطنية، في وضع صعب. في ذلك الحين، يا للمصادفة (!)، قطعت عنا كل المساعدات العربية. وكنا امام احد خيارين: إما الاستسلام لهذا الوضع الصعب، اي الاستسلام للاجتياح، وإما التصدي لهذا الحدث القادم بالقدرات الذاتية البسيطة المتوفرة. فكان خيار المناضلين جميعاً هو الخيار الذي لا خيار سواه، خيار التصدي والمقاومة وشد الأحزمة والقيام بأوسع حملة لتأمين أعباء المعركة.

هذا الوضع الصعب حال، موضوعياً، دون ان يكون الاستنفار في مستوى الاجتياح. فجاء الاجتياح للجنوب والجبل اسهل واسرع مما كان ينبغي ان يكون عليه.

ذلك وحده لا يفسّر بالطبع، سرعة الاجتياح وعدم القدرة على المواجهة. فالخلل كان واضحاً، قبل الاجتياح في الحركة الوطنية اللبنانية وفي الثورة الفلسطينية، على السواء، داخل كل منهما، وفي العلاقة التي كانت تقوم بينهما في ذلك الحين فضلاً عن الخلل في العلاقة بين كل منهما وبين سوريا. إلا ان الخلل الاكبر الذي لا بد من رؤيته والتوقف عنده، من اجل المستقبل، يكمن في ان لبنان والحركة الوطنية اللبنانية حُمّلا في السنوات

الخمس عشرة الماضية اكثر مما تسمح به قدراتها. حُمِّلا، في الواقع، قسطاً كبيراً واساسياً من اعباء الحرب المستمرة والصراع المتواصل بين حركة التحرر الوطني العربية وبين اسرائيل.

وعلى الرغم من ذلك، فان القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية، وكذلك وحدات الجيش السوري التي كانت موجودة في لبنان، ادراكاً منها لخطورة ما كان يحصل، اعدت نفسها، بكل ما تملك من امكانات وقوى في بيروت، اساساً، فتمكنت من ايقاف هذا الاجتياح الذي جندت اسرائيل له جيشاً بكامله، على ابواب هذه العاصمة العربية النادرة الشجاعة: بيروت. فكان الحصار، وكانت الملحمة التاريخية.

٢ مع الثورة الفلسطينية في ملحمة حصار بيروت

كان الحصار ملحمة ولا شك، ملحمة ندر مثالها في التاريخ المعاصر للبلدان العربية. سيكون من الصعب ايفاء هذه الملحمة حقها من التقييم والتقدير. وستظل اجيالنا، لفترة طويلة من الزمن، في لبنان وفي الوطن العربي، تغرف من معينها الذي لا ينضب. أهميتها الاستثنائية انها شكلت رداً بالغ الدلالة والعمق والعنف، مفعماً بالمعاني الانسانية وبالصمود البشري وبالتضامن الوطني بين السكان، في وجه الموت والدمار، في وقت كانت فيه كل الوقائع تشير إلى ان الصمود كان صعباً، كان شبه مستحيل. الآلة الحربية الاسرائيلية بارفع مستواها التقني واعنف اشكال تدميرها لم تكن تفسح في المجال امام أي نوع من المقاومة. فكيف إذا كانت هذه المقاومة في مثل الوضع الصعب الذي كانت عليه مقاومتنا الوطنية اللبنانية والفلسطينية وحتى السورية، من حيث الامكانات المتاحة ومن حيث التنظيم ومن حيث الخلل القائم، الموضوعي منه والذاتي؟ ومع ذلك فقد حدثت المعجزة.

لقد برزت، في قلب الصعوبات الماثلة، مقاومة من كل الانواع تتصدى للوحشية الاسرائيلية ولآلتها العسكرية، بشجاعة نادرة، وتؤسس لهذا الصمود الملحمي الذي امتد ثمانين يوماً دون انقطاع، ودون هوادة، أو تراجع.

لم يكن مقبولاً أن يكون الجواب على الاجتياح، أولاً، ثم على الحصار، فيما بعد بغير هذا النوع من الصمود. أي سلوك آخر كان سيعني الموت، كان سيعني الاستسلام لإرادة الغزاة.

فكيف كانت المقاومة؟ وكيف صمدت هذه القوى في بيروت؟ وكيف قامت هذه الملحمة؟.

ليست مهمتنا هنا تسجيل وقائع هذا الحصار والبطولات الخارقة في المقاومة العسكرية والمدنية التي تجلت خلال الايام الثمانين. فتلك مهمة المؤرخين. ما يهمنا هنا تحديداً، هو ان نتوقف عند بعض مظاهر هذه المقاومة وبعض دلالاتها. ففي ذلك ما يخدم غايتنا في التأكيد على ان جبهة المقاومة، عندما نشأت في ذلك التاريخ المجيد، بقرار تاريخي طليعي، لم تكن قط فعل تلك اللحظة، بل كانت النتيجة الطبيعية لهذا التراكم من الصراع والصمود والمقاومة بشتى اشكالها.

أول ما نتوقف عنده من بين العديد من **المظاهر** التي برزت في تلك الملحمة، قبل الحديث عن المقاومة بالسلاح، هو موقف الناس العاديين.

بيروت لم تكن مدينة للوطنيين الواعين المتخرجين من مدرسة الكفاح والتضحية وحسب. كانت مثل المدن الاخرى واكثر. ولأنها العاصمة فقد كانت تحشد فيها وتُحشر كل الفئات من السكان، من الهامشيين والمهمشين إلى العاملين في شتى مجالات الانتاج، إلى الفئات المختلفة من البرجوازية. وبالطبع فلم يكن مستوى الوعي واحداً عند هذه الفئات. صحيح ان العديد من سكان بيروت هجرها في مراحل مختلفة من الحصار. ولكن قسماً اساسياً منهم، ممن ينتمون إلى هذه الفئات جميعاً، لم يغادرها. بعضهم فعل ذلك عن ارادة، والبعض الآخر عجز عن الهجرة، فتخلى عنها. وقد واجهوا جميعاً مصيرهم ومصير عاصمتهم بنوع من الوحدة والتحدي والصمود تجاوز كل الحدود، وسط شعور عميق من الارتباط المتفاوت الدرجات بالقضية الوطنية، وفي ظل تعاون انساني بسيط، رائع خال من العقد. فالدفاع عن بيروت أصبح بالنسبة لهم، في آن معاً، دفاعاً عن شرف الوطن ودفاعاً عن حرية الانسان وحقه في الوجود. في هذا المظهر من الصمود والمقاومة تتلخص المعاني الاساسية لهذه الملحمة. في هذا الشكل من المقاومة المدنية، بأبسط واروع اشكالها، تتلخص القدرة على اسقاط الحصار وافشال اهدافه.

المظهر الثاني: هو ذلك النوع من الوحدة التي تجلت في الموقف من الشعب الفلسطيني وقضيته وثورته رغم كل ما كان لدى جميع المواطنين، والوطنيين الملتزمين منهم بالدرجة الأولى، من نقد وصل إلى مستوى الاحتجاج على سلوك الثورة الفلسطينية قيادة ومؤسسات

ومنظمات وأفراداً. ورغم ان هذا النقد والاحتجاج كانا في موضعهما، فقد وقفت الجماهير اللبنانية، ووقفت قياداتها الوطنية مع الشعب الفلسطيني وثورته عندما كان يواجه المحن التي عبرت بوضوح عن المأساة التي يعيشها هذا الشعب العربي المشرد في وطنه وخارجه، الذي يعاني القهر من مغتصبي أراضيه ومن حماتهم الذين يتواطؤون معهم من العرب الرجعيين، المبتلي، في الكثير من الأحيان، بقيادات من طبيعة طبقية معينة برجوازية في معظمها، إما تقوده على طريق الخيانة أو تتخلى عنه في الملمات أو تعجز عن القيام بالدور المطلوب منها في قيادة صموده وكفاحه المليئين بالشجاعة وبالتضحيات. وقفت هذه الجماهير اللبنانية وقياداتها الوطنية، رغم المعاناة، مع الشعب الفلسطيني وثورته وربطت مصيرها ومصير حركتها الوطنية بمصيرها، وواجهت بشجاعة كل احتمالات الحاضر والمستقبل. وعندما فرض على المقاتلين الفلسطينيين وقياداتهم ان يخرجوا من بيروت. خرجت هذه الجماهير اللبنانية وقياداتها في أعظم مظاهرة وداع حزينة مليئة بالاسى والالم والشعور بالقهر. انه أروع مظهر للتضامن والوحدة، في أدق لحظة يوضع فيها الانسان أمام أصعب الخيارات.

المظهر الثالث: هو ذلك الاحساس الجارف بالحاجة إلى الوطن من خلال التمسك بما يكثف هذا الوطن ويلخص معانيه: العاصمة كمدينة بالجملة وكاحياء واماكن سكن ومراكز عمل وشوارع وحدائق وحجارة وتراب، فضلاً عن الناس فيها بكل ما يرمزون إليه من حياة وحركة ونشاط وتطور.

المظهر الرابع: هو ما استند إلى كل تلك المظاهر جميعاً. وتجسد في المقاومة المسلحة للاجتياح وللحصار ولمحاولات الهجوم من كل الجهات، من البر والبحر والجو، وتجسد في بطولات تحدث عنها بذهول كل الذين أتيحت لهم فرصة مشاهدتها أو الاستماع إلى تفاصيل اخبارها، ممن عايشوها. وضباط قوات الاحتلال وجنوده، والصحفيون الذين رافقوا الاجتياح والحصار، هم من بين الذين اسهموا في نقل الشهادات الحية عن تلك البطولات. في هذه المقاومة سقط العديد من الشهداء وامتزج الدم اللبناني بالدم الفلسطيني بالدم السوري بالدم العربي، وظهرت، من خلال هذه المقاومة وهذا الاستشهاد، كل المعاني الحقيقية للوحدة في الكفاح الوطني الثوري عندما يكون هذا الكفاح بمثل صفاء الهدف الذي واجه كفاح الوطنيين العرب في حصار بيروت.

ولكن الغازي الاسرائيلي، برغم كل وحشية آلته العسكرية المدمرة، دفع ثمناً باهظاً

لاجتياحه ولحصار بيروت. فقد كانت تلك المواجهة أول نوع من المواجهات التي تعترض الغزوات والحروب الاسرائيلية للبلدان العربية خلال عشرات السنين من صراعنا المرير المليء بالمآسي مع اسرائيل منذ قيامها، بإرادة امبريالية، جسماً غريباً على جزء عزيز من الارض العربية.

لا يهمنا في سياق هذا العرض لأبرز دلالات ومعاني ومظاهر حصار بيروت ومقاومته والصمود في وجهه، أن نتوقف عند القضايا المتعلقة بالصراع السياسي وما ادى اليه من حلول فرضتها نسبة القوى التي كانت واضحة الاختلال لغير صالح القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية والسورية. فذلك من مهمة التأريخ الدقيق لتلك المرحلة. ومع ذلك فلا بد لنا من أن نشير إلى أربعة أحداث لا يمكن أن ننخرط في حديث عن حصار بيروت دون ان نشير اليها:

الحدث الأول: هو الاتفاق الذي تجري محاولات تزوير وقائعه الآن حول شكل ومضمون خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت وارتباط ذلك بمجيء القوات المتعددة الجنسية بقيادة اميركية إلى بيروت. وخطورة هذا الحدث كونه شكل بداية مرحلة جديدة في نضال الثورة الفلسطينية لم تستطع الفصائل الوطنية الفلسطينية، ان تستوعب مستلزماتها وأن تضع خطة سياسية وبرنامج عمل مأخوذاً فيهما بعين الاعتبار هذا التغير الكبير في الظروف والوقائع. وهو ما ادى إلى نشوء أزمة حادة من نوع جديد داخل الثورة الفلسطينية ما تزال تتفاقم وتبرز خلال تفاقمها والصراع الجاري في اطارها محاولات من بعض الأفراد والأطراف لتحميل القوى الوطنية اللبنانية أحياناً وسوريا أحياناً أخرى المسؤولية فيما وقع من أحداث لا يجوز للأمانة التاريخية حصرها بها أو تزوير الوقائع من أجل تأكيدها، بشكل اعتباطي.

فقد حاول عرفات أن يوحي بأن الحركة الوطنية اللبنانية هي التي طلبت منه ومن قيادة الثورة الفلسطينية القبول بمقترحات فيليب حبيب وتوقيع الاتفاق بالخروج من بيروت. في حين ان الموقف المسؤول لقيادة الحركة الوطنية كان واضحاً. فقد ترك الخيار في اتخاذ القرار لقيادة الثورة الفلسطينية، فإما الصمود في المواجهة ولذلك مستلزمات، واما الخروج وذلك قرار تتخذه القيادة الفلسطينية وحدها. ولقد أثبتت فصائل الحركة الوطنية بعد خروج المقاومة الفلسطينية انها ملتزمة بالدفاع عن بيروت وعن الوطن كله بكل ما تملك من قوى وإمكانات..

الحدث الثاني: هو فرض بشير الجميل رئيساً للجمهورية بقوة الدبابات الاسرائيلية وبقوة الوجود الاميركي والاطلسي على حساب المصالح الأساسية للشعب اللبناني وفي تناقض كامل مع مصلحة بقاء لبنان وطناً موحداً مستقلاً لجميع أبنائه.

الحدث الثالث: هو تنظيم مجازر صبرا وشاتيلا التي تلت حادثة اغتيال بشير الجميل والتي عبرت بوقوعها وبالقوى التي نفذتها انه من غير الممكن للمسألة اللبنانية ان تحل ولو مؤقتاً على النحو الذي كانت تريده اسرائيل وأسيادها الاميركيون وعملاؤها الفاشيون في الداخل، وحلفاؤها المتواطئون معها في الانظمة الرجعية العربية، أي بتسليم لبنان إلى اعداء وحدته واستقلاله وعروبته وتطوره الديمقراطي، في شكل يتناقض تناقضاً كاملاً مع مصالح الشعب الفلسطيني وحقوقه القومية في أرضه.

الحدث الرابع: هو القرار الاسرائيلي باجتياح بيروت في شكل خدعة عسكرية وسياسية أمكن لاسرائيل أن تحققها في ظلّ الحالة التي نشأت بعد هذه السلسلة من الأحداث المتسارعة، أي بعد دخول القوة المتعددة الجنسية، وبعد خروج مقاتلي الثورة الفلسطينية وقياداتها من بيروت، وبعد تسليم العاصمة إلى جيش السلطة الكتائبية، وفي فترة الفوضى والارتباك اللذين أحدثتهما مجازر صبرا وشاتيلا، وفي ظل القرار الوطني اللبناني بالانكفاء المسلح من أجل الاعداد للمقاومة.

كل ذلك كان يؤسس، بعكس ما كانت تشير إليه الأحداث والوقائع، لأمر جديد، لتطور نوعي في شكل المواجهة وفي مضمونها، يستند إلى التجربة الغنية المكدسة.

٣ السادس عشر من أيلول (١٩٨٢) القرار التاريخي

كان من الطبيعي ان يطرح الوطنيون اللبنانيون، في ظل هذا الذي حصل خلال حصار بيروت، ولا سيما بعد اجتياحها، جملة من القضايا تتعلق بالمستقبل. ولم يكن واضحاً للجميع، وهو أمر طبيعي، كيف سيكون هذا المستقبل. البعض استسلم فوراً لليأس. رأى ان تاريخاً مريراً من الوقوع في العصر الاسرائيلي، كما سمي آنذاك، قد بدأ فبدأ يدرس

أشكال تأقلمه مع هذا العصر. بعض آخر رفض الواقع الذي قام ولكنه لم ير بوضوح كيف يواجه المصير. لم ييأس، ربما، ولكنه لم يضع خطة حقيقية للخروج من هذا الواقع الجديد المرير فكان اقرب إلى حالة اليأس منه إلى حالة الصمود. البعض الثالث كان يرى، وسط العتمة، التاريخ والمستقبل معاً. لم يكن ليقبل، بالمطلق، فكرة اليأس والاستسلام، ولا حتى فكرة البقاء في حالة الذهول والانتظار. كان يرى، باصالة، وبوضوح، انه لا بد من قرار سريع حاسم، يحدد خط المواجهة، ويحدد الهدف، ويحدد أشكال النضال، والبدء بتسديد الضربة باتجاه العدو دون تأخير، حتى ولو بدا وكأنه يقوم بحركة في عكس التيار أو أنه يسير في المجهول. هذا القرار لم تكن المغامرة في اتخاذه سهله. ولكنه اتخذ في الوقت الضروري، واتخذته الطليعة تحديداً. وهكذا بادر الشيوعيون إلى الإعداد للمقاومة وانخرطوا في البحث مع الذين كانوا في المقاومة خلال الحصار وقبله، متقدمين في مواقفهم الفكرية والسياسية، وكانوا أعمق ارتباطاً بالخط الجديد للمواجهة وبشكل ممارسة هذا الخط في الظروف الجديدة. كان في تقدير الحزب الشيوعي انه لا بد من قيام حركةمن نوع جديد، حركة ثورية تتهيأ الظروف في لبنان لقيامها، ولكن مجالها يتجاوز لبنان إلى كل الوطن العربي. هل كان يمكن لهذه الحركة التورية العربية الجديدة أن توضح أهدافها وتحدد مهماتها دون أن يترافق ذلك ويتوحد في معركة الدفاع عن العاصمة العربية التي حوصرت ثم جرى التخلي عنها إلى أن اجتاحتها القوى الفاشية الغازية، الخارجية والداخلية على السواء؟ وهل كان يمكن لها أن تتخذ أشكالاً للكفاح أكثر غنى مما قدمته تجربة المقاومة خلال حصار بيروت بشكل خاص؟

من هنا كان رأينا واضحاً منذ البدء، وكان يتلخص في أن تتشكل جبهة وطنية للمقاومة الوطنية تضم، إلى جانب القوى اللبنانية، قوى فلسطينية وعربية أخرى، تتصدى لمهمة مقاومة الاحتلال كمهمة مباشرة واضحة ومحددة. وكان رأينا ان قيام مثل هذه الجبهة سيؤدي، حتماً، ولو بعد حين، الى بلورة شروط حقيقية لنشوء حركة ثورية لبنانية عربية تستند الى تجميع كمي ونوعي لقوى اليسار الثوري العربي، تجد تعبيراً حياً عن ذاتها ومبرراً حقيقياً لوجودها في قدرتها على ممارسة فعل المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي بهدف تحرير الأرض منه، بيروت أولاً، ثم باقي الأرض على أسس جديدة نوعياً، مختلفة، من حيث الأساس، عن الأشكال السابقة، مستفيدة من تجربتي الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، من الخطأ والصواب في هاتين التجربتين الغنيتين. لقد كان طبيعياً أن يولد هذا القرار في الوقت المناسب. ولم يكن أفضل من هذا الوقت، بعد تجربة مقاومة الاجتياح

الاسرائيلي لبيروت، الا ذلك التاريخ (١٦ أيلول ١٩٨٢) الذي صدر فيه النداء باعلان قيام جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية والدعوة الى ممارسة كفاحها ضد الاحتلال ثم المباشرة في تنفيذ مهماته فوراً ودون تأخير.

وهذا هو نص النداء:

. . . .

يا أبناء بيروت البطلة،

• يا أبناء شعبنا اللبناني العظيم في الجنوب والجبل والبقاع والشمال،

• أيها المقاتلون الوطنيون الشجعان.

• ان العدو الاسرائيلي المستمر في حربه الوحشية ضد لبنان منذ أكثر من مائة وأربعة أيام يبدأ اليوم تدنيس أرض بيروت الوطنية الطاهرة التي قاومت ببطولة طوال هذه المدة ولقنته في خلدة والمتحف وفي ضاحيتها الجنوبية وكل مداخلها دروساً في البطولة لن ينساها.

• ان العدو المجرم يتنكر لكل الاتفاقات التي أجبر على ابرامها بفضل المقاومة البطلة للشعبين اللبناني والفلسطيني بقيادة القوات المشتركة يستهدف اقتحام بيروت الوطنية التي استعصت عليه عندما كانت في حال الاستنفار والتعبئة، وقبل تثبيت الخطة الامنية التي قضت بتسليم أمن بيروت للسلطة الشرعية.

• ان العدو الاسرائيلي يستأنف جريمته النكراء وسط الرعاية الأميركية نفسها التي تميزت بالخداع المكشوف والرخيص والتي أظهرت خلالها الولايات المتحدة الأميركية انها القائدة الفعلية للعدوان عسكرياً وسياسياً ضد لبنان وشعبه، ويكشف التذرع بجريمة اغتيال المرحوم الشيخ بشير الجميل للقيام بهذا العدوان الغادر على بيروت الوطنية مسؤولية اسرائيل وأميركا عن جريمة الاغتيال كما يؤكد مدى خطورة الأهداف المجرمة التي يحملها المخطط الأميركي ـ الاسرائيلي ضد لبنان، وحدة وكياناً ومصيراً.

• ان اميركا واسرائيل لا تريدان لبنان بلداً موحداً مستقلاً حراً سيداً وديمقراطياً.

• ان أميركا واسرائيل ستتابعان تنظيم الدسائس والمؤامرات لتفرقة شعبنا وتقسيم

بلادنا وتجزئتها تأميناً لسيطرة مديدة لها على لبنان، وعبر لبنان على سائر الأقطار العربية المجاورة.

« يا رجال ونساء لبنان من كل الطوائف والمناطق والاتجاهات.

« أيها اللبنانيون الحريصون على لبنان بلداً عربياً سيداً حراً مستقلاً...

«إلى السلاح استمراراً للصمود البطولي دفاعاً عن بيروت والجبل، عن الجنوب والبقاع والشمال.

« إلى السلاح تنظيماً للمقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال وتحريراً لأرض لبنان من رجسه على امتداد هذه الأرض من أقصى الوطن الى أقصاه.

« أيها اللبنانيون.

« ان واجب الدفاع عن الوطن هو أقدس واجب، ان شرف القتال ضد المحتل هو الشرف الحقيقي الذي ينبغي لكل وطني أن يفاخر به.

« فلتنتظم صفوف الوطنيين اللبنانيين كافة وبغض النظر عن انتماءاتهم السابقة وعن الاختلافات الايديولوجية والطائفية والطبقية، في **جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الاسرائيلي**، كسراً للقيد الذي تحاول أن تفرضه اليوم أميركا واسرائيل على عنق شعبنا الحر ورفعاً لراية التحرر الحقيقي لشعبنا العظيم».

جورج حاوي

بيروت في ١٦ أيلول ١٩٨٢ **محسن ابراهيم**

٤ قصة العملية الأولى

على امتداد أسبوع مارست المقاومة نشاطها بعمليات رائعة التسديد، برهنت لقوات الاحتلال الاسرائيلي ان انتخاب بشير الجميل ثم اغتياله، وتنظيم مجازر صبرا وشاتيلا، ووجود القوات المتعددة الجنسية، واحتلال بيروت، أمور لا يمكن أن تعيش في هذا الوطن، في عاصمته بيروت، بالأخص، التي صمدت ثمانين يوماً في الحصار ولم تستسلم. ذلك ان تطوراً جديداً كان قد حصل في هذا البلد العربي الصغير، في حركته الثورية، واغتنى بفعل التجربة. لقد أصبح حزب الطبقة العاملة، الحزب الشيوعي، بعد مؤتمره الثاني تحديداً، وبالاستناد إلى تاريخ طويل مجيد من الكفاح، حزباً من نوع جديد، حـزبـاً

عميق الجذور في الأرض والتاريخ والشعب، حزباً مبادراً لا يتخلف عن القيام بالدور الطليعي الذي يعود له. ونشأت، مع هذا التطور العاصف، في مواقع الحزب الشيوعي وفي دوره، حركة ثورية من نوع جديد، مختلفة، أعطت دفعاً جديدا للنضال الوطني الشوري، في شتى مجالاته، أسهمت الحرب الأهلية، وأسهم التحالف الكفاحي مع الثورة الفلسطينية، في تعمّقه وترسخه، برغم كل الصعوبات، وكل الشوائب. وكانت هذه الحركة، بفعل الدور الطليعي للطبقة العاملة وحزبها، تمارس كفاحاً ثورياً متقدماً، متعدد الأشكال، يستند الى برنامج سياسي محددة فيه، بوضوح، المرحلة التاريخية ومهماتها.

ان هذا الواقع هو الذي كان في أساس القدرة على اتخاذ ذلك القرار التاريخي بانشاء جبهة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي وفي تحويله الى فعل. فبدأت حرب الأنصار فور الاعلان عن قيام الجبهة. ونشّط المقاومون الشجعان في عملياتهم العسكرية، الواحدة تلو الأخرى، دون توقف، في كل أنحاء العاصمة. وهكذا أثبت القرار التاريخي جديته وجدواه. ولم تكد تمضي عشرة أيام على الاحتلال والمقاومة حتى بدأت قوات العدو الاسرائيلي تعلن بمكبرات الصوت عن استعدادها للانسحاب داعية أهالي بيروت لايقاف عملياتهم العسكرية ضدها تسهيلاً لانسحابها. وكان ذلك، في الواقع، أول انتصار للمقاومة ولنهجها.

قد يكون من المهم، للدلالة التاريخية، التذكير بتلك العمليات الأولى، القليلة العدد، الكبيرة الأهمية، التي قام بها أبطال جبهة المقاومة، بصمت وشجاعة ودون ادعاء ودون فئوية. فهذه العمليات، لانها قامت على هذه الأسس، وفي ظل أقسى الصعوبات، هي التي مكنت جبهة المقاومة من أن تصبح، في فترة زمنية قصيرة، الظاهرة الأبرز في الواقع العربي الراهن، في قلب الحركة الوطنية الثورية العربية، مثلما كانت، في أواخر الستينات، بعد هزيمة حزيران، الثورة الفلسطينية، الظاهرة العربية الثورية الأبرز. وبذلك انقلبت الآية، وأصبح العصر، في لبنان وفي الوطن العربي، عصرها لا عصر اليأس والهزيمة، لا عصراً اسرائيلياً أو أميركياً، من أي نوع.

بضع عمليات جرت في بيروت. عددها كان قليلاً. ولكنها كانت البداية، في المقاومة وفي الانتصار. أول عملية نفذت، بعد النداء الذي صدر معلناً قيام «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الاسرائيلي» هي عملية الصنائع. فيما يلي رواية تفصيلية لهذه العملية، في شكل تقرير، كتبها الرفيق الذي أشرف على تنظيمها وعلى تنفيذها:

. . . .

« العملية الأولى » بعد تشكيل جبهة المقاومة، جرت في منطقة الصنائع، تنفيذاً لقرار قيادة الجبهة وتلبية للنداء الذي وجهته. وقد نفذ العملية أفراد المجموعة التي تصدت، في منطقة الطريق الجديدة، لقوات الاحتلال الاسرائيلية اثناء اجتياحها بيروت. وكانوا ثلاثة: م. وف. وع. وقـد توجهوا الى منزل الرفيقة ب. أ. في محلة الظريف، وهم مصممون على تنفيذ العمليات ضد قوات الاحتلال، ولم يكونوا يعلمون انهم ذاهبون فعلاً، وبقرار من قيادة الجبهة، لتحضير أول عملية. كان واحد منهم فقط يعرف ذلـك لأنـه كـان قـد انضم الى الجبهـة، وكلـف بتحضير المجموعات للعمل في صفوفها، هو م. أثناء النقاش الذي دار حول معركة الطريق الجديدة، وحول المعارك التي حصلت في الزيدانية، وصل فجأة أحد الرفاق وأخبرنا ان الرفيق ا. هـ. موجود الى جانب مركز الزيدانية، وان الاسرائيليين لهم حاجز قريب على خط مار الياس، وان الكثير من الأهالي موجود في الطريق. فتوجه م. وع. الى هناك. وعندما رآهم ا. هـ. أشار الى م. بالاقتراب، وأوعز اليه بالقيام بتنفيذ عملية، اذا أمكن، في نفس اليوم. وكانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر. وحوالي الساعة التاسعة جاء رسول من ا. م. الى المنزل الذي كان يجتمع فيه الرفاق، طالباً التحدث الى م. فاقترح ع. الذهاب معه لمناقشة وضعه التنظيمي على ضوء التطورات الجديدة. وفي هذا الوقت كان ف. في بيته في الطابق العاشر، في نفس المبنى. وهكذا ذهب ع. وم. الى بيت ا. م. وهناك سئلا عن معركة الطريق الجديدة ومصير الرفاق ونتائج المعركة. ثم طلب اليهم أن ينفذوا عملية في نفس اليوم، بأي ثمن. واقترح عليهم ا. م. أن يكون الهدف الحاجز الاسرائيلي على خط مار الياس، لجهة الزيدانية. وعندما سأله الرفيقان عن مصدر السلاح أشار عليهما بوجوب تأمينه من المركز الذي كان تبقى فيه بعض السلاح. وكان المطلوب « قاذف ب ٧ » ورشاش كلاشن. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف أوعز أ. م. الى المجموعة بضرورة استطلاع الموقع وتحديد مكان التنفيذ. فتوجه الثلاثة الى الهدف. وكانت الشوارع خالية من أي شخص. وكان ع. يلبس حذاء ذا نعل قاس، فكان يحدث ضجة كبيرة. فطلب اليه أن يخلع الحذاء فخلعه. وهكذا، وبعد استطلاع الهدف، افترق الرفيقان ع. وم. باتجاه المركز للحصول على السلاح، واتجه ا. م. الى منزله. وعند الوصول إلى المركز، تم الاتفاق على أن يصعد ع. اليه من الجهة الخلفية ويبقـى م.

في الأسفل لاعطاء اشارة في حال ظهور أي خطر، وذلك بسبب قربه من الحاجز الاسرائيلي. وبعد تفتيش المركز تبين انه خال من السلاح. وهكذا انتهت أول محاولة لتنفيذ عملية بسبب عدم توفر السلاح.

وكان ذلك في يوم ١٩٨٢/٩/١٧. وفي ١٨ منه، وكان م. وع. يسكنان في المنزل الذي تحدثنا عنه، كان النقاش حاداً بين الاثنين حول البحث عن وسيلة للحصول على السلاح. وتم الاتفاق على استطلاع مجموعة أهداف، حسب الأمر الذي تلقاه م. بدون معرفة ع. لأن م. كان يحاول أن يظهر أن هذه المسألة ستتم بمبادرته وبدون معرفة الحزب. وفي ذلك اليوم ظهرت أنباء المجزرة التي ارتكبها الصهاينة في مخيمي صبرا وشاتيلا. وتأثر الرفاق بهذه الأنباء، الأمر الذي دفعهم الى العمل بأقصى سرعة. فتم استطلاع الموقع الاسرائيلي الموجود في برج المر، وكان مرئياً، بشكل جيد: مجموعة آليات ودبابات وناقلات جند مدرعة كانت تقف أمام البرج. كذلك تم استطلاع الموقع الموجود عند محطة أيوب، في مدخل زقاق البلاط الغربي. وكان يوجد هناك دبابتان وناقلتا جند، وكانت توجد دبابة في زاروب الى جانب المدرسة للحماية. فتم وضع الخطة على أساس ضرب الأهداف الثلاثة في نفس الوقت، وذلك بواسطة مجموعة من ٣ رفاق وثلاث قواذف ب ٧ وسيارة، من نقطة واحدة، عند مدخل الانترانيك. ولكن طرأت مسألتان للحل: الأولى ضرورة تأمين السيارة لنقل السلاح (٣ قواذف ب ٧). والثانية ضرورة تأمين رفيق ثالث. فتوجه م. إلى ع. بالسؤال عمن يمكن أن يكون الثالث. فأجاب انه يمكن أن يكون ف. فسأله اذا كان ف. قادراً على ذلك وعن مدى انضباطيته انطلاقاً من عدم معرفته المسبقة به فأجاب بانه يمكن الوثوق به جيداً. ووعد بتأمين السيارة الى مكان يوجد فيه ٦ قواذف ب ٧. وكان ذلك أثناء وجودهم في مكان التنفيذ حسب الخطة. عندها رجعوا الى المنزل المذكور آنفاً لمناقشة التفاصيل. وتم الاتفاق على ان يموهوا وجوههم كون م. معروفاً في المنطقة، وبسبب قرب الموقع ـ الهدف من مكان الانطلاق، أي المنزل اياه. وتم الاتفاق أن يتم تنفيذ العملية في اليوم الثاني في ٩/١٩. وعندها ذهب م. الى أ. م. وعندما رجع كان متشائماً بسبب عدم تأمين السيارة لنقل القواذف. فتركز النقاش حول كيفية التمويه. فاتفق على ارتداء جوارب نسائية في الرأس، وارتداء ملابس اضافية يتم نزعها ورميها بعد التنفيذ مباشرة. وهذا كان يجري بدون علم ف. في هذه الأثناء أتى رفيق من منظمة الزيدانية فاقترح ع. مقايضة الحذاء بينه

وبين الرفيق تحت حجة ان حذاءه ضيق على رجله، فوافق الرفيق الآخر. وفي اليوم الثاني في ٩/١٩، وعند الصباح ذهب م. لمقابلة أ. وكان م. يعتبر أن المحاولات الأولى كانت نوعاً من تمرين العضلات واختبار المجموعة. وفي هذا اللقاء تم اخبار أ. من قبل م. عن المعلومات الاستطلاعية وعن الهدف فطلب اليه أ. الانتظار قليلاً لليوم التالي في ٩/٢٠. وجرى النقاش حول التفاصيل أيضاً. وأقرت العملية. ولكن طلب أ. الانتظار، وذلك بعد لقاء ثان مع م. بسبب وجود أعضاء من قيادة الحزب في نفس المنطقة. وكان ذلك بعد ظهر ٩/١٩. وعندما رجع م. اخبر ع. بالمسألة دون ذكر أ. وعند صباح يوم ٩/٢٠ أتى أ. إلى المنزل المذكور فأدخله م. إلى غرفة حتى لا يراه ع. وهنا أخبر أ. زميله م. بأن هناك قراراً بتنفيذ عملية في نفس اليوم مع ضرورة اختيار هدف آخر غير محطة أيوب، وتأجيل عملية محطة أيوب الى وقت آخر لاعطاء امكانية لأعضاء قيادة الحزب للخروج من المنطقة. ثم طلب الانتظار الى فترة الظهر لاعطاء جواب نهائي. وعند حوالي الساعة التالتة توجه م. الى بيت أ. والتقاه هناك حسب الاتفاق. وكان الجواب بأنه يجب تنفيذ عملية ولكن ليس على محطة أيوب، ولأسباب أمنية استبعدت مسألة استخدام الـ ب ٧ والكلاشن وأعطاه موعداً لاستلام قنابل يدوية عدد ٢ من شخص اسمه أبو حسن. وتم الاتفاق على تنفيذ العملية عند العشية، بعد العتمة قليلاً. فتوجه م. الى المنزل وأخبر ع. القرار. وبعد مناقشة سريعة تم الاتفاق على أن يكون الهدف الجديد الحاجز الاسرائيلي على صيدلية بسترس في محلة الصنائع. وتم اختيار هذا الهدف بسبب عدم وجود آليات (فقط ٨ ـ ١٠ جنود). وكان م. وع. قد شاهدا هذا الهدف أثناء تجوالهما في المنطقة. واتجه الاثنان مباشرة لاستلام القنابل. وفي المكان المحدد انتظرا قليلاً بسبب عدم وجود أبي حسن. وعندما أتى تكلم معه م. فأجابه ان القنابل مخبأة في حفرة تحت الأرض. وهي مكوّنة من صندوق قنابل. وإذا اضطر إلى الحفر فيجب عدم اعادة الصندوق الى المخبأ بسبب صعوبة تخبئته في النهار. ولذلك يجب أخذ كل الصندوق. وهنا لم يوافق م. على ذلك. اذ انه غير ممكن أخذ الصندوق في النهار. فتم الاتفاق على تأمين القنابل من المنزل لعلم م. ان لدى خطيبته قنبلتين كانت قد خبأتها منذ فترة طويلة. وهكذا عاد الاثنان الى المنزل، وأخذا القنابل، ولكن دون اخبار أصحاب المنزل بالأمر. وفي المنزل، وبعد مناقشة، تم الاتفاق على اشراك ف. بالعملية كحماية، وبدون سلاح، على أن تكون مهمته اعطاء اشارة عند أي طارىء،

وصعد ع. الى منزل ف. وأخبره بأنه تم اختياره للمشاركة في العملية، فأبدى ف. استعداده للتنفيذ، وهكذا اجتمع الثلاثة في المنزل، وتم شرح المهمة بشكل تفصيلي خاصة لـ ف. الذي لم يشارك مسبقاً في أية مهمة. وهكذا تم الاتفاق على الانطلاق في تمام الساعة $\frac{1}{2}$ ٧ مساءً وتنفيذ العملية في الثامنة بعد استطلاع يقوم به ع. للتأكد من وجود الهدف. وتم تحديد الاستطلاع مباشرة قبل التنفيذ حتى لا يطرأ أي أمر يؤدي الى افشال العملية. وهكذا انطلق الرفاق الثلاثة من المنزل في تمام الساعة السابعة والنصف بعد انتظار وقت قليل. وكان ع. يحمل كيس القنابل. وتم الاتجاه مباشرة الى الهدف فمرّوا من جانب مستشفى الأطباء ثم اتجهوا نزولاً باتجاه الصنائع. وهنا افترق ع. عنهم لاستطلاع الهدف فسار باتجاه طريق الصنائع ـ نزلة الكليمنصو، ثم التف من هناك باتجاه الطريق المؤدي الى شارع الحمرا، وعند الوصول الى أول شارع الحمرا صعد باتجاه الصيدلية. ومن بعيد لاحظ عدم وجود حاجز فخفق قلبه. ولكن بعد التقدم قليلاً تبين أن جنود الحاجز موجودون في المكان ومجتمعون حول بعضهم (حوالي ٨ عناصر)، البعض جلوساً، والآخرون متكئين على حائط مواجه لمكان رمي القنابل. وهو عبارة عن زاروب باتجاه الظريف يبعد حوالي ٢٠ م عن مكان الاسرائيليين. في هذا الوقت كان م. وف. ينتظران في الزاروب، وبشكل مخفي عن عناصر الحاجز. فتوجه اليهما ع. وأخبرهما بسرور عن وجود الحاجز وأشار الى مكان تواجد الجنود الاسرائيليين بدقة. وهنا طرأ أمر اذ أصرَّ ف. على أن يرمي هو قنبلة. وجرى نقاش سريع رضخ بعده ف. في النهاية. عندها قام م. وع. بفتح حلقتي الأمانة للقنبلتين وتقدما حتى أصبحا على الشارع تماماً، وعدّا: واحد ـ اثنان ـ ثلاثة، ورميا القنبلتين واتجها راكضين في طريق الانسحاب. وبعد اجتيازهما حوالي ١٥ م انفجرت القنبلتان محدثتين دوياً قوياً. فأخذا يضحكان وينظران واحدهما الى الآخر. وبعد حوالي ٢٠ م دخلا زاروباً آخر، وتوقفا عن الركض. وهنا سمعا صوت طلقتين، ثم صوت سيارات الاسعاف تتجه الى مكان العملية. وكانا قد وصلا الى قرب ملحمة الحلبي. وكان هناك الكثير من المارة وهم في حالة هرج شديد بعد سماع الانفجارين. فسألت امرأة مسرعة: ماذا يحدث؟ فأجابها ع.: شوية قواص، واتجه الإثنان الى المنزل الذي انطلقا منه، حيث كان ف. هناك، فتعانقوا جميعاً، وفرحوا بعد تنفيذ واجبهم الأول بتنفيذ عملية الصنائع. لقد كانت هذه العملية بمثابة طلب انتساب جديد الى الحزب الذي كان لهم شرف الانتماء اليه. وجلسوا

يناقشون مشروع تنفيذ عمليتهم الثانية عند محطة أيوب.

«إنه لشرف عظيم لكم أن تكونوا أنتم من أطلق اسم جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية». لقد تسلم م. هذه الجملة القصيرة على قصاصة ورق من الأمين العام للحزب بعد تنفيذ عملية الصنائع مباشرة».

. . . .

بانطلاق جبهة المقاومة، اذن، وقيامها بتلك العمليات العسكرية الشجاعة، وبانجاز تحرير بيروت من الاحتلال، وبتطور المقاومة، بعد ذلك، وتحولها الى ظاهرة وطنية شعبية جماهيرية، يكون القرار التاريخي ذاك، قرار ١٦ أيلول ١٩٨٢، قد حقق هدفاً من هدفين اثنين كانا في أساس اتخاذه: الهدف المباشر وهو إطلاق حركة للمقاومة تطارد الاحتلال وتوجه اليه الضربات وتعبىء الجماهير ضده، وتتحول الى الشكل الوحيد لتحرير الأرض دون قيد أو شرط. أما الهدف التاني، البعيد المدى، الذي كان يرمي الى اطلاق حركة ثورية عربية جديدة، تستند إلى قيام جبهة المقاومة وإلى الدور الذي تضطلع به. فقد أثبتت وقائع تلك الفترة، ومواقف بعض القوى المترددة، التي وقعت أسيرة الصعوبات الجديدة، ان الظروف لم تنضج بعد من أجل البدء بانطلاق هذه الحركة، وان نضالاً حازماً وثابتاً لا بد أن يتواصل لخلق شروط قيامها، موضوعياً وذاتياً.

5 كل القوى في المعركة

أهم ما في التطور الذي حصل، بفعل قيام جبهة المقاومة الوطنية وعملياتها في بيروت، تم تحرير بيروت، هو أن المرحلة التالية تميزت بالمزيد من انخراط القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية والسورية في عملياتها العسكرية وفي نشاطها المتعدد الأنواع، في شكل متصاعد من التطور، وبدرجات مختلفة من الاسهام كماً ونوعاً من قبل هذا الفريق أو ذاك. لم يبق طرف وطني خارج نشاط المقاومة سواء كان ذلك تحت لواء الجبهة أم كان مستقلاً عنها.

وقد عبَّر هذا الاتساع في صفوف المشاركين في العمليات العسكرية عن بداية تكوّن الحالة الجماهيرية التي جعلت المقاومة تتحول الى مقاومة شعب بكامله للاحتلال الاسرائيلي، الى حركة تحرير. ويقيناً ان هذا النوع الصامت، الصادق، غير الفئوي، الشديد التسديد، الواضح الهدف، هو الذي أسهم اسهاماً أساسياً في تكوين هذه الحالة.

هل كانت جبهة المقاومة، جبهة بالمعنى الدقيق للكلمة؟ هل كانت تجمعاً واعياً ومنظماً للقوى؟

لا، لم تكن كذلك. ولم يكن من الممكن في الظروف التي قامت فيها ومارست نشاطها، أن تكون كذلك. كانت اطاراً معنوياً لانخراط أكبر عدد ممكن من القوى في المقاومة. وبقوة مثالها جذبت إليها وإلى نشاطها الواسع ليس فقط القوى المنظمة، ليس فقط القوى السياسية المعروفة، بل أثَّرت تأثيراً بالغ العمق في حياة الجماهير، ولا سيما في وجدان الشبيبة، فتوحدت جميع المشاعر الانسانية والأخلاقية والدينية بالمواقف الوطنية الواعية في شعور واحد هو شعور الدفاع عن الذات وعن الوطن في آن. وكان واضحاً، وكان يزداد وضوحاً على الدوام، في ظل ممارسة الارهاب الاسرائيلي ضد المواطنين، وفي تشجيع قوات الاحتلال للقوى الفاشية على ممارسة تسلطها وعنصريتها واجرامها، كم هو عزيز على الانسان وطنه الكبير وبيته وأرضه، وكم هو أساسي التمسك بكل هذه المظاهر المعبرة عن الوطن. فالنقيض لذلك كان التشرد والشتات وضياع الأرض والوطن، والمأساة التي لا حلول لها.

وقد كان طبيعياً أن تكون القوى الديمقراطية، وفي مقدمتها الشيوعيون، هي القوى التي اضطلعت بمهمة الكفاح في المرحلة الأولى من انطلاق جبهة المقاومة. برز ذلك في الشكل الذي طغى على عمليات المقاومة، في تلك المرحلة، سواء من حيث تنظيم المقاومة والتسديد في الضربات أم من حيث الطابع غير الفئوي للعمليات، وغير الاستعراضي. وقد تميز الشيوعيون في هذا الموقف وظلوا إلى فترة طويلة من الزمن يقومون بالقسط الأساسي من العمليات، كماً ونوعاً، دون أن يعلنوا، بالمطلق، عن اسمهم وحتى عن أسماء شهدائهم. ولا نسوق هذا التأكيد حول موقف الشيوعيين لكي نقلل من دور القوى الوطنية والديمقراطية الأخرى. على العكس من ذلك فإن أهمية جبهة المقاومة انها تحولت خلال السنوات التلاث التي مضت على نشاطها الى الاطار الأساسي لأعمال المقاومة، فأصبحت جبهة لكل القوى، أو للأساسية منها، برغم عدم قيام شكل تنظيمي يوحد أطر العمل العسكري والسياسي بين الأطراف التي قامت بنشاطها باسم الجبهة. وهو تأكيد على صحة القرار التاريخي، من جهة، باعلان قيام الجبهة، وصحة الممارسة، شكلاً ونوعاً، من جهة أخرى.

بالاضافة إلى الحزب الشيوعي وتياره العميق الرسوخ في الارض وبين الجماهير في كفاحه خلال عشرات السنين، شاركت في اعمال المقاومة كل الاحزاب والتنظيمات الوطنية وكل التيارات الفكرية والدينية، بدرجات متفاوتة من القوة والفاعلية والتنظيم والاتساع، وفي مراحل مختلفة. «حركة أمل» التي شاركت، في البدء، في المقاومة المدنية، لم تستطع، برغم جماهيريتها في منطقة الجنوب على وجه التحديد، ان تكون مشاركتها، في الفترة الأولى، بمستوى جماهيريتها. ويعود ذلك إلى ان هذه الحركة هي جديدة. تقاليدها في التنظيم وفي الكفاح السري لم تكن قد ترسخت بعد. لقد كانت بحاجة إلى بعض الوقت من أجل اعداد نفسها للمقاومة المسلحة. وهذا ما حصل فعلاً. وقد تحولت تباعاً الى قوة أساسية في المقاومة المسلحة بفضل انخراط جماهيرها في النشاط السياسي وفي الانتفاضات الشعبية الموجهة ضد الاحتلال. وقد شاركت الاحزاب والتنظيمات الوطنية الأخرى بنشاط متفاوت، من حيث الانتظام والاتساع، في عمليات المقاومة: الحزب السوري القومي الاجتماعي ومنظمة حزب البعث العربي الاشتراكي ومنظمة العمل الشيوعي، وحزب العمل الاشتراكي، والتيارات الدينية ممثلة بحزب الله والجماعة الاسلامية وتجمع العلماء وتجمع علماء جبل عامل وتنظيمات وطنية عديدة قديمة وجديدة: التنظيم الشعبي الناصري، الاتحاد الاشتراكي - التنظيم الناصري، الاتحاد الاشتراكي العربي، شاركت جميع هذه القوى كل حسب قدرته على الاستمرارية، وإمكاناته، في ظروف الكفاح الصعبة. أما الحزب التقدمي الاشتراكي فقد كانت له ظروفه الخاصة التي أملت عليه مشاركة من نوع خاص أيضاً في النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي. فالصمود في الجبل في وجه «القوات اللبنانية»، وحمل السلاح دفاعاً عن النفس هناك، قد خلق المناخ المؤاتي لنمو عمل المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي، ووفّر الحماية الضرورية للمقاومين. واضافة إلى التسهيلات التي ظل الرّفاق في الحزب التقدمي الاشتراكي يواظبون على تقديمها للمقاومة، فقد شكلت حرب الجبل التحررية اكبر اسهام وطني لبناني في ضرب المشروع الصهيوني، في القتال ضد اسرائيل وفي تحرير منطقة واسعة من احتلالها. ولا بدّ من التوقُّف عند ظاهرة المشاركة، من قِبَل عدد من رجال الدين ومجموعات مسلحة تنضوي تحت لواء التيار الديني الاسلامي، في نشاط المقاومة، بأشكاله كافة. اهمية هذه الظاهرة التي ثمرتها حركة «امل»، بشكل واسع انها اسهمت بشكل معين في الجمع بين الشعور الديني المنتشر بين جماهير المؤمنين في منطقة الجنوب، على وجه الخصوص، وبين الشعور الوطني، في علاقة عمقت لدى ابناء هذه المنطقة الالتزام بالقضية الوطنية من حيث هي دفاع عن الارض وعن الحياة ومصادر الرزق وعن الوطن. وقد أسهم ذلك في تعميق التقاليد الوطنية والديمقراطية، تقاليد النضال الجماهيري، وأدى إلى قيام

حركات واسعة شارك فيها سكان القرى بحماس وشجاعة ضد قوات الاحتلال دون حساب للتضحيات. وأياً يكن رأينا فيما جرى من محاولات عند البعض لمصادرة المقاومة وحصرها بالتيار الاسلامي فإننا نعتبر ان ظاهرة التيار الديني في المقاومة هي ظاهرة طبيعية لعبت دوراً مهماً ينبغي وضعه في مكانه دون مبالغة سواء لجهة تعظيم شأنها أم لجهة التقليل من هذا الشأن. ولذلك لم يكن بمقدور أية محاولة من النوع الذي أشرنا اليه ان تغير من طبيعة المقاومة التي حددها ورسم تطورها القرار التاريخي بقيامها أولاً، أو ان تقلل من دور القوى الديمقراطية ذات التقاليد الراسخة في النضال، التي كانت في اساس انطلاقتها، والتي قامت بالدور الأساسي بنشاطها، في المرحلة الأولى، وظلت تحتل موقعها بجدارة حتى هذه اللحظة.

وتقضي الامانة بان نشير هنا بالذات إلى الدور الذي اضطلعت به الفصائل المختلفة للثورة الفلسطينية، كذلك بدرجات متفاوتة. وفي مراحل مختلفة. لقد شاركت الجبهة الشعبية، قبل سواها وأكثر من سواها وشاركت كذلك الجبهة الديمقراطية وحركة فتح بشقيها، الانتفاضة خصوصاً. كما شاركت جبهة النضال الشعبي والقيادة العامة، والصاعقة وجبهة التحرير الفلسطينية. ورغم ان هذه المشاركة كانت تحتل مكاناً معيناً في نشاط الجبهة العسكري، فإن القوى الوطنية الفلسطينية، الحريصة على مسيرة الكفاح من أجل التحرير والتي تربط بعمق بين هذا الهدف الوطني اللبناني والمهمات المطروحة امام الثورة الفلسطينية تميزت عن سواها في انها كانت الأكثر مشاركة في العلميات ولم تعلن، مع ذلك، عن عملياتها، ولم تقم بأي عمل من شأنه ان يظهر تمايزها عن المقاومة الوطنية اللبنانية. فاعتبرت نفسها جزءاً من جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، واعتبرت اسهامها فيها حقاً وواجباً. في حين حاولت أطراف فلسطينية أخرى ان تدّعي ما ليس لها وما لم تقم به، فصورت أن المقاومة الوطنية اللبنانية هي فعل فلسطيني في الاساس، مرتبط بها وحدها تحديداً. وهذا ما أعلنه عرفات في مناسبات عديدة وفي تصريحات، وأعلنه بعض أنصاره. علماً بأن تصريحات أخرى صدرت، في فترات مختلفة، كانت تشكك بالمطلق، بـالكفـاح المسلـح، على أرض لبنان وفلسطين، على السواء. وفي ذلك ما يشير، ليس فقط إلى ادعاء في غير محله، ولا إلى التخلي عن مواقف اساسية، ولا إلى التمسك بالاساليب التي خبرها ولفظها الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني على السواء، بل هي قد شكلت محاولة خبيثة لاثارة نوع من التعارض بين الوطنيين اللبنانيين والفلسطينيين سرعان ما جاءت الاحداث لتكشف اهدافها الحقيقة، وهي اهداف لا علاقة لها لا بالنضال الوطني الفلسطيني ولا بالنضال الوطني اللبناني.

أليس هذا الاستعراض للقوى كافياً للدلالة على ان القوى الوطنية كلها دخلت في

المعركة لتشكل بدخولها العامل الاساسي في تحول هذه المقاومـة، في مدة زمنية قصيرة، إلى حركة شعب بكامله ؟

هذا هو في الحقيقة الجوهر والاساس في هذه الظاهرة الوطنية اللبنانية العربية الفذة.

٦ العمليات العسكرية، هذا النوع من حرب التحرير الشعبية

بدأت المقاومة فعلياً، إثر الاعلان عن جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، بسلسلة لم تتوقف من العمليات ضد قوات الاحتلال في بيروت إلى ان تحررت. وكانت تلك بداية طبيعية قدمت فيها المقاومة نفسها للشعب اللبناني على انها حركة للتحرير ذات نهج ثوري جديد وأسلوب في الكفاح مختلف عن السابق. وحين خرجت قوات الاحتلال من بيروت بالشكل المعروف، كان ذلك في الواقع ايذاناً ببدء انتصار المقاومة ونهجها. نقول ذلك رغم ان القوات الاسرائيلية سلّمت بيروت العاصمة، بعد انسحابها، لا للقوى التي حررتها بل لسلطة القمع الكتائبية. غير أن تجربة هذه الأيام المعدودة من المقاومة سرعان ما انتشرت في كل المناطق المحتلة. وصار أبطال المقاومة يلاحِقون العدو المحتل في كل أماكن وجوده، يلحِقون به الضربات الموجعة ويوقِعون فيه الخسائر المادية والبشرية. وهكذا شهد الجبل والاقليم والجنوب والبقاع الغربي وراشيا، بعد بيروت، تواصلاً في العمليات العسكرية ضد قوى الاحتلال باصرار وثبات، ودون توقـف، وفي دأب متـواصـل، على تطـويـر هـذه العمليات كمّاً ونوعاً.

كانت العمليات العسكرية الشكل الجديد، في ظروف بلادنا، للكفاح المسلح من أجل تحرير الارض. وتجربة شعبنا في هذا النوع من النضال ليست جديدة. واذا كان ثمة من جديد حقاً فيها، فهو هذا المستوى المتطور في استخدام الكفاح المسلح وفي تنظيمه بشكل مقاومة نمت وتطورت داخل مناطق الاحتلال وليس خـارجهـا، وضـد القـوَى والمواقـع العسكرية تحديداً لا ضد المدنيين. مع العلم بأن الوجود الاسرائيلي في لبنان لم يكن في أية لحظة الا وجوداً عسكرياً بحتاً ولاغراض عسكرية بحتة. ولم تكن جماهير المناطق المحتلة

جميعها، ولاسيما منها منطقة الجنوب، عندما تمكن الاسرائيليون من تثبيت احتلالهم لها، بعد انتهاء حصار بيروت، في حالة تسمح بقيام تحرك شعبي يتجاوب مع المقاومة المسلحة ويحتضنها. فكان لابد للمقاومة من ان تثبت هويتها الحقيقية، في النهج وفي الممارسة، وفي شكل العلاقة مع الجماهير، وفي الثبات والاستمرار في الكفاح من أجل التوصل إلى تحقيق هذه الغاية، أي كسب ثقة الجماهير واحتضانها لها. ولم يمض وقت طويل حتى ثبت بالتجربة الحية لسكان المناطق المحتلة ان هذه المقاومة انما هي نوع جديد مختلف، غير استعراضي، غير مرتبط بمؤسسات، غير فئوي، مكلف حقاً، ولكنه ذو جدوى. الاهداف فيها محددة بوضوح لا لبس فيها، وهي التحرير أولاً وقبل كل شيء. وهكذا نشأت، بشكل تدريجي، ولكن بثبات وبتطور دائم، حالة جديدة نوعياً من العطف على المقاومة الوطنية والاحتضان لها، والاحاطة بها ومدها بالدعم والحماية. وقد كان يحصل ذلك من قِبَلِ سكان القرى والمدن دون تردد، رغم كل ما كان يرافق العمليات العسكرية من تنكيل وارهاب كانا يطالان السكان بشكل وحشي ودون تمييز. وقد نشأ، بفعل هذه الحالة الجماهيرية الجديدة التي أسست لها قوى المقاومة المسلحة، شكل آخر للنضال، يكمل الكفاح المسلح ويقويه ويعطيه مزيداً من الزخم، هو النضال الجماهيري الواسع المدى. فازداد بذلك رفد المقاومة المسلحة بقوى وعناصر جديدة على الدوام لم تقتصر مصادرها على المناطق المحتلة وحسب، بل شكلت كل المناطق اللبنانية مصدراً متواصلاً دائم العطاء لها من الوطنيين اللبنانيين الذين انخرطوا في المقاومة الوطنية اللبنانية بوحي من واجب وطني، لا تنحصر مهمة القيام به، ولا يجوز أن تنحصر، بأبناء المناطق المحتلة وحدهم. وفي وهج هذا التطور الذي شهدته المقاومة، بشكليها العسكري والجماهيري، كان يزداد على الدوام حجم القوى السياسية والبشرية المشاركة فيها، حتى أن فرقاً ومجموعات صغيرة وافراداً قد نظمت، في سياق انخراطها العفوي في المقاومة، عمليات مسلحة من نوع خاص بسيط ولكنه عميق الدلالة. وقد برزت في هذا المجال مبادرات جريئة، سواء في العمليات أو في صنع اسلحة وادوات تفجير وأشكال مقاومة، تشير إلى عمق هذا الانخراط في الحالة الجماهيرية العامة للمقاومة. وقد كان الجميع يعتبرون انفسهم، وهم في غمرة الكفاح، اعضاء في جبهة المقاومة دون ان يكون لأي منهم شكل انتماء لحزب أو لتنظيم أو لفريق أو لجماعة ممن تربطهم بجبهة المقاومة علاقة ما. فبالنسبة لهؤلاء لا يشكل الانتماء الرسمي لهذه الجبهة صيغة الانتماء الوحيدة للمقاومة. فالمقاومة في نظرهم ممارسة فعلية للكفاح بكل الامكانيات المتوفرة دون افتعال ودون ضجيج ودون ادنى مظهر من مظاهر الاستعراض.

لقد تنوعت أشكال العمليات المسلحة وتعددت، وظلت تتنوع وتتعدد، الى أن بلغت في مرحلتهاالأخيرة شكلاً متقدماً للمقاومة يمكن، بالاستناد إلى ما حققته من انجازات كبيرة، أن نعطيها صفة حرب تحرير شعبية، بمعنى ما. صحيح أننا حين أطلقنا المقاومة كنا نعلم جيداً أنها ليست أكثر من ذلك، وليس بمقدورها أن تكون أكثر من ذلك. فهي حرب أنصار تتشكل من مجموعات صغيرة، أو حتى من أفراد، مهمتها أن تلاحق العدو من خلفه ومن حوله فتضرب وتختفي وتعاود الضرب وتعاود الاختفاء. ولم يتجاوز عدد المشاركين في فرق الأنصار هذه السبعة. فالعدد الكبير لا يزيد في القدرة بمقدار ما يخلق الصعوبات أمام الفريق في نشاطه الدقيق المليء بالمخاطر. وهي تجربة في المقاومة وحرب الأنصار سبقنا إليها غيرنا من الشعوب فأثبتت، كشكل من الكفاح من أجل الحرية، صحتها. ولذلك كان من الطبيعي أن نستفيد من تجارب الآخرين وأن نحقق، في ضوء هذه التجارب، التطوير النوعي الخاص بظروف بلدنا لهذا النوع من الحرب، لهذا النوع من المقاومة.

وإذا أردنا أن نحدد بعض نماذج هذه العمليات العسكرية فإننا نستطيع أن نشير، على سبيل المثال لا الحصر، إلى النماذج الآتية:

النموذج الأول: هو العمليات التي واجه فيها مقاتلو المقاومة قوى عسكرية للمحتل وجهاً لوجه، في شكل كمائن. وهي أهم وأبرز العمليات وأكثرها جرأة وأكثرها اثباتاً لقدرة المقاومة على القيام بدورها وأكثرها نجاحاً في ايقاع الخسائر في صفوف المحتل وخلق الارتباك والبلبلة والخوف بين قواته. أحد أبرز النماذج الجريئة الفعالة لهذه العمليات كانت عملية وادي الزينة في منطقة الإقليم قرب معمل الجية الحراري. وهي العملية التي خسر فيها العدو عشرات من جنوده والعديد من آلياته. إلا أن هذه العمليات تكررت فيما بعد، في العديد من الأماكن والقرى.

النموذج الثاني: هو العمليات التي استهدفت بالتفجير، سواء بالعمليات الاستشهادية أم بوسائط فنية، مراكز تجمع آليات العدو أو مقرات حكامه العسكريين. وأبرز أمثلة عليها ما جرى أكثر من مرة ضد مركز الحاكم العسكري في صور وصيدا، ومؤسسة جبل عامل في صور، والزهراني، وزغلة في منطقة حاصبيا، والعديد غيرها من العمليات، وآخرها، وأعظمها دلالة عملية تفجير اذاعة العميل لحد في منطقة الشريط الحدودي، التي نفذها أربعة شبان تجاوزوا، بأسمائهم وبإنتماءاتهم الطائفية والمناطقية، وبانتمائهم السياسي، كل تعريف مشوه

للمقاومة، وأغنوا بوضوح، محتواها الوطني الديمقراطي اللاطائفي، وعمقوا ارتباطها الأساسي بالحركة الوطنية الديمقراطية وبأهدافها وبآفاقها.

النموذج الثالث: هو العمليات الاستشهادية التي فجّر فيها عدد من الشباب والفتيات الشجعان أنفسهم في مراكز العدو وفي أماكن تجمع أفراده وآلياته، فأعطوا بذلك مثلاً على القدرة اللاّمحدودة لشعبنا على مقاومة الاحتلال بكل الوسائل، بما في ذلك أكثرها نكراناً للذات وأروعها تضحية وسخاءً في العطاء.

النموذج الرابع: هو العمليات التي جرت على شكل قتال بين قرى بكاملها منتفضة في وجه العدو وبين قوات الاحتلال المقتحمة لهذه القرى، وأبرز الأمثلة على هذا النوع ما جرى في معركه وجبشيت أكثر من مرة وفي العديد من قرى الجنوب، حيث شارك سكان القرى، بكاملهم، نساءً ورجالاً وأطفالاً وشيوخاً، في المعركة. واستخدمت فيها كل أنواع الأسلحة، بما في ذلك الماء والزيت المغليين وكل ما في المنازل وعلى السطوح وفي الأزقة من أدوات وأشياء وحجارة.

النموذج الخامس: هو تلك العمليات المركبة التي حصلت في بعض المناطق في الجنوب والبقاع الغربي، حيث كانت تبدأ بعملية يستدرج فيها العدو فتقوم عملية ثانية وربما ثالثة، أو كانت تنفذ عدة عمليات في آنٍ واحد فيرتبك العدو، ويقع في الفخ. وبعض هذه العمليات تمكن من اسقاط مروحيات للعدو! وقد بلغ هذا النموذج من العمليات ذروته عندما تمكنت بعض القرى من تحرير رقعة من الأرض، ولو لفترة زمنية قصيرة من الاحتلال مثلما جرى في القرى السبع، في منطقة صور، التي اشتهرت بمواجهاتها الجريئة المذهلة مع قوات الاحتلال لعدة أيام.

النموذج السادس: هو ما تجسد في الأكثرية الساحقة من العمليات التي تتعدد أشكالها، من اطلاق النار ضد دورية، إلى وضع ألغام ومتفجرات في طريق دورية أخرى، إلى اطلاق قذائف من بعيد على مركز أو حاجز أو دورية، وسوى ذلك مما تعود المقاتلون على ابتداعه من وسائل المقاومة.

ولقد طرح في فترات متقدمة شعار تحويل المقاومة إلى حركة تحرير. وكان الطرح

واقعياً، غير مبالغ فيه. ولم يكن يتعارض مع الشكل الذي سلكته المقاومة، وهو الشكل الذي لا تستطيع إلا أن تعتمده في نشاطها، أي شكل حرب الأنصار. إلا أن المهم في طرح هذا الشعار إنما كان الانطلاق من الضرورة الموضوعية للارتقاء بالمقاومة إلى مرحلة أعلى، ليس فقط في أشكال كفاحها، بل كذلك في المهات العملية المطروحة أمامها. وقد كنا نحن الشيوعيين أول من طرح هذا الشعار. واستندنا في طرحنا هذا إلى أن المقاومة قد حققت تطوراً بالغ الأهمية في نشاطها العسكري والجماهيري، وأن هذا التطور أعطى نتائج هامة تجسدت في تحرير أجزاء من الأرض، الواحد تلو الآخر، في سياق عملية لا يمكن إلا أن نصفها بعملية تحرير حقيقية للأرض. واستندنا كذلك إلى أن اسرائيل تواجه أزمة في داخلها، شكل الاحتلال سبباً أساسياً في تفاقمها. ولم نكن في هذا الطرح لنغفل الصعوبات الموضوعية، وحتى الذاتية، التي كانت تواجه المقاومة داخل مناطق الاحتلال، خصوصاً، وعلى الصعيد اللبناني، بشكل عام. وهي صعوبات عمقتها شراسة الاحتلال وشراسة اجراءاته القمعية. لذلك فقد كان الهدف من طرح الشعار تعبوياً مباشراً، بالدرجة الأولى، ونضالياً بالتالي، أي الأخذ بعين الاعتبار، أننا ونحن نحقق بكفاحنا مهمة التحرير، مطلوب منا أن نعمل بكل ما لدينا من جهد لجعل هذه المقاومة المنتصرة، من الناحية الموضوعية والذاتية، تتحول إلى حركة عسكرية وسياسية للتحرير منظمة ومدروسة بدقة وبعمق خططها جميعاً التي تنظر، ليس فقط إلى الكفاح من أجل التحرير، بل كذلك إلى مرحلة ما بعد التحرير. بكلام آخر كنا نهدف إلى إحداث تغيير نوعي، بالمعنى الكامل للكلمة، ليس فقط في العمليات العسكرية بل في شكل تنظيمها وقيادتها وفي شكل الاعداد لصيغة ما بعد التحرير. وهي مهمة أثبتت الأيام التي تلت تحرير المناطق المختلفة من الاحتلال أهميتها القصوى.

وفيما يلي تفاصيل عملية وادي الزينة (آذار ١٩٨٣) يرويها المسؤول عن تنظيمها:

. . . .

« وهكذا انطلق عمل جبهة المقاومة الوطنية في الإقليم. وشهد شهر شباط (١٩٨٣) العديد من العمليات ضد قوات الاحتلال، فعمد إلى إنزال حاجز في منطقة وادي الزينة ليحد من حركة الانتقال وقطع الأوصال، فأصبح الهدف هذا

الحاجز بعد أن كمن أبطال جبهة المقاومة أكثر من مرة ولم يتوفقوا بصيد. وقد كان القرار واضحاً: ضرب عناصر القوة الاسرائيلية التي توكل لها مهمة الحاجز بعدما تبين أن الحاجز يبدأ في الساعة ٦ صباحاً ليرفع ليلاً في الساعة ٨ مساءً. قمنا بالاستطلاع. درسنا الأرض وعدد وعدة العدو. بعد ذلك عيّنا قائد العملية واستدعيناه وأطلعناه على الموقف والقرار. فلم يناقش شوقاً منه للتنفيذ. وكان أول ما قمنا به جمع السلاح المطلوب وابلاغ الرفاق ممن سيقومون بالعمل، الحضور يوم السبت (١٢ آذار ١٩٨٣) للقيام بتنفيذ مهمة ضد قوات الاحتلال. وفي يوم الجمعة تم استدعاء قائد المجموعة ومساعده ووضعت الخطة أمامهما بكل تفاصيلها من لحظة الانطلاق حتى الانتهاء والتدابير التي يجب أن تتخذ. دققنا بعض الأمور فكان كل شيء واضحاً. وقد ساعد على ذلك الرغبة الجامحة بالتنفيذ.

السيارة مؤمَّنة من القيادة المركزية. السلاح جاهز، وقد نقل إلى منطقة الانطلاق حيث تم جمع الرفاق ليشرح قائد العملية مع مساعده تفاصيل الخطة. وبعد النقاش حول بعض التفاصيل توزع الرفاق ليأخذوا قسطاً من الراحة يمكّنهم من تنفيذ المهمة. ومرّ الوقت بسرعة. الساعة الآن الثانية والنصف صباحاً. هبَّ الرفاق جميعاً ولبسوا ثيابهم وأخذوا كل ما يحتاجونه وتوجهوا إلى السيارة التي هزّ صوت محركها القرية فظن الأهالي أنها آلية اسرائيلية لأنهم لم يفكروا بأن هناك أبطالاً يخططون لضرب العدو. انطلقت السيارة متوجهة الى وادي الزينة لتمر بشحيم فمزبود وكترمايا وسبلين لتصل الخط الساحلي، حيث القوات اللبنانية، فتخترق هذه المسافة التي بدت أطول من كل المسافات الكبيرة التي قطعت، وتصل ثم تتوقف في المكان غير المحدد في الخطة، أي أقرب إلى مكان التمركز بـ ٢٠٠ متر. ويبدأ العمل على تنفيذ الخطة فيقسم قائد العملية المجموعة إلى قسمين: المجموعة الأساسية ٣ رفاق يتمركزون في بناء «لافريكات» والمجموعة الثانية ٣ رفاق مع السائق في مكان آخر، مع التأكيد على المهات فيأخذ كل رفيق مكانه ويعمد كل منهم إلى تحسين قطاع الرمي ففتحت فتحات صغيرة في البناء حيث المجموعة الأساسية وتوزعت المراقبة على العناصر باتجاه المنطقة التي ستقترب منها القوة التي ستشغل الحاجز. في هذا الوقت مرت دورية للعدو فلم يتم التعرض لها وفقاً للخطة. ولكن هذه الدورية كما عرفنا فيما بعد كانت في منطقة الدامور حيث قام رجال المقاومة الوطنية هناك بتفجير عبوة ناسفة ضد دورية اسرائيلية. وهذا ما دفع العدو إلى تعزيز قوة الحاجز خاصة أن اليوم كان يوم

أحد والسيارات كثيفة تتطلب قوة أكبر، وهذا ما حصل. ففي الساعة السادسة إلا ربعاً بدت طليعة القوة التي ستقيم الحاجز فأخذ الرفاق أماكنهم. وما أن وصلت الشاحنتان الى منطقة النيران حتى وجهت قذيفة ب ـ ٧ باتجاهها لتمر في وسط الشاحنتين وتطلق الطلقات باتجاه السائقين فتتدهور الشاحنتان إلى جانب الطريق حيث خط سكة الحديد والجنود يهرعون محاولين الاحتماء من نيران مجموعة الالهاء ولكنهم يقعون دون أن يدروا طوال فترة الاشتباكات تحت نيران المجموعة الأساسية التي بدأت بالرمايات بكل أعصاب باردة ولم تستخدم البنادق الا طلقة طلقة تقنص كل من يحاول الهرب إلى الخلف أو التقدم إلى الأمام حتى بات الجميع مطروحين على الأرض والصراخ يعلو من كل حدب وصوب وجنود جرحوا يركضون باتجاه الماء ولكن الرصاص يلاحقهم دون أن توجه أية طلقة نحو المجموعة الأساسية. في هذا الوقت قامت مجموعة الالهاء بإلقاء قنبلة م/د فلم تنفجر، فأتبعت بثانية لتصطدم بالشاحنة وتحدث حريقاً يلتهم الشاحنتين وبعد أن تهيأ للمجموعة الأولى أنها قامت بعملها انسحبت باتجاه السيارة التي أصبحت مكشوفة عند خروجها إلى الشارع العام فأداروا المحرك وتحركوا باتجاه النقطة المتفق عليها للالتقاء بالمجموعة الأساسية. وعند وصول السيارة إلى الخط العام وجه أحد الجنود المجروحين رشقة نارية من سلاحه الفردي، أصابت كل من كان في السيارة وخزان الوقود، ولكن السيارة استمرت بالاقلاع حتى مسافة ٢٠٠ م، حيث نفذت المحروقات منها. في هذا الوقت كانت المجموعة الثانية وصلت إلى مكان السيارة فأمنت نقل الرفاق الذين جرحوا وخاصة قائد العملية الذي بدا جرحه كبيراً أكثر من غيره فتم ايقاف سيارة، ونقل إلى مزبود حيث أجريت له الاسعافات الأولية ونقل بعدها إلى بعقلين. وقد تم نقل الجرحى، واسعافهم بسرعة، ثم متابعة علاجهم، فيما بعد، بمساعدة الرفاق في الحزب التقدمي الاشتراكي.

أما الرفيق الآخر فقد ظل ملقياً على الأرض وهو ينزف، إلى أن شاهده بعض الجنود الاسرائيليين فسألوه عن سبب جراحه فأجاب أنه كان ينتظر دوره في شراء الخبز من الفرن القريب، عندما أصيب بطلقة. فساعده الجنود الاسرائيليون بالانتقال عبر سيارة اسعاف تابعة للصليب الأحمر الدولي كانت تمر على الطريق الساحلي، نقلته إلى مستشفى المقاصد. هناك علمت السلطات بشأنه فوضعت حراسة عسكرية عليه. إلا أن رفاقه تمكنوا بعد معالجته، من تهريبه من المستشفى، وإبعاده

عن خطر الاعتقال اللاحق من قبل السلطات اللبنانية، مثلما حصل لسواه قبله. وظل يعالج إلى أن شفي.

تقدير الخسائر الاسرائيلية حسب ما شاهدته المجموعة ٢٢ بين قتيل وجريح. أما اسرائيل فقد اعترفت يومها بـ ٣ قتلى و٧ جرحى».

٧ انتفاضات القرى، تلك الظاهرة الفذة

الظاهرة بذاتها ليست جديدة في تاريخ النضال الوطني الديمقراطي اللبناني. بل هي، في تراث هذا النضال، جزء مهم، وأساسي، منه. كل العهود التي مرّ بها لبنان، منذ السيطرة العثمانية حتى الآن، تحفل بهذا النوع من النضال. وهي، في الواقع، قد شملت، في كل المراحل التاريخية، كل المناطق اللبنانية، دون استثناء، وبعضها، في التاريخ القديم، تحوّل إلى ثورات أو عاميات. وآخر هذه الانتفاضات التي تحولت إلى ثورة، تلك التي قامت ضد مبدأ ايزنهاور (١٩٥٨)، وتلك التي لا نزال نعيش في ظل استمرارها، الحرب الأهلية. وهي قد قامت، إما بشكل عفوي أو بشكل منظم، أحياناً ضد سلطات الإحتلال والانتداب والسيطرة الأجنبيّة، وأحياناً ضد سلطة الدولة وقمعها، وأحياناً أخرى ضد الإقطاع. ولكنها اتخذت، في الربع الأول من هذا القرن، مع تطور الحركة الوطنية، ومع ولادة حزب الطبقة العاملة، ومع التطورر الذي شهدته الحركة الثورية العربية، طابع حركة أكثر تنظيماً، وأكثر نضجاً، وأكثر وعياً. فهي إذن، كظاهرة، ليست جديدة. الجديد فيها حقاً يكمن في أربع ميزات أساسية:

الميزة الأولى هي أنّ القوى التي شاركت فيها هي تجمّع من فئات اجتماعية مختلفة ومن قوى سياسية متعدّدة. وهي قد شملت، في معظم الأحيان، سكان القرية المعينة بكاملهم.

الميزة الثانية هي أنها استنفرت كل الإمكانات وكل الطاقات والمشاعر، بما في ذلك غريزة الدفاع عن البقاء. كما استخدمت المناسبات والأماكن الدينيّة كعنصر من عناصر التحريك والتجميع من أجل أوسع وأعمق شكل للإنخراط في الانتفاضة.

الميزة الثالثة هي أن مشاركة رجال الدين في العديد منها أو في تفجيرها، وفي قيادتها، في ظروف معينة، إنما لعبت، في شكل معين، دور التنظيم الواعي، في ظروف أخرى، الذي اضطلعت، وتضطلع به، القوى الديموقراطية.

الميزة الرابعة هي أنها تحوّلت إلى ظاهرة تكرر حصولها، بكثافة وبصورة متواصلة، في العشرات من القرى، وأحياناً كثيرة في عدة قرى، في آنٍ واحد.

وإذا كان قد طغى في فترات معينة الطابع الديني على هذه الإنتفاضات، في منطقة الجنوب، فقد طغى عليها، في المناطق الأخرى، بشكل حاسم، الطابع الوطني الديموقراطي. وقد لعب ذلك، في كلتا الحالتين، دوراً كبيراً في جذب الجماهير إليها، وفي إزالة حالة الخوف من القمع والإرهاب اللذين كانت ترد بها قوات الاحتلال على مثل هذه الانتفاضات. غيرَ أنّ هذه الانتفاضات جميعها إنما كانت ميداناً حقيقياً لمشاركة جميع الوطنيين فيها، دون استثناء، أولئك الذين شكلوا، بالإنتماء إلى قراهم وإلى الحالة الجماهيرية المعينة فيها، جزءاً أساسياً من الانتفاضة. فقد أضافوا إليها، بفعل وجودهم الطبيعي وغير المفتعل في قلبها، بدرجات مختلفة من الوعي والتنظيم، في سلوكهم العملي وفي شكل ممارستهم للنشاط السياسي فيها، ضمن ظروفها الخاصة، عناصر أغنتها وعمقت ارتباطها بالهدف السياسي المحدد، مقاومة المحتل وتحرير الأرض منه، والانتصار عليه.

وتنبغي الإشارة، هنا، من أجل الأمانة التاريخية، إلى أن الانتفاضات الأولى، وكانت عفوية، جرت خلال فترة الاجتياح، وخلال حصار بيروت، في شهري آب وأيلول. ففي ٢٢ آب تظاهر أهالي السكسكية ضد القوات الإسرائيلية وميليشيات سعد حداد وطالبوا باقفال مخفر الميليشيات، وحصل اصطدام استولى خلاله المتظاهرون على المخفر وجردوا عناصره من سلاحهم. وفي ٢ أيلول اعتصمت بلدة راشيا الوادي لمنع الاسرائيليين من احتلال السراي، وسارت تظاهرات في قرى عين قانا وجباع وأنصار ضد ممارسات «الحرس الوطني». وفي ١٤ أيلول تصدت بلدة ميمس فيمنطقة حاصبيا لدورية اسرائيلية حاولت انزال صورة القائد الشهيد كمال جنبلاط، وسارت مظاهرة حاشدة في شوارع البلدة هددت بالاعتصام المفتوح في حال عدم الافراج عن رئيس البلدية الذي اعتقلته القوات الاسرائيلية خلال الاشتباك الذي حصل معها.

ولم تكد تبدأ جبهة المقاومة نشاطها العسكري، وتعلن عن عملياتها في بيروت وفي الجبل

وفي المناطق الأخرى حتى انطلقت حركة انتفاضات واسعة، أكثر تنظيماً، وأكثر جماهيريـة، شملت كل مناطق الاحتلال، والعديد العديد من مدنها وقراها. فكانت مظاهرات صيدا والغازية وراشيا الوادي، وبيصور، ثم انتفاضة برجا التي قادتها القوى الديموقراطية، وفي مقدمتها الحزب الشيوعي، والتي جرت في ١٧ آذار ١٩٨٣، تميزت، باتساعها وشمولها كل أهل البلدة، وتميزت بتنظيمها وبشعاراتها الواضحة، كما تميزت، أخيراً، بأنها نجحت في الافراج عن المعتقلين الذين بلغوا المئات، وفرضت التراجع على القوات الإسرائيلية.

وقد شكلت انتفاضة برجا بداية عهد جديد في الانتفاضات. فكانت انتفاضة جبشيت التي جرت في اليوم التالي لانتفاضة برجا واتسع نطاقها ليشمل مدينة النبطية، وقرى أخرى. في انتفاضة جبشيت برز الدور الواضح للشعارات الدينية في تعبئة الجماهير، وبرز دور خاص لرجال الدين الذين كان أولهم في تقديم المثل، في نضاله وفي استشهاده، الشيخ الشهيد راغب حرب. وفي تلك الفترة جرت انتفاضات ومظاهرات واضرابات، استمرت طوال عام ١٩٨٣، وتوزعت في كل المناطق. انطلقت من صور، في اجتماع ومظاهرة واعتصام ومواجهة مع قوات الاحتلال، بمناسبة ذكرى الإمام علي، وفي القرعون، مظاهرة ضد اعتقال العشرات من أبناء البلدة. وجرى في ٦ حزيران ١٩٨٣، اضراب بمناسبة الذكرى الأولى للاجتياح، شمل كل منطقة الجنوب. ثم توالت الانتفاضات في دير قانون النهر في ١١ من الشهر نفسه، ضد حصار اسرائيل الذي استمر سبعة أيام في شكل، مواجهة مع الأهالي، وفي عربصاليم، وكفرصير، وفي كفرملكي رداً على اعتقال عضو قيادة في حركة أمل، جرت مواجهة واضراب، انضمت إليه مدن الجنوب وقراه، وفي قرى البيسارية، باريش، العباسية، وفي النبطية، خلال الاحتفال بذكرى عاشوراء، جرت مواجهة بين ألوف المحتفلين بالمناسبة وبين القوات الاسرائيلية، إثر عملية قامت بها مجموعة من جبهة المقاومة، وفي الصرفند وتفاحتا، وفي المروانية وزفتا ودير قانون، وإضراب عام في الجنوب في ٨ تشرين الثاني ١٩٨٣، رداً على اقفال القوات الإسرائيلية معابر نهر الأولي، واعتصام في صيدا. ثم توالت المواجهات والصدامات الجماهيرية والانتفاضات طيلة عام ١٩٨٤، والنصف الأول من عام ١٩٨٥، فشملت قرى ومدناً عديدة في كفرملكي، وعدلون، والعباسية، وإضراب عام في الجنوب في ١٧ كانون الثاني ١٩٨٤، ومواجهة في الحلوسية، وانتفاضة في جبشيت رداً على اغتيال الشيخ راغب حرب، وانتفاضة كبيرة متميزة في معركة، تكررت وكانت رائعة في تضامن الأهالي فيها وفي استخدام كل الأدوات في المواجهة مع قوات الاحتلال، وانتفاضة عربصاليم، وأنصار، وقانا والقليلة، ودير كيفا،

وقلاويه، ودبعال، والقرعون، وجب جنين، ومعركة، وجبشيت، والبازورية، والنميرية، ويحمر، والريحان، ولبـايـا، وإضراب عـام في صيـدا في ٢١ نيسـان ١٩٨٤، والريحان، وكوثرية السياد، وحولا، والبيسارية، ويانوح، ومعركة، وكفرشوبا، والبازورية، وبرج رحال، ومعركة، وبدياس، والعباسية، ومعركة، وعـدلـون، ومعـركـة، وعين الحلـوة، وسحمر، ويحمر الخ...

ويبدو واضحاً من هذا العدد الكبير من القرى، ومن تعدد مناطق الانتفاضات، وشمولها كل مناطق الاحتلال، ان هذه الانتفاضات ليست حكراً على طائفة واحدة، ولا على منطقة واحدة، بل هي تشمل كل المناطق والطوائف والاتجاهات والتيارات السياسية والفكرية، وأنها عميقة الارتباط بالتقاليد الثورية للنضال الوطني الديمقراطي الذي يمتد، في الزمان، إلى عشرات السنين.

إلا أن الانتفاضات التي تحولت إلى ظاهرة جماهيرية حقيقية عجز الاحتلال عن منع تكرارها، وعن قهرها، فترتبط في العام الثاني لانطلاقة المقاومة، بأسماء قرى عديدة أبرزها معركة التي توحدت فيها القوى بشكل نموذجي واستخدم فيها الأهالي في مقاومة قوات الاحتلال كل ما ملكت أيديهم من وسائل. فكل شيء صار في يد الأهالي سلاحاً ماضياً ضد الاحتلال.

سيكون من الصعب استخلاص كل الاستنتاجات وكل الدروس مما قدمته وتقدمه هذه الانتفاضات الشعبية في وجه الاحتلال. وبالطبع فسوف تترتب على هذه الانتفاضات نتائج سياسية واجتماعية تختلف وضوحاً بين منطقة وأخرى كما تختلف درجة إسهامها اللاحق بعملية التغيير الثوري. ولم نكن نستبعد أن تؤدي، في بعض الحالات، إلى عكس ما هدفت إليه أو ما كان يُرتجى منها في مسألة الربط بين النضال من أجل التحرير والنضال من أجل التغيير. إلا أن الأساسي، من الناحية الموضوعية، لقيام هذه الانتفاضات هو أنها، **أولاً** جاءت نتيجة لتطوّر العمليات العسكرية التي قام بها أبطال جبهة المقاومة، وأنها، **ثانياً** قد خلقت، بفعل قيامها، شروطاً جديدة لتطوّر هذه العمليات العسكرية كمّاً ونوعاً، وأنها، **ثالثاً** شكلت، من حيث كونها موجهة ضد الإحتلال، عنصر ربط غير مرئي، ربّما، في بعض الأحيان، ولكنه عميق، بين عمليتي التحرير والتغيير.

من هنا الدلالة الكبرى والأهميّة الاستثنائية لهذه الظاهرة التي نعتبرها بحق، لكل الأسباب التي أشرنا إليها، ظاهرة فذّة في كفاحنا الوطني الثوري في لبنان وفي الوطن العربي.

٨ بطولات في الكفاح والاستشهاد

لم يكن من الممكن للمقاومة أن تكبر، وأن تصبح ظاهرة وطنية وشعبية، وأن تحدث تأثيرها العميق في تطور الأحداث، وأن تنجز تحرير القسم الأكبر من الأرض، لو لم يكن مقاتلوها مناضلين من نوع خاص، ثواراً من نوع جديد، لو لم يكونوا أبطالاً حقيقيين.

عندما انخرط الشبان والفتيات، بأعداد كبيرة، في صفوف جبهة المقاومة، في أيام انطلاقتها الأولى، ثم في الفترات اللاحقة، كانوا يدركون جيداً أنهم يواجهون مهمة صعبة، قال عنها البعض، في ذلك الحين، من موقع اليأس والاستسلام للواقع، بأنها مهمة مستحيلة، وأن التصدي لتنفيذها هو ضرب من المغامرة!

لم يتراجع هؤلاء المقاومون الشجعان، ولم يترددوا، أمام الصعوبات، وكانت جمة، وكانت كبيرة. على العكس من ذلك، ذهبوا في الرحلة إلى آخرها، وتحدوا المستحيل. بالقليل القليل من الامكانات اجتازوا الصعوبات كلها. لم يجدوا السلاح ولا أدوات المقاومة الأخرى إلا بصعوبة. فكان عليهم أن يبدعوا ويبادروا، وأن يخلقوا لحربهم الصعبة ما هي بحاجة إليه من أدوات قتال وتسلل واقتحام وتفجير، في هدف واحد واضح لا لبس فيه، هو ضرب العدو.

ذهبوا بإقدام. لا حدود لايمانهم بالقضية التي من أجلها يقاتلون. أما الثقة بالنصر فقد عمقتها تجارب كفاحهم خلال سنوات الحرب الأهلية، وفي التصدي للاجتياح، وفي الصمود العظيم داخل أسوار بيروت المحاصرة على امتداد ثمانين يوماً. كانوا يعرفون أن انتصارهم في المعركة هو انتصار لحريتهم وحرية أهلهم ورفاقهم وشعبهم، وانتصار لمستقبل الوطن الذي أرادوه، دائماً، وناضلوا من أجل أن يكون، بحق، وطناً لأبنائه جميعاً يعيشون فيه بحرية وكرامة ومساواة وعدالة، وطن عربي سيد، مستقل، تزدهر في ربوعه الديمقراطية، وتنفتح أمامه آفاق واسعة للتطور، باتجاه التقدم الاجتماعي والسلم والديمقراطية.

قاموا بأعمال بطولية لا حدود للشجاعة فيها. نفذوا العديد العديد من العمليات العسكرية، حتى صارت هذه العمليات بعددها ونوعها حرباً حقيقية للتحرير. اندمجوا

بجماهير شعبهم فكانوا موضع الاحتضان والعناية والاهتمام والتقدير والدعم والرفد الدائم بالقوى وبالإمكانات.

بعضهم وقع في الأسر. ولكن الأسر لم يوقف عنده المسيرة. فلا التعذيب عطل الايمان بالقضية، ولا طول زمان الأسر في المعتقلات الفاشية أضعف الثقة. ظلوا وهم قيد الأسر والاعتقال، وحتى داخل الزنزانات الضيقة، وفي قلب العتمة، يقاومون جلاديهم، ويعلنون بحزم استمرار الحرب، بما ملكت أيديهم، ضد العدو المحتل.

بعضهم وقع شهيداً. وكل واحد منهم كان يعرف أنه مهيأ لأن يكون شهيداً، أثناء قيامه بعملية من العمليات، أو تحت التعذيب، أو خلال المقاومة في المعتقل، أو في مكان اختبائه، وهو يعد لعملية، أو في مظاهرة، أو في انتفاضة رائعة من انتفاضات المدن والقرى، أو سوى ذلك من أشكال النضال، التي كان يمارسها، وأنواع المهمات المكلف بتنفيذها.

هؤلاء الأبطال الذين أعطوا كل ما يملكون، أعز ما يملكون، في سبيل الحرية لشعبهم وبلادهم، هم ثروة كبيرة لا تثمن. إنهم ينتمون إلى جبهة المقاومة الوطنية، إلى أحزابها وتنظيماتها واتجاهاتها وتياراتها العديدة. ولكنهم ينتمون، في الحقيقة، إلى تراث كفاحنا الوطني الثوري العظيم الذي يمتد في التاريخ عشرات السنين، ويغتني، ويتطور، ويتعمق، بهذا العطاء المتواصل الذي يقدمه شعبنا بسخاء.

ولا نستطيع، ونحن نقف عند هذا النوع من العطاء العظيم، إلا أن نتذكر أبطالاً ابتدعوا في الكفاح وفي المقاومة طريقة جديدة، نادرة في مثالها، ابتدعوا العمليات الاستشهادية. إنها ذروة العطاء وذروة التضحية. أثبت هذا النفر العزيز من أبطالنا في اقتحام صعوباتها، أن كل شيء ممكن، المستحيل ممكن، في معركة الدفاع عن الأرض والشعب والوطن، في معركة الدفاع عن الحرية. إن الأهمية الكبرى والأساسية لهذه العمليات الاستشهادية تكمن في أن الذين قاموا بها، رغم أنهم كانوا يعرفون أنهم ذاهبون إلى الاستشهاد، كانوا شديدي الحب للحياة، شديدي الارتباط بالمهمة التي كانوا يدركون جيداً أن الانتصار في انجازها لا بد أن يؤمن لشعبهم مزيداً من الشروط لحياة أفضل. وتكمن الأهمية في هذه العمليات، أيضاً، في أن أبطالها شبان طيبون، مجلون في نشاطهم، أدوا مهمتهم التي اختاروها بوعي كبير وبمسؤولية رفيعة، وبتفان نادر المثال. وعملهم البطولي هذا شكل، في مرحلة متقدمة في المقاومة، أحد أشكال التعبير الفذة عن مستوى التقدم فيها.

ولذلك، فعندما تنتصر غداً قضية شعبنا في تحرير الأرض من الاحتلال الاسرائيلي، ومن الفاشية ويتحقق حلم أجيالنا بإنجاز هذه المهمة الوطنية الثورية الكبرى، وترتفع راية الحرية والديمقراطية والسلم والتقدم فوق ربوع الوطن الموحد كله، سنقول، باعتزاز كبير، أن هذه الانتصارات كلها إنما صنعها أبطالنا المقاومون الشجعان وفي الطليعة منهم هذه القافلة العظيمة من شهداء الوطن.

٩ معتقل أنصار: مهرجان المقاومة من وراء القضبان

معتقل أنصار أصبح الرمز، ولكنه لم يكن المعتقل الوحيد. فيه جرى الحشد الأكبر للمعتقلين، وفيه أيضاً جرت أحداث كبيرة ارتبطت باسمه وباسم الذين كانوا فيه قيد الاعتقال.

معتقل أنصار ظل الرمز، لأنه كان، في آن معاً، نموذجاً صارخاً للارهاب الاسرائيلي وللعنصرية الاسرائيلية، ونموذجاً رائعاً لمقاومة هذا الارهاب وهذه العنصرية. فيه تجمعت حشود من الوطنيين اللبنانيين والفلسطينيين بلغت الألوف. ومعظم هؤلاء جاء إلى المعتقل في غمرة نشاطه ضد الاحتلال، سواء في عمليات عسكرية، أم في نضال جماهيري، أم في عمل سياسي، أم خلال الإعداد لعمل تنظيمي، اعداداً للمواجهة مع المحتل وقواته. كانوا جميعهم أسرة واحدة لا تفرقهم في المعاناة هوية من أي نوع، مثلما لم تفرقهم في الكفاح فروقات أو اختلافات. كانوا لبنانيين وفلسطينيين يواجهون معاً شراسة العدو المحتل لأرض شعبيهما ويواجهون المصير المشترك والارتباط بالقضية المشتركة. ظل يفرج عن العديد منهم ويؤتى بالقادمين الجدد طيلة فترة الاحتلال. ولم تحصل عملية افراج الا بالنضال داخل المعتقل أو خارجه. وكل المحاولات التي جرت للتقليل من هذا النضال في الافراج عن المعتقلين لم تنجح وفضحتها الأيام.

كان الذهاب إلى معتقل أنصار والمعتقلات الأخرى المرحلة الأخيرة في عملية اعتقال طويلة متعددة المراحل. كان يصل بعدها المعتقل إلى «أنصار» أو سواه من المعتقلات أشلاء محطمة.

ولكنه سرعان ما كان يجد نفسه في عالم جديد من الكفاح والمقاومة. وأول ما يلفت

النظر ويستحق الاهتمام في هذه الرحلة وفي التجربة التي تكدست، هو التنظيم. فقد كان الاهتمام عند المعتقلين بتنظيم أنفسهم ضرورة، كان يستحيل عليهم دونها خـوض المعـركـة الصعبة الناجحة التي جعلت معتقل أنصار قلعة من قلاع المقاومة، وحولته إلى مهرجان حقيقي للمقاومة، من وراء القضبان. خمسة نماذج أساسية تميّز أنواع المقاومة وأشكال النشاط داخل المعتقل:

النموذج الأول هو ما تجسد في أعمال الاحتجاج ضد ظروف الاعتقال الصعبة.

النموذج الثاني هو ما عبر عنه المعتقلون بتنظيم احتفالات عديدة في مناسبات سياسية وحزبية ودينية شارك فيها الجميع في مظهر موحد للمقاومة ضد الاحتلال.

النموذج الثالث هو ما بـرز في المحـاولات المتعـددة لتنظيم الفـرار مـن المعتقـل عبر عمليات حفر في الداخل بواسطة أدوات المطبخ، ولفترة طويلة من الزمن.

النموذج الرابع هو ما عبر عنه إصدار جرائد حائط ساهم في تحريرها العديد من المعتقلين ذوي الكفاءات الأدبية والفنية. ويظل اصدار جريدة «النداء» في عدة أعداد منها نموذجاً عميق الدلالة.

النموذج الخامس هو ذلك الاثر الفني الجميل المتعدد الأشكال الذي عبرت عنه تلك النماذج من الأشغال اليدوية الغنية بالصور والأفكار والتي شاهدها شعبنا في المعارض العديدة التي نظمت لهذه الغاية.

هذه النماذج الخمسة ستظل على مدى الزمن ترمز إلى هذا الشكل الرائع من المقاومة وأعمال العصيان المشتركة وحركات الاحتجاج والاضراب والتظاهر والاعتصام، فضلاً عن الاحتفالات والكتابة والأعمال اليدوية. وقد وصلت أصداء هذه النماذج إلى لبنان كلهُ وإلى العالم. وكان لتجمع معتقلي أنصار، ولأنصار جبهة المقاومة، وللعديد من الهيئات اللبنانية وأهمها تجمع الهيئات الثقافية والاعلامية، والمجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وللهيئات العربية والعالمية، الدور الأساسي في ذلك. ولم يكن بمقدور أسلحة الفتك التي استخدمها المحتل ولا أساليب ارهابه المختلفة أن تحول دون قيام هذه المقاومة وتطور أشكالها. إنها غنية بمعانيها

ودلالاتها لأنها مقاومة من وراء القضبان، لأنها مهرجان حقيقي للمقاومة.

وفيما يلي رواية عن الاعتقال وصنوف التعذيب والارهاب التي كان يلاقيها المعتقلون، وكذلك أشكال المقاومة الرائعة التي واجه بها المعتقلون جلاديهم، كتبها أحد رواد معتقل أنصار الأوائل، الدكتور نصر قصير، عضو تجمع معتقلي انصار:

. . . .

« كانت عملية كسر الإرادة في المعتقلات الإسرائيلية تبدأ منذ اللحظة الأولى للاعتقال وتتواصل في مراحل تصاعدية:

المرحلة الأولى ـ التعذيب الميداني، حيث يجري نقل المعتقلين جماعياً أو إفرادياً بواسطة ضباط المخابرات الاسرائيلية وعملائهم بعد مرحلة من التعذيب الميداني تبدأ مع مهاجمة القرى والمدن وعمليات التفتيش والتمشيط ومن ثم اهانة المعتقلين وضربهم وصلبهم على الجدران أو في الساحات العامة وعلى الشواطىء وفي المدارس واطلاق الرصاص ارهاباً والقيام بانزال أقسى أنـواع الضرب والتعـذيـب واطلاق الرصاص على كل من تصادفه بطريقها وقد أدى ذلك إلى استشهاد عشرات المواطنين.

المرحلة الثانية ـ يقاد المعتقل إلى المعتقلات والزنازين حيث حولت المعسكرات إلى زنازين طول الواحدة منها متر وعرضها نصف متر أو يقاد المعتقل إلى أحد سجون المخابرات الموزعة على امتداد الجنوب اللبناني حيث يتعرض للضرب ولأقسى وسائل التعذيب الكهربائي ويقوم أفراد المخابرات الاسرائيلية بنقل المعتقل للتحقيق معه في ساعات متأخرة من الليل حتى لا يكون لديه مجال لاسترداد أنفاسه. وبين محاولات الترغيب والترهيب يحاولون انتزاع اعترافات منه.

المرحلة الثالثة ـ حرمان المعتقل من النوم وابقاء النور مضاء ٢٤ ساعة، ويقوم السجانون الاسرائيليون بالقاء القنابل الصوتية.

المرحلة الرابعة ـ ينقل المعتقل إلى احدى الحفر القريبة من زنزانته وهناك يوهم بأنه سوف يدفن حياً.

المرحلة الخامسة ـ وهي نفسية، يحاول فيها السجانون التعرف على نفسية المعتقل ونقاط ضعفه من خلال مراقبة ودراسة تحركاته.

المرحلة السادسة ـ ينقل المعتقل معصوب العينين ومقيد اليدين من معتقل الى آخر لممارسة عمليات التعذيب النفسي عليه، ثم يعطى المعتقل رقماً بدلاً من اسمه وينقل إلى معسكر «أنصار» المحطة الأخيرة.

ويعتبر معتقل «أنصار» من أكبر المعتقلات التي أقامها الغزاة على الأراضي اللبنانية المحتلة ومارست فيها قوات الاحتلال أبشع أساليب التعذيب الجسدي والنفسي بحق المعتقلين ضاربة عرض الحائط: بكل الاتفاقات والمواثيق والأعراف الدولية والانسانية.

فقد سيجت إسرائيل مساحات واسعة من الأراضي بالأسلاك الشائكة، وأقامت خلفها السواتر الترابية وأبراج المراقبة والتحصينات على غرار المعسكرات في داخل الأراضي المحتلة وقسمت المعتقل إلى عشرين معسكراً، وأقامت بين هذه المعسكرات طرقاً ترابية لمرور الآليات ومخازن التموين وخزانات المياه وغرفة عمليات القيادة العسكرية والمخابراتية. ومعسكر التعذيب «الجورة» خارج المعتقل. وعلى امتداد الساتر الترابي والتلال المجاورة نصبت أبراج المراقبة المجهزة بالأضواء الكاشفة.

إن التقسيم الهندسي للمعسكرات يتطابق مع معسكر الاعتقال «أوشفيتز» الذي أنشأته القوات الألمانية النازية حين احتلت بولندا في الحرب العالمية الثانية.

بدأ المعتقل باستقبال المعتقلين عملياً في أوائل تموز ١٩٨٢ رغم أن عمليات التسييج لم تتوقف أبداً وكان ينقل إليه وعلى شكل دفعات، لا تتعدى الواحدة منها الـ ٥٠٠ معتقل، المعتقلون الذين اعتقلتهم اسرائيل أثناء الغزو واحتجزتهم مؤقتاً في سجون داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة هذا إلى الدفعات اليومية ممن أنهي التحقيق معهم في مراكز المخابرات الاسرائيلية الذين كانت قوات العدو الصهيوني تنقلهم يومياً من القرى والمدن الجنوبية والجبل والشوف وبيروت والبقاع الغربي. وقد تراوح عدد المعتقلين ما بين ٩ و١٠ آلاف معتقل في الأشهر الأولى من اللبنانيين والفلسطينيين وقد استمرت عمليات نقل المعتقلين من داخل الأراضي المحتلة إلى

معسكر أنصار طوال أشهر تموز وآب وأيلول ٨٢. وفي كانون الأول ١٩٨٢ افتتحت القوات الاسرائيلية معسكرات جديدة من رقم ٢١ وحتى ٣٠.

وفي شهر آب ٨٣ نقلت المعسكرات الصيفية كلها إلى مزرعة ذمول (وادي جهنم) وذلك بعد حرق المخيم من قبل المعتقلين في واحدة من أولى انتفاضاتهم المتعددة.

أما بالنسبة لأعمار الأسرى فقد تراوحت بين ١٣ و٧٣ عاماً. وقد كان بين المعتقلين حوالى ١٢٠٠ مريض حسب احصائيات الصليب الأحمر الدولي بينهم عدد كبير من المعاقين والمختلين عقلياً وأصحاب العاهات المزمنة. لقد عبَّدت قوات الاحتلال الاسرائيلي أرض المعسكرات في أنصار « ٢ » أي المرحلة بعد عملية الافراج التي تمت في ٢٤ - ١١ - ١٩٨٣. وحفرت خنادق عميقة حول كل معسكر وأقامت جدراناً من الأسمنت تحت الأرض وذلك في محاولة لتفادي عمليات الفرار. ووضع المعتقلون في المعسكرات البعيدة عن الوادي لمنعهم من التفكير بحفر الانفاق لطول المسافة الفاصلة. وقد حصّنت المعسكرات بجدران كثيفة من الأسلاك وسميكة. ويحيط بكل معسكر أربعة أبراج من الحراسة. وقد جعلت القوات الإسرائيلية الغازية الانارة الليلية قوية للغاية لتحول ليل أنصار إلى نهار حيث يصعب التحرك بدون ملاحظة الحراس. وإضافة إلى ذلك رسم العدو خطاً أبيض حول الأسلاك داخل المعسكرات ثم فرض عدم لمسه أو الاقتراب منه والوقوف عليه ولكن هذا الخط أصبح طعماً لممارسة قوات العدو ساديتهم باطلاق النار من قبل القناصة المزودين ببنادق ذات منظار وكاتم للصوت يتربصون بالمعتقلين للايقاع بهم.

لقد عانى الأسرى من أمراض عدة بسبب قلة المياه وسوء التغذية والوضع النفسي وسوء العناية الصحية وإهمال الطب الوقائي وانتشرت أمراض « كالجرب والسل والتيفوئيد والديزنطاريا » وغيرها.

أما الأمراض الناتجة عن الارهاب والتعذيب الجسدي والنفسي فكانت عديدة ويومية كنوبات الصرع والهستيريا.

كثيراً ما كنت ترى في المعتقل الأب والأولاد والأحفاد اقتيدوا إلى الأسر جميعهم. كما أنها كثيرة العائلات التي اعتقلت بكاملها. أما العدو فقد ابتدع أنواعاً وأساليب جديدة للاعتقال التعسفي وذلك بعد أن انتفض كل الجنوب والبقاع الغربي وراشيا بقراه ومدنه في وجه الاحتلال حيث بات يعتقل شباب بلدة وشيوخها

ونساءها بكاملهم كما جرى في العديد من القرى « دير قانون النهر ـ جبشيت ـ طورا ـ برج رحال ـ معركة ـ الزرارية ـ حولا ـ عربصاليم وغيرها).

هكذا تغيرت الأوجه في أنصار ٢ ـ ولكن أساليب اسرائيل الإجرامية استمرت. وسنقوم بعرض لأساليب التعذيب التي مورست بحق معتقلينا.

إن القوات الإسرائيلية تمارس ضد شعبنا في المعتقلات وفي الأراضي المحتلة أساليب النازية البغيضة في التعذيب والقتل والنسف والتجويع والحصار وتتمادى في انتهاك حقوق الانسان دون حسيب أو رقيب.

ـ التعذيب الجسدي:

١ ـ استعمال الكهرباء في الأماكن التالية: أصابع اليدين، الاذنين، اللسان، أصابع القدمين، الاعضاء التناسلية. ويلجأ الاسرائيليون إلى صب الماء على جسد المعتقل قبل المباشرة بلسعه بالتيار الكهربائي.

٢ ـ الضرب المبرح بواسطة العصي والمطاط والقبضات وبأعقاب البنادق والضرب بالأرجل خصوصاً على الأماكن الحساسة في الجسد وضرب الرأس بالحائط حتى النزف وطرح المعتقل أرضاً والوقوف عليه.

٣ ـ نتف شعر اللحية.

٤ ـ عصب العينين وتقييد اليدين إلى الخلف بحبال متينة أو بالكلبشات أو ربط اليدين فوق الكتفين وعصب العينين بقطعة قماش سميكة تربط بأحكام حول الأنف ويلف فوق العصبة قطعة من البلاستيك.

٥ ـ الماء البارد ـ يوضع الأسير في الحمام. ويصب الماء البارد فوق رأسه لفترة تزيد على الـ ٣٠ دقيقة وبعدها تبدأ عملية الكهربة وبعد الانتهاء من هذه العملية يمرغ وجه الأسير بالأوساخ.

٦ ـ وضع الكيس في رأس المعتقل وتعريضه للشمس الحارقة لفترة أيام واجباره على الجلوس على الحصى والحجارة وتعريضه للبرد القارس خلال الليل.

٧ ـ منع المعتقل من قضاء حاجته وتأمين الماء خاضع لمزاجية الحارس.

٨ ـ ربط المعتقل خارج الزنزانة إلى عامود أو إلى حديد النافذة لمدة يوم أو أكثر في الطقس البارد وصلبه تحت أشعة الشمس الحارقة.

٩ ـ منع المعتقل من النوم بوسائل عديدة منها رشه بالمياه أو ضربه بالحجارة والمناداة عليه دائماً أو في حال السماح له بالنوم على الحجارة والحصى يتعرض للازعاج مرات عديدة أثناء الليل.

١٠ ـ استغلال مرض المعتقل بعرض الدواء عليه مقابل التعامل.

١١ ـ استخدام قوات الاحتلال الاسرائيلي للغازات السامة داخل المعتقل لقمع الانتفاضات (كما حصل خلال شهر كانون الثاني ١٩٨٤ في معسكر ٢٠) ـ وكذلك الغازات المهيجة «سي ـ سي ـ ١» و«سي ـ سي ـ ٢» استخدمت ٣ مرات وكذلك غازات الأعصاب. والغازات السيكولوجية لشل القدرة التي استخدمت في معسكر ـ ٣٠ ـ ٧ ـ ٢٠ في ١ حزيران ١٩٨٣. والغازات الخانقة في «معسكر ٨» الصيفي بعد عملية الفرار في النفق.

عندما استبدلت اسرائيل حراس الحدود بوحدات من لواء غولاني في محاولة للسيطرة على المعسكر، أبقي المعتقلون ٢٦ ساعة بدون ماء ولا طعام ولا حركة تحت الشمس وفي البرد القارس ليلاً. وهُدِّدَ المعتقلون بالكلاب البوليسية وجرى رش المعتقلين بغاز الأعصاب الذي يسبب الدوار والتقيؤ والاغماء.

١٢ ـ في الطريق إلى المعتقلات الاسرائيلية يعمل جنود الاحتلال لايقاف أوتوبيسات المعتقلين في المستعمرات الاسرائيلية ويطلبون من المارة اشفاء غليلهم ضرباً واهانة للمعتقلين المكبلين داخل الأوتوبيسات.

١٣ ـ «استقبال حافل» بالهراوات والعصي للمعتقلين أثناء انزالهم من الأوتوبيسات إلى معسكرات التحقيق في داخل الأراضي المحتلة.

١٤ ـ خلع ثياب المعتقلين وتعريتهم ورشهم بمبيدات الحشرات بعد حرق ثيابهم.

١٥ ـ وضع العديد من المعتقلين في زنزانات نثرت في أرضها قطع مسننة من الحديد بحيث يجبر المعتقل على الوقوف داخلها ساعات وأياماً حافي القدمين.

١٦ ـ وضع المعتقل في علبة من التنك يقفلونها ويبدأون بالضرب عليها من الخارج وكأنها تجربة على الفئران والجراذين عند اجراء تجربة لقياس تحملها للأصوات الشاذة والحادة.

١٧ ـ وضع المعتقل في برميل يقفل ويدحرج بسرعة جنونية.

هذا قليل من كثير من أشكال التعذيب الوحشي الجسدي والتعسفي الذي

استخدمه المحتل الاسرائيلي لإرهاب الأسرى وكسر إرادة التحدي عندهم.

بالإضافة إلى كل ذلك، استخدم الصهاينة أسلوباً نازياً آخر، هو ما يطلق عليه اسم «أسلوب القناصة» حيث رسم جنود الاحتلال خطاً أبيض حول الاسلاك الشائكة ويكون من يتجاوزه عرضة للقناصة المزودين بمنظار وكاتم صوت. وكان يتحول كل يوم احد إلى حقل رماية حقيقي ويطلق الرصاص فوق رؤوس المعتقلين من الصباح حتى المساء، حسب ما جاء في رسالة أحد المعتقلين في ٢١ - ١ - ٨٥.

أثناء التحقيق كان ضباط المخابرات الاسرائيلية يلجأون إلى استعمال الأساليب النفسية بعد عجزهم عن انتزاع المعلومات من الأسرى وهذه الأساليب تمارس للتعرف على نفسية الأسير ونقاط ضعفه من خلال مراقبته ودراسة تصرفاته. وتعتمد هذه الأساليب على الأشكال التالية:

١ - كان المعتقل يتعرض أثناء الاستجواب للتهديد بإحضار زوجته أو أخته إذا كان عازباً أو تهديده بأهله لاجباره على التعامل.

٢ - تعذيب المعتقل نفسياً قبل التحقيق. حيث تبدأ مكبرات الصوت تبث صراخ المعتقلين من الزنازين القريبة وأنّاتهم المسجلة لارهاب المعتقل قبل التحقيق معه.

٣ - اجبار المعتقلين أثناء نقلهم الى مراكز المخابرات داخل الأراضي المحتلة. على تقليد أصوات الحيوانات كالنباح والمواء.

٤ - اجبار المعتقلين على توجيه الشتائم لقادتهم وتمجيد ارهابيي الدولة الصهيونية.

٥ - اقلاق راحة الأسير بشكل دائم عبر فتح باب الزنزانة بقوة والصراخ بوجه المعتقل وبالبصق عليه.

٦ - ابقاء النور مضاء ليل نهار أو منع الانارة كليا عن الزنزانة فيبقى الأسير يعيش في ظلمة دامسة طيلة فترة التحقيق.

٧ - الوخز بالإبر بشكل متواصل في أماكن حساسة من الجسد.

٨ - الاستهزاء بمن يقومون بالشعائر الدينية والصلاة.

٩ - اخراج الأسير ليلاً معصّباً ومقيّداً بحجة التحقيق معه وايهامه بأن أحد زملائه انهار واعترف عنه بكل شيء.

١٠ - المناورات العسكرية الليلية والنهارية بالأسلحة بين المعسكرات وعلى التلال

المشرفة على المعسكر والقاء القنابل المضيئة ليلاً. إن هذا قليل من كثير. مما تعرض له معتقلونا في معسكرات الاعتقال على أيدي المجرمين الفاشيست...

رغم ظروف الاعتقال السيئة وأساليب التعذيب الجسدية والنفسية التي اتبعها العدو الفاشي، صمد المعتقلون في مواجهته فواجهوا رصاص القنص بأجسادهم العارية ودبابات الاحتلال بالحجارة وكما قال أحد الرفاق المحررين: «قاتلناهم بالأوتاد والأواني المطبخية وانتصرنا عليهم». وهكذا أثبت شعبنا أنه أقوى من الاحتلال وأقوى من أسلاكه والمعتقلات.

أراد الغزاة أن يأسروا الارادة الوطنية خلف أسوار «أنصار» فتحول المعتقل إلى مدرسة نضالية ولا أروع عبرت بأروع الأشكال عن إرادة هذا الشعب التي عجز الغزاة عن كسرها وجعلت السجان أسير سجنه وكسرت جبروته وارهابه.

لقد كان المعتقلون شجعاناً أقوياء في مواجهة المحتل وحتى وهم في قبضته وداخل سجونه. لقد تمسك المعتقلون بإرادة الصمود وتمسكوا بالوحدة التي سادت بين جميع المعتقلين من كل الفئات والتيارات والقوى والأحزاب والتنظيمات. هذه الوحدة التي مكّنت كافة المعتقلين من متابعة المعركة في قلب المعتقل وراء القضبان وتحت سياط الجلادين. ورغم الارهاب والقمع الوحشي قامت الانتفاضات والمواجهات ونظمت الاحتفالات. وهنا لا بد من تذكر بعض هذه الانتفاضات الفذة التي أرهقت العدو داخل السجن بعدما أرهقته المقاومة الوطنية والانتفاضات الشعبية خارجه.

الانتفاضة الأولى: ١٣ أيلول ١٩٨٢، انتفاضة «المعسكر ١٥» تحت شعار: تحسين الظروف المعيشية والصحية ومعرفة أسباب الاعتقال والفترة الزمنية التي يفترض أن نمضيها كمعتقلين أسرى حرب.

اجتمع مسؤولو ٢٠ خيمة مع طبيب المعسكر ومع ممثلي الصليب الأحمر الدولي ووجهوا للصليب الأحمر الدولي تهمة عدم الاهتمام بأوضاع المعتقلين ورفضوا تسلم وإرسال الرسائل. وهددوا الصليب الأحمر ومن خلاله قادة المعسكر (الغزاة) بحرق الخيم. كما قرروا رفض تسلم التموين إذا لم تلبَّ مطالبهم. وبعد الاجتماع مباشرة مع

الصليب الأحمر قامت مجموعة من المعتقلين برمي كراتين الخبز خلف الاسلاك ورفضت استلام التموين وبدأت في الوقت نفسه الاتصالات مع المعسكرات المجاورة للتضامن مع «المعسكر ـ ١٥» فما كان من قوات الاحتلال إلا أن أحاطت «المعسكر ١٥» بسيل من الدبابات واعداد وفيرة من الجنود المدججين بالسلاح والهراوات والغازات المسيلة للدموع. اقتحموا المعسكر وأخرجوا الأسرى واقتادوهم إلى خلف الأسلاك حيث أجبروهم على الركوع على الحصى مطأطئي الرؤوس لمدة ٣ ساعات جرى خلالها تفتيش المخيم خيمة خيمة. بحثاً عن أدوات حادة وأعواد الكبريت. وبعد ذلك، وبمعاونة عملاء العدو داخل المعسكر تم نقل ١٨ معتقلاً ممن شاركوا في الاجتماع والتحضير له إلى زنانين قريبة من المعسكر حيث تعرضوا لتعذيب وحشي وصلبوا في العراء لساعات دون ماء ولا طعام.

بعد يومين تم الافراج عنهم إلا أن قائد المعسكر عاد ليعتقل الطبيب «بتهمة» التحريض. ولقي ما لقيه على أيدي المحتلين طوال ثلاثة أيام نقل بعدها إلى «المعسكر ٦» بعد تهديده بنقله إلى داخل فلسطين المحتلة ومحاكمته «بتهمة» الاخلال بأمن المعسكرات.

كانت تلك أولى الانتفاضات المنظمة التي سرعان ما انتشرت أصداؤها في كل المعسكرات ـ منذ ذلك الحين بدأ العد العكسي بالنسبة للعدو.

انتفاضة الأضحى: ٢٨ أيلول ١٩٨٢.

«الله أكبر، الموت للغزاة، الموت لاسرائيل، دوى الهتاف على بعد أمتار قليلة من الأسلاك الشائكة.

من الخارج أصوات نساء بالمئات تتعالى ـ التظاهرة النسائية تتسع وتتلاقى أصواتهن مع أصوات القابعين في داخل المعتقل. كان ذلك في الثانية عشرة تقريباً وكان اليوم يوم عيد الأضحى شاهدنا تظاهرة النساء فتحركنا جميعاً في المعسكرات هتفنا ضد العدو تسلقنا أعلى الخيم والأسلاك الشائكة وكانت الصرخات تدوي في كل أنحاء المعسكرات: الله أكبر الموت للطغاة. الموت لاسرائيل. وإذا بالعدو يستنفر قواته ويطلق النار في الهواء ارهابا فيدب في المعتقلين مزيد من الحماس ورفضنا الانصياع للأوامر ورشقنا الدبابات بالحجارة ففتحت القوات الاسرائيلية النار

باتجاهنا. إلا أن أطلاق النارلـم يستطع الا زيادة حدة الانتفاضة وقد هجم بعض المعتقلين على بوابات المعسكر لاقتلاعها مما أفقد قوات الاحتلال صوابها واضطرت إلى استدعاء المزيد من العناصر والآليات لتعزيز البوابات والحيلولة دون اقتحامها.

هذه اللوحة السريعة عن « انتفاضة الأضحى » في « أنصار » ليست سوى مثال من عشرات الأمثلة الناطقة بالحقد المقدّس على المحتلين.

وتشتد اللحمة وتتوالى الانتفاضات خاصة بعد أن انكشف كذب الاسرائيليين ودجلهم مع توافد دفعات جديدة من المعتقلين يومياً إلى المعتقل.

وخلال هذه المواجهة سقط ٢٤ جريحاً من المعتقلين، جراح بعضهم كانت خطيرة.

كنت ترى بالعين المجردة أن النقمة تنمو، وأن الكامن خلف الضلوع يكبر ويكبر إلى سيل جارف من انتفاضة عيد الأضحى إلى العيد الثامن والخمسين للحزب الشيوعي اللبناني حين تداعى الشيوعيون في كل المعسكرات وزملاؤهم لاحياء ذكرى العيد.

أكثر من عشرة معسكرات أحيت الذكرى على طريقتها وبما توافر من الإمكانيات المتواضعة والتصميم العظيم. بئس الاحتلال! كيف له أن يكسر ارادة هؤلاء الذين يعيش الوطن حراً في جوارحهم وعقولهم ومشاعرهم؟! ألف معتقل شاركوا في احياء العيد.. دخان السيلون، شاي، مربى، وأعواد كبريت ٥٨ حلت محل الشموع، نقاش، تنديد بالاحتلال، فضح أساليب العدو ومكائد... وختام بحفلة تحدٍ صاخبة، دبكة لبنانية وأغاني مارسيل خليفة لمدة ساعة كاملة.

ومن الذكرى الثامنة والخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي الى عيد الاستقلال، حيث، ومنذ الصباح الباكر، ارتفعت اعلام الوطن فوق كل المعسكرات وفي فضاء المعتقل فريق من شباب المعتقل ينشد النشيد الوطني: « كلنا للوطن » ثم خطباء اعتلوا المنصات الحجرية ليؤكدوا جميعا المهمة الأساسية - العهد: تحرير الوطن مهما غلا الثمن... وأن الاستقلال يجب أن يبدأ.

ومن عيد الاستقلال إلى الاحتفال بالذكرى ١٨ لانطلاقة الثورة الفلسطينية حيث شارك المناضلون اللبنانيون والفلسطينيون في معتقل أنصار أبناء الشعب الفلسطيني احتفالاته على طريقتهم الخاصة. فبرغم القمع والاضطهاد على أيدي الجلادين الصهاينة في المعتقل، نظم المعتقلون مسيرة ليلية داخل المعتقلات كما رفعوا

اللافتات المصنوعة من بطانيات الخيم التي تحولت بذلك إلى رايات خفاقة للثورة.

لقد رضخ العدو لهذه الاحتفالات التي جاءت نتيجة نضال طويل داخل المعتقل كرس نوعاً من حرية التعبير والادارة الذاتية للحياة اليومية داخل المعتقلات، وقدم المناضلون الفلسطينيون واللبنانيون في سبيله عدداً من الشهداء في الانتفاضة المستمرة التي شهدها هذا المعتقل.

ومن الاحتفالات إلى التحركات المطلبية لتحسين الوضع الغذائي والصحي ففي ٢٤ - ١ - ١٩٨٣ نُظِّم تحرك شامل في سبيل تحسين الوضع الصحي الذي يزداد سوءاً بفعل الصقيع وسوء التغذية والمعاملة غير الانسانية ويؤدي بصورة خاصة إلى تدهور أوضاع المتقدمين في السن فضلاً عن الصغار بالعمر.

وفي اليوم الأول اعتصم المعتقلون داخل الخيم لمدة ساعة رافضين تنفيذ أي أوامر للعسكريين الاسرائيليين وفي الوقت نفسه أعلن العاملون في الجهاز الطبي الاضراب عن المعالجة.

... وفي صبيحة اليوم التالي تجمع الكل في الساحة وراحوا يطلقون الهتافات ولكن مع تحاشي استفزاز السجانين حتى لا يغتنم هؤلاء الفرصة «لتمرين» عضلاتهم وسياطهم ورشاشاتهم بأجساد السجناء المتعبة. شعارات كثيرة كانت عُلِّقَتْ على الأسلاك منذ الصباح الباكر. وكما يقول المثل، «فالحاجة أم الاختراع» لقد كتب المعتقلون الشعارات على علب الكرتون التي كانت استعملت لاحضار الخبز ثم علقوها على الأشرطة والحبال الموجودة في المخيم. أما الشعارات فكانت بالانكليزية والعربية، ومنها: «سجناء في أرضهم، ١٥٠٠ حالة مرضية، المرضى يعاملون بلاانسانية، وضعنا غير صحي، ٢٦٥ حالة من الموت البطيء في معسكرات المعتقل». «نجمة داوود» نجمة سوداء كالحة». وما إلى ذلك من اللافتات التي لا تعرض سوى جوانب قليلة، ولكنها معبِّرة عن الواقع المأساوي الذي استمر إلى حد بعيد على رغم اضطرار سلطات الاحتلال في الأشهر الأخيرة إلى اجراء بعض التحسينات تحت ضغط التحرك المتواصل وضغط الرأي العام المحلي والعالمي واتصالات وجهود الصليب الأحمر وسائر الهيئات الدولية.

فالوضع الغذائي والصحي المهترىء والاستهتار بآلام المسنين وبأوضاع الصغار ممن لا تتجاوز أعمارهم الـ ١٤ إلى ١٧ سنة، والمنع الكامل لزيارات الأهل، كلها أمور

تستمر في التفاعل ومعظم الوعود تبقى وعوداً في الهواء أو على الأرض.

وفي اليوم الثالث قام اعتصام داخل الخيم لمدة ساعتين هذه المرة. وفي اليوم الرابع حصل اضراب شامل عن الطعام في المعسكرات كلها. ولم تكن تسمع إلا أصوات العسكريين «تزمجر» والتهديدات تنصب على المعتقلين. وكالعادة أحد الضباط الصهاينة يستخدم الطرق الممجية في الخيم وفي الباحة وواحد آخر أعلى منه رتبة يقوم بمهمة التغطية و«ترطيب الخواطر». مدعياً أن «جيش الدفاع» يقوم «بمهمة انسانية جداً». (جداً) ويختفي ويأتي زملاؤه الآخرون لمتابعة عملهم في ارهاب المعتقلين نفسياً وجسدياً لكن الاضراب يفرض نفسه والتضامن بين هذه الآلاف من الناس على اختلاف الانتماءات الحزبية والطوائف والمعتقدات يجعل الصهاينة في حالة من الرعب الدائم... حتى يفقد المحتلون اعصابهم ويفتحوا النار على السجناء فيرتفع الصراخ... «وتحوم» الطائرات المروحية الاسرائيلية فوق الخيم وتمخر السيارات العسكرية الطرقات والزواريب.

وفي الذكرى الأولى للغزو الصهيوني ٥ ـ ٦ ـ ١٩٨٣ قام المعتقلون في معسكر أنصار بانتفاضة واسعة وأشعلوا النار في عدة خيم داخل المعسكر ورفعوا الشعارات المعادية للجيش الاسرائيلي، فأقضّوا مضاجع الغزاة بصوتهم المبحوح. القابعون خلف الأسلاك طرحوا قضيتهم بأعظم وأبهى ما يكون التحرك. واجهوا السجانين، هجموا على الأسلاك، صفعوا رهبة «الجيش الذي لا يقهر»، مزقوا أعلام العدو، رفعوا أعلام الوطن، وإذا الأسلاك تغدو زناراً للمجد والعظمة. تسعة عشر معتقلاً قتلوا ٤ معتقلين تمكنوا من الفرار احتفلوا بأعيادهم الوطنية رغم أنف الحراس. لقد اضطرت اسرائيل تحت ضغط أعمال التمرد والانتفاضات المتواصلة لتحقيق مطالب الأسرى في المجال المعيشي والصحي والحقوقي واعترفت اسرائيل بأن من يدخل «أنصار» يصبح حقاً انساناً مبدعاً يبتكر وسائل الصمود، ينمي هواياته الفنية والأدبية من خلال المواد البدائية التي يحولها المعتقلون إلى نتاجات فنية ومنحوتات ولافتات وشعارات.

وتمر الأيام ويدخل الاحتلال الاسرائيلي المأزق تحت ضربات المقاومة الوطنية اللبنانية والرفض اللبناني للغزو وإذا بهم أسرى في لبنان وفي المعتقل.

أسلوب آخر في المواجهة والتحدي، شكل نضالي آخر هو حفر الانفاق الذي

صدم الصهاينة الذين تفننوا طيلة ١٤ شهراً في تقييد المعتقلين وفي تعزيز الأسلاك التي تجعل من معتقل أنصار قلعة حصينة لآلة القتل والتعذيب الصهيونية.

لقد اكتشف العدو الاسرائيلي في ٢ ـ ٨ ـ ١٩٨٣ نفقاً طوله ستة أمتار وارتفاعه ٦٠ سم قبل فرار المعتقلين بيومين. القيادات الاسرائيلية أصيبت بالهلع عندما اكتشفت هذا العمل اليومي الجبار بعد أسبوع كامل على بدايته. فشعبنا يستنبط حتى في المعتقل طرقاً مبتكرة لتحدي الغزاة ولصنع الطريق إلى الحرية.

وبعد أن باءت المحاولة الأولى والثانية للفرار بالفشل تابع المعتقلون عملهم ولمدة ٢٠ يوماً متواصلة ليل نهار بمشاركة ثلاثة وسبعين معتقلاً، حيث حفروا حفرة عمودية بطول مترين ونصف المتر ومن ثم انطلقوا إلى الحفر الأفقي حيث بلغ طول النفق سبعة وعشرين متراً وقد استطاع الفرار ٤ معتقلين والخامس وقع في الأسر بعد تنبه الحراس لارتطامه بالأسلاك الشائكة فحال ذلك دون هرب عدد كبير من المعتقلين.

فنجاح عملية الفرار الشجاعة كان تحولاً مهماً في حياة المعتقل كرست دوره كركيزة للتحدي والمقاومة.

بلغ عدد الانتفاضات التي نفذها معتقلو «أنصار» ما يزيد عن ٣٠ انتفاضة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً هنا. وبالإضافة إلى الانتفاضات، لا بد من تسجيل عملية التحدي الكبير التي قام بها رفاق أبطال نفذوا محاولة الفرار من بين براثن العدو داخل المعتقل في ١٨ أيار ١٩٨٤ بمناسبة مرور سنة على توقيع اتفاق الذل والخيانة مع الدولة المحتلة برعاية أميركا. تلك العملية البطولية التي قادها الرفيق الشهيد أحمد علي رمضان والتي تسجل بين أبرز أعمال التصدي للاحتلال، وتكشف مدى التصميم على المواجهة ومواصلة المعركة.

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩٨٤، سجل المعتقلون واحدة من أروع انتفاضاتهم بمناسبة الذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. كانت مواجهة من نوع جديد أبرز ما تميزت به هو تلك الوحدة الرائعة والمجابهة المجيدة مع الجلادين.. نُظِم الاحتفال بجهود جبارة وفي ظروف صعبة حاول الصهاينة منعه لكن معتقلي المعسكرين ٢١ و٢٥ لم يتركوا للعدو أية فرصة. فانتقلوا إلى الهجوم بكل ما امتلكت

أيديهم ضد قوة القمع الصهيونية التي اقتحمت المعسكرين أثناء الاحتفال لمنعه. فكانت مواجهة رائعة على شراستها شارك فيها الشيخ محرم العارفي رغم مرضه. وتعالت صيحات الشيخ مسلماني: اتحدوا يا معتقلي أنصار! فهب الناصريون والحركيون والبعثيون والشيوعيون وغير الحزبيين والفلسطينيون وانتصرت وحدتهم على عسف المحتل وبطشه.

لم يكن الاحتفال بالعيد الستين احتفالاً فحسب بل كان أيضاً معركة ضد الاحتلال وضد قواه في داخل المعتقل ومحطة مشرّفة ومتميزة في قتال شعبنا من أجل التحرير.

أحد المعتقلين الذين شاركوا في الاحتفال، كتب يقول في رسالة من المعتقل: «رفعنا اليافطات والاعلام الحمراء فوق المنصة. طلبوا منا انزالها لكننا رفضنا الانصياع لأوامرهم ولم نخضع ولم ننكّس الأعلام، فما كان منهم إلا أن اقتحمونا ونحن عزل، رشونا بالغاز المسيل للدموع، أطلقوا علينا النار، واستمر الاحتفال أناشيد وخطب وبقيت الاعلام ترفرف، فرشونا بالغاز مرة أخرى ودخلوا المعسكر وأطلقوا النار ثانية ولكنهم لم ينجحوا في نزع الاعلام وفروا أمامنا... فروا أمامنا ونحن عزل وكم كان جميلاً أننا قاومنا وواجهنا وانتصرنا على عدونا».

اضافة إلى الانتفاضات والمواجهات وحفر الانفاق واحياء الأعياد الوطنية والمناسبات الدينية ومشاركة الأخوة الفلسطينيين في احتفال: «يوم الأرض»، واحياء ذكرى ميلاد القائد الكبير الشهيد كمال جنبلاط، نذكر أشكالاً نضالية أخرى وفي ظروف صعبة للغاية ومنها اصدار جرائد الحائط والمجلات والأعمال اليدوية. وكان لـ «نداء أنصار» صدى خاص في معتقل أنصار حيث صدر منها ما يزيد عن عشرين عدداً اضافة إلى كل أشكال المطبوعات والشعارات التي كانت ترفع والتي لم تكن تجري جميعها بدون كفاح وصعوبات وتضحيات. هذا إلى تنظيم دورات محو الأمية والتعليم والحلقات التثقيفية وكان للأغنية السياسية وقع ومكانة خاصة في معتقل أنصار فكانت ترافق كل أشكال النضال. من الاعتصام إلى المواجهة إلى التمرد والانتفاضة.. كما برزت في المعتقل كفاءات فنية، ورسمت لوحات وأنتجت أعمال يدوية بالغة الدقة والروعة والجمال وقوة التعبير. وقد شكلت هذه الأعمال مادة

غنية لمعارض ملأت لبنان والعالم.

لقد كانت وحدة المعتقلين أقوى سلاح في يدهم. وبذل المحتلون جهوداً خبيثة وحثيثة للتفرقة بين المعتقلين على أساس انتماءاتهم الحزبية ثم بين أبناء الطوائف والمناطق، ولكن المعتقلين فوتوا عليهم الفرصة، لم يرفع شعار فئوي بل كان شعار الجميع الالتفاف والوحدة حول المقاومة...

يافطات، لوحات موحدة، اضرابات وتحركات تجري في يوم واحد بل في لحظة واحدة وفي جميع المعسكرات والخيم. وحدة المعتقلين وصلابتهم يصفعان المحتل فيحار كيف يفتتهم والعمليات المتواصلة للمقاومة الوطنية تنعكس داخل المعتقل فيلجأ العدو إلى تمشيط الخيم بحقده وسياطه ونيران قناصيه والعمليات الجريئة كانت تترك تأثيراً، فمن النادر أن يخرج جندي إلى مدخل المعتقل أو يتجول داخله إلا مدججاً بالسلاح والحماية وكثيراً ما كان السجانون يبوحون لنا بالحقيقة: أنهم محتجزون في أنصار.

لقد نفذت قوات الغزو الاسرائيلي في معتقل أنصار رداً على الانتفاضات والمواجهات مع المعتقلين مجازر وحشية ذهب ضحيتها العديد من الأسرى. حيث استشهد كل من سهيل أبو الكل وسليم دياب ونعيم في مجزرة المعسكر ٢٠ في ك ١ ١٩٨٣ بعد مجزرة العيد في ٢٨ أيلول ١٩٨٢ حيث سقط خلالها ٢٥ جريحاً وبعد ذلك سقط كل من ماهر الدوماني، علي البابا ثم فريد أبوستة ثم توجت مجازرهم بقتل الشهداء ابراهيم درويش وابراهيم خضرا وعباس بليطة وأحمد شعيتو في وادي جهنم حيث دفنوا تحت التراب ومُثّل بجثثهم بأفظع ما يوصف. وفي ٣ ـ ت٢ ١٩٨٣ استشهد موسى ذياب من مخيم كفربيدا الذي ألقاه الجنود من الطابق السابع من مقر الحاكم العسكري الاسرائيلي في صور قبل تفجيره. لقد استشهد في معتقل أنصار خلال المجازر التي ارتكبت ونتيجة للمواجهات التي قامت مع المعتقلين ٣٥ معتقلاً وجرح أكثر من ٢٠٠ معتقل وفقد أكثر من ٧٠ معتقلاً أخذوا للتحقيق داخل الأراضي المحتلة والمرجح أنه تمت تصفيتهم.

أما في أنصار ٢ ـ فاستشهد مروان ابراهيم أثناء التحقيق وتلاه الرفيق الشهيد أحمد رمضان قائد عملية الفرار في ١٨ أيار ١٩٨٤ هذا إضافة للمقابر الجماعية لضحايا المجازر التي ارتكبتها اسرائيل والتي لم تستطع اخفاءها رغم كل محاولات التمويه.

عندما نكتب عن المقاومة الوطنية في معتقل أنصار نكتب عن أولئك الأبطال المقاتلين المقاومين رفاق في الحزب الشيوعي اللبناني، رفاق وأخوة كفاح في كل التنظيمات في حركة «أمل» ومن أحزاب الجبهة الوطنية الديمقراطية ومن التيار الإسلامي ومن الأخوة والرفاق الفلسطينيين انهم رفعوا رأس الشعب اللبناني عالياً، تاج رأس العرب جميعاً. أضافوا بنضالهم انتصاراً لكل القوى التقدمية المناضلة من أجل الحرية والتقدم والاستقلال».

١٠ ضد الوضع العربي وفي عكس تياره

لو لم يكن الوضع العربي آنذاك في أقصى حالات التردي، لو لم تكن الأنظمة الرجعية في أشد حالات الارتباط بالامبريالية ومخططاتها، وفي حالة تنصل شبه كامل من التزاماتها بالقضية القومية وصولاً الى حد الخيانة وفك العزلة عن اسرائيل عن طريق اتفاقيتي كامب دايفيد وسواهما، ولو لم تكن الحركة الوطنية الثورية العربية في أشد مراحل أزمتها، لما أمكن لاسرائيل أن تقوم بمغامرتها في اجتياح لبنان واحتلال قسم كبير من أرضه. كل الظروف كان تشير الى ان الامكانيات متوفرة لقيام اسرائيل بمغامرتها. حرب الخليج كانت في أوجها، وحروب أخرى كانت قيد الاعداد بين البلدان العربية وبين بعضها وبعض جيرانها. وكانت الحركة الشعبية في حالة من الركود لم يسبق ان شهدتها بلداننا منذ زمن بعيد باستثناء حركات متقطعة هنا وهناك كانت تقوم بشكل عفوي وتقمع وتنكفىء. كان ذلك سائداً في مشرق العالم العربي وفي مغربه على السواء. الساحة الوحيدة تقريباً التي كانت تواجه وتتصدى وتقاتل هي الساحة اللبنانية ـ الفلسطينية ـ السورية التي اعتبرناها، بحق، ودون ادعاء، ولا نزال،ساحة الصراع الرئيسية ضد الامبريالية والرجعية والصهيونية ومشاريعها. ولكن المواجهة والتصدي والقتال في هذه الساحة كانت شديدة الصعوبة، كانت باهظة الثمن. اذ كان على القوى الوطنية الثورية في هذه الساحة أن تتحمل عبء الدفاع عن القضية القومية والكفاح من أجل انتصارها ومواجهة قوى أكبر منها وأقدر وأكثر استعداداً، وفيما يشبه الاستفراد. إنها الحالة التي تستمر، بهذه الدرجة أو تلك، منذ مطلع السبعينات، حالة التراجع والتردي والتفكك في الوضع العربي، بعامة، وفي الحركة الوطنية

الثورية، بخاصة. وفي قلب هذه الحالة وبتأثيرها وفي ظل استمرارها، سلكت الرجعية، متمثلة بنظام السادات، طريق الخيانة بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣، وبشكل يتناقض مع ما حصل في هذه الحرب على الأرض من انتصار عسكري سرعان ما عطلته سياسة الخيانة هذه: اتفاق سيناء أولاً ثم زيارة السادات للقدس ثم توقيع اتفاقيتي كامب دايفيد وتطبيع العلاقات مع اسرائيل وفك العزلة العربية التي لم تدم طويلاً عن نظام السادات وصولاً الى حالات مختلفة من تفلت الأنظمة الرجعية العربية من التزاماتها ازاء القضية الفلسطينية، والسعي باتجاه التحالف، مباشرة وبصورة غير مباشرة، مع اسرائيل، في مواجهة الحركة الوطنية الثورية العربية واحتمالات نهوضها، ولا سيما في ساحة الصراع الرئيسية، الساحة اللبنانية ـ الفلسطينية ـ السورية.

كانت الحرب الأهلية اللبنانية منذ بدايتها تصب، من موقع القوى الفاشية فيها، في هذا الاتجاه. وكان رد القوى الوطنية والديمقراطية على عنف الفاشية بالعنف الثوري أحد أشكال الرفض لهذا الواقع العربي المتردي المرير. فكان كفاح الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية نوعاً من السباحة في عكس التيار. فأطلقت بعض القوى على هذا الكفاح صفة العمل المغامر! ولكن هذه الحالة النوعية من الاندماج بين الحركة الوطنية اللبنانية وبين الثورة الفلسطينية وبين سوريا، مكنت هذه الساحة من الصمود ومعاكسة التيار الى ان جاء الاجتياح. ولكن كلاً من هذه القوى كان منهكاً، فضلاً عما كانت تعانيه من خلل في بعض جوانب نضالها وفي العلاقات التي كانت تقوم بينها.

مرّة ثانية كان لا بد للحركة الوطنية الثورية العربية، وفي الساحة اللبنانية بالذات، أن تواجه الحالة نفسها وأن تتصدى لمعاكسة التيار. هكذا كان شكل مواجهة جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية للاحتلال الاسرائيلي. كان على هذه الجبهة أن تتصدى لشراسة الاحتلال والقوى المستند اليها في الداخل والى دعم الامبريالية بكافة أشكاله لهذا الاحتلال، وأن تتصدى، في الوقت ذاته، لهذا الوضع العربي السيء، وأن تنتصر عليه، وأن تعمل على تغييره.

II الوضع الدولي صعب ولكن ملائم

اذا كان الوضع العربي، عند انطلاق جبهة المقاومة، في هذه الحالة من التردي والسوء

فإن الوضع الدولي لم يكن كذلك تماماً. صحيح ان الاجتياح الاسرائيلي قد حصل دون أن يتمكن العالم من ايقافه. وتم حصار بيروت في أكثر أنواع الحصار وحشية ولمدة ثمانين يوماً، دون أن تستطيع كل احتجاجات قوى الحرية والسلم والديمقراطية في العالم من وضع حد لـه. ولكن لا بد من القول ونحن نبدي نوعاً من الاحتجاج على هذا الواقع المرير أن نشير الى ان هذه الوقائع المريرة لا تكفي وحدها للتعبير عن الوضع الدولي وعن الميزان الحقيقي للقوى بين جبهتي الصراع الأساسيتين فيه. كنا نتلقى الضربات ونتألم ونحتج. ولكننا لم نفقد للحظة واحدة لا قدرتنا على التحليل الصحيح لمجرى الصراع وللواقع السائد ولدور القوى الثورية وموقعها في الصراع ضد الامبريالية، ولا ثقتنا المطلقة بقدرة هذه القوى على مواجهة الامبريالية ومخططاتها العدوانية ومشاريعها الحربية ورغبتها الدائمة في السيطرة على الشعوب والتحكم بمصائر تطورها. على العكس من ذلك كنا ندرك صعوبة اللحظة التي نحن فيها وندرك، في الوقت ذاته، انها ليست أكثر من لحظة مهما بلغت قسوتها ومهما بلغت التضحيات والآلام التي نعانيها فيها. وسرعان ما بدأت تبرز في الوضع الدولي وقائع جديدة عبرت عن نفسها في شكل مواجهة شديدة وحاسمة قام بها الاتحاد السوفياتي وبلدان المنظومة الاشتراكية وسائر القوى الثورية ضد مخططات الامبريالية هذه، تركت تأثيراً كبيراً على الوضع الدولي بما في ذلك مواقف العديد من الدول. صحيح ان التوتر في الوضع الدولي وفي العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية كان في أقصى درجات حدته، ولكن الاتحاد السوفياتي كان حازماً في سياسته وفي موقفه من محاولات ادارة ريغان الاستفادة مما خلقه اجتياح اسرائيل للبنان من نتائج في منطقة الشرق الأوسط وعلى الصعيد الدولي، حاولت هذه الادارة أن تكرّسها في السياسة الدولية في الغزو العسكري الأميركي لجزيرة غرينادا. غير ان ذلك لم يحدث تغييراً حقيقياً في الوقائع على الصعيد الدولي. بل ان تراكمات النضال في شتى مناطق العالم التي كانت تخوضه الشعوب ومنها شعبنا اللبناني من أجل الحرية، في ظل الموقف السوفياتي الحازم ضد السياسة العدوانية والحربية للامبريالية الأميركية، قد ولدت حالة نوعية جديدة برزت في أكثر من منطقة وتجلت، بشكل خاص، فيما حصل على الساحة اللبنانية. فقد تمكنت المقاومة الوطنية اللبنانية وكل حركة النضال الوطني اللبناني المعادي للامبريالية والصهيونية والرجعية والفاشية أن تلغي اتفاق ١٧ أيار الأميركي الاسرائيلي الكتائبي وأن تطرد قوات المارينز وقوات الحلف الأطلسي من لبنان بعد أن كان قد بلغ تدخلها السياسي والعسكري في الحرب اللبنانية ذروته.

كان الوضع الدولي يزداد تغيُّراً ويزداد ملاءمة لكفاح المقاومة الوطنية اللبنانية. بل اننا نقول، دون ادعاء، ان هذا الكفاح قد أسهم، بدرجات معينة، في احداث هذا التغيير. وهو اسهام لا يمكن لمناضلي وأبطال المقاومة الوطنية أن يدَّعوه لأنفسهم ولحركتهم دون أن يؤكدوا أنه لم يكن ممكناً لو لم يتلقوا دعماً واضحاً متعدد الجوانب من سوريا ومن الاتحاد السوفياتي ومن كل قوى الحرية والتقدم في العالم.

١٢ المقاومة والإرهاب

لماذا نطرح مثل هذه المسألة؟ لماذا نقحم الارهاب في موضوع المقاومة؟

لسنا بالطبع ممن يعتبرون ان المقاومة، لا سيما هذا النوع الذي تتميز به مقاومتنا الوطنية اللبنانية، يمكن أن توصف بالارهاب أو أن تمت بصلة اليه. فالارهاب في العرف الدولي هو نوع من السلوك الذي يتصف بالفوضوية أو بالعدمية. وهو ما حصل، بصورة عامة، نتيجة لما يولّده النظام الرأسمالي، في ظروف تعفنه وتفاقم أزمته، من حالات مرضية وحالات احتجاج، وهو ما نشهد نماذج له في العديد من البلدان الرأسمالية. ولا شك أن هذا النوع من الارهاب انما يعبر بشكل من الأشكال عن حالات معينة من الاحتجاج ضد النظام الرأسمالي وضد افرازاته.

غير ان الارهاب في اللغة المعاصرة هو ما أصبح يتحول في العديد من الدول الامبريالية والعنصرية الى سياسة رسمية. هذا ما نشهده في سياسة أميركا واسرائيل وجنوب افريقيا التي تلجأ الى وسائل مختلفة من أجل قمع ثورات قائمة، وتصدير ثورات مضادة، وممارسة العدوان ضد بلدان وحركات وطنية في أكثر من منطقة. أكثر الأمثلة حدة في هذا المجال هو عدوان اسرائيل المتكرر ضد البلدان العربية وضد الشعب الفلسطيني بشكل خاص، واجتياح لبنان.

غير ان الدوائر الامبريالية والصهيونية والعنصرية تحاول، وهي في غمرة ممارستها للارهاب ضد الشعوب، أن تعطي صفة الارهاب للحركات الوطنية المناهضة للعدوان والمناضلة من أجل التحرر والتقدم، لكي تبرر بذلك سياسة الارهاب الفعلي التي تمارسها. وفي الحقيقة فإن هذا الأمر ليس جديداً، بل هو نهج قديم في السياسة الامبريالية.

ما يهمنا في هذا الموضوع بالذات ليس الرد على ما تحاول الدوائر الامبريالية والصهيونية والعنصرية أن تَصِمَ به الحركات الوطنية الثورية، ومنها حركات المقاومة التي تشكل مقاومتنا الوطنية اللبنانية واحدة من أبرز نماذجها المعاصرة. بل ما نهدف اليه هنا هو، في الحقيقة، مناقشة لبعض الأفكار التي تطرحها بعض القوى المعادية للامبريالية في البلدان الرأسمالية، خصوصاً، في معرض تقييمها لبعض أشكال النضال التي تبرز في البلدان التي تخوض شعوبها حروباً وطنية. ولعل أكثر النماذج المعبرة عن هذه الأفكار خطورة تلك التي تعتبر ان مقاومة الاحتلال الاسرائيلي من قبل القوى الوطنية اللبنانية، ونضال الشعب الفلسطيني من أجل استعادة حقوقه القومية، نوعاً من الارهاب. بالطبع لا يمكن لنا أن لا نميز بين هذا الشكل أو ذاك من أشكال النضال الوطني المشروع من أجل الحرية ومن أجل الحقوق القومية في أي مكان يمارس فيه هذا النضال. ففي حالات معينة كانت تقوم حركات لا يمكن تبريرها ولكن، بالمقابل، لم يكن من الممكن الا أن نفسّر الأسباب المشروعة لقيامها. متال على ذلك ما كان يقوم به بعض الوطنيين الجزائريين ضد المدنيين الفرنسيين دون تمييز، وما كان يقوم به بعض الوطنيين الفلسطينيين ضد اليهود المدنيين في اسرائيل وخارجها. وهي حركات يفسّر قيامها ذلك الشعور الجارف المعادي للأجنبي الذي يصل في حالة عدم تبلور الوعي السياسي الى مستوى عدم التحديد الواضح للخصم، أي الوقوع فيما كان يطلق عليه باللغة السياسية المأخوذة من ترسانة الامبريابة صفة الارهاب. فهل هو ارهاب حقاً؟ نعتبر ان الجواب على مثل هذا السؤال لا ينبغي أن يكون تبسيطياً. هنا تبرز مسؤولية الحركة الوطنية الثورية، في البلد الذي تقوم فيه هذه الحركات، في رفع مستوى وعي الجماهير، ومسؤولية الحركة الديمقراطية في بلدان المتروبول، إذا صح التعبير، في تحديد موقفها من الحركة الوطنية الثورية في البلد المنتفض المقاوم الثائر من أجل الحرية.

غير ان المشكلة تصبح في مستوى أكثر خطورة إذا ما جرى التعرض لحركة مقاومة تستهدف في أشكال نضالها مقاتلة العدو بتحديد وتسديد واضحين. وهي الحال التي نشهدها دون التباس في المقاومة الوطنية اللبنانية. في مثل هذه الحالة لا مجال للالتباس في الموقف ولا مجال للخطأ. وكل خطأ يقع في تقدير الموقع الحقيقي للمقاومة ولدورها وللهدف الذي تسدد اليه ضرباتها، هو خطأ غير مبرر. انه موقف لا يحتاج الى نقاش. انه موقف لا بد من رفضه وادانته.

ان المقاومة الوطنية اللبنانية، برغم ما تفرضه عليها الأوضاع الخاصة في لبنان والمنطقة

من صعوبات، تتمتع بقدر عالٍ جداً من الصفاء في تحديد الخصم وفي تسديد الضربات اليه. انها بهذا المعنى وفي هذا المجال بالذات أقل الحركات الوطنية التباساً. فهي ليست فقط بعيدة عن أي شكل من أشكال النضال التي يلتبس فيها الارهاب بالمقارنة مع النضال الوطني المشروع، بل هي حركة نضال وطني تحرري توري واضحة في أهدافها، وفي أشكال ممارستها لنضالها، وفي مضامين هذا النضال على الصعيدين الوطني اللبناني والقومي العربي.

١٣ خصوصية المقاومة الوطنية اللبنانية - دور الطليعة والتنظيم

ما يهمنا، في الحديث عن هذا الجانب في المقاومة، هو أن نتوقف عند الجديد، الذي حملته الى الحركة الثورية، في ظروف لبنان والمنطقة. والجديد هو هذا الدور المتميز الذي اضطلعت وتضطلع به الطليعة الطبقية، ليس فقط في اطلاق جبهه المقاومة في الوقت الضروري، ولا في شكل ممارسة هذه الطليعة للكفاح داخل هذه الجبهة وفي قيادتها، بل كذلك، وبالأخص، في الدور الذي لعبته هذه الطليعة في مجمل النضال الوطني الديمقراطي، بعامة، وفي الحرب الأهلية، بخاصة. ولا نشير الى ذلك الا من قبيل التأكيد على ان الطبقة العاملة وحزبها لم يتخلفا عن القيام بدورهما التاريخي بل انهما اديّاه، بثبات، وعلى أفضل وجه. والمهم، في هذا التأكيد، هو تحديد موقع هذا الفعل للطبقة العاملة، في العملية الثورية والاسهام الذي قدمه في تطورها.

كيف تجلى هذا الدور التاريخي للطبقة العاملة ولحزبها الطليعي؟

ان أول مظهر لهذا الدور يكمن في ما قدمه حزب الطبقة العاملة، عشية الاجتياح، من تحليل علمي دقيق للمرحلة، ولمجرى تطور الأحداث خلالها، ولأشكال الصراع التي مورست فيها. ويكمن في تأكيده على حتمية انتقال اسرائيل، في اطار هذا الصراع البالغ ذروته، الى مستوى نوعي جديد في العدوانية وفي التوسع يتخطى كل ما شهدته المنطقة سابقاً.

المظهر الثاني هو الصمود البطولي للمقاتلين الشيوعيين، مع القوى الوطنية الأخرى، اللبنانية والفلسطينية، وفي مقدمتها، في حصار بيروت وفي المقاومة الباسلة التي أبدوها، ضد محاولات القوات الاسرائيلية احتلال عاصمتهم المحاصرة.

المظهر الثالث هو الدور الريادي الذي مارسه الحزب الشيوعي، بجدارة، مع قوى ثورية أخرى، لبنانية وفلسطينية، في انشاء جبهة المقاومة واطلاق عملياتها، والقيام بالقسم الأكبر من هذه العمليات العسكرية في بيروت وفي المناطق الأخرى، في المرحلة الأولى، وعلى امتداد سنة بكاملها. فأسس مقاتلوه الشجعان، بذلك، لجعل المقاومة تتحول الى حركة شعب بكامله. وفي هذا تأكيد جديد متطور لخط الحزب في اعتماد الكفاح المسلح شكلاً من أشكال النضال، يتحول إلى الشكل الرئيسي في مراحل معينة، وفي هذا تأكيد أيضاً على صحة خط الحزب في ما يتعلق بالموقع الذي تحتله المسألة القومية في النضال ضد الامبريالية، وفي كون هذا النضال هو الشكل الأبرز، في هذه المرحلة، للصراع الطبقي المحتدم بين الحركة الوطنية الثورية وبين أعدائها.

المظهر الرابع هو في ما فرضه سلوك المناضلين الشيوعيين داخل المقاومة، من نهج لا بد منه لكي تتجاوز المقاومة كل أساليب العمل الفئوي لا سيما في مجال الاعلان عن العمليات العسكرية، وفي حصر هوية هذه العمليات، وهوية منفذيها، في جبهة المقاومة، وتأكيداً لذلك، امتنع الحزب الشيوعي عن ذكر أسماء الشهداء والمعتقلين من مناضليه، وامتنع حتى عن الاحتفال بذكرى استشهادهم. الا عندما سمحت بذلك الظروف، وعندما استشرت عملية سرقة الشهداء بأساليب لا علاقة لها بالنضال، بشكل عام، ولا بالمقاومة، بشكل خاص.

المظهر الخامس هو في نوع العلاقة التي أنشأها المقاتلون الشيوعيون في صفوف الجبهة مع الجماهير تصحيحاً لكل الأخطاء السابقة التي كانت قد ارتكبتها بعض فصائل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية قبل الاحتياج، والتي خلقت مع الزمن، نوعاً من الحذر لدى هذه الجماهير ازاء العمل الوطني، بعامة، والمسلح منه، بخاصة.

المظهر السادس هو في شكل ممارسة المقاومين الشيوعيين للعمليات العسكرية تأكيداً

لطابع الحرب، من حيث هي حرب أنصار وليست حرب مواقع ومواجهة. فهي عمليات تقوم بها مجموعات أو أفراد يضربون مواقع وأهداف العدو ويختفون ثم يظهرون ليسددوا ضربات جديدة. وفي ذلك، في الحقيقة، تصحيح لمفهوم المقاومة ومفهوم حرب الأنصار بعد أن كانت قد أدخلت على هذين المفهومين تشويهات أصابت شكلها ومضمونها على السواء وعطلت فعلها الحقيقي. وقد أدت ظاهرة الاستعراض في العمل العسكري وفتح المكاتب وتجميع القوى، الى تحول العمل العسكري، في قسم كبير منه، إلى عمل موجه ضد المواطنين، يسيء اليهم في مصالحهم، وفي حياتهم، وفي أمنهم، وفي وسائل رزقهم.

المظهر السابع هو في العلاقة القائمة على نكران الذات، التي أنشأها الحزب الشيوعي ومناضلوه مع القوى الأخرى - وهي واحدة من أعظم التقاليد الشيوعية -. وقد برز ذلك، وترك تأثيره الكبير، في الكفاح بكل أشكاله، وفي كل مراحله، بما في ذلك خلال ممارسة فعل المقاومة، في لحظة الاعتقال وفي كل مراحله اللاحقة.

المظهر الثامن هو في الموقف الذي يتخذه الشيوعيون من الجلادين في زنزانات التعذيب وفي المعتقلات. ان الصلابة التي يتحلى بها الشيوعيون هي جزء من تراث غني بالتجارب في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الثورية العربية والعالمية.

المظهر التاسع هو في التنظيم، اذ كان الشيوعيون أول من أعدَّ، منذ المؤتمر الثاني للحزب، قوات خاصة لمثل هذا النوع من الكفاح. وكانوا، عند الحاجة اليه، في مستوى القدرة على القيام به بأقل ما يمكن من الخسائر، سواء بالنسبة للحفاظ على هذا التنظيم للمقاومة، بخاصة، أم بالنسبة للحزب وللجماهير، بعامة. ولقد أثبت هذا النوع من التنظيم قدرته على خلق الشروط الضرورية للاستمرار في العمل، دون تأخير أو تردد تحت كافة الظروف، وفي كل مراحل الاحتلال، وفي كل المناطق التي عانت منه، دون استثناء.

المظهر العاشر هو في القدرة على تحديد الهدف، بوضوح، استناداً الى الفكر الثوري، والبرنامج الثوري، والأساس الطبقي الذي يستندان اليه ويعبران عنه.

هذه المظاهر كلها إنما تشير الى ما يجسده حزب الطبقة العاملة في فكره وبرنامجه وفي موقعه الطبقي من أهداف تتلخص فيها مصالح الوطن والشعب ومستقبلها.

غير أن ما تميزت به المقاومة الوطنية، وما شكل واحدة من خصائصها الأساسية، انما يكمن، أيضاً، في كونها تحولت في فترة زمنية قصيرة الى حركة شعب، حركة جماهيرية جندت في صفوفها، وفي عملية احتضانها والانخراط فيها، قوى سياسية واسعة جعلتها تتحول الى نوع من حرب وطنية تحررية، الى جزء فاعل من الثورة الوطنية الديمقراطية أسهم في اغناء هذه الثورة، في مرحلتها الراهنة، وفي تقدمها.

ولا يمكن، ونحن في صدد تحديد خصائص المقاومة، إلا أن نتوقف عند الجانب المتعلق بما حققته هذه المقاومة من انجازات في تحرير القسم الأكبر من الأرض من الاحتلال، في فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز الثلاث سنوات، جعلت جماهير المناطق التي تحررت تدرك بعمق أن ما قدمته من تضحيات، رغم انه كان باهظاً، كان في مستوى الانجازات الضخمة التي تحققت. وفي الواقع فإن الجماهير، حتى قبل تلمس تلك الانجازات والمدة الزمنية التي تحقق فيها التحرير، كانت تقف مع المقاومة وتنخرط فيها بحماس دون حساب للتضحيات. وهذا بذاته جانب مهم من الجوانب الأساسية للمقاومة وميزة من ميزاتها.

غير ان هذه الخصائص، لا تلغي بعض الجوانب السلبية التي رافقت تطور المقاومة وكادت أن نتحول. وهي قد تحولت في بعض الأحيان، الى ظاهرات سلبية مارست تأثيراً خطيراً على المقاومة، لكن انها لم تستطع أن تغير من طبيعتها ومما تميزت به من خصوصيات. هذه الظاهرات لا نستطيع أن نتحدث عن المقاومة ونقيم نشاطها وتطوررها دون أن نشير اليها:

الظاهرة الأولى هي ظاهرة العمل الذي تواصل بكل الوسائل من أجل تحويل المقاومة الى حركة اسلامية ب مة وشيعية بخاصة. ولسنا نرمي هنا الى التقليل من دور الشعور الديني في تأجيج روح المقاو ، أو الى التقليل من دور التيار الاسلامي في المقاومة بشتى أشكالها العسكرية منها والجماهيرية. فالعامل الديني، في حياتنا اللبنانية وفي المقاومة الوطنية تحديداً، دور بالغ الأهمية في تعبئة الجماهير المؤمنة وفي جعلها تتحمل التضحيات، وهي التي تعرضت، خلال عشرات السنين، الى أشكال شتى من القهر المتعدد المصادر والأنواع. ولذلك فنحن نعتبر، دون افتعال، ان الشيوعيين وكل الديمقراطيين هم جزء من الحركة

الجماهيرية بكل أشكالها، بما في ذلك عندما تتداخل هذه الأشكال مع المشاعر الدينية، لأنهم جزء من معاناة هذه الجماهير. الا اننا نريد الاشارة الى محاولة اضفاء الطابع الديني على المقاومة بما لا يتفق مع الواقع وبما يؤدي الى جعلها حركة محصورة في طائفة واحدة، فضلاً عن ان ذلك من شأنه أن يقلل من طابعها ومحتواها الديمقراطيّين. ان التدخل من خارج العامل الديني العفوي، لأسباب سياسية ولأغراض وأهداف مباشرة وبعيدة المدى، يجعل من المبالغة في «تشييع» المقاومة أو في «أسلمتها» ظاهرة بالغة الخطورة لسببين على الأقل: **السبب الأول**، لأن مثل هذه المبالغة، في ظروف لبنان المعقدة، من شأنها أن تزيد في الصراع الطائفي وتعطّل عملية التطور الطبيعي لدور المقاومة في بلورة المفهوم الصحيح للوطنية اللبنانية، على انقاض المفاهيم المشوهة، وفي عملية التغيير الديمقراطي. **السبب الثاني**، لأن مثل هذه المبالغة من شأنها أن تخلق الظروف التي تساعد المخطط الاسرائيلي ـ التفتيتي وذلك بتحويل منطقة الجنوب الى منطقة صافية بانتمائها الطائفي.

الظاهرة الثانية هي ظاهرة تفتيت المقاومة، أي تحويلها الى عدة أنماط من المقاومة، الى عدة حركات، تتوزع على أساس الهوية السياسية أو الهوية الدينية والطائفية، أو الهوية الفكرية. وخطورة هذه الظاهرة تقوم في ما يمكن أن تتركه من تأثير سلبي على الدور التاريخي الكبير الذي لعبته المقاومة، ليس فقط في احبار العدو الاسرائيلي على الانسحاب تحت ضرباتها العسكرية وانتفاضاتها الجماهيرية وتحقيق الانتصار لنظرية الكفاح الشعبي المسلح ضد الاحتلال، بل كذلك في التأثير الذى مارسته على مجمل النضال الوطني والفعل الذي أحدثته في خلق تيار وطني شامل يعتبر اسرائيل عدواً لكل لبنان ولكل اللبنانيين، ويربط مستقبله ومستقبلهم بالعلاقة التاريخية مع البلدان العربية، بعامة، وسوريا، بخاصة. فقد نشأت المقاومة كحركة واحدة تتوحد في اطار المهمة التي وضعتها أمامها كل القوى، كل التيارات السياسية والفكرية بما فيها التيارات الدينية. وقد اكتسبت المقاومة أهميتها منذ البدء من كونها ارتفعت فوق الفئوية والحزبية وصهرت كل التيارات والاتجاهات والتنظيمات المنخرطة فيها في تيارها العظيم الجارف. ولذلك فإن العودة عن هذا الاتجاه في تطورها تشكل ظاهرة بالغة الخطورة على دورها الراهن ودورها المستقبلي.

الظاهرة الثالثة هي ظاهرة العودة، في حالات معينة، عن الأصول التي تميزت وتتميز بها حركة المقاومة، ظاهرة العودة الى أشكال الاستعراض للقوى وللسلاح ومحاولات خوض معارك مواجهة انطلاقاً من خطوط التّماس أو القصف على المناطق اللبنانية الخاضعة

للاحتلال. فالخطورة في هذه الظاهرة انها تثير ضد المقاومة الجماهير التي شكلت قوة احتضان لها من جهة، وانها تعطي لاسرائيل مبرراً في عملياتها الانتقامية من جهة ثانية.

الظاهرة الرابعة هي ظاهرة المبالغة في الاعلان الفئوي عن العمليات والشهداء وادعاء فريق ما القيام بعمليات لم يقم بها وتبني فريق ما لشهداء لا ينتمون اليه، والسعي من قبل بعض الفرقاء الى فرض الهيمنة، بوسائل مختلفة، بما في ذلك عن طريق القوة، على عمل المقاومة، وتقييد حرية الوطنيين، من الاتجاهات المختلفة، في ممارسة هذا الواجب الوطني العظيم.

هذه الظاهرات التي أشرنا اليها هي، في تقديرنا، ظاهرات مؤقتة، ولا سيما في تأثيرها على دور المقاومة وفعلها الحقيقي رغم ان بروزها قد خلق للمقاومة ظروفاً صعبة قبل التحرير وبعده لا تجوز الاستهانة بها.

من المقاومة الى التحرير
الأرض لمن يحررها

بدخول القوات الإسرائيلية الى العاصمة بيروت، بعد الحصار الطويل، بتاريخ ١٤ أيلول ١٩٨٢، بلغ الاحتلال الاسرائيلي للبنان ذروته. أكثر من نصف أراضي لبنان، بما في ذلك العاصمة، أصبح تحت الاحتلال. لم تكن اسرائيل بحاجة إلى أكثر من ذلك. ولكنها وصلت الى هذا الهدف بصعوبة كبرى. فلم يكن الإجتياح نزهة. وإذا كان شارون وبيغن وكل قادة اسرائيل قد حققوا هذا الحلم الذي راودهم زمناً طويلاً باحتلال عاصمة عربية، بيروت بالذات، التي هي أكثر من عاصمة وأكبر، فقد كان ذلك «انجازاً» باهظ الثمن. صحيح ان دخول القوات الاسرائيلية إلى بيروت كان، بالنسبة للإسرائيليين، نهاية لمرحلة في الحرب. إلا أنه كان، في الواقع، بالنسبة للوطنيين اللبنانيين والفلسطينيين، وللوطنيين العرب جميعاً، بداية لمرحلة جديدة. لم تكن تستطيع اسرائيل أن تفعل أكثر مما فعلت. كانت بحاجة لأن تستوعب انتصارها الصعب هذا وتهضمه. أمّا الوطنيون اللبنانيون الذين خسروا حرباً مُشرّفة هزمتهم فيها الآلة العسكرية الإسرائيلية والعنصرية الصهيونية وحلم التوسع الذي راود بني اسرائيل طويلاً على حساب الأرض العربيّة والحقوق القومية لشعوبها، فإنهم، أي الوطنيون اللبنانيون، قد أدركوا جيداً في هذه الحرب أنهم لا يواجهون عدواً من نوع واحد، بل إنهم يواجهون تحالفاً من الأعداء، من أنواع مختلفة يجمعهم هدف متعدد الجوانب يلتقي فيه العنصر الاسرائيلي بالعنصر الامبريالي الأميركي بالعنصر الرجعي العربي الذي يعبر في حقيقته عن نهج الخيانة عند البرجوازية العربية، في الموقف من المسألة

القومية، بدون حاجة إلى ديماغوجية. فكان على هؤلاء الوطنيين أن يحدّدوا طريق كفاحهم بوضوح، وأن يضعوا أمامهم هدفاً صعباً شاق المنال، وأن يسدّدوا ضرباتهم، بإتقان وشجاعة، ودون هوادة، وبحسم، وبدون تردّد، باتجاه هذا العدو، المحدَّدة أطرافه بدقة، من أجل الوصول إلى الهدف المنشود. وكان طبيعياً أن يكون الشعار الذي تم اختياره كشعار للمرحلة: التحرير، بكل ما تحمله هذه الكلمة من مضامين ووسائل كفاح. القرار، اذن، كان واضحاً لا التباس فيه. الحرب من أجل التحرير، بالوسائل المتاحة. وبذلك كانت تتلاقى وتتصادم، في آن معاً، نهاية مرحلة إحتلال اسرائيل للبنان وبداية مرحلة تحرير لبنان من هذا الإحتلال.

فكيف بدأت هذه المسيرة؟ وإلى أين وصلت؟

المقاومة كانت البداية، ثم تحولت المقاومة إلى حرب تحرير، ثم تحقق الحلم، خطوة خطوة، جزءاً جزءاً، ولم يبق إلا القليل، وهو القليل الصعب. وبات الوصول إلى الهدف على قاب قوسين أو أدنى.

تحرير بيروت وبداية الانحسار

أشرنا في القسم الأول الى الظروف التي وُلدت فيها جبهة المقاومة، والى القرار التاريخي الذي اتخذته الطليعة وحوّلته، فوراً، الى نوع من الكفاحية الثوريّة حقاً، الحاسمة في ثوريتها. لا يهمّنا هنا وصف ما حصل، فقد تحدثنا عنه في مكان آخر. ما يهمنا هو أن نتوقف عند الحدث التاريخي الذي كان تسجيلاً حيّاً لبداية مرحلة جديدة هي مرحلة ما بعد المزيمة وخسارة الحرب، مرحلة الاحتلال المتعدد الأطراف والجوانب: اسرائيل والكتائب وأميركا والمتعددة الجنسيات. وهي وقفة نحتاج اليها في درسنا وتحديدنا للشروط التي كان لا بدّ من انضاجها، في ظل أقسى الظروف وأصعبها، من أجل البدء في الهجوم المعاكس، في إطار عملية متكاملة غايتها إزالة الإحتلال وإزالة اثاره وإثبات جملة من الحقائق كاد التاريخ العربي المعاصر، الحافل بالهزائم والتراجعات، أن يُعطّل مفاعيلها. إذ سرعان ما أدّى احتلال ببروت، الى بروز أفكار ومقارنات حاولت أن تجعل من الهزيمة، حدثاً في مستوى

القدر الذي لا مفر منه. فكان لا بدّ من ردّ حقيقي على هذه الأفكار ورفض مطلق لهذه المقارنات من أجل أن يُعاد الإعتبار الى النضال الثوري العربي بتراثه الغني الحافل بالمعارك والإنتصارات. التحدي كان صعباً، ولا شك. إذ كيف كان يُمكن تصور الخروج من تحت الإحتلال وإسرائيل في ذروة انتصاراتها؟ ومع ذلك فقد حصلت المعجزة. ولم يكن للمعجزة أن تحصل، في تلك العتمة، لو لم تكن الرؤية أقوى من أن تحجبها أية عتمة وأي ظلام. فالطليعة عندما تتصدى، بحزم، للقيام بدورها، وعندما تحتل موقعها، فإنها تملك من الأدوات الفكرية والسياسية والكفاحية ما يمكّنها من صنع المعجزات. والمعجزة هنا هي تحدي الواقع والتصدي لتغييره والنجاح في إحداث هذا التغيير. كان لا بد لملحمة الحصار أن تثمر، أن تولد مقاومة من نوع جديد. فقامت جبهة المقاومة. ثم بدأت المقاومة تتسارع، عملية تلو عملية، دون تردد في اتخاذ القرار ودون ابطاء في تنفيذه. إذ أنّ المهمة السريعة كانت تتحدد في ذلك الحين بمنع الغازي المحتل من أن يستقر، وملاحقة قواته بصورة متواصلة، وفرض الارتباك الدائم في صفوفها.. فَرْضُ التعب على العدو، والمعاناة اليومية، والحذر الدائم، وايقاع الخسائر المادية والبشرية في صفوفه هو الأمر الذي كان ينبغي أن يحصل. فما أروع المقاومة وما أروع ما أنجزته في تحقيق هذه المهمة. عشرة أيام من الإنهاك كانت كافية لأن تُشعر هذا المحتل بأنه عاجز عن البقاء في العاصمة. عشرة أيام من المقاومة كانت كافية لأن تُشعره بأنّه مرفوض في عاصمتنا وان بقاءه فيها مستحيل. فخرج بالطريقة التي أصبح العالم كله يعرفها والتي سجل فيها شعبنا قدرته على الإنتصار، برغم ضعفه وضعف امكاناته وبرغم الهزيمة التي فرضت عليه وعلى القوى التي كانت تدافع عنه وعن حريته. وبخروج اسرائيل من بيروت يبدأ تاريخ من نوع جديد تظهر فيه الأمور بشكل معكوس. إسرائيل تدخل في مرحلة هزيمتها، بعد ذروة انتصارها، والمقاومة الوطنية تدخل في مرحلة انتصارها، بعد بلوغ القوى الوطنية ذروة الهزيمة.

بيروت تتحرّر من الإحتلال الإسرائيلي والاحتلال الاسرائيلي يبدأ انحساره. ذلك كان الحدث الكبير، وتلك كانت بداية التاريخ الجديد. غير ان بيروت المحرّرة لم تعد بعد التحرير الى الذين حرّروها. تسلّم أمرها وتسلّط عليها وقهرها حكم الهيمنة الكتائبية. واقتضى تحريرها التاني من هذا الحكم عاماً ونصف العام من النضال الشاق.

كان لا بد من الانتصار في حرب الجبل، ومن انتفاضة الضاحية وانتفاضة بيروت. وكان لا بد من النضال المتواصل لكي تستعيد بيروت حريتها الكاملة وعافيتها، وتعود

بكليتها الى القوى الوطنية التي دافعت عنها وقدمت الكثير من أجل تحريرها، لكي تعود الى موقعها الحقيقي دون أي التباس.

٣ تحرير الجبل وحرب الجبل

في الوقت الذي كانت فيه بيروت تتحرّر من الإحتلال كانت حرب الجبل تستعر، في ظل الإحتلال الإسرائيلي، على جبهتين: جبهة الصراع ضد القوى الفاشية وجبهة المقاومة ضد الإحتلال. غير أن تحرير بيروت قد أدخل جديداً الى هذه الحرب بجبهتيها. والجديد هو أن اسرائيل باتت تدرك، في ظل تعاظم المقاومة ضد قواتها، وفي ظل احتدام الصراع بين جيش الشهيد كمال جنبلاط والقوات الكتائبية، انه لا مجال للبقاء طويلاً في لبنان، في شكل احتلال مباشر. ولذلك فقد خططت لخلق ظروف جديدة، تعقب انسحابها الاضطراري ذات يوم، ظروف يُصبح معها العمل الوطني أكثر صعوبة، وتصبح العلاقة بين اللبنانيين، طوائف وقوى سياسية، أشد نفوراً وتباعداً، وتصبح وحدة الوطن في أخطر مرحلة من مراحل التفكك.

وقد كان طبيعياً أن يجري التفكير بعمق في الطريقة التي كان على القوى الوطنية، بشكل عام، وفي منطقة الجبل، بشكل خاص، أن تواجه فيها هذه الخطط الاسرائيلية وان تعطّلها وتضربها وتضرب كل أدواتها من هنا الأهمية القصوى التي كانت ترتديها ضرورة الحفاظ على الوحدة الموضوعية التي نشأت بين هذين الشكلين المتلازمين من الحرب، برغم الاستقلالية النسبية للواحد منها عن الآخر: الحرب ضد القوى الفاشية التي قَدِمَتْ الى الجبل، بفعل الإحتلال الاسرائيلي، من أجل الهيمنة عليه وضرب ما يمثله من قلعة للوطنية، وحرب الأنصار ضد قوات الاحتلال الاسرائيلي. وهما شكلان لحرب واحدة هي حرب تحرير الوطن من الاحتلال الاسرائيلي ومن الهيمنة الكتائبية، الحرب من أجل التغيير الديمقراطي، وتثبيت الهوية العربية. في هذه الحرب برزت ظاهرات غريبة نشط المُنظّرون لتفسيرها واستخلاص الاستنتاجات الخاطئة، انطلاقاً منها، حول مستقبل العمل الوطني وصولاً الى القول بأن حرب الجبل، في جانبها المعادي للكتائب، هي حرب محض طائفية، وأنها، بسبب ذلك، مفصولة، بالمطلق، عن حرب المقاومة التي هي، في جوهرها، وفي

أهدافها القريبة والبعيدة، وفي أشكال ممارستها للكفاح، حرب وطنية ديمقراطية. لم تكن هذه النظريات علمية في تحليلاتها، ولم تكن صحيحة في استنتاجاتها .ولقد قلنا في الرد عليها بأنه رغم رفضنا للظاهرات الغريبة التي برزت في هذه الحرب لا سيما القتل على الهوية الطائفية الذي طال العشرات من المسيحيين الوطنيين بمن فيهم الشيوعيون وحتى الاشتراكيون، وتميزنا، كديمقراطيين، عن الشكل الطائفي الذي فرضته الحرب الأهلية، ومنها الظروف التي في ظلّها، اندلعت حرب الجبل. قلنا، بجزم وقطع، ان لهذه الحرب مضموناً ديمقراطياً لا يقلل من أهميته أي خلل من النوع الذي شهدناه. فجيش الشهيد كمال جنبلاط الذي تنخرط في صفوفه قوى ديمقراطية متعددة الإنتماءات السياسية والفكرية والطائفية، بما في ذلك الشيوعيون، إنّما كان يستهدف في محاربته للقوات اللبنانية تسديد ضربات مباشرة ضد القوى السياسية والطبقية والطائفية التي استندت إليها اسرائيل في غزوها للبنان وفي احتلالها لأراضيه. فبالقضاء على هذه القوات وطردها من الجبل يتم توجيه ضربه في الصميم الى الإحتلال الاسرائيلي. وبذلك تكون هذه الحرب، موضوعياً، جزءاً لا يتجزأ من المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي، وعامل تسريع لخروج قوات الإحتلال من هذه المنطقة. أي ان هذه الحرب تصبُّ مباشرة في خدمة أهداف المقاومة التي تكافح من أجل تحرير الأرض من الاحتلال الاسرائيلي ومن كل أثر له. وفي ظل هذه القناعة، في ظلّ وحدة الكفاح ووحدة جبهتيه، توسعت رقعة عمليات المقاومة وشملت كل مناطق الجبل. وترافقت هذه العمليات مع انتفاضات شعبية موجهة ضد الإحتلال شملت عدة قرى وشكلت البداية الأولى للإنتفاضات التي أصبحت فيما بعد واحدة من أبرز وأهم الظاهرات الشعبية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، انتفاضة برجا وانتفاضة بيصور.

ولم يكد يمضي عام واحد على الاحتلال حتى كانت قواته تنسحب من الجبل يطاردها أبطال المقاومة الوطنية. وقد كان ذلك بداية لمرحلة من الحسم في الصراع حول مصير منطقة الجبل، مرحلة بالغة في الدقة، بالغة في الأهمية، كانت بداية النهاية في حرب الجبل التي تمكن فيها جيش الشهيد كمال جنبلاط وكل القوى الوطنية التي ساهمت في هذه الحرب من أن تحسم الصراع فيها لصالح تحرير الجبل تحريراً نهائياً من الاحتلال الاسرائيلي، ومن محاولات السيطرة الكتائبية، المرتبطة بإسرائيل، عليه. وقد كان الثمن باهظاً حقاً. فثمن الحرية دائماً باهظ. لقد عادت الأرض الى أصحابها، الذين حرّروها. وأعطى هذا الانجاز للمقاومة مزيداً من القوة ومن العزم والتصميم على متابعة كفاحها حتى التحرير النهائي لكامل الأرض.

٣ انتفاضتا بيروت والضاحية وسقوط اتفاق ١٧ أيار

تحرير الجبل كان، إذن، محطة أساسية في الحرب الوطنية والحرب الأهلية، كان منعطفاً. وعندما تحرّر الشحار الغربي توفرت ظروف أفضل لكي تتحرّر بيروت من الهيمنة الكتائبية. إذ أن انتفاضة الضاحية، عندما كانت حرب الجبل في مرحلتها الحاسمة، لم تكن تتوفر فيها شروط تسمح لإنتفاضة بيروت الأولى بأن تحقق نجاحها الكامل. تلقت الضاحية ضربات وحشية موجعة وفشلت انتفاضة بيروت الأولى. ولكن الشروط كانت تتوفر أكثر فأكثر للنجاح في تحقيق انتفاضة السادس من شباط، وهي الشروط التي استكملت بتحرير الشحار الغربي، وتحقيق الانتصار النهائي في حرب الجبل. هذا الانجاز الكبير بتحرير بيروت والضاحية، بعد تحرير الجبل، من هيمنة الحكم الكتائبي شكل تحوّلاً بالغ الأهمية في الحرب الأهلية وفي تطور المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي. وعلى أساس هذا الإنجاز، وبالإستناد اليه، تعاظمت الحركة المعادية للإحتلال الاسرائيلي ولحكم الهيمنة الكتائبية وضد اتفاق السابع عشر من أيار وضد التدخل الأميركي والأطلسي السياسي والعسكري. وكان لا بد لهذه الحركة أن تبلغ ذروتها بإسقاط اتفاق السابع عشر من أيار، كرمز للإحتلال الاسرائيلي والتدخل الأميركي ولحكم الهيمنة الكتائبية. إذن فبمقدار ما كان للمقاومة من تأثير على هذا التطور السريع في الحرب الأهلية بمقدار ما كانت هذه الانجازات ذاتها تعطي للمقاومة دفعاً جديداً.

ان اسقاط اتفاق السابع عشر من أيار يشكل بداية لاتجاه جديد في الصراع القومي بين الحركة الوطنية الثورية العربية وبين الصهيونية. إنه الاتجاه الذي يؤكد انّ مقاومة العدوان الإسرائيلي والنضال لإزالة آثاره ممكنان، وانّ الهزائم المتكررة لم تكن مبررة، ولم تكن قدراً بالنسبة للنضال الوطني العربي ضد هذا العدوان. بل إنّ انحسار الاحتلال الاسرائيلي المتواصل في لبنان واسقاط اتفاق السابع عشر من أيار الموقَّع بين اسرائيل التي تحتل الأرض والحكم الكتائبي الذي جاء الى السلطة بقوة هذا الإحتلال، بمشاركة ودعم وضمانة من قبل الولايات المتحدة الأميركية التي استدعت أساطيلها الى المياه اللبنانية واستخدمتها في الصراع الجاري بين اللبنانيين في إطار الحرب الأهلية، إن ذلك يشكل انعطافاً حقيقياً وتغيراً جوهرياً في النزاع العربي الاسرائيلي. وهو قد حسم، في الواقع، الجدال المصطنع الذي كان

يُثَارُ من بعض القوى حول البدائل والخيارات في موضوع التحرير. إذ أنّ أصواتاً من اتجاهات مختلفة، من داخل لبنان ومن خارجه، ارتفعت، في شكل استهجان واحتجاج ضد خيار المقاومة كشكل وحيد للتحرير، واعتبرت ذلك مغامره. كان في رأي هؤلاء، في ظروف لبنان، وفي ظروف العالم العربي القائمة، ان الشكل المجدي لتحرير الأرض هو، تحديداً، الدخول في المفاوضات من موقع المهزوم وصولاً بها الى نهايتها، أي الى توقيع اتفاق، معروف سلفاً بانه اتفاق مذل، ولكن لا خيار للمهزوم من أن يوقع مثل هذا الاتفاق المذل لكي يُخرج قوات الاحتلال من أرضه. وقد كان واضحاً عند بعض المنظرين لهذه السياسة ولهذا الموقف، وهم السلطة وأركانها والدائرون في فلكها، والانهزاميون والبائسون، ومعهم بعض العرب، انّ انتصار هذه النظرية من شأنه أن يثبت اتجاه بعض الأنظمة العربية والجناح اليميني في منظمة التحرير الفلسطينية الباحث عن الحلول للمسألة الوطنية في الذهاب الى العدو القومي والاتفاق معه، وهو ما عبّرت عنه اتفاقيتا كمب دايفيد واتفاق عمان، فيكون بذلك توقيع اتفاق من نوع اتفاق السابع عشر من أيار، أو ما كانت ترمي للوصول اليه مفاوضات الناقورة، فيما بعد، مبرراً جديداً للانخراط الرجعي العربي والفلسطيني في نهج الانحراف والخيانة. وهو النهج الذي هدفت اليه اتفاقيات كمب دايفيد، وقاد الى تطبيع العلاقات مع اسرائيل، ثم التحالف معها لاحقاً ضد الحركة الوطنية التوربة العربية وضد المصالح القومية، والانصياع للمخطط الأميركي الرامي الى بسط السيطرة المطلقة على المنطقة العربية واخضاعها والتحكم بمصائر شعوبها.

إنتفاضتنا ببروت والضاحية وتحرير الشحار الغربي، بعد تحرير الجبل، كانت، إذن، الأساس، ليس فقط لإسقاط اتفاق السابع عشر من أيار، بل كانت نقطة انطلاق جديدة وعامل تغيير جوهري في الحرب الأهلية وفي المقاومة الوطنية ضد الاحتلال التي هي جزء من هذه الحرب بالغ الأهمية والتأثير.

٤ المقاومة تسكت نيوجرسي وتطرد المارينز

لم يكن أمراً عادياً أن يتحول الوجود الأميركي الأطلسي في لبنان الى قوة تدخل عسكري في الحرب الأهلية، من جهة، وقوة دعم للإحتلال الاسرائيلي ولأهدافه في لبنان،

من جهة ثانية. كان يُشير ذلك الى تطور خطير في الوضع على صعيد المنطقة وعلى الصعيد الدولي. وكان لا بد للقوى الوطنية أن تحسب، في مواجهتها لهذا الواقع الخطير، حساباً لا يجوز الخطأ فيه. ولذلك لم يكن سهلاً اتخاذ القرار في قيام حركة مقاومة تتصدّى للمارينز، في الوقت الذي كانت فيه هذه القوات تدخل تدريجياً في الصراع السياسي والعسكري وتستخدم أسلحتها الثقيلة لضرب المواقع الوطنية في بيروت وا لضاحية والجبل. كان القرار في الردّ على العدوان الأميركي بمستوى القرار في قيام حرب الأنصار ضد الاحتلال الاسرائيلي. صحيح ان مثل هذه القرارات هو صعب، دائماً. لأن الحسابات فيه، مهما بلغت دقتها، لا تستطيع أن تُعطي جواباً قاطعاً حول ما ينبغي القيام به، وحول النتائج، فيصبح ،لذلك، عنصر المغامرة جزءاً من القرار.

وفي مثل هذه الحالات لا بد من مقاومة ما. اذ ان هذا النوع من المقاومة، محسوب له، دائماً، حساب ما، في العمل السياسي، وفي العمل العسكري. وبدونه تفقد الحركة الوطنية الثورية قدرتها على المبادرة.

كان في تقديرنا، آنذاك، ان الاميركيين عاجزون عن القيام بأكثر مما قاموا به، عاجزون عن المغامرة بإجتياح لبنان على غرار ما فعلت إسرائيل، تحديداً. كان واضحاً، بالنسبة لنا، على ضوء التحليل السياسي للوضع في المنطقة وعلى الصعيد العالمي، ان مثل هذا الإجتياح الأميركي سيكون صعباً، بل شبه مستحيل، في ظل ما شكّله غزو اسرائيل للبنان واحتلالها لقسم كبير من أرضه، من أزمة عميقة، ومن خسائر، ومن اضطرار للإنسحاب شديد الكلفة على اسرائيل نفسها وحتى على أميركا، من الناحيتين السياسية والعسكرية في لبنان، أولاً، وفي منطقة الشرق الأوسط وفي العالم. ذلك أن الاجتياح الأميركي لن يكون نزهة. ولأن مثل هذا الاجتياح سيؤدي الى كارثة في علاقات أميركا بشعوب البلدان العربية وبأنظمتها كافة، بما في ذلك الأنظمة الأكثر رجعية بينها، والأكثر ارتباطاً، من حيث المصالح، بالاحتكارات الأميركية. وقد كانت الادارة الأميركية تعرف كل هذه الأمور جيداً.

في ضوء هذا التقدير كان القرار الوطني اللبناني بالتصدي للتدخل الأميركي، قراراً صحيحاً، لا يقبل النقاش والتأجيل. وكان على القوى الطليعية أن تتصدى للمهمة. فكانت العملية الأولى التي قام بها الشيوعيون. ثم تلتها العمليات الأخرى ضد قوات المارينز. ودخلت كل القوى في المعركة ضد هذا الشكل الفظّ من التدخل الأميركي الأطلسي. وتطورت هذه الحرب وتعددت أطرافاً وأشكالاً ونماذج ومبادرات، وصولاً الى تفجير مقر

قيادة المارينز في بيروت الذي سقط فيه ٢٨٠ قتيلاً، فضلاً عن مئات الجرحى. ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبحت قذائف نيوجرسي، التي جرى التهويل بها كثيراً، مثل سائر القذائف لا تخيف أحداً ولا ترهب، خصوصاً، الأبطال الشجعان الذين صمموا على النضال من أجل تحرير الأرض من كل محتليها وقاهريها وبذل كل التضحيات الضرورية في هذا السبيل، مهما عظمت. لقد اسكتت المقاومة مدافع نيوجرسي وفرضت على المارينز الخروج من بيروت مع الأسطول الأميركي في أجمل صورة للهزيمة يُمنى بها الغازي المحتل لأرض الآخرين. تذكرنا يومها، باعتزاز، كيف خرج الأميركيون من سايغون عندما دخلتها القوات الفيتنامية النورية الظافرة.

ذلك أيضاً شكّل رافداً من روافد المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي، بالغ الأهمية عميق التأثير، وأعطى للمقاومين الأبطال ثقة لا حدود لها بالنصر في حربهم الوطنية التحرريّة العادلة.

٥ تحرير صيدا والبقاع الغربي ـ تحرير الجنوب

لقد تحوّل فعل المقاومة الى الشكل الرئيسي للنضال من أجل التحرير. وبات على اسرائيل أن تخطط لنوع آخر من الوسائل في تحقيق هدفها الذي لم تتخل عنه في لبنان، برغم انكفائها. لقد كان الانسحاب من صيدا ومنطقتها، ومن البقاع الغربي في نفس الوقت، بداية النهاية في انسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان. ولكنها ظلت تحاول، وهي تنسحب، أن تعمق الشرخ بين اللبنانيين، طوائف ومناطق وجماهير وقوى سياسية، أملاً منها في أن تخلّف وراءها، دائماً، وفي كل منطقة، وضعاً تصعب فيه الحياة ويستحيل التعايش، وضعاً يُصبح معه تحرير الأرض من قوات الاحتلال أمراً غير ذي معنى، يفقد مضمونه الأساسي، ويخلق لدى المواطنين مقارنات فجّة، غير طبيعية، غير مُنتظرة، تتعارض مع المطامح والأحلام بين الحياة تحت الإحتلال والحياة في ظل التحرير. وفي الواقع فإن هذا التخطيط الاسرائيلي الجهنّمي كان، على الدوام، نهجاً ثابتاً في سياسة قوات الاحتلال بدءاً بمجازر صبرا وشاتيلا وصولاً الى الوضع القائم في جزين والشريط الحدودي. وهذا ما شهدناه مباشرة غداة تحرير صيدا فيما نشأ، بفعل التدخل الاسرائيلي واعتداءات

القوات اللبنانية المرتبطة بها، من وضع شديد الصعوبة في منطقة شرقي صيدا وفي منطقة جزين. وكانت القوات الاسرائيلية وعملاؤها، قبيل تحرير صيدا، في محاولتها المجرمة لاغتيال المناضل الوطني مصطفى سعد، تخطط لإفراغ هذه المدينة من الدور الوطني الكبير الذي يعود لها ويعود لهذا المناضل الوطني الصيداوي الجنوبي، في قيادة العمل الوطني، فيأتي خروج القوات الاسرائيلية من صيدا ومنطقتها مليئاً بالصعوبات التي كانت إسرائيل تسعى لكي تجعل القوى الوطنية تغرق فيها. وفي مقدمة ما كانت ترمي اليه تأجيج الصراعات بين القوى الوطنية نفسها. غير أن هذا المخطط الإسرائيلي الذي ترافق مع عمليات إنتقامية ضد العديد من قرى الجنوب والبقاع الغربي المحرّرة لم يُفلح في جعل أبناء هاتين المنطقتين يتحولان عن متابعة المقاومة وتحويل منطقتيهما إلى مراكز انطلاق لهذه المقاومة في عملياتها الثابتة الجريئة المتواصلة وفي الانتفاضات الشعبية ضد الإحتلال. ولم تؤدِ الصعوبات التي واجهت المواطنين في المناطق المحرّرة وعلى حدودها، رغم خطورة هذه الصعوبات وشدتها، وما خلفته من خيبات، أحياناً، الى أي نوع من أنواع التراجع عن الابتهاج بهذا الانجاز، أي بتحرير هاتين المنطقتين، وعن التمسك بالهدف الأساس وهو تحرير كامل التراب دون قيد أو شرط. إنَّ هذا الموقف الوطني الأصيل هو الذي مكن المقاومة من الاستمرار في كفاحها وتحمل جميع الصعوبات، وفرض الانسحاب على القوات الاسرائيلية من البقاع الغربي وراشيا بكاملها ومن القسم الأكبر من الجنوب.

لقد بدأ الحلم الكبير يتحقق، حلم استعادة الأرض وطرد المحتل الغازي منها، حلم استعادة الجنوب، هدف المطامع الاسرائيلية الدائم، الى أهله والى الوطن. ولكن المعركة تبقى وتستمر وتتواصل لأنّ جزءاً عزيزاً من الأرض ما يزال تحت الاحتلال، لأن القوات الاسرائيلية ما تزال، مع عملائها في جيش لحد، تمسك بمنطقة الشريط الحدودي وتتحمّل الخسائر المادية والبشرية وترفض الخروج منها.

٦ في الشريط الحدودي تتجسد القضية

ليس المهم في موضوع الشريط الحدودي حجم الأرض وعدد السكان فيها، فتلك مسألة

ثانوية. لأن الأرض التي تحررت من الاحتلال تشكل القسم الأكبر من هذه الأرض. المسألة تكمن في أهداف اسرائيل ومخططاتها إزاء هذا الجزء المتبقي من الأرض تحت احتلالها أو تحت احتلال القوى العميلة المرتبطة بها. المستندة اليها. وواضح من كل سلوك اسرائيل السياسي، ومن ممارسات قوات الإحتلال، أنّ ثمة تخطيطاً لإبقاء هذا الجزء من الأرض قيد البحث، في المرحلة الأولى، والمفاوضة عليه، والضغط بواسطته من أجل الوصول الى اتفاق ما. فاسرائيل لم تتخل عن فكرة المفاوضة من أجل الوصول الى اتفاق، رغم فشل تجربة مفاوضات الناقورة، ورغم تعاظم المقاومة واضطرار قوات الإحتلال الى الانسحاب من القسم الأكبر من أرض الجنوب. ولا يُلغي هذه الفكرة ما يصدر عن القيادة الصهيونية، أحياناً، تصريحاً أو تلميحاً، من أفكار تتناقض مع هذه الفكرة مؤدّاها ان اسرائيل قد تنسحب نهائياً من الشريط الحدودي وتفرض حماية «مصالحها» في الجنوب، من وراء الحدود، بواسطة قوتها العسكرية الضاربة أو أن تُبقي جيش العميل لحد يتحكم بهذا الجزء من الجنوب وتحميه، أيضاً، من وراء الحدود، أو من داخل الحدود عند الضرورة. نقول ذلك استناداً الى ما يجري من نقاش داخل اسرائيل وفي أماكن أخرى، في أميركا والدول الغربية، بما في ذلك في أروقة الأمم المتحدة، حول مصير القوات الدولية ودورها الخ... فإسرائيل لا تزال تطمح في أن تتوصل الى اتفاق، مع لبنان. وهي تراهن على تطورات داخلية وتطورات في المنطقة تتيح لها امكانية الوصول الى مثل هذا الاتفاق.

لماذا هذا الاصرار الإسرائيلي على التشبث بالبقاء في هذا الجزء الصغير من أرض الجنوب؟

ثمة أسباب عديدة نتوقف عند أهمها:

السبب الأول هو أنّ اسرائيل لا تستطيع أن تتحمل نتائج انسحابها الكامل من لبنان، في ظل تعاظم حركة المقاومة الوطنية وبتأثير دورها والتفاف الجماهير حولها، في وقت تصل فيه الحرب الأهلية اللبنانية الى منعطف حاسم في تطورها يفتح آفاقاً حقيقية أمام حل وطني ديمقراطي للأزمة. إن انسحاب اسرائيل الكامل، دون شروط أو اتفاقات، في ظل هذه الظروف، يؤدي الى الغاء دورها في لبنان، بشكل كامل.

السبب الثاني، هو ان اسرائيل لا تستطيع أن تنسى انها، مع بداية الحرب الأهلية، تمكنت من أن تفتح في منطقة الحدود، وفي أكثر من مكان، باباً للعلاقة والإتصال بينها

وبين سكان هذه المنطقة. لا تستطيع اسرائيل أن تنسى «الجدار الطيب». فهل تنتهي الحرب وتنتهي كل امكانات اسرائيل في السيطرة على لبنان وفرض شروطها على تطوره بما في ذلك في هذا الشريط الحدودي بالذات، شريط «الجدار الطيب»؟ لذلك فإنها ستسعى، بكل امكاناتها، لكي تُبقي على الحد الأدنى من وجودها في لبنان واختيار شكل معين لهذا الوجود في هذه المنطقة بالتحديد.

السبب الثالث هو ان اسرائيل لم تتخل عن مطامعها في المياه اللبنانية وسعيها الدائم لتأمين شروط فرض سيطرتها على قسم من هذه المياه ولو اتخذ ذلك شكل اتفاق يتم التوصل اليه بالمفاوض. فضلاً عن انّ مطامع اسرائيل لا تنحصر في المياه بل هي تتعدى ذلك الى أجزاء من الأرض في الجنوب وحتى في البقاع الغربي.

السبب الرابع هو ان اسرائيل تريد أن تحوّل، على الأقل، هذا الجزء من الجنوب الى منطقة حسن جوار. ولذلك فهي تسعى لتحقيق هذا الغرض بأشكال ووسائل شتى، بما في ذلك عن طريق تكثيف العملاء عدداً ونوعاً وعدة. فإذا فشلت في ذلك فعن طريق إثارة الصراعات والنزاعات بين السكان على أساس طائفي وعائلي وسياسي. فإذا فشلت في ذلك أيضاً فعن طريق تشجيع اتجاهات ما ضد اتجاهات أخرى مما يجعل امكانية قيام حركة وطنية ديمقراطية منسجمة في هذه المنطقة أمراً صعباً، أمراً مليئاً بالمخاطر.

السبب الخامس هو انها تريد أن تعطي لمنطقة الحدود طابع مسألة دولية، فيكون الوجود الدولي، عبر قوات الأمم المتحدة، مختلفاً عما هو عليه، من حيث الهدف، ومن حيث رقعة الأرض، ومن حيث شكل الوجود، وصولاً الى جعل هذه القوات الدولية أقرب الى شكل قوات متعددة الجنسية لأميركا دور أساسي في اختيار البلدان المشاركة فيها، خارج نطاق المراقبة.

لهذه الأسباب، ولأسباب أخرى، تتحوّل منطقة الشريط الحدودي الى منطقة تتجاوز في أهميتها حجمها الصغير، لتتجسد فيها قضية الجنوب كله وقضية النضال من أجل تحريره من الاحتلال الاسرائيلي ومطامعه. من هنا الأهمية القصوى لتعاظم المقاومة وعملياتها العسكرية داخل هذا الشريط ضد قوات الاحتلال وضد قوات العميل لحد وسائر العملاء. من هنا أيضاً ضرورة أن تبذل القوى الوطنية كل جهودها، ليس فقط باتجاه المقاومة وتعزيزها وتدعيمها وتوسيع نشاطها، بل، كذلك، باتجاه تعطيل كل ما أشرنا اليه من

مخططات ترمي اسرائيل من ورائها الى الاستمرار في ممارسة تأثيرها في هذه المنطقة، مباشرة أو بالواسطة، من داخل الحدود أو من خارجها. ولا شك أنّ دور العمليات العسكرية، بما في ذلك العمليات الاستشهادية الأخيرة، وتزايد عددها، وهي العمليات التي تشارك فيها كل القوى الوطنية، يشكل أهم الوسائل للتصدي لكل هده المخططات لإحباطها. وتحتل العملية التي دمرت اذاعة العميل لحد موقعاً أساسياً في هذا التصدي.

٧ الأرض لمن يحررها

إن السنوات الثلاث التي انقضت من عمر المقاومة هي سنوات غنية بالتجربة، حافلة بالانجازات. وهي تثبت ان المقاومة لم تكن مجرد مقاومة، أي حركة تتألف من مجموعات انصارية، أو من أفراد تضرب قوات الاحتلال وتختفي ثم تعود ثانية، بل هي، قد تحوّلت، في تطورها، الى حركة، الى ثورة، من أجل التحرير، لا يحدّد مضمونها ولا يعطيها هذه الصفة شكل نضالها وحده، بل يحدّد هذا المضمون ويعطيها هذه الصفة الهدف الذي وضعته المقاومة أمامها، من جهة، والانجاز الذي حققته بتحرير القسم الأكبر من الأرض، من جهة ثانية، والتأثير الذي مارسته في تطوّر الحرب الأهلية، من جهة ثالثة. لذلك لا نجد، قط، ما يدعو الى التردد بإطلاق صفة الحركة الوطنية الثورية التحرريّة على المقاومة.

غير أنّ المسألة لا تنحصر في تحديد المضمون وتحديد الصفة. بل إن المسألة التي علينا أن نتصدى لها هي أشمل من ذلك. انها تتعلق بموضوع انجاز التحرير، من جهة، وتحديد صيغة ما بعد التحرير، من جهة ثانية. وتتلخص المسألة في السؤال: لمن تعود الأرض بعد تحريرها؟

وجوهر السؤال يكمن في أنّ أصواتاً عديدة قد ارتفعت، قبل البدء بتحرير الأرض، ولدى بروز امكانيات حقيقية في الوصول الى هذا الهدف، طالبت بأن تسلم هذه المناطق الى الدولة، وهي كتائبية. وكانت تمارس هيمنتها وتسلّطها، بأشكالها كافة. بل كانت، في ذلك الحين قد عقدت اتفاق السابع عشر من أيار وتابعت نهجها في معالجة الأزمة اللبنانية، على أساسه. وقد كان الجواب الوطني، الملتزم بالمقاومة كشكل وحيد للتحرير واضحاً ومحدداً. وجوهر الجواب يتلخص في أن تعود الأرض بعد التحرير، لمن يحررها. وأي

شكل للسلطة المباشرة غير سلطة القوى الوطنية لم يكن مقبولاً به. اذ كيف يمكن ان تحرر المقاومة الأرض من الاحتلال ثم تعود فتسلمها الى عملاء هذا الاحتلال؟ رفضت كل الحجج وكل المبررات على اختلافها. ولم يكن ثمة خلاف حول دور ما لأجهزة الدولة في تسيير شؤون المناطق المحررة. فالمسألة كانت، ولا تزال تنحصر، في موضوع السلطة السياسية. وقد كان الهم الذي حكم أفكار القوى الوطنية والديمقراطية، آنذاك، هو ان هذه السلطة ينبغي أن تنتقل، في مرحلة التحرير، الى القوى التي تصنع التحرير، لا الى سواها. ونستطيع القول، اليوم، بأن هذه العملية قد جرت، من حيث الأساس، بعد التحرير، في هذا الاتجاه. فإن الأرض المحرّرة قد عادت، في الحقيقة، الى القوى التي ساهمت في تحريرها.

غير انّ المسألة لا تنتهي عند هذا الحد. وظل النقاش متواصلاً. ونرى ان ضرورة استمراره تتطلبها المهات المطروحة أمام القوى الوطنية في مرحلة ما بعد التحرير. هنا يبرز سؤال جديد: هل السلطة، الآن، هي فعلاً، في المناطق المحرّرة، لكل القوى التي ساهمت في التحرير؟.

الجواب ليس واحداً بالنسبة لكل المناطق. فثمة مناطق تتميز فيها الأوضاع بأنّ لجميع القوى دوراً في هذه السلطة يتراوح حسب الدور الذي لعبته كل من هذه القوى في مراحل ثلاث: مرحلة ما قبل الاحتلال في النضال الوطني الديمقراطي، ومرحلة الاحتلال في عمل المقاومة العسكري والسياسي، وفي مرحلة ما بعد التحرير في متابعة المعركة من أجل التحرير وفي شتى أشكال النضال الأخرى. غير أن منطقة الجنوب هي أكثر المناطق التي يجري النقاش حول الوضع السائد فيها، ولا نستثني بيروت، بالطبع. إذ انّ السلطة السياسية ليست هنا لكل القوى الوطنية، وإن تكن لفريق أساسي فيها. وفي هذا السياق يتمحور النقاش، فيما يتعلق بالجنوب، حول الأمور الآتية:

الأمر الأول هو في الجواب حول ما إذا كان التيار الديني الاسلامي يملك الحق في أن يفرض على سكان المناطق المحرّرة، وعلى القوى الوطنية فيها تحديداً، نظمه وقوانينه وشرائعه في الحياة والوجود وطرق العيش. وبالطبع فإن الجواب على هذه المسألة يأتي، إمّا تصريحاً أو تلميحاً، بالجزم بأن الحرية هي حق للأفراد والجماعات، وان لا حقّ لأحد بأن يفرض قوانينه ومعتقداته على الآخرين بقوة السلاح أو بوسائل أخرى، فضلاً عن أن التيار الديني الاسلامي لم يكن في حرب التحرير إلا جزءاً من قوى التحرير ليس أكثر. وليس

صحيحاً أن انخراط المواطنين في الجنوب باسم الوطنية وباسم المشاعر الدينية في الانتفاضات الجماهيرية ضد الاحتلال عائد الى ما للتيار الديني الاسلامي المشار اليه من نفوذ. فللتيار الديني، وهو تيار سياسي في الأساس، موقع معين لا تجوز المبالغة في حجمه. وهو لا يملك السلطة على جماهير المؤمنين ولا يتحكم بسلوكهم ولا يخضعهم لنفوذه السياسي.

الأمر الثاني هو في التساؤل المشروع عمّا إذا كانت حركة أمل، وهي الحركة الأوسع جماهيرية في الجنوب بين القوى الوطنية، تملك الحق بأن تسيطر، وحدها دون سواها من القوى الوطنية، على الوضع السياسي والعسكري فتحرم القوى الوطنية الأخرى من حق العمل بحرية، وأحياناً حق الوجود، فضلاً عن الحق الوطني المقدس في ممارسة الكفاح المسلح في إطار المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي. ولا ينتقص هذا السؤال من الدور الكبير لحركة أمل سواء في المقاومة المسلحة أم في تحريك الجماهير، في المعارك الوطنية المختلفة، بل انه ينطلق من هذا الاعتبار الحقيقي لحركة أمل ودورها في هذا الكفاح. فإنه من غير الطبيعي،أية كانت الاعتبارات، أن تحتكر هذه الحركة الوطنية الجماهيرية الكبيرة حق العمل والوجود، بشتى أشكالها، وتحجبها عن الآخرين.

الأمر الثالث هو أن القوى الديمقراطية الأخرى، وفي مقدمتها الشيوعيون، إنما تكتسب حقها بحرية العمل والوجود في منطقة الجنوب بالنضال المتعدد الأشكال الذي يمتد في التاريخ الى عشرات السنين قادت فيه هذه القوى الكفاح الوطني والديمقراطي في أصعب الظروف وحملت الى جماهير هذه المنطقة العديد من المكاسب والإنجازات. لقد انتزعت هذه القوى الديمقراطية، بكفاحها المتواصل، مع هذه الجماهير وعلى رأسها، ممارسة النشاط بحرية لكل القوى الوطنية، وانتزعت مكاسب لها بحق العلم وحق العمل وحق الاستفادة من الخدمات الاجتماعية، في مواجهة تسلّط الاقطاع، وفي وجه سياسة الدولة، وفي وجه العدوان الاسرائيلي على السواء. ولذلك فإن حق هذه القوى في ممارسة وجودها ونشاطها ومشاركتها في قيادة العمل الوطني، وهو ما أكّدته مساهمتها الأساسية في المقاومة الوطنية بالذات، إنما هو حق لا يمكن تجاهله أو تجاوزه أو الانتقاص منه.

الأمر الرابع هو ان الحل الصحيح لهذه المسألة التى سادت في المرحلة الأولى، بعد التحرير، انما قدمته الصيغة الجديدة للعمل الوطني، صيغة التحالف في إطار جبهة الاتحاد الوطني بين جميع القوى الوطنية التي التقت وتلتقي على برنامج للتحرير الوطني وللتغيير الديمقراطي. وعلى هذه القوى أن تعرف كيف تترجم هذا التحالف في كل منطقة، بما في

ذلك في الجنوب، من أجل أن يصبح شعار الأرض لمن يحررها شعاراً لا التباس فيه من أي نوع.

إن هذه الأمور التي نشير اليها إنّما تعطيها أهميتها محاولات اسرائيل الدائمة لجعل المناطق المحرّرة مناطق قيد البحث، مليئة بالمشاكل والصعوبات، تمزقها النزاعات الفئوية، الطائفية والمذهبية والحزبية، الأمر الذي يمكن أن يؤدي، اذا ما استمرت الحالة على هذا النحو، الى بروز تيارات رجعية تستند الى كل هذا الوضع لتشوّه صورة الوطنيين وصورة البرنامج الذي يطرحونه من أجل التحرير والتغيير. وهذه القوى لا تنحصر في القوى المتأثرة بنهج الكتائب، ولا في تلك القوى المتمسّكة بالنظام الطائفي، بأشكاله كافة، بل كدلك، بالقوى التي ترتبط بنهج الانحراف اليميني في منظمة التحرير الفلسطينية التي تلتقي مع كل هذه القوى في ممارسة التخريب، بكل أنواعه.

المسألة التي تواجهنا، في هذه المنطقة، وفي كل منطقة تتحرر من الاحتلال، هي مسألة متعددة الجوانب نلخصها في المهات المباشرة الآتية:

١ ـ التمسك بالأرض المحررة تمسك الحر بأرضه المستعادة، بعد كفاح طويل ونضحيات، والصمود فيها، بثقة أكبر وأكثر عمقاً وأكثر شمولاً، وممارسة العمل الطبيعي، بكل أشكاله، واستعادة النشاط الانتاجي، بجميع فروعه وقطاعاته، وتجديد الحياة الثقافية والاجتماعية من دون تردد ومن دون تأخير.

٢ ـ الاعداد النفسي والمادي من أجل تجاوز النتائج المدمرة لاشكال الانتقام التي ستمارسها اسرائيل، بعد انسحابها واعتبار ذلك جزءاً من الثمن الباهظ للحرية التي انتزعت من العدو الشرس بالكفاح، برغم جبروت قوته وبرغم قدرته غير المحدودة على التدمير والقتل.

٣ ـ ملاحقة العملاء من كل الأصناف والحذر من المكائد التي سيدبرونها ومن الأدوات التي سيستخدمونها ومن الوسائل القذرة التي سيلجأون اليها لتحقيق أغراضهم وأغراض أسيادهم والمواجهة بشكل موحد وحازم، لكل المحاولات الخبيثة. التي تستهدف اثارة الفتن والصراعات الطائفية والمذهبية والسياسية، وقمعها بالأشكال الملائمة.

٤ ـ تنظيم الحياة السياسية باتجاه تحويل هذه المناطق الى نماذج لازدهار الديمقراطية في النشاط السياسي وفي علاقات التحالف والتعاون بين الأطراف الوطنية في مجالات خدمة الناس والوطن وفي خدمة أهداف المعركة الوطنية الكبرى معركة التحرير والتغيير

الديمقراطي. فالعمل الوطني لا يقبل الهيمنة والتسلط ولا يقبل احتكار ممارسة النشاط الوطني ولا احتكار الوطنية.

٥ ـ تجنب كل مظهر استعراضي للسلاح في القرى المحررة المتاخمة للمناطق التي لا تزال تحت الاحتلال وتجنب القيام بعمليات عسكرية تحوّل هذه القرى الى خطوط تماس مع العدو. فإن من شأن ذلك أن يستدرج أعمال انتقام اسرائيلية شبيهة بما حصل في الزرارية وفي قرى أخرى. إن طبيعة حربنا مع اسرائيل هي حرب مقاومة لا حرب مواجهة.

٦ ـ استمرار المقاومة في نفس الشكل الذي أثبت جدواه وقدرته وفاعليته خلال عـامين ونصف العام: الضرب من خلف العدو ومن حوله، تم الاختفاء، ثم الظهور مجدداً الخ ..

٧ ـ تجنب الفئوية في القتال ضد اسرائيل. فالقتال ضد العدو شرف ولكنه شرف لا ينحصر في فئة ولا في طائفة، ولا يحق لأحد أن يمنع وطنياً من أي تنظيم أو تيار أو فئة أو حزب أن يقوم بواجبه. كل الجهود، كل الطاقات، كل الامكانات، ينبغي أن نوظّف في ملاحقة العدو ومطاردة قواته وفرض الهزيمة عليه وتحرير الأرض من أي شكل لوجوده ولوجودعملائه. تلك هي المهمة الأولى لكل الوطنيين من كل الاتجاهات والتيارات السياسية والفكرية، ومن كل التنظيمات على اختلافها وتعددها وتنوعها.

الأرض لمن يحررها ليس مجرد شعار. انه التزام بموجبات التحرير، من كل نوع.

المقاومة والتغيير الديمقراطي

عندما بدأت المقاومة تتحـول، بعـد فتـرة زمنيـة قصيـرة مـن انطلاقتها، إلى ظاهرة وطنية وجماهيرية، طرحت تساؤلات حول موقعها في الحرب الأهلية. وتصدى للإجابة على هـذه التسـاؤلات بعض المنظرين الذين لـم يستطيعوا، لأسباب مختلفة، أن يدركوا جوهرها، فنظروا إليها كحدث مستقل. كعملية منفصلة عما يجري من أحداث ومن تطورات. وأطلقوا عليها صفات متعددة وضخموا هذه الإستقلالية، واستخدمت في هذا السبيل وسائل مختلفة، فكرية وسياسية، بما في ذلك محاولات إضفاء طابـع دينـي، أحيـانـاً، أو مذهبي، أحياناً أخرى، عليها. وكان الهـم الأسـاسي عنـد بعـض هؤلاء المنظرين هو الفصل بين المقـاومـة، كعمـل وطنـي، وبيـن الحرب الأهلية، بشكلها الطائفي. وأدى ذلك عندهم إلى الإستنتاج بأنها غير قادرة على التأثير في الحرب الأهليـة، بـل إنهـا، علـى العكس من ذلك، تعرضت للمؤثـرات السلبيـة في الحـرب الأهليـة عليها.

لماذا نتعرض لهذه الأفكار؟

لا يعنينا من ذلك إلا مناقشة فكرتين مترابطتين: الفكرة التي تقول باستقلالية حركة المقاومة عن الحرب الأهلية، والفكرة التي تنظر إلى العلاقة بين الحرب الأهلية وبين المقاومة في جانب واحد منها، هو جانب التأثير السلبي للحرب الأهلية على المقاومة، ولا ترى جوانبها الأخرى، أي أنها لا ترى علاقة التأثير المتبادل بين المقاومة والحرب الأهلية بعامة، والتأثير الأساسي للمقاومة في هذه الحرب وفي تطورها، بخاصة.

ذلك أننا نعتبر أن المقاومة كانت منذ لحظة انطلاقها جزءاً من

الحرب الأهلية، في مرحلة أساسية من مراحل هذه الحرب، ونعتبرها أيضاً، صيغة من صيغ العمل الوطني، في ظروف هذه المرحلة، أكثر تقدماً. ونرى فيها حركة ذات تأثير عميق في مجرى الأحداث، نلمس اليوم، بوضوح مدى أهميته فيما نشهده من تطورات وما تشير إليه هذه التطورات من تقدم ثابت على طريق الإنتقال بالحرب الأهلية إلى مرحلة التغيير الديموقراطي. وهي المرحلة التي أكدت فيها المقاومة دورها العميق في إعادة الإعتبار إلى الوطنية اللبنانية وفي إعادة توحيد الشعب اللبناني على أساسها.

جزء من الحرب الأهلية ـ صيغة جديدة للعمل الوطني

ما هو موقع المقاومة في الحرب الأهلية؟ ما هو موقعها في تطور العمل الوطني؟

الإجتياح الإسرائيلي، في الأساس، وكل أشكال العدوان السابقة على الإجتياح التي مارستها إسرائيل ضد لبنان، كانت جميعها جزءاً من الصراع الداخلي بين اتجاهين: إتجاه وطني عربي ديمقراطي وإتجاه فاشي طائفي إنعزالي. ولكن الإجتياح شكل، في اختيار توقيته، وفي حجمه، وفي الأهداف التي وضعها أمامه، وفي الأدوات التي استند إليها في الداخل، تطويراً عاصفاً للصراع الدائر في الحرب الأهلية بين هذين الإتجاهين من أجل فرض الغلبة للإتجاه الفاشي الإنعزالي وإنهاء الحرب الأهلية على أساس وضع اليد على لبنان والتحكم، بشكل نهائي، بمصيره وبتطوره. فالإجتياح، إذن دخل الحرب الأهلية كجزء لا يتجزأ منها. وكان لا بد أن يكون القتال ضد هذا الإجتياح، وأن تكون المقاومة ضد الإحتلال الذي نتج عنه، جزءاً لا يتجزأ، أيضاً من هذه الحرب.

فالإحتلال الإسرائيلي. بحكم شموله أكثر من نصف الأراضي اللبنانية بما في ذلك العاصمة، وبحكم كونه قد فَرَضَ على الشعب وعلى البلاد، بقوة دباباته، حُكْماً مرتبطاً بخططه وأهدافه، إنما طرح المسألة الوطنية اللبنانية بكل حدتها، فأصبحت هذه المسألة تحتل الأولوية في الصراع تحت شعار: كل القوى وكل الطاقات من أجل تحرير الأرض واستعادة وحدة الوطن واستقلاله وحريته وسيادته.

هنا بالذات تكمن العلاقة العضوية بين النضال من أجل التحرير وبين النضال ضد الفاشية ومشروعها وهيمنتها.

صحيح أن المقاومة وضعت أمامها هدفاً واضحاً ومحدداً لم تحد عنه هو التصدي للإحتلال ولقواته وتحرير الارض. ولم تنخرط قواتها في عمليات عسكرية وفي مواقف سياسية معلنة بشكل مباشر ضد المشروع الفاشي وضد القوى المرتبطة به. إلا أن مقاومتها للإحتلال إنما كانت موجهة، في آن معاً، ضد المحتلين وضد القوى المرتبطة بهم وضد أهدافهم جميعاً. فبمقدار ما كانت المقاومة تحقق انتصارات على قوات الإحتلال وتفرض على هذه القوات التراجع والانكفاء بمقدار ما كانت تسهم في إضعاف العامل الإسرائيلي في الصراع الداخلي وتؤدي بذلك، إلى المزيد من توجيه الضربات إلى المشروع الفاشي وإضعافه. ولقد شهدنا هذا الترابط بوضوح في الحروب التي ترافقت، في مناطق السيطرة الإسرائيلية، وفي فترات مختلفة، ضد السلطة الكتائبية وحزبها وقواتها، مع نهوض المقاومة وتطور عملياتها، وهو الترابط الذي تأكد عمقه وتأكدت عضويته فيما أحدثه من تأثير متبادل شديد الوضوح وشديد العمق.

هذا التطور في الصراع كان يتطلب، بالضرورة، صيغة للعمل الوطني أكثر تقدماً، في الشكل والمضمون، من الصيغة التنظيمية للحركة الوطنية. هنا يطرح السؤال التالي: ألم تكن الحركة الوطنية في صيغتها آنذاك قادرة على استيعاب مهمات هذه المرحلة الجديدة وقيادة النضال فيها؟ نجيب على هذا التساؤل، بالجزم، بأن الحركة الوطنية كانت عشية الإجتياح وخلاله تعاني أزمة تنظيمية سياسية سرعان ما برزت عناصرها في الوقت الذي كانت إسرائيل فيه تجتاح العاصمة، وبشكل خاص، في أعقاب وصول حزب الكتائب إلى السلطة في ظل الإحتلال وبفعله. كان لا بد إذن، من صيغة جديدة للعمل الوطني. هذه الصيغة هي مزيج مما جسدته جبهة المقاومة الوطنية من مهمات وأشكال نضال ضد الإحتلال الصهيوني، ومن القوى التي شكلت جبهة الصراع، بروافدها كافة، ضد المشروع الكتائبي وتسلطه على الدولة والبلاد. وقد كانت حرب الجبل، الأساسية الطويلة المدى، وانتفاضتا الضاحية وبيروت، والمعارك المتعددة ضد الهيمنة الكتائبية، حلقات متصلة من جبهة الصراع تلك يكمل بعضها البعض الآخر. غير أنه كان لجبهة المقاومة الدور الأساسي في توحيد مجاري هذا الصراع وروافده وتحويلها إلى قوة مادية تجسدت، في مرحلة حاسمة من الصراع، غداة توقيع إتفاق ١٧ آيار، بقيام جبهة الخلاص الوطني التي وضعت أمامها مهمة أساسية هي إسقاط هذا الإتفاق ونهجه، في آن معاً. وهو هدف كبير عبَّر في مضمونه، في تلك المرحلة، بالذات، مرحلة الإحتلال الإسرائيلي والهيمنة الكتائبية، عن المستوى الذي بلغته المسألة الوطنية، من حيث اتساع القوى السياسية والطبقية المنخرطة في الدفاع عنها وفي

تجنيد أوسع الجماهير في هذه المعركة. ولم يكن بمقدور حركة توحّد اقساماً واسعة من البرجوازية من كل الطوائف في موقف الخيانة ازاء هذه المسألة بالذات بدءاً بالموقف من الإحتلال، مروراً بالموقف من الحكم الكتائبي، وصولاً إلى الموقف من إتفاق ١٧ أيار، لم يكن بمقدار هذه الحركة الرجعية أن تمنع توحد الشعب، بقواه الحية، في معركة الدفاع عن المسألة الوطنية وفي الإنتصار فيها. بكلام آخر، لو لم تتشكل جبهة المقاومة ولو لم تقم بمهامها في التصدي للإحتلال على أفضل وجه وأوسع مدى، لما قامت جبهة الخلاص الوطني، أولاً، ولما أدى نجاح جبهة الخلاص في المهمة التي وضعتها أمامها، ثانياً، إلى إنتفاضة ٦ شباط وما تبعها من أشكال جديدة من الوحدة بين القوى الوطنية والديمقراطية تجسدت في قيام الجبهة الوطنية الديمقراطية المتحالفة مع «أمل» ثم في قيام جبهة الإتحاد الوطني التي تجمع وتوحّد حول برنامجها الوطني الديمقراطي أكبر حشد من القوى الوطنية.

٢ إعادة الاعتبار للوطنية اللبنانية

إن كون المقاومة تصدت لمهمة أساسية لها الأولوية، مهمة تحرير الأرض من الإحتلال، جعلها تصبح، في وقت قصير من الزمن، محور الإهتمام في كل أوساط الشعب اللبناني ومناطقه وبين مختلف القوى، فاحتلت، بذلك، في حياة البلاد وزناً كبيراً ودوراً بالغ التأثير. وبمقدار ما كان يتسع الإلتفاف حولها وتزداد وتتنوع أشكال الإرتباط بها والإحتماء بوهجها، بمقدار ما كانت تكتسب شرعية وطنية أكثر عمقاً واتساعاً. وهي شرعية انتزعتها المقاومة بكفاحها، بكافة أشكاله، الذي مارسته بشجاعة وثبات واستمرارية. وهذه الشرعية ذاتها إنما يجسدها كون المقاومة قد تحولت، من حيث مضمونها، إلى حركة تحرير وطني ذات برنامج ونهج ثوريين جذريين منسجمين لا يقبلان لا المساومة ولا التردد، لقد كان الكفاح المسلح الشكل الأبرز والأكثر فاعلية في ممارسة المقاومة نضالها من أجل تحرير الارض. كانت في الواقع حركة من نوع جديد، حركة غنية في محتواها وفي أهدافها وفي أشكال نشاطها. فقد كانت جزءاً من ثورة، وهذه الثورة هي الثورة الوطنية الديمقراطية، في مرحلة محددة من تطورها، تتصدى لحل جملة من المهام مترابط بعضها ببعض بدءاً بمهمة تحرير الأرض وصولاً إلى مهمة التغيير الديمقراطي. ولكن هذه المهمات، على تعددها

وتنوعها، تشابكت وترابطت وتوحدت فيما بينها، وتبادلت التأثير، وشكلت، في علاقاتها المتعددة الجوانب بعضها ببعض، عملية ثورية واحدة. بهذا المعنى نرى، بوضوح، أن اتساع المقاومة وتعاظمها وتعمق تأثيرها وتزايد الإلتفاف حولها إنما يبلور الدور الوطني التوحيدي الذي قامت وتقوم به. وهذا الدور ليس شكلياً وليس طارئاً. بل هو عميق التأثير. وقد كان يكتسب، على الدوام، مزيداً من الثبات والتواصل والإتساق. وهو دور يحدده في الظرف الراهن، كون لبنان، بفعل بروز الكثير من ظاهرات التفتت في الحرب الأهلية، يحتاج إلى مقومات قيام وتطور وطنية لبنانية واحدة غير قابلة للإختلاف والنزاع والإجتهاد. والوطنية، أساساً وحصراً، إنما تتحدد في كل بلد بالموقف من الوطن، في مواجهة أعدائه وفي تحديد هؤلاء الأعداء، لاسيما عندما يتهدد هذا الوطن خطر تدخل خارجي، خطر عدوان أو احتلال، خطر اقتطاع أرض منه أو مس بسيادته واستقلاله، خطر من أي نوع يقوم به هذا العدو.

إن المشكلة التي واجهت الحركة الثورية في لبنان، قبل الحرب الأهلية وخلالها وحتى هذه اللحظة، إنما تكمن في نشوء تيار إنعزالي يستند إلى مشروع طائفي فاشي مرتبط بالإمبريالية، متحالف مع الصهيونية ومستند إليها، متناقض مع المصالح الوطنية للشعب اللبناني ولسائر الشعوب العربية. وهو التيار الذي يتحدث عن وطنية لبنانية، مشوهة، متعارضة مع مفهوم الوطنية الحقيقية، وطنية تقوم على الخيانة للوطن وتسليم مقدراته إلى أعدائه الطامعين بأرضه، إلى إسرائيل. وقد كان ضرورياً وأساسياً، في ضوء ذلك، أن تجهد القوى الثورية اللبنانية، لا سيما خلال الحرب الأهلية، وتحديداً خلال فترة الغزو الإسرائيلي وفترة الإحتلال التي نتجت عنه، من أجل تحديد دقيق وواضح، وغير قابل للإلتباس، لمفهوم الوطن ومفهوم الإنتماء إليه، ثم تحديد هوية هذا الوطن لكي يسهل، على أساس ذلك، تحديد موقعه وتحديد العدو وتحديد الخطر الذي يتهدد هذا الوطن. وبفعل أحداث السنوات العشر ونيف من الحرب الأهلية والإنتصارات التي تحققت في المعركة ضد الإحتلال الإسرائيلي والمشروع الكتائبي والسلطة الكتائبية، وفي معركة إسقاط إتفاق السابع عشر من آيار وطرد الغزاة الأميركيين، تطور مفهوم المسألة الوطنية وتحددت سماتها وازداد الميل نحو توحد القوى حولها، فتراجع المفهوم المشوه الذي كانت تطرحه القوى الإنعزالية للوطن لصالح المفهوم الجديد لهذا الوطن، لبنان، من حيث هو بلد عربي ينتمي إلى الأمة العربية تاريخاً وثقافة ومصالح ومصيراً. فشعبه اذن، معني بالدفاع عنه ضد الخطر الداهم الذي يتهدده، الخطر القادم إليه من إسرائيل والحركة الصهيونية، ذلك العدو التاريخي

للبنان ولسائر البلدان العربية على السواء. إن هذا العداء القائم بيننا، كلبنانيين وكعرب، وبين إسرائيل، إنما يكمن في اغتصاب إسرائيل لفلسطين وحرمان هذا الشعب العربي من حقه في أرضه، كما يكمن في خطتها التوسعية على حساب الأراضي العربية، بما في ذلك أرض لبنان ومياهه، ليس في الجنوب وحسب، بل في مناطق أخرى، كذلك.

ولقد عبر اتساع الإلتفاف حول المقاومة، وتزايد الإهتمام بها والإحتفاء بوهجها في كافة الأوساط السياسية والإجتماعية، في كل الطوائف والمناطق، ومن كل الإتجاهات، عن اتجاه جديد في تطور الحرب الأهلية وفي الصراع المتعدد الأشكال داخلها. وهو في جوهره تعبير عن تغير عميق، لم يكتمل بعد، في مفهوم الإرتباط بالوطن وفي تعاظم الإلتقاء بين اللبنانيين حول هذا المفهوم. ونحن على يقين بأن ما برز من استنفار طائفي ومذهبي في فترة معينة - وهو يتراجع الآن بوضوح - لا يعرقل، وليس بمقدوره أن يعرقل عملية التغير تلك.

إننا في الواقع أمام نوع من إعادة الإعتبار إلى الوطنية اللبنانية في وجه ثلاثة تيارات تعطل عملية تكون الوطنية اللبنانية الحقيقية، رغم ما بينها من تعارض جوهري، وتسهم في تفكك الأسس التي تقوم عليها هذه الوطنية. وهذه التيارات إنما ولدتها وتولدها النزاعات الطائفية على اختلافها واختلاف أشكالها وأشكال تفجرها، والإلتباسات التي رافقت وترافق هذه النزاعات وولدتها وتولدها، وكذلك الأخطاء التي ارتبطت بالدعوة إلى الوحدة العربية، في بعض مراحلها، بجعل هذه الدعوة تتخذ طابعاً إسلامياً، فضلاً عما تولد في خضم النضال القومي التحرري العربي، لا سيما حول القضية الفلسطينية كقضية قومية محورية، وداخل العمل الوطني الفلسطيني ذاته، من مفاهيم أدخلت بعض التشويه على النضال القومي بإعطائه شكلاً ومحتوى يتعارضان مع الوطنية في كل بلد ومع موجباتها، وصولاً إلى التناقض المصطنع الذي لا أساس له بين القضية القومية والمهمات المطروحة في إطارها، وبين القضايا الوطنية الملموسة لهذا البلد أو ذاك التي هي، بالضرورة، جزء من ذلك النضال القومي التحرري وروافد له، بدونها لا يتشكل نضال قومي ولا يكون له أساس ولا يتكون. **التيار الأول**، إذن، هو الذي قام وتطور على أساس الفكرة الإنعزالية التي تفصل بين لبنان وبين تاريخه العربي، وتحدد هويته بطائفة من طوائفه وتعتبر أن مصيره إنما يتحدد بمقدار ما يبتعد عن البلدان العربية وبمقدار ما يرتبط بالحماية الأجنبية. وهذا التيار الإنعزالي الذي أسهمت الدوائر الإستعمارية في قيامه وتطوره، بلغت المغامرة، بالقوى التي يستند إليها، بعد قيام إسرائيل، حدود المراهنة على هذه الدولة التي قامت بشكل مصطنع بفعل

إمبريالي في قلب الوطن العربي لمنع وحدته القومية وضرب حركته الوطنية الثورية، وصولاً إلى طلب حمايتها واستقدامها إلى الداخل والاستناد إلى احتلالها في الوصول الى السلطة وحسم الصراع الدائر في الحرب الأهلية لصالح هذا التيار وقواه ومشروعها. **التيار الثاني**، هو الذي أشرنا إليه عندما حددنا الخطأ الذي وقعت فيه الدعوة إلى الوحدة العربية، التيار الذي لا ينظر إلى لبنان ككيان مستقل ولا يعترف بهذا الكيان، إنطلاقاً من نظرة تعطي صفة النظرة القومية الأشمل التي تذوب فيها الكيانات القطرية قبل أن تنشأ الظروف الموضوعية والذاتية لقيام هذه الوحدة القومية وتحققها. ويصل أصحاب هذا التيار، أحياناً، إلى مواقف عدمية يستصغرون فيها النضال من أجل الإستقلال في بلد معين، فضلاً عن استصغارهم للنضال من أجل التغيير الثوري في هذا البلد، وهو الأمر الذي تجلى عند هؤلاء في الرفض العملي لوجود قضية وطنية لبنانية مستقلة لها خصائصها المميزة في إطار القضية القومية الأشمل. وأصحاب هذا التيار، أو فريق منهم، على الأقل، إنخرطوا في الثورة الفلسطينية إنطلاقاً من أن النضال حول هذه القضية، كقضية محورية، هو النضال الذي له الأولوية، فتنكروا لما هو لبناني واعتبروه ترفاً وتخلوا عنه، فشكلوا في موقفهم هذا عنصراً مساعداً في جعل الفريق الإنعزالي يزداد تمسكا بموقفه ودفاعاً عنه. **التيار الثالث**، هو الذي يستند إلى الدعوة الإسلامية، القديم منها والحديث، فيتجاوز اصحابه في مفهومهم للمسألة الوطنية حدود الوطن العربي، لا في كياناته وحسب، إنما أيضاً في إطاره القومي، ويعتبرون أن لا معنى للمسألة الوطنية أو للمسألة القومية إن لم تكن جزءاً من قضية أشمل هي قضية الإسلام والوحدة الإسلامية، ويحصرون وجود الأمة بالأمة الإسلامية.

هذه التيارات أسهمت وتسهم، بدرجات مختلفة، كل من موقعه، في إضعاف الوطنية اللبنانية التي هي الأساس في تكوين الهوية اللبنانية، وهي، بالضرورة، عربية، ولا يمكن إلا أن تكون كذلك، وهو ما يتأكد اليوم، أكثر فأكثر، مع تطور الصراع في الحرب الأهلية ولا سيما في مرحلتها الأخيرة، مرحلة الإحتلال الإسرائيلي. وهو ما أسهمت في تأكيده المقاومة الوطنية اللبنانية بالإنجازات الكبرى التي حققتها.

هذا الأمر يبرز اليوم، في ضوء ثلاثة مواقف لبنانية من المقاومة تتحدد بوضوح، أكثر فأكثر، مع تطور الصراع وتصاعد حدته واقتراب الحرب الأهلية من نهايتها واقتراب المقاومة من إنجاز مهمتها في تحرير الأرض:

موقف أول، وهو أقل المواقف شعبية وأكثرها عزلة، هو موقف لا مبالٍ يصل إلى حد

الرفض للمقاومة وحتى العداء لها. وهذا الموقف هو موقف القوى الأكثر رجعية، القوى التي يصنفها شعبنا في خانة الخونة المرتبطين بالعدو والمعادين للوطن وللوطنية.

موقف ثان، يعبر عن تأييده للمقاومة ودعمه لها ويحتمي بوهجها ولكنه مع ذلك ينظر إليها من خارج، ولا يستطيع إلا أن ينظر إليها، كذلك، لا سيا حين يعزلها عن ظروف إنطلاقها وتطورها ويفصلها، بشكل مصطنع، عن الحرب الأهلية ويعتبرها كما لو أنها حدث حصل فجأة خارج الزمان والمكان. وهذا الموقف يزداد المرتبطون به عزلة عن الواقع الوطني اللبناني وحتى عما يجري من تطور في النضال الوطني الثوري على الصعيد القومي.

موقف ثالث، هو الموقف الوطني الحقيقي الذي يزداد المرتبطون به اتساعاً في كل المناطق والطوائف والقوى السياسية وهو يقوم على أساس المفهوم الجديد للوطنية اللبنانية الذي اسهمت المقاومة في بلورته وفي اغنائه، وعلى أساس الدور الذي تحتله المقاومة في العملية الثورية. والمرتبطون بهذا الموقف يتراوحون بين الإلتزام والإندماج، من موقع الأصالة، بالمقاومة، وبين الإرتباط، بأشكاله كافة، وبدرجات مختلفة، بهذه المقاومة. هذا الموقف هو الذي يعبر عنه بعمق فكر الطبقة العاملة وبرنامجها وخطها ونهجها وحزبها وتعبر عنه قوى وطنية ديمقراطية واسعة.

إن المقاومة الوطنية للإحتلال الإسرائيلي تكتسب أهميتها الأساسية في كونها أسهمت في إعادة الإعتبار للوطنية اللبنانية، في إعادة الإعتبار للمفهوم العلمي للمسألة الوطنية في لبنان. وهو ما يحتاج إليه لبنان اليوم أكثر من أي وقت مضى، من أجل أن ينهض بعافية حقيقية من أزمته الخانقة الراهنة، من حربه الأهلية المتواصلة، ويدخل بعمق في مرحلة بناء الوطن وفتح الآفاق أمام التغيير الديمقراطي فيه.

٣ المقاومة وآفاق التغيير الديموقراطي

فعل المقاومة في الحياة اللبنانية كان، إذن، كبيراً جداً، وسوف يظل تأثيرها يزداد عمقاً في المستقبل. وسوف تطبع بطابعها، بما حملته من مضمون متقدم،

الأحداث اللاحقة. فإذا كانت قد أعطت للوطنية اللبنانية مفهوماً جديداً فإنها بهذا الدور الذي مارسته قد أسهمت وستسهم بشكل أعمق في عملية التغيير الديمقراطي التي تواجهنا في هذه المرحلة المتقدمة من الحرب الأهلية، هذه المرحلة المتقدمة من الثورة الوطنية الديمقراطية. فالمقاومة، منذ لحظة انطلاقها، وخلال تطورها، وفي غمرة كفاحها المتعدد الأشكال من أجل تحقيق الهدف الذي كان الأساس في قيامها، لم تكن مجرد حركة، محصورة مهمتها في هذا الهدف المباشر، أي مقاومة الإحتلال والتحرير، بل كانت ثورة للكفاح الوطني التحرري، في ظروف لبنان التاريخية تلك، كانت جزءاً من ثورة أعم وأشمل، هي الثورة التي تَحَدَّدَ هدفها منذ بداية الحرب الأهلية في التصدي لمشروع فاشي طائفي يستند إلى إسرائيل والإمبريالية الأميركية، وفي إحداث التغيير في النظام وفي المجتمع اللبنانيين. ولأن مهمتها المباشرة كانت توجيه الضربة للإحتلال الإسرائيلي، أي للعامل الإسرائيلي في لبنان، ولأنها حققت إنجازاً كبيراً في هذا المجال، فقد أسهمت إسهاماً أساسياً في خلق الشروط المادية لتطور هذه الثورة وتقدمها. فهل كان يمكن لنا أن نتصور إمكانية تحقيق هدفنا في إسقاط المشروع الكتائبي الفاشي دون التمكن من تعطيل دور القوى الخارجية، إسرائيل بالدرجة الأولى، التي استند إليها هذا المشروع؟ بالطبع لا. ولكن هل كان من الضروري أن يحصل الإجتياح لكي تنشأ مقاومة وتحقق هذا الإنجاز لكي تتكون شروط التغلب على المشروع الفاشي؟ نجيب أيضاً بلا. فالصراع الذي كان يجري منذ بداية الحرب الأهلية بين المشروع الوطني الديمقراطي وبين المشروع الفاشي الطائفي كان لا بد له أن يبلغ ذروته. وقد بلغ ذروته فعلاً في الإجتياح وفيما نتج عنه من إحتلال. وهو تعبير صارخ عن استنفار المشروع الفاشي لكل القوى المرتبطة به في الداخل والخارج من أجل منع التغيير. هنا بلغت الخيانة الوطنية ذروتها، عندما استقدمت القوى الفاشية، للدفاع عن مشروعها، إسرائيل، بدعم من الدول الإمبريالية وبتواطوء من الرجعية العربية، لاجتياح لبنان واحتلاله وإيصال ممثلي هذا المشروع إلى أعلى مراكز السلطة والقرار في البلاد. ولذلك فقد كان للتصدي لهذا الإجتياح والإحتلال موقعه الأساسي في مجرى الحرب في مرحلتها الأخيرة هذه. لأن هذا التصدي، في شكل المقاومة والتحرير، قد أعطى للحرب الأهلية، بوضوح أكثر من أي وقت مضى، مضمونها الديمقراطي، وأعطى للصراع فيها هويته الحقيقية، من حيث هو صراع بين الديمقراطية والفاشية، بين التحرر والتبعية، الصراع بين القوى المرتبطة بالنظام القديم والمتمسكة به، وبين القوى المناضلة من أجل التغيير الديمقراطي. وهو في جوهره صراع طبقي حول الموقف من المسألة الوطنية بما هي مسألة

يندمج فيها الوطني والإجتماعي، ويتداخل ويترابط.

وإذا كان قد بدا في فترات محددة، بما في ذلك في هذه الفترة بالذات، وكأنَّ الصراع هو صراع بين طوائف ومذاهب، فإن لذلك أسباباً، رغم أنها موضوعية في بعض جوانبها، فهي غير ثابتة وآنية، وهي تنكفىء لصالح الجوهر الحقيقي لهذا الصراع. ولقد سبق لنا كشيوعيين أن حددنا بوضوح عشية إنتفاضة السادس من شباط، التي كانت النتيجة الحتمية لإنتصار حرب الجبل، بأننا نقترب من مرحلة جديدة تتوفر موضوعياً شروط نضوجها، وهي المرحلة التي حددنا في اجتماعات لاحقة للجنة المركزية، عناصرها والمهمات المطروحة أمامها واعتبرناها بحق مرحلة متقدمة من التورة الوطنية الديمقراطية.

إن سمات هذه المرحلة تتميز بما يأتي:

أولاً: في أن العامل الإسرائيلي ينحسر بوضوح في لبنان، ويزداد عجز إسرائيل، بفعل أزمتها الداخلية الناجمة عن الإجتياح والإحتلال وعن مقاومتها والحصيلة الرائعة لهذه المقاومة، عن التأثير في مجرى الأحداث الداخلية وعن الإستمرار بالأشكال القديمة في تقديم الدعم والمساندة لبقايا المشروع الكتائبي الفاشي.

ثانياً: في أن مسألة إنتماء لبنان العربي أصبحت مسألة أساسية يتطور الصراع باتجاه الحسم فيها على أنقاض مشاريع الحماية الأجنبية وانكفاء العامل الإسرائيلي لا سيما بعد إسقاط إتفاق ١٧ أيار وطرد قوات المارينز الأميركية وقوات حلف الأطلسي.

ثالثاً: في أن المشروع الكتائبي الفاشي، بفعل الضربات التي وجهت إليه، يواجه تمزقاً وتمككاً يجعلانه، رغم استمرار القوى المرتبطة به في الدفاع عنه، عاجزاً عن تعطيل حركة التغيير التي تستهدف إسقاط النظام القديم كبنية سياسية إقتصادية إجتماعية قائمة على الهيمنة الطائفية وعلى الإرتباط بالغرب الإمبريالي والرهان على إسرائيل.

رابعاً: في أن المشاريع الطائفية، المشروع الأساس والمشاريع الرديفة، قد دخلت جميعها في المأزق وأصبحت عاجزة بالمطلق، عن أن تشكل حلاً، من أي نوع وبأي مستوى، للأزمة اللبنانية.

خامساً: في أن القوى الديمقراطية التي مارست دوراً بالغ العمق والتأثير في مختلف

مراحل الحرب الأهلية، وبأشكال مختلفة، لم تستطع صعوبات الحرب والعناصر المتداخلة فيها، الطائفية والمذهبية منها بشكل خاص، أن تعطل هذا الدور أو أن تلغي فعله. وكان من الطبيعي، في ضوء هذا التراكم من التأثير، وفي ظل تفاقم مأزق المشاريع والقوى الطائفية، ان يتأكد بوضوح دور هذه القوى الديمقراطية والموقع الذي يحتله برنامجها للتغيير.

سادساً: في أن المقاومة الوطنية اللبنانية، كقرار تاريخي إتخذته قوى الطليعة الديمقراطية، لعبت، خلال هذه العملية من تبادل التأثير بين النضال ضد الإحتلال وبين النضال ضد المشروع الطائفي الفاشي المرتبط به، دوراً حاسماً في دفع هذه العملية إلى الأمام، وفتح الطريق أمام آفاق التغيير الديمقراطي.

القسم الرابع

الدور العربي في المقاومة

أهمية الحديث عن الدور العربي في المقاومة تكمن في أنّ المقاومة الوطنية لا تنحصر في تأثيرها، في لبنان، في تطور الأحداث والصراعات فيه، بل في كونها، كذلك، تتأثر بالوضع العربي، بعامة، وتؤثر فيه. فهي جزء من التراث الكفاحي الثوري العربي من أجل الحرية مكمل له. ويهمنا، في هذا القسم من الكتاب، أن نلقي بعض الأضواء على انعكاس الواقع العربي الراهن، بمختلف جوانبه، على المقاومة، وعلى الدور الذي مارسته وتمارسه المقاومة، في نضالها، وفي إنجازاتها، على تطوّر الحركة الثورية العربية. ذلك أن تجاهل هذا التبادل في التأثير بين المقاومة اللبنانية والوضع العربي من شأنه أن يوقعنا في خطأ التقدير، إيجاباً أو سلباً، لموقع المقاومة في هذه العملية الثورية على الصعيد العربي. ففي الظروف الراهنة لتطوّر الصراع داخل البلدان العربية حول المسألة القومية بين التيار الوطني الثوري وبين التيار البورجوازي، المهادن للإمبريالية أو المرتبط بها، تصبح مسألة تحديد دور القوى في هذا الصراع، وموقعها فيه، مسألة مهمة تعنينا نحن الوطنيين اللبنانيين، بخاصة، كما تعني الوطنيين الفلسطينيين، وتعني كل الذين يقودون معارك الدفاع عن قضية الثورة في بلادهم، وعن القضية القومية، في الوطن العربي، بشكل عام. ولذلك سيكون علينا أن ندخل في نقاش صعب حول الوضع العربي الراهن، وحول اتجاهات التطوّر فيه، وحول الحركة الثورية العربية، تحديداً. وسيكون أحد أسلحتنا وأحد أدواتنا في هذا النقاش ما نستند إليه من أشكال كفاح مارستها المقاومة الوطنية اللبنانية، ومن إنجازات كبيرة حققتها في هذه السنوات الثلاث من عمرها.

كان لسوريا، على الدوام، في الساحة اللبنانية، دور كبير. وقد ظل يتراوح هذا الدور بين القوة والضعف، بين التوافق مع أهداف الحركة الوطنية والتعارض معها، إلى أن بلغ، اليوم، ذروة تأثيره في مجرى الصراع، وذروة ترابطه مع الإتجاهات الأساسية للتطور على طريق الحل الوطني الديموقراطي العربي للأزمة المتفجرة القائمة. وقد كان هذا الدور موضع نقاش واسع خلال الإجتياح، بشكل خاص، وبسببه. فطُرحت أفكار تنتقد الموقف السوري من الغزو وإحجام سوريا عن الدخول في هذه الحرب بكل قوتها العسكرية. إذ كان يظن أصحاب هذا الرأي أنه بإعلان سوريا الحرب على إسرائيل تأخذ الحرب اتجاهاً آخر وتكبر فيضعف الضغط الذي تمارسه القوات الإسرائيلية على قوى الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، مما يفسح في المجال أمام إمكانيات أوسع وأطول للمجابهة. وكان يعتقد آخرون أن دخول سوريا الحرب سيجعلها أمام امتحان، فإما تصمد أو تنهار. وكان البعض يعتبر أنّ تراجع سوريا وهزيمتها أمام الغزو الإسرائيلي، في تلك الظروف التي كانت تحشد فيها الإمبريالية والصهيونية والرجعية كل طاقاتها العسكرية والسياسية، ستؤديان، حتماً إلى سقوط النظام الوطني فيها وهو ما كان، بالنسبة لفريق من هؤلاء، يشكل هدفاً بذاته. وقد ناقش آخرون هذا الموضوع من زاوية أخرى. فرأوا أن الدخول السوري في الحرب كان يمكن أن يؤدي إلى أمرين: **الأول** هو فرض تغيير في الموقف العربي، بما في ذلك في مصر كامب ديفيد، فيؤدي ذلك إلى جعل الحرب أوسع نطاقاً بمشاركة عربية أوسع. وهو احتمال كان يقوم، في تقديرنا، على الاوهام، وكان ضعيفاً يصل إلى حد الإستحالة. فكان، إذن، إحتمالاً لا تجوز المراهنة عليه. **الأمر الثاني**، هو أن دخول سوريا في الحرب، وهي التي ترتبط مع الإتحاد السوفياتي بمعاهدة صداقة، من شأنه أن يدفع بالإتحاد السوفياتي إلى التدخل الذي يمكن أن يؤدي إلى وضع حد للتمادي في العدوان. وهو ما نعتقد أنه كان تقديراً غير دقيق، ومبالغاً فيه. الوضع الدولي كان شديد الدقة والتعقيد، لا يسمح، في تلك الظروف، بمغامرة غير محسوبة العواقب. لم يكن سهلاً على الاتحاد السوفياتي، في ظل هذا الوضع، أن يتدخل. ربما كان بإمكان التحرّك السوفياتي، أن يكون أكثر حزماً،

وأكثر مبادرة، وأكثر ديناميكية، ليس أكثر.

بالنسبة لنا كانت النظرة إلى هذا الموضوع مختلفة. لم نكن، لا من حيث الشكل، ولا من حيث المضمون، في مستوى نظرة الآخرين. كنا، بالتأكيد، مثل كل شعبنا، شديدي التطلب. كنا نريد دعماً ما، مخرجاً ما. إلا أننا كنا ننظر إلى الأمور بمسؤولية. وفي رأينا فقد كانت تتحكم بالدور السوري، خلال الإجتياح، جملة من الإعتبارات والمعطيات السياسية والعسكرية، الداخلية والإقليمية والدولية. فقد كان واضحاً أن السوريين قد فوجئوا بحجم الغزو، وبالمدى الذي بلغه على الأرض. ولم يكونوا، في استعدادهم للمجابهة، بمستوى هذا الغزو وبمستوى الظروف التي أحاطت به، إقليمياً ودولياً. كانوا يتصورون، عندما وقعت الحرب، أنها حرب محدودة، فعلها محدود، يمكن التعامل معه دون جهد ودون خسائر كبرى. وعندما اكتشفوا أنها حرب حقيقية لا حدود لها، وأن أهدافها تتجاوز كل ما كان يجري تصوّره، تحوّل الموقف إزاءها واختلف اختلافاً جذرياً. فإذا كان التصوّر الأوّل قد اقتضى مجابهة معينة محدودة فإنّ واقع الحرب وحجمها قد فرضا سلوكاً آخر من الناحيتين السياسية والعسكرية. من الناحية العسكرية تجلّى هذا السلوك بزج القوات الموجودة في لبنان، من بيروت إلى البقاع مروراً بالجبل، في مجابهة عسكرية بالغة القوة إلى الحد الذي جعل بعض الخبراء يعتبر معركتي عين دارة والبقاع الغربي من أهم المعارك العسكرية المعاصرة. ولم يكن منتظراً، في هذه المواجهة، غير الذي حصل، أي أنّ التفوق الإسرائيلي كان يقضي بانتصار القوات الغازية، في نهاية المطاف. أمّا من الناحية السياسية فقد تجلى هذا السلوك فيما استنتجته القيادة السورية من دروس اتخذت على أساسه قرارها بعقد إتفاقين لوقف إطلاق النار كان الهدف منهما عدم الإنجرار في مجابهة شاملة تتجاوز الأرض اللبنانية إلى الأرض السورية وتفرض على سوريا حرباً ليست مستعدة لها ستؤدي حتماً إلى انهيار كامل لا ينحصر بسقوط النظام الوطني السوري، بل يتعداه إلى الوضع الوطني العربي برمَّته، فلا تخسر فيها الحركة الوطنية العربية معركة بل تخسر فيها موقعاً كبيراً وأساسياً يتجسد في ما تمثله سوريا من دور ما لبثت الأيام أن أكدت كم هو مهم بالنسبة للمواجهة اللاحقة، وللمقاومة وحرب الإستنزاف الوطنية اللبنانية ضد الإحتلال الإسرائيلي.

كان تقديرنا يستند إلى تحليل علمي دقيق للواقع القائم دون تزيين. كنا نقيّم الأمور بمسؤولية ولم نكن عدميين. والفرق كبير بين أن نرى الواقع كما هو، فنتعامل معه ونسعى إلى تغييره، وبين رغبتنا العميقة، وطموحنا إلى تحقيق هذا التغيير.

وباستنادنا إلى المعرفة الدقيقة بهذا الواقع قدّرنا، بواقعية وموضوعية، أن المجابهة السورية الشاملة للإجتياح لم تكن متوفرة شروطها. فكانت الدعوة لرفع مستوى المواجهة غير واقعية، بل كانت، في بعض الأحيان، تحمل طابع التحدي والإحراج فضلاً عن أنها كانت، في أحيان أخرى، تستهدف جر سوريا إلى حرب معروف سلفاً أنها خاسرة ومدمرة.

في ضوء ما أشرنا إليه نستطيع أن نستنتج أن المرحلة التي تلت الإجتياح، مرحلة بدء المقاومة الوطنية وتطوّرها وتحوّلها إلى ظاهرة، إنما خلقت وضعاً جديداً أسهم في تحويل الموقف السوري إلى موقف قوّة ودعم للمقاومة الوطنية والمساهمة المباشرة في التصدي للإحتلال الإسرائيلي وللآثار التي خلّفها. وظل هذا الموقف يتطور، في ظل الدعم السوفياتي، العسكري والسياسي، لسوريا، إلى أن أصبح، في فترة زمنية قصيرة في مستوى القدرة على التحكم، إلى حد بعيد، بمجرى الأحداث وبتطوّرها. وقد أدى هذا التطور إلى نشوء ما يشبه الإندماج بين الدور السوري والدور الوطني اللبناني، بكل مكوّناته، ولا سيما منه ما يتعلق بالمقاومة الوطنية، في معركة طرد الإحتلال وإسقاط رموزه وتحرير الأرض منه. لقد كان الإستنتاج الذي خرجت به القيادة السورية بالغ الأهمية. ولذلك لم يتردّد الإتحاد السوفياتي في بذل أقصى الجهد من أجل تعزيز موقف سوريا السياسي وتعزيز وضعها العسكري لكي تتمكن من مجابهة أحداث كبرى محتملة بما في ذلك التدخل الإسرائيلي وربما التدخل الأميركي، كذلك. وقد أثبتت التطوّرات اللاحقة صحة هذا الإستنتاج. إذ سرعان ما بدأت تبرز في فترة التفاوض الإسرائيلي اللبناني من أجل توقيع إتفاق السابع عشر من آيار حدّة الإستعدادات الإسرائيلية الأميركية للتدخل بكل الأشكال من أجل تثبيت نتائج الغزو الإسرائيلي للبنان على الصعيدين اللبناني والعربي. وقد كان الردّ على هذه الإستعدادات يتطوّر بشكل تدريجي وبسرعة نستطيع أن نجزم بأن المقاومة الوطنية قد هيّأت الكثير من أسبابه. ولا شك أنّ ما قدمته سوريا للمقاومة الوطنية، بخاصة، وللقوى الوطنية اللبنانية، بعامة، من دعم سياسي وعسكري قد كان بالغ التأثير إلى الحد الذي نؤكد فيه، اليوم، بأنه لولا هذا الدعم لما أمكن النجاح في معركتي تحرير الأرض من الإحتلال الإسرائيلي والتصدي العسكري والسياسي لحكم الهيمنة الكتائبية. ذلك أن القرار الوطني بخوض المعركة ووضع كل الطاقات في خدمتها، وهو ما فعلته القوى الوطنية اللبنانية بامتياز، لم يكن يكفي وحده لمثل هذه المجابهة. فقد كانت الظروف أقوى من إمكانات هذه القوى.

من هنا الأهمية الكبرى للدور السوري. وقد بلغ هذا الدور في تطوّره مستوى تمكنت معه القيادة السورية، بفعل التغير الذي حصل في ميزان القوى، وفي ظل الظروف الإقليمية والدولية التي نشأت، من أن تتخذ قراراً جريئاً وخطيراً بالتصدي للقوات الأميركية والإسرائيلية فوق الأراضي اللبنانية، دون أن تحسب حساباً لما يمكن أن يكون عليه الردّ الإسرائيلي الأميركي آنذاك. فقد كانت تضعف، مع الأيام، إمكانات مثل هذا الرد. ولذلك فإننا نسجل بإعتزاز كبير أن القوات العربية السورية قد تمكنت من إسقاط أوّل طائرات أميركية فوق أرض عربية بسلاح عربي، مسجّلة، بذلك، تحوّلاً نوعياً في ظروف المواجهة في المنطقة، وفي التطوّر الصاعد في المقاومة وفي حرب التحرير اللبنانية من الإحتلال الإسرائيلي، وفي الحرب الأهلية. وهذا التطوّر، بذاته، في الموقف السوري، وفي القدرة السورية، لعب دوراً كبيراً في دعم النضال الذي خاضته القوى الوطنية اللبنانية من أجل إسقاط إتفاق السابع عشر من أيار وتوجيه الضربات المتتالية إلى حكم الهيمنة الكتائبية وإلى المشروع الكتائبي الفاشي وإضعافها.

غير أنّ هذا الدور السوري الذي ظلّ يتطوّر في هذا الإتجاه قد وصل إلى المرحلة التي أصبحت فيها سوريا تشكل مركزاً أساسياً لدعم المقاومة الوطنية ضد الإحتلال الإسرائيلي وفي احتضانها وفي رفدها بما يجعلها تستمر وتتطوّر، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى الموقف الذي اتخذه، في هذا الموضوع بالذات، الرئيس حافظ الأسد شخصياً وفي هذا الموقف تبرز الوحدة الحقيقية في الكفاح الوطني التحرري ليس بين الشعبين اللبناني والسوري وحسب، بل، كذلك بين شعوب الأمة العربية كافة. ويستند هذا التقدير إلى أن السياسة التي انتهجتها سوريا خلال سنوات طويلة كانت سياسة عداء للإمبريالية والصهيونية والرجعية وتعارض مع المشاريع والإتفاقات والمعاهدات التي كان يجري العمل لفرضها على الشعوب العربية. ولذلك، وبرغم كل ما يمكن أن يكون قد نشأ في الماضي، أو قد ينشأ في المستقبل، من اختلافات في التقدير بين القوى الوطنية العربية حول هذا الموقف أو ذاك، فإن من الأمور الأساسية التي لا بدّ من أنّ نتوقف عندها، بكثير من الجديّة، هو هذا الدور الذي تنفرد به سوريا في دعم النضال الوطني التحرري، النضال من أجل التغيير الديمقراطي، على أساس الهوية العربية الواضحة المحددة، الذي تقوم به القوى الوطنية والديمقراطية اللبنانية. وهو الدور الذي لم يعد من الممكن، في الظروف الراهنة أن نتصور إمكانية الإنتصار في نضالنا دون الإندماج بينه وبين المهات المطروحة أمامنا.

٣ الدور الفلسطيني وأزمة منظمة التحرير

لا جدال في أن التأثير الذي مارسته تجربة الثورة الفلسطينية على المقاومة الوطنية اللبنانية كان كبيراً. وهو تأثير يشكل خلاصة ما في التجربة الثورية الفلسطينية من الخطأ والصواب. فإذا كانت الحركة الوطنية، في أواخر الستينات، قد بدأت تتجه في تطورها، في ضوء ما أحدثته هزيمة حرب حزيران من نتائج وآثار، فإنها أخذت تتصدى لمرحلة ما بعد الهزيمة على أساس جديد. وهو ما تجسد في البرنامج السياسي وفي أشكال النضال. وكان طبيعياً، في ظل ما أحدثه قيام الثورة الفلسطينية، من تطور في الحركة الوطنية الثورية العربية، أن تنخرط أقسام واسعة من الجماهير المرتبطة بتيار الحركة الوطنية اللبنانية في نشاط الثورة الفلسطينية، السياسي والعسكري، داخل لبنان وخارجه، سواء في الدفاع عنها أم في القتال في صفوفها أم في الإقتداء بها في تنظيم الكفاح على الساحة اللبنانية ذاتها على مختلف جبهات النضال. فقد رأت الجماهير العربية في الثورة الفلسطينية صيغة كفاح جديدة مختلفة تعبر عن الطموح الحقيقي في الخروج من الهزيمة، أسبابها ونتائجها، في آنٍ معاً. وقد كان الشيوعيون أول من أدرك، بوعي سياسي عميق، جوهر هذه الظاهرة. فلم يكن انخراطهم معها وفي شتى المعارك ليتخذ طابع العفوية، بل كان انخراطاً يستهدف، في آنٍ معاً، الاسهام في تطوير هذه الثورة وفي اغناء تجربتها وفي تعميق خطها السياسي. وكان همُّ الشيوعيين أن يحدث هذا التطور في الثورة الفلسطينية في نفس الوقت الذي يحدث فيه التطور في مستوى مواجهة الحركة الوطنية اللبنانية، على أساس برنامج ثوري، للمهات المطروحة أمامها. وقد كان حرصنا كبيراً أن يتعمق الترابط والتلاحم بين الثورتين الوطنيتين اللبنانية والفلسطينية، شرط أن تحافظ كل منها على استقلاليتها النسبية، واستقلالية أهدافها والمهات التي تتصدى لحلها. وكان التمايز عند الشيوعيين، في الموقف من هذه المسألة، ضرورياً وبالغ الأهمية. إذ كان من غير الطبيعي أن ينساق حزب الطبقة العاملة، في تلك المواقف التي كانت سائدة حينذاك في الأوساط القومية حول طليعية الثورة الفلسطينية وأولوية الاهتمام بها والالتفاف حولها، انطلاقاً مما كان يُقال من أن القضية الفلسطينية هي القضية المحورية في النضال القومي، وصولاً إلى الجزم بأن على القضية الوطنية اللبنانية أن تخضع، بالضرورة، في

تطورها لمصلحة الثورة الفلسطينية. فلا تبقى أمام الحركة الوطنية اللبنانية من مهمات حقيقية إلا ما هو مرتبط بكفاح الثورة الفلسطينية. ويُختَزَلُ النضال الوطني الديمقراطي اللبناني بالانخراط الكلي في الدفاع عن الثورة الفلسطينية وتهيئة كل الأسباب التي تجعل نضالها على الساحة اللبنانية نضالاً خالياً من الصعوبات والعراقيل. في هذا الموقف يتحدّد الخطأ المميت الذي ارتكبته قيادة الثورة الفلسطينية، فيما بعد، وجرَّت إليه أقساماً من الحركة الوطنية اللبنانية وجماهيرها، عندما عززت الثورة مواقعها في لبنان. وبرز هذا الخطأ وتجسد في شكل التعامل مع الحركة الوطنية اللبنانية، وفي شكل التعاطي مع الدولة اللبنانية، وفي شكل ممارسة النضال على الساحة اللبنانية، وفي شكل العلاقة مع الجماهير اللبنانية والفلسطينية على السواء. إنّ هذا التمايز في موقف الشيوعيين بالاصرار على استقلالية المسألة الوطنية اللبنانية والنضال الوطني الديمقراطي اللبناني، وهي استقلالية نسبية، في إطار وحدة الكفاح الوطني العربي، ومحورية القضية الفلسطينية في هذا الكفاح، إنما هو تمايز ضروري. وبالاستناد إلى هذا التمايز أمكن للحركة الوطنية، أن تمارس تأثيراً عميقاً على مجرى تطور الثورة الفلسطينية، لا سيما في برنامجها السياسي وفي شكل علاقتها وعلاقة مناضليها بالكفاح المسلح. والاستناد، أيضاً، إلى هذا التمايز الذي ترافق مع أرقى أنواع العمل المشترك والعلاقة الكفاحية مع الثورية الفلسطينية، هو الذي خلق الأساس لنشوء نوع جديد من الكفاحية في الدفاع عن القضية الوطنية اللبنانية والانخراط الجماهيري، بدرجات مختلفة، قبل الحرب الأهلية وخلالها، في النضال الثوري بكل أشكاله. وقد صيغ لهذا النضال برنامج لم يتحدد بوضوح إلاّ في العام الأول للحرب الأهلية، ولكن أشكال النضال كانت تتبلور وتتعمق في كل المعارك، سواء في الدفاع عن الثورة الفلسطينية (٢٣ نيسان ١٩٦٩) أم في معارك الدفاع عن الحريات أم في معارك النضال من أجل حقوق العمال والمزارعين، على امتداد النصف الأول من السبعينات كله. وهذا التطور النوعي هو الذي تجسد لاحقاً في الدفاع عن بيروت خلال الحصار وفي تطور المقاومة ضد الاحتلال وتحولها إلى ظاهرة وطنية وشعبية.

غير أنّ كل ما قدمته الثورة الفلسطينية من مثال إنما تبلور في حصار بيروت واتخذ فيه شكل وحدة كفاحية نموذجية. وفي ظل هذا التطوّر، في صيغة العلاقة بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وتحت تأثير شراسة الهجمة الإسرائيلية، وبفعل ما كان يسود ويتطوّر في قيادة الثورة الفلسطينية من ميول نحو المساومة، نشأت ظروف جديدة أصبح فيها من غير الممكن أن تستمر هذه العلاقة وتتطور في اتجاهها الصحيح. الخطير في هذه

الظروف هو تطور الميل نحو المساومة من موقع طبقي برجوازي عند القيادة اليمينية للثورة، برز بسرعة فائقة، بعد خروج أبطال الثورة الفلسطينية من بيروت. وقد تحوّل هذا الميل إلى نهج ثابت فأدّى إلى نشوء أزمة عميقة داخل الثورة تركت وتترك آثاراً سلبية مدمرة على مسارها وعطلت انطلاقتها وهزتها وأضعفت مواقعها.

لم تمنع الأزمة من قيام تيار وطني فلسطيني تعامل، بشكل مختلف، مع الوقائع الجديدة. بل إنّ العديد من الفصائل الوطنية الفلسطينية قد أدرك، بدرجات مختلفة، أن من الضروري التصدي في وقت واحد لمهمتين كبيرتين: **المهمة الأولى هي مهمة** صياغة برنامج جديد وخطة عمل جديدة للثورة الفلسطينية تُؤخذ فيها بعين الاعتبار ظروف المرحلة الجديدة. وسرعان ما تبلور هذا البرنامج في قيام التحالف الديمقراطي أولاً، ثم في تشكيل جبهة الإنقاذ فيما بعد. **المهمة الثانية** هي المهمة التي جرى التأكيد بواسطتها على أن التيار الوطني في الثورة الفلسطينية حريص على ابقاء الكفاح المسلح شكلاً أساسياً من أشكال النضال والإلتزام به ثم ممارسة هذا الكفاح المسلح في صيغتين: صيغة الانخراط، بدون اعلان، في جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، وصيغة العمل، بأشكال أوّلية، في مقاومة الاحتلال والاغتصاب الاسرائيليين داخل فلسطين المحتلة.

وقد ظل اليمين الفلسطيني المرتبط بنهج المساومة يبتعد عن الكفاح المسلح ويتبرأ منه، بأشكال مختلفة، وصولاً إلى حد التنكر للمعركة الوطنية التي كانت تُخاض بشراسة في الجبل ضد المشروع الفاشي، ويتخبط في موقفه من المقاومة الوطنية اللبنانية فيرفضها، أحياناً، ويهزأ منها، أحياناً، ويتبنّى جميع عملياتها، زوراً، أحياناً أخرى.

ولا شك أن ما أصاب الثورة الفلسطينية، ولا يزال يُصيبها، من آثار، بفعل الأزمة وتفاقمها، قد جعل القوى الوطنية اللبنانية، مجتمعة، ولا سيما المقاومةالوطنية بتشعر بثقل ما أحدثه من تأثير فادح الضرر على النضال الوطني الثوري اللبناني وعلى النضال الوطني التحرري للشعب الفلسطيني، على السواء. وفي الواقع فإن الصورة الراهنة مؤلمة جداً. إذ يكفي أن نتصور كم كان سيكون شديد التأثير على مجرى نضالنا، على الساحة اللبنانية، بقاء الثورة الفلسطينية في وحدتها وفي وحدة كفاحها، وهي تستخلص من تجربتها في لبنان، في الظروف التي أعقبت حصار بيروت والخروج من لبنان، الدروس والعبر الضرورية. كان سيكون ذلك بالغ التأثير. كان سيكون ذلك بمثابة ثورة جديدة عظيمة في النضال الوطني اللبناني والفلسطيني والعربي.

الأزمة التي تجتازها الثورة الفلسطينية الآن والتي أشرنا إلى الأثر السلبي الذي تركته وتتركه على تطور المقاومة الوطنية اللبنانية وعلى مجمل النضال الوطني الديمقراطي في لبنان وفي البلدان العربية، إنّما هي، في الحقيقة، شكل من أشكال التعبير الواضح عن الأزمة العميقة التي تجتازها حركة التحرر الوطني العربية. في ظل تفاقم هذه الأزمة وفي ظل النتائج السلبية التي ولّدتها وتولدها في الوضع العربي قامت الحرب الأهلية وحصل الإجتياح الإسرائيلي وتم احتلال قسم كبير من لبنان بما في ذلك العاصمة. وفي ظل هذه الأزمة المتمادية، وفي ظل نتائجها نشأت وتطورت حركة المقاومة اللبنانية بشقيها، مقاومة المشروع الفاشي وإسقاطه، ومقاومة الإحتلال الاسرائيلي وتحرير الأرض منه. إذن، فقد قامت هذه الحركة الثورية في لبنان، في عكس التيار، وأكدت، في تطورها، أن بإمكان أية حركة ثورية، عندما تكون منسجمة في برنامجها، وفي أهدافها، وفي ممارسة كفاحها، وفي قيادتها الطبقية، أن تتصدى لتغيير الواقع مهما كان صعباً. غير أنّ ما أنجزته المقاومة الوطنية خلال ثلاث سنوات من كفاحها يتجاوز كل حساب. فهي، برغم كل الصعوبات المحيطة بالنضال الوطني اللبناني، تمكنت من طرد الاحتلال وفرض الهزيمة على اسرائيل، ومارست تأثيراً كبيراً في تطور الحرب الأهلية، وفرضت على إسرائيل الانكفاء ومنعتها من تحقيق أهدافها، وأسقطت الاتفاق الذي أرادت، في محاولة فرضه على الشعب اللبناني، أن تُدْخِلَ لبنان في فلك اتفاقيات كمب دايفيد. بقوة هذا التلازم بين القيادة الطبقية والبرنامج السياسي والممارسة الثورية لم يتمكن هذا الوضع العربي السيء، ولم تتمكن الأزمة في حركة التحرّر الوطني العربية، من أن تؤثرا على المقاومة وعلى كفاحها وعلى قدرتها على تحقيق الإنجازات الكبيرة. وأثبتت، بذلك، بوضوح لا لبس فيه، أن كل الهزائم التي شهدناها في الماضي، في حروبنا التي لم تتوقف ضد الاغتصاب الصهيوني لأرض فلسطين وضد احتلال اسرائيل لأراضٍ عربية واسعة، لم تكن هزائم مبرّرة. فإذا كان المطلوب من شعب صغير مثل الشعب اللبناني أرهقته الحرب الأهلية ومزقته الصراعات بكل أشكالها، ودمّرت الكثير من قواه المنتجة ومن ناتج عمله، أن يقوم بمثل هذا الكفاح ويتحمّل مثل هذه التضحيات ويحقق مثل هذه

الانجازات، في هذه الفترة الزمنية القصيرة، فإن بإمكان شعوب أمتنا العربية أن تمنع الخونة من فرض اتفاقات مذلة عليها، وأن تسقط هذه الاتفاقات، سواء من نوع اتفاقات كمب دايفيد، أو اتفاق عمان، وأن تسقط الخيانة ورموزها، وتُعيد لحركة التحرر الوطني العربية دورها وموقعها وقوة اندفاعها، وتُنهي الصراع العربي الصهيوني في مصلحة حركة التحرر الوطني العربية وفي مصلحة الحقوق القومية السليبة لشعب فلسطين، وتربك مخططات الامبريالية، وتزلزل الارض تحت أقدام الرجعية وأنظمتها العفنة، وتحدث التغيير المنشود في الوطن العربي. فلماذا لم يحصل في البلدان العربية الأخرى متل الذي حصل في لبنان؟ لماذا لم تشهد الساحات العربية حركة تضامن مع الشعب اللبناني ومقاومته الوطنية، خلال الاجتياح والحصار، وفي فترة الكفاح والمقاومة ضد الاحتلال؟.

باستثناء تلك الحركة الرائدة لنصرة المقاومة الوطنية اللبنانية التي قامت في دولة الامارات العربية على يد نفر من الوطنيين الديمقراطيين من أبناء هذا البلد العربي، لم تقم أية حركة حقيقية ذات وزن في أي من البلدان العربية. فتساوت بذلك الحركة الوطنية التورية العربية مع البرجوازية العربية في تخلفها عن القيام بواجب التضامن. ولو لم تقُم الأنظمة الوطنية في الجزائر وليبيا واليمن الديمقراطية، بقسط من الدعم، يكمل ما قامت به سوريا، لكان الوضع خطيراً جداً. فلماذا نلوم البلدان العربية لأنها لم تعقد اجتماعاً واحداً لدرس الوضع اللبناني، ولا نلوم الحركة الثورية؟

ان السؤالين اللذين نطرحهما، إنما يحددان بدقة، عناصر الأزمة في حركة التحرر الوطني العربية التي تولّد، باستمرارها وتفاقمها، التراجع المستمر في الحركة، وتولد معه الخيانة، وتخلق مزيداً من التردي في الوضع العربي. وتصبح البرجوازية، بفئاتها العليا، وحتى بأقسام من فئاتها الوسطى والصغيرة، أكثر ميلاً للتخلي عن مسؤوليتها في المسألة القومية، وتُمعن السير في الاتجاه النقيض. ذلك أنّ العامل الأساسي في نشوء هذه الأزمة وفي تعمقها واستمرارها إنما يعود إلى هذا التناقض الذي يزداد حدّة بين القيادة الطبقية البرجوازية لهذه الحركة وبين الأهداف والمهات المطروحة أمامها. وبمقدار ما يستمر وضع القوى الثورية في هذه الحالة من التخلي عن دورها، ويستمر هذا التعطيل للحركة الثورية، بفعل أزمتها، بمقدار ما توغل البرجوازية في تخليها، من منطلق طبقي صريح، عن مسؤوليتها في المسألة القومية. لقد أدّى هذا النهج في ظل حكم السادات الى الخيانة، وأدّى توقيع

اتفاقات كمب دايڤيد وعدم التصدي لها إلى جعل هذه الاتفاقات تتحول إلى نهج متكامـل في الموقف من المسألة القومية، سلكته وتسكله، على الدوام، فئات برجوازية جديدة. وتتجه هذه القوى، من مواقعها في السلطة، وفي مراكز القرار، إلى التحالف فيما بينها، من جهة، ثم فيما بينها وبين العدو الامبريالي والصهيوني، من جهة ثانية، في وجه البؤر الثورية التي تتزايد في الوطن العربي، وفي وجه احتمالات تحوّل هذه البؤر إلى حركة ثورية شاملة تتصدى للمهمات المطروحة بقوة وحسم، وبنهج ثوري، وعلى أساس برنامج ثوري.

لقد قيل ذات يوم بأن توقيع اتفاق سيناء الأوّل هو الذي افسح في المجال أمام القوى الفاشية في لبنان لإشعال الحرب الأهلية، وأن توقيع اتفاقات كمب دايڤيد هـو الذي أدّى إلى الاجتياح الاسرائيلي، وأن ترك لبنان فريسة لهذا الإجتياح هو الذي جعل إسرائيل تشعر بأنها قادرة على تصفية الثورة الفلسطينية والتحكـم بلبنـان وبمصير أي بلـد عـربي. وهـو تصـويـر صحيـح ودقيـق للـواقـع. غير أن الحقيقـة الكبرى هـي أنّ تصـدي القوى الوطنية والديمقراطية، في لبنان، للعنف الفاشي بالعنف الثوري، وتصدي المقاومة الوطنية اللبنانية للإحتلال الاسرائيلي، بنـوع جديد فذّ من الكفاح، هو الذي فتح آفاقاً حقيقية لمواجهة نهج التراجع والخيانة. من هنا تأكيدنا على الأهمية التي ترتديها المقاومة الوطنية اللبنانية والدور الذي تضطلع به هذه المقاومة، كجزء من الحركة الثورية اللبنانية، في إعادة الاعتبار إلى الحركة الثورية العربية من خلال تصديها لمهمة تحرير الأرض اللبنانية من الاحتلال الاسرائيلي وإنجاز هذه المهمة بنجاح. فهي، بذلك، إنما تقوم بدور حركة ثورية ديمقراطية تُسهم، في تطوّرها، وفي تعمّق محتواها، وفي آلية تحركها، في فتح آفاق حقيقية أمام تجديد الحركة الثورية العربية، وتؤسس لنهوض وطني ثوري على الصعيد العربي بعد أن كانت قد أسهمت في إحداث هذا النهوض على الصعيد اللبناني. وهي، في مطلق الأحوال، تقدم نموذجاً ثورياً فذاً في كيفية مواجهة الواقع القائم بكل تعقيداته والتغلب عليه واجتياز الصعوبات مهما عظمت. وهذا النموذج هو الذي يشير إلى أن الامكانية متوفرة أمام الحركة الوطنية الثورية، في كل بلد عربي، وعلى الصعيد العربي العام، لأن تحلّ المعضلات التي تواجهها، وأن تخرج من الأزمة التي تجتازها، بإيجاد الحل الصحيح لمسألة القيادة الطبقية، في ممارسة الطليعة فيها الدور الأساسي الذي يعود لها. فإنّ أهم ما تتميز به المقاومة الوطنية هو أنها كانت، منذ البدء، فعل الطليعة الثورية، هذه الطليعة التي طبعت بطابعها، وبطابع برنامجها، إلى حدٍّ كبير المهمات وشكل التصدي لتحقيقها. وهـي تـؤكـد بذلك أن استمرار الأزمة في حركة التحرّر الوطني العربية غير مبرّر، وأنه قد آن الأوان

لكي تخرج هذه الحركة من الوضع الصعب الذي هي فيه، وأن تتصدى القوى الطليعية فيها لدورها من أجل خلق حركة ثورية عارمة حازمة في عدائها للامبريالية والصهيونية والرجعية، وتواجه مؤامراتها، وتُسقط مشاريعها للإستسلام والقهر والتحكم بمصائر الشعوب العربية، وتهيء للتغيير الديمقراطي الذي تنخرط في النضال لتحقيقه في لبنان القوى الوطنية والديمقراطية، منذ سنوات طويلة، في الحرب الأهلية، والذي تتوفر الظروف الموضوعية لقيامه في سائر البلدان العربية.

إنّ المقاومة الوطنية اللبنانية، وهي تتحرّر من عبء الأزمة المتفاقمة في حركة التحرر الوطني العربية، تمارس، من موقعها الثوري، تأثيرها في عملية النهوض الجديدة المرتقبة في الحركة الثورية العربية.

وليس في ما نقوله هنا أية مبالغة، وأي أدعاء، وأي تجنٍّ على أحد، وأي انتقاص من دور أحد. بل نحن نقرر واقعاً نشأ ونما وتطور، في ظروف تاريخية محددة، وأسهمت قوى الطليعة في خلقه وفي اعطائه قوة الاندفاع الأساسية، فتلقفته الجماهير المتعطشة إلى الانخراط في النضال من أجل انجاز مهام التحرر الوطني والاجتماعي كاملة. ذلك أن انكفاء الجماهير العربية، فترة طويلة من الزمن، عن القيام بدورها في النضال التوري، لا تتحمل هي مسؤوليته. بل إن المسؤولية الأساسية في ذلك إنما تقع، بالتحديد، على القوى الثورية، أولاً، التي تخلفت عن القيام بدورها في تنظيم الجماهير وفي تعبئتها وفي قيادة نضالها، وفي اعطائها فرصاً حقيقية للعب الدور الذي يعود لها في حركة التغيير، وتقع، كذلك، على الرجعية، وعلى القوى المتسلطة من البرجوازية، في مواقع السلطة، وفي مواقع القرار.

المقاومة الوطنية اللبنانية لا تقدم سوى المثل الذي يُستوحى منه، ولا يُنقل نقلاً. فليس حتمياً أن تتكرر التجربة نفسها، لا في الحرب الأهلية ولا في الاجتياح الاسرائيلي ومقاومته. وإن كنا نميل إلى أن الوضع العربي برمته قادم، في ظل ظروف الردة المتمادية هذه، وفي ظروف الصراع بين الواقع الصعب ونضوج الظروف الموضوعية لتغييره، على أنواع مختلفة، ومتعددة الأشكال، من الحروب الأهلية.

الارهاب الاسرائيلي ـ الاكتفاء الاسرائيلي

الدروس التي علينا أن نستخلصها من الاجتياح الاسرائيلي ومن الاحتلال، ومن المقاومة التي تصدت لهما بنجاح، هي دروس كبيرة غنية. وسوف يكون من الصعب أن نستخلصها كلها، بكل معانيها، الآن. غير أننا، في ظل ما تشير إليه الوقائع الجديدة، نستطيع أن نحدّد بعض الملامح وبعض الاتجاهات فيما أحدثه هذا الزلزال والزلزال المعاكس. ويصبح الأمر أكثر سهولة عندما نحدد الأهداف التي وضعتها إسرائيل أمامها عندما اختارت منتصف العام ١٩٨٢ زمناً محدداً للقيام باجتياحها الكبير.

في تقديرنا يمكن تلخيص هذه الأهداف بهدفين أساسيين: آني واستراتيجي. **الهدف الآني** كان يرمي إلى تحطيم القوة العسكرية للثورة الفلسطينية من أجل فرض التراجع عليها، وتحطيم الحركة الوطنية اللبنانية من أجل إزالة العقبات أمام فرض رئيس للجمهورية مرتبط بها وبأهدافها ومستند إليها. **الهدف الستراتيجي** كان يرمي إلى تصفية القضية الفلسطينية، وإلى جعل لبنان الحلقة الثانية في اتفاقيات كمب دايفيد، والإنطلاق في خطة توسعية، مستندة إلى التحالف الإستراتيجي بينها وبين أميركا، من أجل جعل المنطقة العربية خاضعة، بالمطلق، للسياسة الامبريالية الأميركية، مطبّعة علاقات البلدان العربية المحيطة بها معها، ومنتظمة جميعها في معاهدات سلام من نوع المعاهدة التي تربطها بمصر، فتصبح أزمة الشرق الأوسط عندئذ، أزمة لا أساس لاستمرارها، ويصبح حل القضية الفلسطينية، التي هي جوهر أزمة الشرق الأوسط، محصوراً بالأسس التي تحدّدها المصالح المشتركة

لإسرائيل وللامبريالية الأميركية وللأنظمة الرجعية العربية.

ولا نستطيع أن نغفل هدفاً، خاصاً بلبنان، يمكن تعميمه لاحقاً على البلدان العربية، أرادت اسرائيل من وراء تحقيقه الغاء أي دور اقتصادي للبنان، في مجال الخدمات على اختلافها، التي اشتهر بها لبنان، وتحطيم الأساس المادي للاقتصاد اللبناني، بكل قطاعاته. وهو ما كان فتحُ «الجدار الطيب» في أوائل الحرب الأهلية بداية له، بحيث يصبح لبنان خاضعاً، بالمطلق، لإسرائيل ولدورها في المنطقة.

إنّ هذا التحديد السريع للأهداف التي كان يرمي إليها الاجتياح تسمح لنا بأن نحدّد بوضوح أكثر العناصر، أو بعضها، التي يمكن الاستناد إليها في استخلاص الدروس والاستنتاجات من هذه الحرب، الأولى من نوعها، التي لا تزال مستمرة منذ ثلاث سنوات ونيّف، ولن تنتهي، كشكل من أشكال الصراع، في مرحلته المتقدمة، بين اسرائيل، كدولة مغتصبة مُحتلة، وبين قوى الحركة الوطنية الثورية العربية الرافضة للإغتصاب والاحتلال والمتصدية لهما، إلاّ بانتزاع الحقوق القومية المغتصَبة وضرب مراكز العدوان ووضع حدٍّ لها.

ا سقوط الاسطورة وبداية المأزق

أوّل ما ينبغي استخلاصه من دروس، في هذه الحرب، هو أنّ اسرائيل، إذا كانت قد حققت الجزء الآني من أهدافها في الاجتياح، فإنها قد بدت عاجزة عن تحقيق أهدافها البعيدة. بل هي تزداد ابتعاداً عن هذه الأهداف، وتضعف قدرتها على العمل من أجل تحقيقها. فهي قد اضطرت إلى الانسحاب من لبنان دون شروط بعد أن فقدت اتفاقاً كانت تتصور أنها ستفرض بواسطته على الشعب اللبناني تبعية أبدية لها. وهذا ما يؤكد أن ما حصلت عليه، بفعل انتصاراتها الدائمة في الحروب ضد البلدان العربية، من صفات أطلقت على جيشها، بأنه جيش لا يُقهر، قد بدأت تفقده في حربها اللبنانية. فهي تُمنى بخسائر بشرية ومادية فاقت كل ما منيت به في الحروب السابقة كلها من خسائر. فقد عجزت عن مواجهة مقاومة وطنية تحولت، بفعل هذا العجز الإسرائيلي، من جهة، وبفعل

احتضان الجماهير لها، من جهة ثانية، إلى حركة جماهيرية، إلى حركة تحرير وطني. فسقطت، بذلك، أسطورة اسرائيل التي لا تُغلب. إن سقوط الأسطورة هذا قد ترافق مع نشوء أزمة بالغة الحدة في المجتمع الاسرائيلي شملت كل نواحي الحياة. وبدأت هذه الأزمة تفرز ظاهرات من أشكال مختلفة لم تكن اسرائيل تشكو منها، على هذا النحو الذي نشهده الآن، ليس فقط في الأراضي العربية المحتلة، في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، بل، كذلك، في الداخل الاسرائيلي، في أرض الاغتصاب الأولى. أبرز هذه الظاهرات التي تعبّر عن أزمة عميقة سياسية واقتصادية في المجتمع الاسرائيلي ثلاث:

الظاهرة الأولى، هي ظاهرة الاحتجاج التي تشمل أوساطاً مختلفة من العرب واليهود، على السواء، ضد سياسة الحرب والتوسع والاحتلال.

الظاهرة الثانية، هي ظاهرة المقاومة بأبسط الوسائل، بما في ذلك بالحجارة وبالسكاكين، التي تتسع في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، ضد الاحتلال الاسرائيلي، وتجد لها أصداء في العمق الإسرائيلي.

الظاهرة الثالثة، هي ظاهرة نشوء حركات متطرفة بين أفراد وجماعات وحتى حركات سياسية صهيونية منظّمة موجهة ضد العرب بدأت تصل إلى أشكال عنف واحتلال منازل، بما في ذلك الحديث، تصريحاً أو تلميحاً، عن احتمال طرد السكان العرب من الضفة والقطاع، في مرحلة أولى، في شكل حالات فردية، وهو ما تجري ممارسته الآن، ثم، في شكل طرد جماعي لهم، في مرحلة لاحقة.

غير أنّ الأهم في ما نعتقد أنه الأساس في ما ينبغي استنتاجه من دروس هذه الحرب الاسرائيلية ضد لبنان وضد الشعب الفلسطيني يتلخص بأمرين:

الأمر الأوّل، هو أن العامل الإسرائيلي في لبنان بدأ ينكفىء بشكل واضح وفي خط مستقيم ليحل محله الدور العربي للبنان الذي يصبح، في المرحلة الراهنة، خط التطوّر الصاعد، وتجري مباراة بين القوى اللبنانية المختلفة المتناقضة، المتصارعة، في تحديد مفهومه ومفهوم عروبة لبنان على أساسه. وهو ما تحاول أن تعبّر عنه كل القوى السياسية اللبنانية، في أوراق العمل التي تطرحها حول حل الأزمة اللبنانية، بما في ذلك تلك التي كانت حتى

الأمس القريب تعتبر أن لبنان هو بلد غير عربي، بلد مرتبط بالغرب وبإسرائيل. والدور العربي هذا تنظر إليه القوى السياسية اللبنانية، وبأشكال مختلفة. ونعتبر نحن، الشيوعيين وسائر الوطنيين، أنه يتجسد في شكل علاقة متميزة مع سوريا، تأكيداً للتاريخ المشترك، وللمصلحة المشتركة في التطور.

الأمر الثاني، هو أن انكفاء العامل الاسرائيلي في لبنان يشكل بذاته انكفاءً للعامل الإسرائيلي في المنطقة. وهذا يعني أن اسرائيل لم تعد تستطيع أن تستمر كما كانت عليه منذ قيامها بلداً يستند في تطوره إلى سياسة التوسع على حساب شعب فلسطين وأرضه، وعلى حساب أراضي البلدان العربية الأخرى من النيل إلى الفرات، وإلى قمع الحركة الوطنية الثورية للشعوب العربية، في شكل دركي بيَدِ الامبريالية الاميركية. إن ذلك يقود، بالضرورة إلى جعل المشروع الصهيوني الأساس، الذي تشكل اسرائيل تجسيداً راهناً له، يدخل في مأزقه التاريخي.

لا بدّ من استخلاص هذه الاستنتاجات والعكوف على تعميق البحث فيها شرط أن يقترن ذلك بتقدير واقعي لقدرات إسرائيل الحالية ولقدرات القوى التي تدعمها، من جهة، وللضعف الذي يسود البلدان العربية أنظمة وقوى ثورية، من جهة ثانية. فإذا اقترن هذا الاستنتاج بدراسة دقيقة للواقع، بكل تناقضاته، أمكن الوصول إلى استنتاجات صحيحة، سواء فيما يتعلق بالأحداث التي تجري، وباتجاهات تطورها، أم بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الحركة الوطنية الثورية في لبنان وفي سائر البلدان العربية.

لقد فعلت المقاومة الوطنية اللبنانية فعلها. أسقطت الأسطورة الإسرائيلية وأدخلت المشروع الصهيوني في مأزقه التاريخي.

٢ الارهاب - خطط الانتقام

إنسحاب إسرائيل، إذن، من لبنان هو انكفاء لدورها، ليس في لبنان وحسب، بل في

المنطقة العربية بأسرها. وهو انسحاب فرضه عليها شعبنا بمقاومته الوطنية وبصموده. وهي حقيقة عظيمة تتأكد كل يوم، وتتعمّق، وتكبر، ويكبر معها الوطن وقضيته، وتكبر معه هذه الظاهرة الفذّة التي تضيء زمننا، ظاهرة المقاومة الوطنية.

فمن الطبيعي، إذن، أن يترافق هذا الإنسحاب مع الحقد في أقصى درجاته. أليست هذه هي الهزيمة الأولى التي تُفرض على إسرائيل في تاريخ صراعها الطويل الصعب مع الأمة العربية، المليء بالحروب البربرية، وبالآلام، وبكل أشكال الدمار، وبالهجرات المريرة المتعدّدة، وبالاحتلال، والاغتصاب وبالعدوان؟

هذا الحقد الذي تسببه الهزيمة ويسببه التراجع والإنكفاء إنما يستدعي من إسرائيل أن تستنفر كل ما في ترسانتها، وكل ما في ترسانة الفاشية والعنصرية، من أدوات انتقام، وأشكال قهر، وصنوف قمع، ومظاهر همجيّة، ومجازر بشرية من كل الأنواع، وأعمال تدمير وإبادة. وظيفة هذه الوسائل الإنتقامية الفاشية الطابع والهدف هي في أن تتمكن إسرائيل بواسطتها من كبح أي نهوض وطني يولده الإنتصار في تحرير الأرض، كمهمة أولى ثم الإستناد إلى الخوف الذي يمكن أن يولّده هذا الشكل الفاشي من الإنتقام الذي تؤكد إسرائيل انها ستلجأ إليه في أي وقت عندما ترى ذلك ضرورياً، من داخل الحدود، أو من خارجها، إذا ما رأت أن إنسحابها الكامل بات حتمياً من أجل توفير شروط قيام العملاء المتعددي الأنواع، المتعددي الإنتماء الطائفي، بدور تخريبي تتعدد أشكاله وصيغه ووسائطه وأدواته بتعدد المشاكل والصعوبات الموضوعية القائمة. في مقدمة هذه الصعوبات تلك التناقضات السياسية والطائفية والمذهبية، وحتى العائلية والعشائرية، فضلاً عن التناقضات الإجتماعية المتفاقمة أصلاً، والتي ستزداد تفاقماً في المستقبل مع تفاقم الأزمة العامة التي تعصف بالبلاد بكل جوانبها والتي يسببها عجز البرجوازية وعجز نظامها الطائفي عن إيجاد الحلول الصعبة لها. جزء من هذه الصعوبات والتناقضات موجود في الأساس في الواقع المعاش، في الحياة اليومية للناس. وسوف تبقى هذه التناقضات طويلاً، وتعيش. وسوف تتخذ أشكالاً مختلفة: وسوف يكون لها، على تعدّدها، مكان ودور وتأثير، بعد الإنسحاب الإسرائيلي، بدأنا نشهد نماذج له، بدرجات تختلف حدتها من منطقة إلى أخرى باختلاف الوضع في المنطقة المعينة وباختلاف الموقع الذي تحتله فيها القوى الديمقراطية، ليس فقط تاريخياً، بل، كذلك، في دورها في المقاومة الوطنية، وتختلف باختلاف الدور الذي تضطلع به، الآن، هذه القوة السياسية أو تلك، والإمكانات التي توفرها لها الظروف الموضوعية، والإمكانات التي تخلقها هي لنفسها.

ويقيناً أن إسرائيل، في ممارستها للإرهاب بشتى أشكاله، تدرك جيداً، بتجربتها في تعاملها مع الأوضاع العربية، أنها قادرة على ممارسة التأثير في وضع هذه البلدان والتأثير في مشاعر الناس. إلاّ أنها تدرك أيضاً، بتجربتها، أن ما واجهته في لبنان هو نوع مختلف. ولذلك فهي، بالتأكيد، تضع تخطيطاً لأشكال انتقامها لهزيمتها في لبنان تأخذ فيها بعين الإعتبار الجديد في المرحلة الراهنة، في تطورها هي، أي إسرائيل، وتطوّر موقعها في المنطقة، من جهة، وفي تطور الأوضاع العربية، ووسائل التصدي في هذه البلدان لعدوان إسرائيل واحتلالها واغتصابها وأشكال قمعها للحركة الوطنية الثورية العربية. من جهة ثانية. هذا الجديد هو ما انبتته المقاومة الوطنية اللبنانية.

ما هي هذه الخطط التي يمكن لإسرائيل أن تفكر في صياغتها للدفاع عن موقعها وعن دورها؟

إنّها، في الواقع، خطط إسرائيلية أميركية رجعية عربية، في آن واحد. ولأنها كذلك فهي خطط شديدة الخطورة تجعل معركة المواجهة اللاحقة، التي على الحركة الوطنية الثورية العربية أن تضطلع بها، أكثر حدّة وأكثر شراسة وأكثر صعوبة. فإن الهدف الأساسي من هذه الخطط هو الحيلولة دون تحوّل فعل المقاومة الوطنية اللبنانية وتأثير الإنتصارات التي حققتها، إلى حركة تلفُّ الجماهير العربية حولها وتستنهضها، مثلما حصل في أواخر الستينات، بالنسبة للمقاومة الفلسطينية، وذلك في معركة عامة شاملة من أجل تحرير الأرض من الإحتلال والإغتصاب ومن أجل التغيير الديمقراطي.

نورد هنا، بعض النماذج التي نتصورها لهذه الخطط:

أول هذه الخطط، هو محاولة إسرائيلية لمواجهة نتائج الحرب اللبنانية بالعمل، بشتى الوسائل، من أجل الإبقاء على دور معين لإسرائيل في الوضع اللبناني، إنطلاقاً من الجنوب، واستخدام هذا الدور في تعطيل أي حل وطني ديمقراطي عربي للأزمة اللبنانية. وهو ما يتجسد، في سياسة إسرائيل الراهنة، ليس فقط في الشريط الحدودي، بل، كذلك فيما تلجأ إليه، عبر عملائها، في خلق مشاكل وصعوبات للقوى الوطنية في المناطق الوطنية المحرّرة من احتلالها ومن هيمنة حزب الكتائب. وهو ما يتجسد، أيضاً، فيما تقوم به، عبر عملائها في حزب الكتائب والقوات اللبنانية وداخل تنظيمات أخرى، من عرقلة نمو وتطور إمكانيات حقيقية للإقرار بالواقع الجديد الذي نشأ، أي بواقع أنّ مشروع الكتائب الفاشي قد انهار،

وأنّ المشروع الوطني الديمقراطي العربي هو الذي سينتصر.

ثاني هذه الخطط، هو العمل، بالتعاون مع الإمبريالية الأميركية والرجعية العربية، على تصفية القضية الفلسطينية، عن طريق مشاريع الحلول الإستسلامية، وإضعاف مواقع الحركة الوطنية الثورية العربية، بفعل ذلك. وهي الخطة التي ينخرط فيها عرفات عن وعي أو غير وعي، وتنخرط فيها القوى المرتبطة بنهجه. وتعبّر عن هذا الإتجاه إتفاقيات كمب دايڤيد وإتفاق عمان والمشاريع المرتبطة بها. نقول ذلك رغم أن إسرائيل لاتزال تعارض أي شكل لانخراطها الرسمي في أي من هذه الحلول إلاّ على أساس الإقرار الكامل، من قبل الأطراف العربية والفلسطينية المعنية، بوجود إسرائيل في وضعها القائم على الإغتصاب والإحتلال والتوسع والموافقة على تحويل القضية الفلسطينية إلى مجرد قضية لاجئين يبحثون عن مكان للإقامة لا عن وطن يريدون استعادته واستعادة حقوقهم فيه وبناء دولتهم المستقلة على أرضه.

ثالث هذه الخطط، هو العمل، بكل الوسائل، بالتعاون مع الإمبريالية الأميركية ومع الأنظمة الرجعية العربية، لعزل سوريا وتوجيه ضربة لها من داخلها ومن خارجها، في وقت واحد. ويتعزز هذا الإتجاه فيما تحقق لإسرائيل، حتى الآن، من طموح في تمزيق البلدان العربية وتفتيتها وتعميق التناقضات بينها، ليس فقط بين برجوازياتها، بل حتى بين بعض قواها الثورية. وهو ما نشهد صورة مفجعة له، الآن، فيما يصيب التضامن العربي من انهيار، هذا التضامن الذي كان يقوم على العداء لإسرائيل، وعلى الدفاع عن القضية القومية التي تشكل القضية الفلسطينية محورها الاساسي. لقد تفكك هذا التضامن وحل محلّه تخلي الأنظمة الرجعية العربية عن القضية القومية برمـتها وعن القضية الفلسطينية، تحديداً، والإنتقال المعلن، وغير المعلن، إلى التحالف مع إسرائيل. وهو حلم كان يراود دايان قبل مماته، عندما قال، غداة توقيع إتفاقيات كمب دايڤيد، بأن تطوّر الوضع في البلدان العربية، الذي ستدفع باتجاهه إسرائيل، بكل إمكاناتها، في ظل التفكك العربي القائم، سيؤدي إلى تطور في الصراعات الراهنة بين البلدان العربية والصراعات بينها وبين جيرانها، يصبح معه الصراع العربي. الإسرائيلي في الدرجة الثانية من الأهمية.

رابع هذه الخطط هو الإستفادة إلى الحد الأقصى، مع الإمبريالية الأميركية، من الإنهيار الذي يصيب النفط العربي، كعنصر ضغط، كان يُستخدم في السابق، في مواجهة

إسرائيل، وفي مواجهة الإمبريالية الأميركية وحلفائها. وهذا الإنهيار في موقع النفط يعود، في الأساس، إلى الدور الرجعي لدول النفط، وإلى التبعية الكاملة للأنظمة الرجعية إزاء الإمبريالية الأميركية واحتكاراتها، وإلى تخلي هذه الأنظمة عن القضية القومية وسلوكها نهج الخيانة، ثم تحوّل هذا السلوك إلى سياسة رسمية عند عدد متزايد من هذه الأنظمة.

هل هذه هي، فعلاً، خطط إسرائيل وأميركا، أم أنها الخطط التي يعبّر عنها نهج الخيانة القومية لدى أقسام من البرجوازية في البلدان العربية؟

إنها كلاهما معاً. وفي مطلق الأحوال فإن المرحلة المقبلة التي تحدّد ملامحها نتائج الحرب اللبنانية - الإسرائيلية، والدور الحاسم الذي لعبته فيها المقاومة الوطنية اللبنانية، ستبيّن، بوضوح أكثر، الوسائل والخطط التي ستلجأ إليها إسرائيل من أجل الدفاع عن كيانها وعن مشروعها، ومن أجل إيقاف وعرقلة التطوّر في الحركة الوطنيّة الثوريّة العربيّة، ومن أجل قمع النهوض الذي خلقه في لبنان فعل المقاومة وإنجاز تحرير الأرض.

٣ ردود الفعل داخل اسرائيل - شهادات

لم تكن الحرب، إذن، نزهة. ذلك هو الاستنتاج الأساس الذي خرجت به إسرائيل، حكومة، وقوى سياسية، وجيشاً، وفئات واسعة من السكان. ولم تكن ردود الفعل على هذه المغامرة، داخل إسرائيل، من نوع واحد. كانت متعددة الأنواع والأشكال. لم تكن جميعها تقف عند نفس الشعار والهدف. بعضها كان واضحاً في توجهه: الخروج من لبنان وسلوك سياسة مختلفة وأخذ العبر والدروس من هذه الغزوات المتكررة، في شكل حروب متواصلة ضد البلدان العربية وضد الحركات الوطنية فيها. وعبرت عن هذا الإتجاه في ردود الفعل مظاهرات صاخبة فاقت بأهميتها وجماهيريتها كل ردود الفعل، وكل أشكال التضامن، التي شهدها العالم العربي ضد اجتياح لبنان وضد حصار عاصمته بيروت وضد احتلالها. البعض الآخر من ردود الفعل كان يدعو إلى سياسة عدوان بديلة مأخوذ فيها بعين الإعتبار ظروف المرحلة الجديدة، وبالأخص، ما برز في هذه الظروف من إمكانات حقيقية لمقاومة وطنية لبنانية تدعمها جماهير المناطق المحتلة، وتلتف حولها كل القوى السياسية، على

اختلافها، ورغم ما بينها من تناقض وصراع، ويتوحد حولها كل أنصار الوطنية اللبنانية من كل الطوائف ومن كل الإتجاهات. وبالطبع فقد كان واضحاً من ردود الفعل الإسرائيلية أن الأزمة العميقة التي كانت قائمة داخل المجتمع الإسرائيلي، سياسياً واقتصادياً، عشية الإجتياح، وكان الإجتياح هروباً إلى الأمام في شكل معالجتها، قد بدأت، بعد الإجتياح تأخذ منحى آخر جديداً، بدأت تتحول إلى أزمة تهدد كل المشروع الصهيوني، وكل دور إسرائيل التقليدي في المنطقة. ولم يكن يعني ذلك، بالنسبة للوطنيين اللبنانيين، أن إسرائيل قد فقدت، وهي تنسحب من لبنان، تحت ضربات المقاومة، وفي ظل تراجع وهزيمة القوى المرتبطة بها، المستندة إلى دعمها، أسباب قوتها وأصبحت عاجزة عن الإستمرار في ممارسة عدوانها. لا، قطعاً. فإن هذه المرحلة ما تزال بعيدة. إلا أن الأساسي، في ما جرى ويجري، هو أن زلزال الإجتياح لم يترك مفاعيله على لبنان واللبنانيين، وعلى العرب أجمعين، وحسب، بل إنه ترك، أيضاً، مفاعيله، بعمق في المجتمع الإسرائيلي. وما أشرنا إليه، آنفاً، من أن إسرائيل تحاول، اليوم، في ضوء هذه الوقائع الجديدة، ترتيب دفاعها، على أسس مختلفة، وتحاول وضع خطط جديدة مأخوذ فيها بعين الإعتبار الوقائع المستجدة، إنما يؤكد هذه الحقيقة ويعززها.

ولعله من الأفضل، هنا، العودة إلى أقوال إسرائيليين مرموقين، عبَّروا، في كتاباتهم، وفي تقاريرهم، عن الحرب، عما أحدثه الزلزال اللبناني من نتائج على إسرائيل، وداخل المجتمع الإسرائيلي.

نورد، في البداية، مقتطفات سريعة من كتابات وتعليقات لصحف إسرائيلية معروفة، جمعها طوني فرنسيس في مقال خاص نشرته له مجلة «الطريق» في عددها الخامس من عام ١٩٨٤.

تقول جريدة «هاآرتس» في عددها الصادر في ٣ تشرين الأول ١٩٨٣: «**... إن المعركة اللبنانية.. إنتهت من دون أن تحقق الأهداف التي أراد بيغن وشارون تحقيقها**».

وتقول جريدة «دافار» في عددها الصادر في ١٦ أيلول ١٩٨٣: «**...إن التورط في منطقة الجنوب لا يقل خطورة وربما أخطر من التورط في ضواحي بيروت والشوف... وعندما يقوم في بيروت حكم مركزي مهزوز تحت رحمة السوريين وحلفائهم في جبهة الخلاص الوطني سيحين دور الجنوب ليشتعل**».

وتقول جريدة «هاآرتس» في عددها الصادر في ٢ تشرين أول ١٩٨٣ بأن الحياة في الجنوب أصبحت «**مشبعة بالتوتر والعنف**» وتحول الجيش الإسرائيلي إلى «**زمرة من مطلقي النار**» وتقول جريدة «همشمار» في عددها الصادر في ٦ تشرين الأول ١٩٨٣ إنه برغم تدمير البنية التحتية التي أقامتها المنظمات الفلسطينية، في جنوب لبنان فإن «**العديد من الإعتداءات هو من عمل أعضاء في تنظيمات سياسية لبنانية، بدءاً بأنصار الخميني بين الشيعة، وصولاً إلى أنصار الأحزاب الشيوعية التي لاتزال تنشط في جنوب لبنان**».

وتقول جريدة «هاآرتس» في عددها الصادر في ٣ كانون الثاني ١٩٨٤، في وصف الوضع داخل صيدا: «**فكل إنسان، كل طريق، كل سيارة تقف أو تسير مسرعة، هي أشياء مشبوهة. إنها (صيدا) مدينة ملغومة، أضيف عليها مؤخراً العديد من خريجي معتقل أنصار، بشهادة تقدير، كما يقولون في جنوب لبنان**».

وتقول جريدة «عال همشمار» في عددها الصادر في ٣ تموز ١٩٨٣: «**...إزداد التعاون بين السكان المحليين اللبنانيين وبين وحدات المخربين العاملة ضد الجيش الإسرائيلي**» وفي هذه الوحدات «**مواطنون لبنانيون ممن ينتمون إلى الفصائل اليسارية**».

وتقول جريدة «دافار» في عددها الصادر في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٣، بعد العملية التي نفذت في مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صور: «**...سيكون من الخطأ أن تواصل إسرائيل طرح مسألة الإرهاب هذه في لبنان وسبل الرد عليها وكأنها أمر لم يتغير. ينبغي أن ندرك بأننا نواجه واقعاً جديداً، واقعاً لن يستطيع فيه استمرار وجود الجيش الإسرائيلي في لبنان وضع حد لهذا الإرهاب، وحسب، بل إنه سيعززه ويزيد جبروت قوته**».

هذه المقتطفات من الصحف الإسرائيلية لا تكفي وحدها للتعبير عن عمق الحدث وعن عمق تأثيره. لذلك نضيف إلى هذه المقتطفات شهادات من نواع آخر لإسرائيليين في مواقع مختلفة.

نبدأ هذه الشهادات بشهادة حارس إسرائيلي في معتقل « أنصار »، نقلها عنه الصحافي الإسرائيلي « أمنون دانكنير » ونشر جزءاً منها في جريدة « هاآرتس ». وننشرها هنا بنصها الكامل منقولة عن مجلة « الطريق » في عددها الثاني عام ١٩٨٣:

. . . .

□ بعد انقضاء يومين أو ثلاثة كنت قد فهمت: أن أمراً خطيراً كان على وشك الحدوث. لم أكن أفكر بالذي حدث فعلاً فيما بعد، لكني كنت واثقاً أن أمراً ما، أن أمراً سيئاً، كان على وشك الحدوث. فعندما تغرق فصيلة بكاملها خلال ٤٨ ساعة في حالة الإحباط التام، يصبح كل شيء ثقيلاً على النفس إلى درجة إنك تشعر أن لحظة ستأتي، في مكان ما، ويحدث الإنفجار. الإشارة الأوضح إلى حالة الإحباط هذه ربما كانت أن الرجال لم يتطرقوا الى السياسة ولو بكلمة، ومع ذلك، معروف كيف يكون « الميلوئيم » (قوات الإحتياط) عادة: فما أن يصلوا حتى تبدأ المناقشات: هذا مع حزب العمل، هذا مع الليكود، بيغين ضد بيريز، مع الحرب أو ضدها، وكل شيء في سبيل الضجيج. لكن هذه المرة، لا شيء من هذا إطلاقاً. تصدقون أو لا تصدقون، كان الرجال محبطين إلى درجة أن أحداً لم يكن يملك القدرة، ولا الرغبة، للخوض في هذه الأشياء. بالإضافة إلى ذلك لم يكن أكثر الناس تعصباً لليكود سعداء حقاً بالقيام بالعمل الذي كُلفنا به، وكان من الأفضل عدم تحريك السكين في الجرح.

ماذا سيتبقى لي من هؤلاء « الميلوئيم » الإحتياطيين. ولفترة طويلة؟

سأظل أحمل هذه الرائحة الكريهة الطالعة من معسكرهم، في الأسفل، معسكر السجناء. أضواء البروجكتورات، جلبة محركات المجنزرات التي تجول في المعسكر كل ليلة. وأنت قابع، طيلة أربع ساعات، في برج المراقبة، وإلى جانبك بندقيتك، وتنظر نحو الأسفل. سبعة آلاف شخص في الخيام، يتهامسون فيما بينهم، يتبادلون الإشارات، وأحياناً يخرج واحد بالكلسون ويتوجه إلى دورات المياه، ويعود. تتحرك خيمة، نسمع همسة، أو يرمي أحدهم بحصاة ملفوفة بورقة من خيمة إلى أخرى.

ثم هناك الرائحة، الرائحة الكريهة لسبعة آلاف جسد يفرز العرق، ولإفرازاتها

التي تزكم الأنوف والتي تتكدس في دورات المياه الريفية المحفورة في التراب، وللمواد الكماوية التي تنصب في هذه الحفر لتلافي الأوبئة. ليلاً ونهاراً، تجتاحك هذه الرائحة، وتدخل في منخريك، وترافقك أثناء وجبات الطعام، وفي نومك، وفي يقظتك، إلى أن تعتاد عليها، إلى أن تقبلها، إلى أن تصبح جزءاً منك. وعندما تعود من الإجازة، وتقترب من المعسكر، تهاجمك الرائحة من جديد حتى الغثيان، ومن ثم، تعاود الإعتياد.

أما هم، فندعوهم بـ «المجلوبين»، ليس السجنا، لأنهم ليسوا بسجناء في نظر القانون. كما أنهم ليسوا بموقوفين. إنهم «مجلوبون». لماذا؟ لست أدري. لقد جلبوهم فدعوناهم هكذا. يوجد سبعة آلاف «مجلوب» على قطعة أرض بمساحة ملعب كرة القدم، ونحن ننظر إليهم من أعلى البطاريات التي أقيمت حول المعسكر، فوق أبراج المراقبة. وهم ينظرون إلينا أيضاً.

نحن، بعيدون، منعزلون، تنظر إليهم لكن ليس لنا أي إتصال بهم. كل ما نعرفه، إنه إذا ما حدث شيء ما، إذا قطعوا الأسلاك الشائكة، إذا ثارت ثائرتهم، نطلق عليهم النار. أربع ساعات حراسة في النهار، وأربع ساعات في الليل. والإحباط يتصاعد، يتصاعد، يلتصق بجلدك مثل الرائحة المنبعثة من الأسفل. المعنويات في الحضيض. وهوذا الطقس يتدخل بدوره. سحب كثيفة تتراكم وريح تهب وتجمد عظامك، في الأعلى، فوق أبراج المراقبة. يصبح الصباح داكناً أكثر يوماً بعد يوم.

في الأسبوع الثاني ألحقوا قسماً منّا بالحواجز التي أقيمت على طريق النبطية. هناك من لاحظ أن من هذه الطريق يمكن رؤية ما يحدث في المعسكر، ولهذا أقيم عند كل منعطف من الطريق حاجز، مع ستة جنود، لمنع السكان من النظر. في بادىء الأمر كنا سعداء بأن نترجّل، تصور، أن نخرج من المعسكر، أن نبتعد عن رائحة «المجلوبين» الكريهة، أن لا نعود نسمع صرخان الألم التي يطلقها أولئك الذين يخضعون للإستجواب. لكن لم يطل بنا الأمر حتى أدركنا أن الخدمة على الحواجز هي أبعد من أن تكون نزهة بين الحقول.

تصل السيارات إلى الحاجز. فيها رجال، نساء، أولاد. يطلبون المرور، الوصول إلى النبطية. وأنت تعلم إنك إذا رفضت السماح لهم بالمرور يترتي عليهم أن يداوروا من طريق أبعد، بزيادة ساعة ونصف الساعة. لكن لا بد من ذلك. إنها الأوامر. مع

الوقت كان البعض يصلون حاملين تصاريح بالمرور، مكتوبة بالعبرية: «فلان يتعاون مع قواتنا، يُسمح له بالتنقل دون تحديد، نهاراً وليلاً». وهناك أيضاً الحالات الخاصة، الجرحى، النساء اللواتي جاءهن المخاض، قاصدين مستشفى النبطية. في البداية كنا نتصل بالهاتف لنعرف كيف نتصرف. وعموماً كان يسمح لنا بفتح الطريق لهم. ثم بعد بضعة أيام لم نعد نتصل، فإذا كان الشخص ذا مظهر لا يثير الشبهات كنا ندعه يمر.

لكن دائماً يحدث ما يعكر الأمور. سمحنا مرة بمرور بعض النسوة. فما حيلتك أمام مجموعة من النسوة يتوسلن إليك باكيات، يُقَبّلن يديك ويُرينك صورة شاب ذي شاربين، يلبس سترة ويضع ربطة عنق، ويسألنك إن لم تكن، بالصدفة، قد صادفته داخل المعسكر. **لقد مر عليهن ثلاثة أشهر دون أن يشاهدنه. في الحاكمية العسكرية في صيدا لم يجب أحد، وفي الصليب الأحمر لا أحد يعرف.** تقول لك الإمرأة إنها تريد المرور لإلقاء نظرة لا أكثر، ربما تمكنت من رؤيته. ربما كنتَ تعرف مكان وجوده، وتعرض عليك الصورة مجدداً، بيد مرتجفة. هل عرفته؟ إنه زوجي، هل رأيته، في المعسكر؟ كيف بإمكانك إفهامهن إنك تراهم من بعيد، إنك تشم رائحتهم من بعيد، إنك تحرسهم من بعيد، **إنهم بالنسبة إليك، ليسوا بكائنات بشرية بشاربين وبربطة عنق، ولهم في البيت إمرأة، وربما أولاد، بل هم سبعة آلاف نملة ضئيلة بزي موحد أزرق في ضوء النهار.**

أخيراً، سمح لمن أحدنا بالإقتراب من الأسلاك الشائكة. تعالت صيحات، واقترب «المجلوبون» من السياج. **عبأ الجنود أسلحتهم** في أبراج المراقبة والمواقع. وبدأ يرتفع من مجموعة «المجلوبين» المتزايدة عند الأسلاك الشائكة، صخب متقطع. رشق أحدهم الجنود بحجر، وبسرعة تساقطت الحجارة بكثرة على الجنود الذين صوبوا أسلحتهم نحو الجموع المتقدمة نحو السياج زمجرة. وأطلق أحدهم النار، في الهواء. فارتفعت صرخة يأس وسط الجموع. وأخذت النسوة في الجهة الأخرى بالبكاء. وهجم «المجلوبون» عندئذ على الأسلاك الشائكة وراحوا يهزونها بكل قواهم.

أصيب الجنود برعب تام. وأسرع إلى المكان ضابط في الشرطة العسكرية. وقف منتصباً وسدّد بندقيته **وراح يطلق النار عليهم**. أما نحن، فكنا واقفين، حول المكان، مشدوهين، بلا حراك. كنا نرى كيف تثقب الرصاصات الأجساد، كيف

كان الجرحى يتجمدون فجأة واضعين يدهم على جراحهم ثم يرفعونها ملوثة بالدم، كيف كان الدم ينتشر على الزي الأزرق. وقعت الأجساد الأولى على الأرض، وسمعنا أولى صرخات الألم. بدأ أحدهم ميتاً، كان آخر يزحف، وثالث يتلوى من الألم. كان رفاقهم يركعون بالقرب منهم ويصرخون. صدرت إليهم الأوامر بواسطة مكبرات الصوت بالعودة إلى خيامهم. فأطاعوا مخلفين وراءهم الجرحى الذين كانوا يتوجعون أرضاً. عاد الصمت. دخلت المجنزرات إلى المعسكر لأخذ الجرحى. كانت رائحة البارود، قبل أن تتبدد بدورها، قد اختلطت للحظة بالنتانة المنتشرة في المكان باستمرار.

بعد الذي جرى عمدوا إلى شد البراغي. حظروا علينا أن نتساهل على الحواجز: لن يمر أحد بعد الآن بدون تصريح. تأتي إمرأة قد جاءها المخاض، شيخ يتلوى من الألم وابنه يرجوك باكياً بالسماح له بإيصال أبيه إلى المستشفى. لكنك لا تملك الخيار: تتصل هاتفياً بمقر القيادة، ومن هناك يحظرون عليك أن تفتح لهم الممر. عندئذ لا يبقى إلا أن تهز كتفيك وتشير بأصبعك إن عليهم أن يأخذوا الطريق الأخرى.

بعد ذلك، **أصبحنا نسمع كل يوم عن حادث بإلقاء قنبلة يدوية على حاجز إسرائيلي. في مثل هذه الحالة ينتابك القلق لدى سماعك أقل حركة**، أو لدى إقتراب أي سيارة من الحاجز. تصبح أكثر فأكثر توتراً وتضم سلاحك إليك بقوة. النسوة لا يزلن يأتين إلى الحاجز وفي أيديهن صور فوتوغرافية، وأنت تصرفهن وتظل تخشى أن تسحب أحداهن فجأة قنبلة يدوية من ثيابها. وعندما تنهي نوبتك في الحراسة، تعود إلى الخيمة وتتمدد على سريرك ونفسك مملوءة بالمرارة، ويستولي عليك الإحباط. إنك تتناول طعامك مع الإحباط وتنام معه فيلاحقك في أحلامك، وينهش جسمك عندما تغتسل كل صباح تحت الدوش حيث تحولت الأرض إلى وحل. يطول النهار ولا ينتهي. تتمنى أن يمر الوقت بسرعة، لكنه، الوقت، كما لو أنه يتعمد الأمر، يتباطأ، لكي تتشرب جيداً من الروائح، ومن مشاعرك، ومن هذا الإحباط الذي يحيط بك من كل صوب.

رجالنا يتحركون كالظلال، وجوههم مغلقة، حزينة. لا أحد يرغب بالمزاح كما يحدث دائماً مع «الميلوئيم». لكن ليس هذه المرة. كما لو أن ريحاً من الأسى قد هبّت

على الجميع: سجناء وسجانين، موقوفين وحراس.

لو أن أحداً قال لي، في الأيام الأخيرة من الإحتياط، أن أحدنا قد انتحر لما استغربت. ومع ذلك، في صبيحة اليوم الذي إستعدنا فيه حريتنا، بعدما أن شدّينا حقائبنا، ونظفنا المكان، وبينما كنا ننتظر الباص الذي سيأتي بالذين سيحلّون محلنا... لقد إنتهينا من كل ذلك، أصبح كل شيء وراءنا، وكنا على وشك الإفتراق نهائياً مع هذه الرائحة، ومع هذه الوجوه، ومع هذا الجو الخانق. كان الأمر نافلاً، الآن، ولم يكن له أي معنى: **ومع ذلك فقد إنطلقت الطلقة. كان ذلك الشخص ممدداً، بجرحه الفاغر، يسبح بالدم، وعيناه مفتوحتان في اليوم الأخير، وكان كل شيء قد انتهى. لكن أحداً لم يسأل لماذا حصل ذلك. لم يتهز أحد لما حصل. لم نجعل من ذلك قضية مهمة حتى أنه لم يخرجنا من همودنا، من إتخائنا. إنتحر؟ حسناً. كنا نعلم أن لديه مشاكل، مشاكل عائلية، وطلاق. لكن الأمر بدا طبيعياً جداً ومتوافقاً جداً مع المكان. كان يبدو واضحاً إلى درجة انه، في نهاية الأمر، وفي يوم من تلك الأيام، سيطلق أحدهم النار على نفسه ويرسلنا إلى بيوتنا وقد إنطبعت فينا صورة رأسه المنفجر، وعيناه الفارغتان ويده المرخية فوق جسده الممدد بلا حراك.**

كما تعلم، في مثل هذه الحالات، وبعد كل ما يحدث من هرولة في كل إتجاه، الأطباء، المرضين، يبدأ الناس عادة بتجاذب أطراف الحديث. لقد فعل ذلك لهذا السبب أو لذاك. لكن هذه المرة لا شيء من هذا. هز كتفين شامل كقبول سلبي بالأمر. وصلت سيارة الإسعاف، ونقلت الجثة إلى مستشفى صفد. إنه أول جندي يستعيد حريته، أول من إنتهت خدمته في الإحتياط.

أما نحن فكنا نجلس صامتين. ننتظر الباص. في الأسفل «المجلوبون» يتهامسون. **أنا أنظر إليهم فأرتعد. يستولي عليّ الرعب**. يغمرني شعور بأنهم لعنة تتصاعد نحونا مع روائحهم النتنة، وتزرع فينا بذرة شريرة تأخذ بالنمو... في ظلماتنا الداخلية الخاصة، كان نمو هذه البذرة أسرع ما يكون لدى الذي إنتحر.

في الباص، على طريق العودة، أطبقت عينيّ، ورحت أصب اللعنات على معسكر السجناء، وألعن نفسي كما لو كنت أمارس طقوس طرد الشياطين التي تسكنني. ألعن ثم ألعن إلى أن يتبدل المنظر أمامنا، هناك شيء فيّ يتطهر. وبقيت طيلة ساعة بعد ذلك أفكر بالمنتحر، بجثته المتجمعة التي حملت النتانة والإحباط معها إلى القبر.

. . . .

وفيما يلي، أيضاً، شهادة أخرى هي عبارة عن مقال تحليلي طويل نشره الكاتب الإسرائيلي «شلومو أهرنسون» في جريدة «هاآرتس» بتاريخ ١٧ آيار ١٩٨٣ بعنوان «حرب لبنان فيتنام إسرائيل» نقل الجزء الأخير منه عن مجلة الطريق في عددها الرابع ١٩٨٣.

. . . .

«لا عجب إذن من أن شارون كرر مآثره بصورة شبيه في لبنان، فقد قرر خطوة تظاهرية مثيرة في أرض غير معروفة له بما فيه الكفاية، ومن دون أن يأخذ في الحسبان جميع القوى الفاعلة فيها، والدينامية السياسية ـ النفسية للعلاقات القائمة بين هذه القوى وبيننا. وبعد ذلك أمل في تحويل الورطة التي نشأت إلى انتصار بالتبجح ـ عبر ثقته بنفسه وقدرته على تعبئة التأييد العام غير الانتقادي. وكان في نيته تحطيم مكانة المخربين في لبنان وضرب السوريين ـ إما لكي يخرجوا منه، وإما أن يسلموا باستراتيجية ردع إسرائيلية جديدة، ذات تهويل نووي. وفي لبنان ذاته، أمل شارون في إقامة حكم ماروني بحماية إسرائيل. ولم يقدر شارون كما يجب ضعف الموارنة والصعوبات الموضوعية التي يواجهونها، وقوة الدورز والمصلحة المشتركة بين رجال جنبلاط ودمشق في منع السيطرة المارونية تحت الحماية الإسرائيلية. كما تجاهل قوة المسلمين ولم يبحث في العمق المفارقة الفلسطينية في لبنان. وقد كشف الدكتور تسفي لانير من جامعة تل أبيب الذي بحث فيما يجري في مخيمات اللاجئين، كشف النقاب عن أن معظم لاجئي ١٩٤٨ تجذروا منذ وقت طويل في البيئة اللبنانية، وإن م. ت. ف. فرضت عليهم الوصاية في سنة ١٩٧٠ عندما وصلت إلى لبنان قادمة من الأردن ـ من دون أن تعمق كثيراً سيطرتها عليهم. لقد أدى طرد م. ت. ف. من المخيمات إلى وضع جديد ـ السكان الفلسطينيون لا يناصبونا العداء ـ بيد أن الموارنة يناصبونهم العداء. وعندما نخرج من المخيمات، لن يكون في مقدور الموارنة الحؤول دون عودة م. ت. ف. على مدى الأيام، وذلك بسبب ضعفهم وفسادهم وتهديداتهم المتواصلة للمخيمات. حتى أن من الجائز أن تحزم م. ت. ف. سيطرتها

عليها ـ في أعقاب الحرب ومحنها بحماية سورية المباشرة، التي استخلصت الدروس الخاصة بها إزاء سطحية عرفات وتبجحه.

علاوة على ذلك ـ فإن « ظاهرة المتلا » أدت إلى ضربة قاسية أنزلت بسوريا التي إضطرت، على غرار الجنود المصريين في سنة ١٩٥٦ إلى النهوض والقتال، والدفاع عن القيم والمكانة والهيبة التي تؤمن بها وتحتاجها، وما لا شك فيه أنها لا تحارب وفق سيناريو شارون. بل على العكس.

فإن دمشق تؤمن اليوم بأنها استجمعت القوة الكافية والدعم السوفياتي الذي يكفي للقضاء على إستراتيجية شارون الردعية، وخصوصاً لتوريط إسرائيل في حرب قاسية بالنسبة إلينا ومريحة بالنسبة إليها، وهي تفرض سيطرتها على م. ت. ف. وتستخدمها لأغراضها ولمصلحة القضية الفلسطينية كما تفهمها.

إن الإستراتيجية السورية واضحة: إرسال مخربين فلسطينيين ولبنانيين ومسلمين ودروز لمحاربتنا، من دون أن يكون في مقدرونا إتهام دمشق مباشرة بالمسؤولية عما يجري في المناطق التي نسيطر عليها ـ تلك المناطق التي لا نستطيع إغلاقها تماماً، والمأهولة بسكان قريبين من سوريا ويناصبون الموارنة العداء. وهذا هو سيناريو كلاسيكي لحرب العصابات، التي إستطاعت إسرائيل حتى الآن تجنبها والإنتصار فيها، بفضل تفوقنا الجوي والإغلاق المحكم للمناطق ذات الطبيعة الصحراوية التي احتلت من الماضي. وإذا ما حاولت إسرائيل ضرب سوريا أو تهديدها كعادتها، من أجل جعلها تتحمل مسؤولياتها عن هذه الحرب، فإن دمشق قوية اليوم بما فيه الكفاية من أجل ردع إسرائيل عن مثل هذه الخطوة. وقد تحولت دمشق إذن، في نظر نفسها، من مرتدعة إلى رادعة، ومن ضحية لمؤامرة إسرائيلية هجومية إلى مبادرة هي (سوريا) بنفسها، حيث تأمل في أن الدمج بين الغضب والإرهاق في إسرائيل على الحرب ومنها والمبادرين إليها وبين ثمنها الإقتصادي وخطر حرب جديدة، سوف يقود في النهاية إلى انسحاب إسرائيلي من جانب واحد. وسوف يعلن عن هذا الإنسحاب كإنتصار سوري كبير ـ للمرة الأولى تكون إسرائيل قد جلت عن أرض عربية مثل « الكلب المضروب »، من دون أي مقابل ـ وهذا يقود إلى تكتل القوى في المنطقة التي سيتم الجلاء عنها تحت راية دمشق وعودة المخربين تحت إشرافها وكرسل لها إلى كل مكان تخرج منه، لكي يواصلوا منه مضايقة إسرائيل والموارنة على السواء. إن إنسحاباً عميقاً من جانب واحد حتى نهر الأولي

سيبدو محاولة إسرائيلية لتقسيم لبنـان ، أي البقـاء الدائـم في الجنـوب . إن متـل هـذه المحاولة لا بد من أن تثير معارضة عربية ، كما أن الولايات المتحدة لا تستطيع الدفاع عنها إلى مدى الأيام . ويمكن تخريب هذه المحاولـة أيضـاً بـواسطـة حـرب عصابات لبنانية ـ إسلامية ـ درزية ـ فلسطينية ، عبر عزل الموارنة وتحطيم قوتهم ، وممارسة الضغط غير المباشر على المارينز في بيروت.

وبالفعل ، تستطيع دمشق أن تأمل في أن إسرائيل ـ التي تفتقر تماماً إلى فلسفة إمبريالية وإلى الأدوات اللازمة لإدارة إمبراطورية مصغرة ـ ستكون غير قادرة على إيجاد لغة مشتركة لا مع الموارنة ولا مع الدورز ولا مع المسلمين ـ الشيعة والسنة ـ والربط بين هؤلاء جميعاً وبين الفلسطينيين في لبنان. ولذا ، ستكون نهاية إسرائيل الإنكفاء والعودة إلى داخل الغيتو الذي تعيش فيه . ولكونها مجتمعاً قومياً متعصباً جداً ، لا تستطيع إسرائيل تطوير وسـائـل للسيطـرة المتحضرة على الآخـريـن عبر احترام مصالحهم المتناقضة ، وهي لا تملك أدوات فرق تسد ـ ولا حتى وسائل القوة اللازمة للصمود في المهمة التي أخذتها على عاتقها وكأنها إنزال مظليين في المتلا : الصبر ، والإستعداد لدفع ثمن إقتصادي وثمن من الدماء ، وكذلك ـ المزايا ومنافذ الإنقاذ التي تملكها لكي تعرضها على الطوائف المختلفة في لبنان من خلال فرض إرادتها عليها دون غيرها . ومن هنا قد يؤمن السوريون بقدرتهم على تحويل لبنان إلى فيتنام إسرائيلية وجعل أنفسهم هانوي العالم العربي. كما إننا لا نستطيع البقاء في الخطوط المحلية الحالية إلى مدى الأيام . ومن المفضل أن ننسحب ، وكل مكان نجلو عنه سيدخله المخربون بإرشراف سوري وسوف يُستخدمون ضد مواقع انتشارنا الجديدة ، كلما أرادت دمشق ذلك. وإذا ما قمنا بشن حرب عليهم [السوريين] ، من الجائز أن يكون في مقدروهم إمتصاص الضربة بصورة أفضل من المجتمع الإسرائيلي المتضعضع والمشتت زعماً.

وهكذا وضعت دمشق إسرائيل وم. ت. ف. على السواء ـ وهذه مجبرة على قبول إرادتها أو المخاطرة بعزلة جديدة وضربات إسرائيلية في شمال لبنان ـ على قرني معضلة صعبة . إن التفوق السوري بصواريـخ سـام ـ ٥ وغيرهـا مـن المسـاعـدات السوفياتية هما أساس إيمانها بأن الحرب الشاملة لن تنتهي تماماً إلى غير صالحها . كما أن خرق التوازن الإستراتيجي هو أساس التخطيط الفيتنامي لسوريا ، وهو ينخرط بما لديها من انطابع بأن الجبهة الداخلية في إسرائيل كالجبهة الداخلية في الولايات

المتحدة خلال فترة حرب فيتنام. بيد أن دمشق ليست هانوي، والشرق الأوسط ليس جنوب شرق آسيا، والجيش السوري سوية مع المخربين والدروز والمقاتلين اللبنانيين المسلمين - ليسوا الفيتكونغ. إن الجبهة الداخلية في إسرائيل تشهد انقساماً قطبياً، ومع ذلك فإنه لا يضمن أكثرية تؤيد الإنكفاء والهزيمة في لبنان، تعيد الحرب إلى الحدود الشمالية وتمنح سوريا رافعة تورط فيها العالم العربي في حروب طاحنة مع إسرائيل المضروبة والمحطمة من الداخل. حتى أن الولايات المتحدة لم تتخل سنوات عديدة عن منطقة تبعد عنها ١٢٠٠٠ كيلومتر. وهناك شك أيضاً في أن الشباب الأميركي في ذلك الحين كان سيتصرف تجاه تهديد سوفياتي - راديكالي لحدود الولايات المتحدة نفسها كما تصرف تجاه قضية فيتنام.

إن شارون لم يعد له وجود، ومسألة مكانته الشخصية ستتوقف بسرعة عن كونها مشكلة عامة تتعلق بمستقبل الحرب. وبدلاً من رفول عين رئيس هيئة أركان يبدو منضبطاً وحكيماً. إن سوريا تعتمد على التمويل السعودي، وعلى أموال أمراء النفط العرب الآخرين، الذين لا يرتاحون إلى تحالفها مع موسكو وليبيا وعلاقاتها مع إيران الخميني. إن دمشق على خلاف مع معظم العالم العربي. وحاكمها هو من الأقلية التي تكرهها الأكثرية - وجيشه لم يظهر أبداً مقدرة إستراتيجية، وخيالاً عسكرياً، وقدرة على الإمتصاص مثل جيش الملايين الذي كان تحت إمرة جياب. إن الأسد يلعب، إذن، بالنار وهناك طرق للجمه. والرد الإسرائيلي على الإستراتيجية السورية - السوفياتية ينبغي أن يكون أولاً رداً أميركياً:

أولاً: ينبغي استعادة التوازن الإستراتيجي وتفوق سلاح الجو الإسرائيلي الذي ربما كان قد فقده - أو أن السوريين يتصورون ذلك - عندما أدخلت صواريخ سام - ٥ وأنظمة الأسلحة السوفياتية الأخرى إلى المنطقة. إن إحدى الوسائل الكفيلة بتوفير قدرة دفاعية مهمة لسلاح الجو، شبيهة بتلك التي منحها السوفيات للسوريين، هي قرار أميركي بتزويدنا بأنظمة أسلحة حديثة مختلفة، بما في ذلك شبكة صواريخ جو - جو طويلة المدى (١٢٠ ميلاً) من نوع «فينكس». وتركب هذه الصواريخ على طائرات ف - ١٤ وعلى متن السفن، ولكن يمكن تركيبها أيضاً على أي سطح طائر آخر. وسيكون تزويدنا بهذا السلاح وغيره، بمثابة تلميح أميركي للسوفيات والسوريين على السواء بأن واشنطن لن تسمح لهم بالسيطرة على لبنان وتهديد الجميّل

وقوات الولايات المتحدة في بيروت على السواء.

ثانياً: على الولايات المتحدة ممارسة الضغط الكبير على السعودية وممولي الأسد من العرب الآخرين. لأنه ليس المطروح مكانة إسرائيل في لبنان وحسب، وإنما التورط المباشر للولايات المتحدة في هذا البلد.

ثالثاً: ينبغي للولايات المتحدة الانسحاب من جانب واحد من أجل تسريع هذه المسارات وربما تنفيذ عملية تقصير الخطوط وتغيير التمركز بعد إعادة الوضع الإستراتيجي إلى ما كان عليه: أي، إيماءة عسكرية أميركية تؤول إلى تهدئة النفوس في موسكو ودمشق.

رابعاً: على الحكومة التوقف عن مداعبة نفسها بالأوهام، بأن «الحرب المترفة» ممكنة على الدوام، مثل أوهام الولايات المتحدة في فيتنام. إن الحرب هي أمر أخطر من أن يعهد به إلى الجنرالات والسياسيين الهواة أو الإنجرار إليه دون تفكير في العمق ودون اطلاع الشعب عليه. إن الشعب يحب الإنتصارات، بيد أن التورط من دون نهاية يتطلب مخاطبة مختلفة تماماً للجمهور - كما تعلّم شارون من تجربته هذه مؤخراً. وعلى الحكومة تسوية خلافاتها مع المعارضة، والتشاور معها حول كل أمر مهم، وقول الحقيقة. وعندها نستطيع المطالبة بالجهود والضحايا على طريق تطبيق الإتفاق الإسرائيلي - اللبناني - الأميركي، الذي ستضطر دمشق للموافقة عليه نتيجة للضغط الأميركي وإدراكها بأن إسرائيل ليست أميركا فيتنام. وفي هذه اللحظة يعتقد السوريون بأن العكس هو الصحيح - وفي مقدورنا سوية مع واشنطن - أن نثبت إنهم على خطأ. إن كبح سوريا في لبنان وتخبطات م. ت. ف. - التي لم تجد لها طريقاً بين القوى الفاعلة في الشرق الأوسط - قادرة على أن تعيد المنطقة كلها، خلال سنة أو سنتين - بعد الإنتخابات في إسرائيل - إلى سبل التفاهم والحل الوسط.

. . . .

في عرضنا لهذه الشهادات حول ما يجري في إسرائيل من صراع ونقاش ومن مظاهر أزمة عميقة، سياسية وإقتصادية وإجتماعية، بتأثير الإجتياح والإحتلال والمقاومة لها، لا نريد أن نخلق الأوهام حول المستقبل، وحول الدور الإسرائيلي في لبنان وفي المنطقة. فإذا كنا نؤكد بأن خللاً حقيقياً قد حصل في الدور الإسرائيلي وفي إمكانات إسرائيل في مواجهة الوقائع الجديدة التي نشأت، فإننا، في المقابل، لا نستطيع أن نغفل أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي هو صراع على الوجود، صراع تتدخل فيه الإمبريالية بكل إمكاناتها وأدواتها، وتتدخل فيه، أيضاً، الرجعية العربية، حتى لا يؤدي الخلل الذي حصل في ميزان القوى، إلى انكفاء مطلق في الدور الإسرائيلي، وفي المشروع الصهيوني، لصالح التطور في الحركة الوطنية الثورية العربية، وعلى حساب المصالح الأساسية للإمبريالية والصهيونية والرجعية.

إن الهدف من إيراد هذه الشهادات هو خلق الثقة بأن الفعل الثوري، فعل المقاومة، فعل الكفاح الوطني الثوري، بكل أشكاله، قادر على خلق المعجزة، وأن الأزمة في الحركة الوطنية الثورية العربية غير مبررة، من الناحية الموضوعية، وأن ما قامت به المقاومة الوطنية اللبنانية كان التأكيد القاطع على ذلك.

والعمل الثوري، في مطلق الأحوال، مشروط، دائماً، باليقظة والحذر، وبالثبات والإستمرارية في الكفاح، وبالوضوح السياسي والفكري، وبالتحديد الذي لا إلتباس فيه للهدف.

القسم السادس

الجنوب، دائما، قضية وطنية

الجنوب كان، دائماً قضية وطنية. فبالإضافة إلى كونه شكّل، على الدوام، نموذجاً للمناطق اللبنانية التي عانت، بشكل فظ، من التخلف، ومن تحكم الاقطاع، ومن إهمال الدولة وقمعها، كان، ولا يزال، هدفاً مباشراً منذ عشرات السنين، للمطامع الصهيونية، قبل أن تقوم دولة إسرائيل، ثم، وبشكل خاص، بعد أن قامت هذه الدولة، كجسم غريب، في الوطن العربي، على أرض فلسطين، جزئياً، في البدء، ثم على كل الأرض، بفعل العدوان المتواصل وحروب التوسع.

الاطماع الاسرائيلية في الجنوب: مواقف ووثائق

لسنا، هنا، بالطبع، بحاجة إلى تكرار ما أعلن من مواقف ووثائق تاريخية تثبت الاطماع الاسرائيلية في الجنوب اللبناني. حسبنا أن نذكّر، سريعاً، ببعض الحقائق التي تثبت وجود هذا الجنوب، أرضاً ومياهاً، في مشروع اسرائيل السياسي الدائم قبل تكونها وبعد قيامها. فمع بدايات التحضير لانشاء «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، وبعد إنشائه، لم تكف الدوائر الصهيونية عن ترجمة حلمها التاريخي بالاستيلاء على مياه نهري الحاصباني والليطاني اللبنانيين في سياسة نظامية عسكرية الطابع، على الدوام، تجاه منطقة الجنوب. وعندما كانت

عاجزة، بعد، عن تحقيق اطماعها هذه بقوتها الذاتية، لجأت إلى تستير هذه الأطماع في صيغ مشاريع استعمارية لاستثمار هذه المياه وفق أغراض تنميتها الداخلية. وكان من أبرز هذه المشاريع، الأميركية على الدوام، مشروع جونسون عام ١٩٥٣ لاستثمار الحاصباني، ومشروع كوثون في العام ١٩٥٤ لاستثمار الليطاني. وعندما شرعت الدول العربية، عام ١٩٦٤، بتنفيذ المشروع العربي الموحد لتحويل روافد نهر الاردن، بما فيها الحاصباني اللبناني،بما يتفق وحاجات التنمية الزراعية والكهربائية في كل من لبنان وسوريا والاردن، تدخلت اسرائيل عسكرياً وأبطلت بالقوة حق الدول العربية باستثمار ثروة طبيعية عربية. ولم تكن هذه الصيغ الهادفة للاستيلاء على مياه الجنوب اللبنانية، هي الصيغ الوحيدة. ففي العدوان الاسرائيلي الشامل على لبنان في ١٥ آذار ١٩٧٨، تابعت اسرائيل اجتياحها العسكري للجنوب اللبناني، حتى بعد قرار مجلس الأمن بوقف اطلاق النار إلى أن وصلت إلى منابع الحاصباني وأمنت، من ناحية أخرى، إشرافها العسكري المباشر على مجرى الليطاني. وحينما اضطرت إلى الانسحاب، لم تنسحب عملياً من هذه المناطق، بل حافظت عليها عبر تسليمها إلى الميليشيات الفاشية العميلة لها.

وهكذا، كانت اسرائيل، وما تزال، تنتهج، بالنسبة إلى الجنوب سياسة العمل على ابقاء هذه المنطقة فريسة التخلف والحرمان وتمنعها من حقها الطبيعي باستثمار مواردها، بل بالاستيلاء على هذه الموارد لتوظيفها داخل اسرائيل نفسها. مما يؤدي، باستمرار، إلى ابقاء الجنوب منطقة متخلفة بمواجهة مناطق متطورة اسرائيلية مجاورة، فضلاً عن العدوان العسكري المستمر. وهي السياسة التي كانت تتفق مع مصالح الاقطاع في هذه المنطقة، ومع مصالح الفئات الحاكمة من البرجوازية التي كانت ترى في قيام اسرائيل ضمانة أساسية لاستمرار نظامها الطائفي وسنداً لها في قمع الحركة الثورية للتغيير وفي إعاقة تطور هذه الحركة.وقد أدى ذلك إلى خلق الأساس المادي للنزوح ولهجرة الجنوبيين المستمرين، وحقق لاسرائيل، في النهاية، فرص الاستيلاء اللاحق على الجنوب، لا كمياه وحسب، بل كأرض، بفعل هذا التفريغ المستمر للمنطقة من سكانها وأصحابها الشرعيين. إذ ان مطامع اسرائيل التوسعية لا تقف عند حدود استثمار المياه، بل تطال أرض الجنوب نفسها، من أجل توسيع مداها الجغرافي وتمديد حدودها «الآمنة» التي لا تجد أمانها إلا بقدر ما تبتلع من أرض عربية، على الدوام. ويشكل الجنوب، في منطق استراتيجيتها العسكرية هذه والمندفعة باستمرار إلى الأمام رقعة جغرافية هامة في أعمالها العسكرية الموجهة ضد الحركة الوطنية اللبنانية وضد الثورة الفلسطينية وضد الحركة الوطنية للشعوب العربية الأخرى

المجاورة بل وضد أي تحول وطني ديمقراطي سواء داخل لبنان أم في المنطقة العربية.

وإذا ما تذكرنا، هنا، على صعيد الطبيعة التوسعية لهذا الكيان، أن اسرائيل لم تضع بعد دستوراً لها كدولة، وبعد مرور ثلاثين عاماً على قيامها، مخافة أن تضطر إلى تحديد حدودها الطبيعية في هذا الدستور، كما هو شأن سائر الدول على اختلاف أنظمتها السياسية والاجتماعية، ندرك، مرة أخرى، نوايا اسرائيل التوسعية التي لا حدود لها، وأن قضية الجنوب كقضية، هي، بهذا المعنى، قضية التوسعية الإسرائيلية بالاساس، متلما هي، من ناحية أخرى، قضية العدوانية الاسرائيلية.

فعلى مستوى عدوانية اسرائيل، تعرض الجنوب اللبناني، وما يزال يتعرض، لأقسى المظاهر الفاشية بانعكاساتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية المدمرة لحياة مواطنيه وساكنيه. وهو ما شهدنا نماذج مختلفة له في العدوان الذي ظل يتكرر ضد الجنوب، خلال عشرات السنين، إلى أن تحول، في عام ١٩٧٨، إلى اجتياح واحتلال، وانسحاب جزئي، ثم إلى اجتياح، من نوع جديد، لم يقتصر على الجنوب، بل بلغ العاصمة، ذاتها، وتحول إلى احتلال للبنان، ما زال شعبنا يكافح بشجاعة من أجل تحرير البلاد منه. ولم يبقَ سوى الشريط الحدودي، أي لم يبقَ سوى هذا الجزء العزيز من الجنوب، الذي كان على الدوام هدفاً للمطامع الصهيونية التوسعية. وفي الواقع فإن تاريخ علاقة إسرائيل العدوانية مع الجنوب محفورة في ذاكرة الجنوبيين بالحقائق التاريخية التالية:

- إقدام اسرائيل على انتزاع أراض جنوبية لبنانية قبل قيامها وبعد الـ ١٩٤٨، والاستيلاء عليها بالقوة. إنها القرى السبع المشهورة.

- اقدامها في سياق ذلك، على ارتكاب المجازر بحق الأهالي الجنوبيين، كان من أبرزها مجزرة حولا ١٩٤٨ التي تضاهي بوحشيتها المجازر الفاشية التي ارتكبتها اسرائيل في كل من دير ياسين وكفر قاسم وغيرها من القرى الفلسطينية، سابقا، وفي مناطق لبنان كله في المراحل التالية، ولا سيا خلال اجتياح ١٩٨٢.

- ما بين عامي ٤٨ و٦٨، سجل مراقبو الهدنة اللبنانية ـ الإسرائيلية ما يقارب الألف والمئة والسبعين حادثة، خرقت إسرائيل خلالها السيادة اللبنانية في الجنوب. وطوال هذه السنوات العشرين، لم يكن العمل الفدائي قد أنوجد، بعد، في لبنان.

فقد مارست إسرائيل سياسة نظامية من الارهاب المستمر تجاه الجنوب وضد سكانه من

دون توقف. وخلقت فيه على الدوام حالة من عدم الاستقرار السياسي، مهيئة لنفسها بعد ذلك، أن تشكل عنصراً داخلياً في تقرير المصير السياسي والاجتماعي لسكان هذه المنطقة. وهذا هو هدفها الثالث.

ولقد برز دورها هذا في قمعها للتحولات السياسية والاجتماعية الديمقراطية في الجنوب المتخلف، والتي كانت تتنامى وتتطور على أساس من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتأزمة والمتفاقمة. وبهذا المعنى، شكلت سياسة الارهاب الاسرائيلي عنصراً داخلياً مساعداً للقوى الرجعية في الجنوب وفي سائر لبنان باتجاه ابقاء الجنوبيين شهداء مستكينين ما بين المطرقة الاسرائيلية وسندان التخلف، بين العدوان الاسرائيلي المتواصل وقمع القوى الفاشية الآتي من الدولة والاقطاع.

إلا أن اسرائيل، في الواقع، كانت تعد نفسها لدور أعمق وأشمل تجاوز الجنوب ذاته. فعبر تحكمها في الوضع الجنوبي، كانت تخطط للنفاذ منه كي تصبح فيما بعد، عنصراً داخلياً مقرِّراً في الوضع اللبناني العام برمته. وهذا هو الجوهر السياسي الخطير الذي تمكنت اسرائيل من فرضه، أول الأمر، بواسطة «الأبواب المفتوحة»، و«الجدار الطيب»، خلال الحرب الأهلية، وفرضته بالاجتياح، فيما بعد.

وفي سياق برهنتها على أن المشكلة في الجنوب اللبناني هي مشكلة لبنانية - فلسطينية وليست كما هي حقاً وأساساً، مشكلة لبنانية - اسرائيلية، لم تدع بيتاً آمناً في الجنوب إلا ودمّرته، ولا عائلة واحدة إلا وشردتها وقتلت أكثر من واحد من أفرادها، ولا أرضاً زراعية إلا وحرثتها بمجنزراتها وبقذائفها، ولا مدرسة جنوبية إلا وتركت على انقاضها وما تبقى من جدرانها بصمات عنصريتها وفاشيتها الحاقدة. بكلام آخر حاولت بكل ما تملك من ترسانة عسكرية أميركية فتاكة أن تحوّل حياة الجنوبيين إلى جحيم دائم، أن تحملهم نتائج تشبثهم بأرضهم ونتائج تعاملهم الوطني مع المقاومة الفلسطينية، في المرحلة الأولى، أن تحمّلهم هم، بتعبير آخر، نتائج الاغتصاب الاسرائيلي لفلسطين وتحمّلهم هم نتاج طرد وتشريد الفلسطينيين من أرضهم ووطنهم، وتحمّلهم، في المرحلة اللاحقة على خروج الثورة الفلسطينية من الجنوب، نتائج صمودهم في وجه الاحتلال ومقاومتهم له ورفضهم للعلاقة، أية علاقة معها، من نوع ما تطمح إليه، أي التطبيع ومعاهدات السلام وسوى ذلك. وبدءاً بالعدوان الإسرائيلي الشهير على مطار بيروت المدني الدولي صبيحة العام ١٩٦٩، وصولاً إلى تفجير الحرب الأهلية في الأشهر الثلاثة الأولى من العام ١٩٧٥، يكاد يصح القول دون مبالغة أن لبنان كله، بجنوبه وشماله وبقاعه وعاصمته، لم يعرف شهراً

واحداً دون تدخل اسرائيلي عسكري الشكل سياسي المحتوى، في مجرى التطور الداخلي العام لهذا البلد، هذا التطور الذي اتصف أساساً بتفاقم الأزمة العامة للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي اللبناني التابع للامبريالية من جهة، وباتساع القاعدة الاجتماعية المناوئة لهذا النظام من جهة أخرى. فعلى مستوى الشروط الموضوعية، راح يتثبت عجز هذا النظام عن حل المسألة الاجتماعية والمسألة الوطنية والقومية إلا بالمزيد من تأزيمها، إلا بالمزيد من التبعية السياسية والاقتصادية للامبريالية. وعلى مستوى الشروط الذاتية، راحت تنمو وتتصلب قوى المواجهة التقدمية والوطنية في شخص الحركة الوطنية اللبنانية بتطور قيادتها التي بات على عاتقها حل المسألة الاجتماعية والمسألة الوطنية والقومية، والتي تمكنت عبر قدرتها على الربط الخلاق بين هذين الوجهين المتلازمين من الصراع، من تثبيت قيادتها لحركة شعبية جماهيرية لبنانية متزايدة التحرك عمقاً واتساعاً، نفوذاً وتنظيماً. وما إن جاء الاجتياح حتى أثبتت هذه الحركة، بقواها الأساسية، الطليعية، الثابتة في مواقفها ومواقعها، أنها قادرة على الاستمرار في المعركة، في كل جبهاتها، وأنها أهل لأن تخوض معركة مواجهة مع الاحتلال ومعركة مقاومة له. من هنا أهمية ما يمثله قيام جبهة المقاومة، وما تمثله تجارب جماهير الشعب معها، ولا سيما في الجنوب، بشجاعة استثنائية، وباستعداد لتقديم التضحيات بسخاء، وبتصميم نادر المثال على التحرير مهما كلف الأمر.

ولقد عبَّرت هذه المقاومة الجماهيرية، التي انتهجها وانخرط فيها الجنوبيون، عن قناعة مطلقة عندهم أن اسرائيل بسلوكها الثابت تجاه الجنوب، بخاصة، ولبنان، بعامة، لا تريد لبنان، بلداً، بل هي تريده تابعاً لها، بالمطلق. ولم يكن الجنوبيون بحاجة لأكثر مما قدمته لهم اسرائيل من براهين حية لكي يدركوا ذلك. فإن تدمير القرى، وبيوتها وسكانها، وتدمير الاقتصاد، ثم محاولة اغراق السوق اللبنانية والجنوبية، خصوصاً، بمنتوجاتها المزاحمة، تكفي، كأمثلة، للدلالة على أن المطلوب من الجنوبيين هو الهجرة والشتات، أو العيش غرباء في الديار.

والتحليل العلمي لما يجري يشير، بوضوح، إلى أن إسرائيل التي تعاني أزمة حادة، زادتها الحروب تفاقماً، وأوصلتها حرب لبنان إلى ذروة تفاقمها، لا تجد حلاً لها إلا في سياسة تطبيع العلاقات مع الجيران، ولبنان، بالأخص، تطبيع تمارس فيه دور السيد.

نورد، هنا، بعض الأرقام التي تؤكد، بشكل قاطع، هذه الخطة الجهنمية. فقد أدى الغزو، عام ١٩٨٢، بالإضافة إلى الخسائر البشرية الكبيرة، إلى تدمير البنية الاقتصادية اللبنانية، واتخذ هذا التدمير طابعاً منظماً، مدروساً:

– بلغ تقدير الأضرار الاقتصادية الناتجة عن الغزو لحو عشرة مليارات ليرة لبنانية، بما في ذلك قيمة ١٢ ألف وحدة سكنية، في مناطق مختلفة، بينها الجنوب.

– دمرت مناطق صناعية عدة، ومرافق ومؤسسات سياحية (فنادق ومطاعم ومسابح الخ...) وثروات واستثمارات زراعية وعشرات الألوف من الأشجار المثمرة، ومرافق عامة وجزء أساسي من البناء التحتي (طرقات، وشبكات مياه، وكهرباء، وهاتف الخ...).

– تضاعفت هذه المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الهجرة التي تعددت، باتجاهات مختلفة، وشملت مئات الألوف من المواطنين، من كل المناطق. وفقد الكثيرون عملهم نظراً لتدمير المؤسسات والهجرات الاضطرارية، وتقلصت مداخيل الأكثرية الساحقة من اللبنانيين.

– بدأت إسرائيل، في ضوء خطتها المقررة تجاه لبنان، والجنوب، تحديداً، بممارسة سياسة اقتصادية تهدف إلى تفكيك دورة الانتاج الجنوبية وإعادة ربطها بالسوق الاسرائيلية وصولاً إلى دمجها فيها وخلق الظروف المؤاتية لتهجير اليد العاملة الفنية وإعادة النظر في المحاصيل الزراعية الأساسية، بهدف استبدالها بمحاصيل اسرائيلية، وتحويل قسم كبير من الجنوبيين إلى أجراء زراعيين مرتبطين مباشرة بالآلة الاقتصادية الاسرائيلية، وتهميش النشاطات المنتجة المرتبطة بالسوق اللبنانية الخ...

٢ هكذا نظرنا الى القضية، قبل الاجتياح

إن هذه المحاولة في تحديد عناصر القضية، التي تحمل اسم الجنوب، لا تنتهي بكلمات، ولا تنحصر في الجوانب التي أشرنا إليها. بل إنها قضية صعبة ومعقدة. وهي تتخذ، في كل ظرف، وفي كل مرحلة يمر بها لبنان، أشكالاً جديدة. وفي مرحلة ما بعد التحرير ستكون للقضية أشكال مختلفة. فهي قضية تعيش طويلاً، لأن أسباب تكونها، ما تزال موجودة.

وفيما يلي نص لمحاضرة ألقيتها عشية الاجتياح، بمناسبة ذكرى اجتياح عام ١٩٧٨، (٨ ـ ٣ ـ ١٩٨٢) تحوي محاولة لفهم هذه القضية ما تزال تحتفظ بجديتها:

. . . .

يثير الحديث عن الجنوب، عند الجنوبي منا، بالأخص، في هذه الأيام المكرسة لصمود الجنوب، شؤوناً وشجوناً، لا حصر لها. ولكننا سنضغط على كل العواطف والهواجس من أجل أن يظل حديثنا محصوراً في المهمة المحددة له، في سياق هذه المعالجات المسؤولة التي دعا إليها، اليوم، كعادته النبيلة الكريمة، في كل عام، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. لن ننخرط اذن، في بحث الهموم التي كانت، على الدوام، محور تاريخ طويل وشاق ومرير، من القهر المتمادي، من داخل الحدود وخارجها، ومن النضال المتواصل للجنوبيين ضده، جماهير غفيرة شجاعة تصنع البطولات، من مزارعين، وفلاحين فقراء، وعمال زراعيين، وعمال صناعات، ومستخدمين، ومثقفين، وفئات مختلفة، كثيفة العدد، من الكسبة في شتى مجالات الانتاج والخدمات. لن ننخرط، كذلك، في البحث في المشاريع المتعددة الأسماء التي كانت أرض الجنوب ومياهه محورها الدائم، على امتداد فترة طويلة من الزمن، كتعبير عن المطامح الإسرائيلية التوسعية التي هي، في الأساس، قبل سواها من الذرائع، وراء العدوان الإسرائيلي، المتمادي، المتعدد الأشكال، على الجنوب، منذ اللحظة نفسها التي أُقِرَّ فيها مشروع كيان صهيوني في فلسطين، ومنذ اللحظة نفسها التي أقيم فيها هذا الكيان، بالتحديد.

مهمتي هي أن أتحدث عن قضية الجنوب في ضوء التطورات التي يشهدها الوضع الراهن، لبنانياً وعربياً ودولياً. وأهمية أن نبحث في هذه التطورات جميعاً تكمن في أن قضية الجنوب ليست، اليوم، ولم تكن في أي وقت من الأوقات، قضية جغرافية، لبنانية، تتعلق بجزء من أرض لبنان، متنازع عليها، بل هي كانت، على الدوام، قضية سياسية، تختصر فيها كل قضية لبنان الوطنية، بما هي قضية وحدة هذا البلد، أرضاً وشعباً، وقضية استقلاله الوطني، وقضية ارتباطه، على أساس من التاريخ والثقافة والمصالح الاقتصادية والمصير والمستقبل، بالبلدان العربية، وبقضايا النضال التحرري فيها، لا سيا بالقضية الفلسطينية، التي يشكل الجنوب اللبناني فيها نقطة التقاء، نقطة عناق، بين التاريخ والجغرافيا، ندر مثيلها في العالم. والقضية اللبنانية التي نتصدى، في الحركة الوطنية اللبنانية، منذ سبع سنوات، لبلورتها، وتحديد عناصرها، وتوضيح الجوانب المختلفة فيها، والدفاع عنها، بكل وسائل النضال، دون حساب للتضحيات، مهما غلت، ومهما كبرت، ومهما تعددت أشكال البذل فيها، القضية اللبنانية هذه هي، بين القضايا العربية المعاصرة، صيغة جديدة،

منقحة، لقضية فلسطين، مدروسة عملية اخراجها بعناية، مأخوذ في صناعة بعض عناصرها، بالاعتبار، كل جديد في الوضع اللبناني والعربي والدولي، كل جديد في الصراع، المحتدم، المتفاقم، والذي يشتد عنفاً، بين الطموح الجارف إلى التحرر والتقدم، وبين الدعوة الرجعية إلى البقاء في أسر الماضي وقوانينه.

ليس صحيحاً، اذن، أن ننظر إلى قضية الجنوب، كقضية مستقلة عن القضية الوطنية اللبنانية، بل بالارتباط الكامل بهذه القضية، الارتباط الطبيعي للجزء بالكل. والذين يفصلون، في مواقفهم السياسية وفي نشاطهم العملي، بين القضيتين، إنما يفعلون ذلك عن وعي، من أجل هدف صرنا لشدة وضوحه نعرفه بالتفاصيل، ونعرف هوية الذين يروجون له، ونعرف انتماءاتهم الصغيرة والكبيرة.

نتوقف عند أربعة نماذج من هذه المواقف لندحضها:

الموقف الأول:

هو الذي يروج لفكرة أن قضية الجنوب هي قضية اقليمية، أي أنها قضية منطقة من لبنان محكوم عليها بالتخلف، محكوم عليها بأن تدفع ثمن هذا التخلف استمراراً في القهر والحرمان، بكل صنوفها، حتى التصفية، بكل أشكالها، تصفية الأرض والبشر الذين يعيشون عليها. وهو موقف أخطر ما فيه أنه يعزل قضية الجنوب عن قضية الصراع الذي تقوده قوى التغيير، الصراع ضد النظام البرجوازي، نظام الطغمة المالية والاحتكارات، نظام النهب والامتيازات، الذي يقسم الوطن والشعب إلى طوائف ومناطق، من أجل تأييد سيطرته. إن قضية الجنوب لا تختصر بأنها قضية منطقة محرومة من مناطق لبنان. فتلك مسألة جزئية. بل إن قضية الجنوب هي، حتى في هذا الجانب منها، قضية لبنان كله، قضية النضال من أجل التغيير الذي يشكل برنامج الحركة الوطنية للاصلاح الديمقراطي محطة من محطاته، على طريق الحكم الوطني الديمقراطي.

الموقف الثاني:

هو الذي يروج لفكرة أن الجنوب قضية طائفة من طوائف لبنان، أي الطائفة الشيعية، وأن تركيب لبنان الطائفي، المستند إلى الامتيازات، يقضي بإبقاء هذه الطائفة في حالة القهر والحرمان، خارج التقرير في أى شأن من شؤونها وشؤون

البلد، رغم أنها، من حيث العدد، هي الأكبر والأكثر انتشاراً. وهو موقف يعالج المرض بالحقن التي تزيد من تفاقمه. إنه الموقف الذي يؤجج الطائفية ويبرر للطائفيين استمرار نهجهم، هذا النهج الذي يستند إليه المشروع الكتائبي ـ الفاشي، كمشروع للدفاع عن السيطرة البرجوازية، سيطرة الطغمة المالية على حياة البلاد، في خلق الظروف التي تعطل الوعي لدى الطبقة العاملة وسائر الكادحين، وتعرقل عملية الاستقطاب، على أساس طبقي، داخل المجتمع، وتحول دون تطور النضال في الاتجاه الصحيح، من أجل التغيير الذي يلغي الأساس المادي للتفاوت بين المناطق والطوائف، في المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. إنه موقف يحاول عزل الطائفة الشيعية عن مجمل النضال الوطني والطبقي، ويحاول أن يجعلها، موضوعياً، وحتى عملياً، عبر النشاط الذي يقوم به بعض من يدعون تمثيلها، تخدم المخطط النقيض، المخطط المعادي، وتتحول إلى أداة من أدواته. في حين أن جماهير الشيعة، لا سيما في الجنوب، بالذات، كانت، وهي الآن، في طليعة النضال الذي تقوده الأحزاب الوطنية والتقدمية، من أجل التغيير، وفي طليعة المعارك التي جرت وتجري حول القضايا الوطنية اللبنانية بخاصة، والقضايا المرتبطة بالنضال الوطني العربي، بعامة.

الموقف الثالث:

هو الذي يروج لفكرة أن الجنوب يخضع، اليوم، في تطوره، مكرها، خضوعاً مطلقاً للقضية الفلسطينية، وأن مستقبله هو أن يكون مقراً لتوطين الفلسطينيين كجزء من حل قضيتهم، وأنه، أي الجنوب، سيصبح، بذلك، فلسطيناً ثانية، الفلسطينيون فيها هم المغتصبون للأرض، فيساوي، بذلك، اليهود، يهود اسرائيل، في عدوانهم على الجنوب، مع الفلسطينيين في احتلالهم أرضه. وهذا الموقف الذي ينطلق من الحرص الزائف على الجنوب، إنما يشوه، في الحقيقة، الموقف الوطني الفلسطيني، ويشوه جوهر القضية الفلسطينية، ويشوه، في الوقت نفسه، الموقف الوطني اللبناني من هذه القضية الوطنية العربية الكبرى. فإذا كان هناك، بين الدوائر الامبريالية والصهيونية والرجعية، بما في ذلك بين أوساط من البرجوازية الفلسطينية، من يروج لمثل هذه الفكرة، فإن المصلحة الأساسية للشعب الفلسطيني والثورة الفلسطينية، هي أن تحل القضية الفلسطينية على أساس عودة الشعب إلى وطنه،

وتقرير مصيره فيه، وإقامة دولته الوطنية الديمقراطية المستقلة عليه. وهي مصلحة لا يناضل من أجلها الوطنيون الفلسطينيون، بقيادة منظمة التحرير، وحسب، بل هي مهمة ثورية لكل حركة التحرر الوطني العربية، تلتزم بها التزاماً كاملاً حتى انجازها. لذلك فإن هذا الموقف هو، فقط، إما ابتزاز رجعي، باسم الجنوب، أو وقوع في الابتزاز ينبغي الخروج منه والتنبه إلى مخاطره.

الموقف الرابع:

هو الذي يروج لفكرة أن العدوان الاسرائيلي على الجنوب، هو عدوان على الفلسطينيين وحدهم، شعباً وثورة، وأن الجنوبيين غير معنيين بهذا القتال الذي يدفعون ثمنه غالياً، بدون مبرر. وهو خاطىء من أساسه، لسببين، على الأقل: **أولهما**، أن اسرائيل، كما هو معروف بالوقائع والتواريخ والأرقام، تمارس عدوانها على الجنوب منذ اليوم الأول لقيامها، بهدف توسعي، وتحقيقاً لمطامع في الأرض والمياه، ومن أجل تطويع لبنان وتحويله إلى حدود آمنة، ومن أجل تطبيع العلاقات معه، على غرار ما حصل في مصر على يد السادات. **ثانيهما**، أن وجود الفلسطينيين في لبنان، هو نتيجة لاغتصاب فلسطين، وأن نضال الثورة الفلسطينية، انطلاقاً من لبنان، من أجل العودة، هو حق قومي للشعب العربي الفلسطيني، لا يقتصر على لبنان وحده، يؤمن به الوطنيون اللبنانيون ويسهمون فيه، ويدافعون عنه. وإذا كان ثمة من يخلط بين هذا الموقف المبدئي وبين بعض الممارسات الخاطئة، فإن من الضروري وضع الأمور في نصابها منعاً للالتباس، ومنعاً للخروج باستنتاجات خاطئة. ذلك أن بعض الممارسات التي لا تتفق مع مبدأ العلاقة السليمة مع الجماهير، وتتعارض مع المصالح الأساسية للقضية، تدفع، أحياناً، إلى وقوع بعض اللبنانيين والفلسطينيين، أفراداً، وحتى عناصر قيادية، في شرك التعارض المصطنع بين القضية الوطنية اللبنانية والقضية الوطنية الفلسطينية، فيقول هؤلاء الفلسطينيون بأن قضيتهم، من حيث هي قضية محورية في النضال الوطني الثوري العربي، تحتل موقع الصدارة، ولها الأولوية في النضال، فهي تستحق أن يسخر كل شيء من أجلها، وأن يضحي بكل شيء، مهما عز وغلا. فهي، إذن، بهذا المعنى، تأتي قبل القضية اللبنانية، وربما على حسابها وحساب القوى التي تناضل من أجلها وتدافع عنها. ويقول هؤلاء اللبنانيون بأن قضيتهم، من حيث هي قضية قومية أيضاً، لها موقع القضية الفلسطينية في النضال الوطني الثوري، ينبغي ألاّ تطغى القضية الفلسطينية

عليها، حتى لا تتحول إلى قضية معقدة مستعصية على الحل، ويستفيد المشروع الكتائبي ـ الفاشي من تعقدها، لكي يستمر ويقوى، ويشكل، بقوته واستمراره، خطراً مضاعفاً على القضية اللبنانية والقضية الفلسطينية، على السواء. ولا شك أن المبالغة، في كلا الموقفين، تحمل مخاطر شديدة الأذى على مجمل النضال الوطني المعادي للامبريالية، والصهيونية والرجعية، على الساحة اللبنانية، كساحة صراع رئيسية ضد المخطط المعادي، في المنطقة العربية بأسرها. فلا تعارض ولا تناقض، لا في الشكل، ولا في الجوهر، بين القضيتين الفلسطينية واللبنانية. والعدوان الإسرائيلي على الجنوب هو عدوان على الشعبين اللبناني والفلسطيني، وأهدافه تشمل لبنان وفلسطين، وكل الوطن العربي، وكل حركة التحرر الوطني العربية. وأي كلام خارج هذا التحديد، وخارج منطقه، هو كلام غريب، متعارض مع الخط الوطني الثوري السليم، متناقض معه حتى العداء.

إننا نسوق هذه النماذج من المواقف كأمثلة على خطر نشهد بروزه واضحاً في التقاء هذه المواقف ذاتها عند مخطط سياسي تتبناه السلطة، بشخص رئيس الدولة، وتروج له الكتائب، بشخص بشير الجميل، وتنخرط فيه القوى الرجعية، في المناطق الوطنية، وتدعو له أميركا، عبر مشاريعها المتعددة التي يحملها لنا رسلها إلى لبنان والمنطقة، وتصفق له وتمول النشاط حوله، الأنظمة الرجعية العربية، وتقوم إسرائيل بعملياتها العدوانية المتواصلة، المتفاقمة، المتزايدة شراسة، من أجل أن تتحقق الأهداف التي يرمي إليها، بشكل كامل.

هذا المخطط السياسي الذي نعارضه نحن في الحركة الوطنية اللبنانية، ونتصدى لمقاتلته، يلخص، اليوم، جوهر الصراع الدائر على الساحة اللبنانية الذي تنقسم فيه القوى، بشكل متزايد الوضوح، إلى جبهتين: جبهة التحالف الوطني اللبناني ـ الفلسطيني ـ السوري، المدعومة من القوى الوطنية العربية، ومن حلفاء النضال الوطني العربي، في العالم وفي طليعتهم الاتحاد السوفياتي، والجبهة التي يلتقي فيها ويتحالف، مباشرة، أو بالواسطة، المشروع الكتائبي الطائفي الفاشي، مع مشروع السلطة، مع القوى الرجعية الطائفية في المناطق الوطنية، على اختلافها، مدعومة من الأنظمة الرجعية العربية، ومن اسرائيل ومن الامبريالية الأميركية والمتحالفين معها في أوروبا الغربية. ويتحدد جوهر هذا المخطط السياسي المعادي، في النقاط الأساسية التالية، وفي المشاريع التي تعرض تجسيداً لها وبلورة وتوضيحاً:

النقطة الأولى: أن قضية الجنوب، هي قضية الوجود الفلسطيني المسلح فيه، ولا بد، لحل هذه القضية، من طريقة تحدُّ من هذا الوجود، إذا لم يكن من الممكن ازالته بالمطلق. وتقليص الوجود الفلسطيني المسلح يستتبع، بالضرورة، في سياق هذا المنطق، تقليص الوجود الوطني اللبناني، بكل أشكاله، في الجنوب. كل ذلك ينبغي أن يتم لصالح الوجود الشرعي للسلطة بكل أجهزتها، تحت شعار تأمين حياة طبيعية للجنوبيين.

النقطة الثانية: إن العدوان الاسرائيلي، لا يمكن أن يتوقف إذا لم تتوقف عمليات الفلسطينيين من لبنان ضد المستعمرات الاسرائيلية، وأية عملية تجرى داخل اسرائيل، هي، بنظر الاسرائيليين، بالمطلق، عمليات مصدرها لبنان. إذن المطلوب أن يتوقف كفاح الشعب الفلسطيني حتى يتوقف عدوان اسرائيل ضد الجنوب.

النقطة الثالثة: إن الضمانة لكي يزول خطر اسرائيل على الجنوب، واستطراداً، لكي يمكن انهاء احتلال سعد حداد للشريط الحدودي، تنحصر في تحقيق أمرين متلازمين: **الأمر الأول:** تغيير مهمة قوات الطوارىء الدولية بما يتعارض مع قرارات مجلس الأمن التي تنص على اجلاء الاسرائيليين، وسعد حداد اسرائيلي الهوية بهذا المعنى، كما جاء في تصريحات متعددة للأمين العام السابق للأمم المتحدة، فالدهايم، من أجل بسط السيادة اللبنانية، على أراضي لبنان حتى الحدود الدولية المعترف بها، تغيير هذه المهمة، باتجاه أن تصبح قوات الطوارىء قوات انتشار في كل الجنوب، شمالاً، بالدرجة الأولى، من أجل تقليص الوجود الوطني اللبناني والفلسطيني، في الجنوب، كمرحلة أولى على طريق نشر قوات الطوارىء في كل لبنان، بديلاً لقوات الردع العربية. وتغيير مهمة هذه القوات في هذا الاتجاه تتطلب زيادة عددها لكي تمتلك القدرة على تنفيذ المهمة. **الأمر الثاني:** ادخال الجيش اللبناني، بقوى مكثفة إلى الجنوب، ومنحه، بذلك، صفة الجيش المقبول من القوى الوطنية. فإذا رفضت للجيش هذه المهمة، تحملت الجهات الرافضة التبعات والنتائج المترتبة على هذا الرفض، لا سيما فيما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من عدوان اسرائيلي يهول كثيراً بحجمه، ويهدد به، بكافة الأشكال، وفي كل الأوساط المعادية. غير أن للجيش تاريخاً في الجنوب، ملطخاً بالدم، لم ينسه الجنوبيون، ولن يكون بمقدورهم أن ينسوه، وهم يربطون، في موقفهم منه، بين ماضيه الأسود، وبين الوجه الذي

يكتسبه اليوم ويقدم به إلى الجنوبيين وإلى كل اللبنانيين، كحل لمسألة العدوان الاسرائيلي، وحل للأزمة اللبنانية كلها.

هذه النقاط الثلاث ليست سوى أمثلة ترتبط، من خلالها، قضية الجنوب، بشكل واضح وأكيد، بمجمل الوضع اللبناني وتطوراته الراهنة، لا سيما في اطار التحضير لانتخابات الرئاسة في الصيف المقبل. وتتلخص الأهداف التي ترمي إليها كل نشاطات القوى التي يعبر المخطط الآنف الذكر عن مصالحها في الأهداف التالية:

الهدف الأول: هو السعي، بكل الوسائل، لجعل المناطق الوطنية، من الجنوب إلى الشمال، مناطق لا تعرف الاستقرار، مناطق تسودها الفوضى وتمتلىء بالتناقضات والصراعات، حتى المسلحة منها، بين مختلف القوى السياسية، بما في ذلك، بين قوى الصف الوطني، لبنانياً وفلسطينياً وسورياً، مناطق متنازع على قيادتها، بحيث تصبح هي المناطق موضوع البحث وموضوع النقاش في مستقبلها وفي مصيرها، لا المناطق الانعزالية، مناطق السيطرة الكتائبية ـ الفاشية كما نزعم نحن في الحركة الوطنية.

الهدف الثاني: هو العمل بكل الوسائل لجعل الجيش المرفوض قيادة، وتركيباً، وتوجيهاً سياسياً، ومهمات، أمراً، مقبولاً، بحكم الواقع، والعمل لفرض استخدامه في مهمات أمنية، قمعية تعيد للسلطة الرجعية تحكمها السابق، في شروط الوضع الجديد، بكل لبنان، والعمل في ضوء ذلك، لتأمين الشروط الملائمة لفرض حل للأزمة اللبنانية، يندمج فيه المشروع الكتائبي بمشروع السلطة، اندماجاً كاملاً، فيصبح المشروع الذي نواجهه، مشروع حكم دكتاتوري ـ رجعي، معاد للقضية الوطنية، معاد للقضية الفلسطينية، معاد للقضية العربية برمتها، يلحق لبنان بمخطط كامب داڤيد كحلقة من حلقاته.

الهدف الثالث: هو الإمساك بقضية الجنوب، على أساس اثارة المشاعر الطائفية والمذهبية والاقليمية، بوجه الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية، واستخدام العدوان الاسرائيلي ورقة ضغط، لا بالتهويل به وحسب، بل بتحريضه وتشجيعه.

الهدف الرابع: هو استخدام كل هذه الأهداف جميعاً، من أجل خلق المناخ الملائم، والشروط المادية، للإتيان برئيس جديد للجمهورية يضع المخطط على طريق التحقيق. وبذلك يكون لبنان قد تحول من ساحة رئيسية للصراع، على الصعيد العربي، ضد المخطط الأميركي، إلى مرتكز من مرتكزاته، يسهل له العبور إلى المنطقة العربية، بأفضل الأشكال.

يتبين من كل ذلك، أن الحلقة المركزية تتمحور، على الصعيد اللبناني العام، حول كيفية استخدام الجنوب وقضيته، كمدخل للمخطط المعادي، يعبر المشروع الكتائبي ـ الفاشي، وتعبر السلطة، وتعبر كل القوى الرجعية، من خلاله، إلى مخططاتها المعادية المختلفة المتعددة.

وهنا يبرز دور العدوان الاسرائيلي الذي يجري الحديث عنه والاعداد له، منذ فترة، في إطار من التهويل بلغ الذروة، وإطار من الضغط لا سابق له، وإطار من التمهيد المنقطع النظير لترتيبات على الأرض يشترك فيها كل من بشير الجميل، بقواته المدربة في إسرائيل، والسلطة، بأجهزتها المختلفة، لا سيما منها المكتب الثاني، والجيش، ويلعب كل منها الدور المحدد له بالحد الأقصى من العناية والاتقان. وتقضي اللعبة أن يكون لأميركا دور الضاغط على اسرائيل من أجل منع العدوان وتحجيمه، فتنطلق أجهزة الاعلام المعدة للأمر، بالاعلان عن تناقض أميركي ـ اسرائيلي، وهو أمر لا يحتاج منا إلى أدنى جهد لاثبات بطلانه، تبدو فيه أميركا حريصة على السلم والاستقرار، وتظهر فيه اسرائيل وحدها، وباستقلال مزعوم عن أميركا، صاحبة القرار بالعدوان. فتنصب اللعنة على اسرائيل، وتحيد أميركا التي تعود، بعد حصول العدوان، الذي تكون قد شجعت عليه واستخدمته ورقة ضغط، إلى لعب دور الحكم، فيتم وقف اطلاق النار، وتستأنف لعبة الضغط السلمي، من جديد، في ظروف أفضل بالنسبة للمخطط الأميركي.

إن هذا العدوان الذي يحدثوننا عنه كثيراً، لم يعد مجرد تهويل. فقد كان مبعوث الرئيس الأميركي فيليب حبيب، صريحاً في حديثه عندما أكد أن الضغوط التي مارسها على اسرائيل يمكن أن تنجح، بشرط ألا تتعرض اسرائيل لاستفزاز فلسطيني من أي نوع. فإسرائيل، برأيه وبرأي المتبارين في تغيير المزاج الاسرائيلي الراهن، تعيش في هذه الأيام حالة نفسية صعبة. فهي مضطرة للجلاء عن سيناء. وتشعر أنها

تقدم تنازلاً للعرب دون مقابل. إذن نحن أمام عدوان قادم لا نريد أن نقلل من احتمال وقوعه، ولا نريد أن نقلل من حجم الأخطار التي يحملها على الجنوب، وعلى لبنان، وعلى القضيتين اللبنانية والفلسطينية. أفليس، إذن، مفارقة عجيبة أن نبشر، في هذا الوقت الذي نحتفل فيه بالذكرى الرابعة للاجتياح الاسرائيلي للجنوب، بعدوان من نوعه بل أكبر منه حجماً، شبيه، من حيث النتائج، بكارثة ١٩٤٨، لأنه سيحمل معه، كما يقول المبشرون به، تغييراً كبيراً في العالم، في لبنان وفي المنطقة؟ إننا برغم ميلنا لتصديق هذا التهويل بالعدوان، لأنه أصبح، بالنسبة للمستفيدين منه، لبنانياً وعربياً ودولياً، حاجة لا غنى عنها، لا نخاف من حجمه لأننا اعتدنا على مقاومة أمثاله بشجاعة، ولا نقر مع أي من المهولين، بهدف الضغط على أعصابنا، بقدرته على تحقيق أي من أهدافه المطلوبة، لا بالنسبة للوضع الداخلي في لبنان، ولا بالنسبة للقضية الفلسطينية، ولا بالنسبة للوضع في سوريا. بل نحن نميل إلى أن نتائجه ستنقلب على المراهنين عليه، أولاً، ثم على المعتدي نفسه. ونحن ننطلق في تقديرنا هذا لنتائج العدوان المرتقب من الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: هي أن الخطة الاعتراضية التي اعتمدتها الحركة الوطنية اللبنانية، خلال السنوات السبع الماضية، تتبلور اليوم، بفعل تراكم الاحداث وتعاظم المسؤوليات، وتكتسب أبعاداً جديدة، وتصبح من الناحية الموضوعية، أكثر قدرة على التعبير عن نفسها، بشيء من الاستقلالية أكبر حجماً، وبنوع من الفعالية، أكثر تأثيراً. والسبب في هذا التحول، وفي الميزة الخاصة التي يكتسبها، هو أن ما كان يبدو على صعيد العلاقة بين القوى الأساسية المكونة للمواجهة الوطنية للمشروع الكتائبي ـ الفاشي، ولمشروع السلطة، وللعدوان الاسرائيلي، وللضغط العربي الرجعي، وللضغط الأميركي، أكثر صعوبة، في فترات سابقة، تتوفر، اليوم، إمكانية أكبر لتحقيقه، بشكل أكثر عمقاً وأكثر جدية وأكثر مسؤولية. وتدخل هذه القوى الوطنية المتحالفة جميعها في تحد كبير: هل ستكون قادرة على اجتياز المرحلة الصعبة؟ هل ستكون قادرة على اجتياز الامتحان العسير؟ هل ستعطي جديداً، أم أنها ستكرر نفسها، وعفوية حركتها، وتقدم للناس أوهاماً، سرعان ما تبددها الحياة والوقائع؟ لا نريد اطلاق الحكم ببساطة، قبل الوقت الضروري، قبل بدء العمل، قبل الانتقال إلى التجربة. إلا أننا نود، في الوقت نفسه، أن نشير إلى أن الحركة الوطنية قد اجتازت حتى الآن امتحانات عسيرة، متعددة، أحياناً بنجاح،

وأحياناً بالحد الأدنى الضروري لمقومات البقاء والاستمرار. ولم تكن دائماً هي وحدها المسؤولة، ولكنها كانت تتحمل المسؤولية، بشجاعة وبنظرة متجهة دائماً إلى المستقبل. إن أحداث طرابلس الأخيرة، (احداث ما قبل الاجتياح)، مثل أحداث الجنوب التي سبقتها، أحداث من نفس الطبيعة، وإن اختلفت العوامل والعناصر والقوى والمؤثرات والأجهزة والأدوات. وقد تم اجتياز ناجح، ربما مرحلي، لكل منها، وبقيت ضرورة المتابعة. والمطلوب اليوم خطة جريئة يستعاد فيها الأمن في المناطق الوطنية، لكي تستعاد الثقة. والثقة يمكن أن تستعاد إذا استعيد الأمن. والمسألة، على صعوبتها لأن نوع الحرب هنا هو أكثر أنواع الحروب قذارة، مسألة ممكنة الحل، لأن مداخل حلها معروفة، ولا بد من اقتحامها بجرأة. والمطلوب، في الوقت الذي يجري فيه التصدي لفرض الأمن، في المناطق الوطنية، التصدي لفرض نوع من السلطة في هذه المناطق. فنحن، في الحركة الوطنية، ضد العدمية في النضال الثوري. نحن بحاجة إلى سلطة، وباستطاعتنا تحديد مقوماتها. وهي، بالنسبة لنا، في الظرف الراهن، مزيج من السلطة الثورية ومن سلطة الدولة الرجعية، مزيج ينبغي أن نكون قادرين على بلورته في إطار ما نتصدى له من محاولة جادة لتأسيس جبهة من القوى الوطنية تستند في قيامها على الحد الأدنى الذي يوفره التعارض مع المشروع الكتائبي ـ الفاشي، ومع الدور الرجعي للسلطة، ومع العدوان الاسرائيلي، ويوفره الاستعداد لمواجهة انتخابات رئاسة الجمهورية على أساس الأتيان برئيس لا يكون، في الحد الأدنى من مواصفاته، رديفاً لهذه المشاريع والقوى المعادية.

الحقيقة الثانية: هي أن القضية الفلسطينية تتطور بشكل متسارع وجدي بقفزات، وتكتسب مواقع جديدة. وهو أمر يتحقق بفعل تراكم النضالات البطولية للشعب الفلسطيني، على كل الجبهات، وبكل أشكال النضال، خلال فترة طويلة، وبفعل التغيرات التي يشهدها عالمنا المعاصر. وتعبّر الانتفاضة الشعبية في الأراضي المحتلة عن عمق هذه التغيرات جميعها. ويقيننا أنه فات الوقت الذي كان بمقدور عدوان اسرائيلي، أو احتلال اسرائيلي، أن يغير من المعالم ويخلق وقائع جديدة مختلفة. لقد أصبحت قضية الدولة الوطنية الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين أمراً بحكم المقرر، أصبح مسألة وقت. وكل ما تقوم به الدوائر الامبريالية اليوم ومعها اسرائيل والقوى الرجعية العربية، ليس سوى جهد لتأخير هذه العملية، من أجل تحجيمها أو التقليل من تأثيرها، أو محاولة فرض شروط معينة عليها، أو سوى ذلك من

محاولات قد ينجح بعضها، ولكنها لن تكون قادرة على منع هذه العملية من بلوغ نهايتها المحتومة، المتسارعة في حركتها، وفي زمان تحققها.

الحقيقة الثالثة: هي أن الوضع العربي، ما بعد السادات، ليس أسوأ مما كان عليه قبل مصرع الخائن. الوضع، على صعوبته، يزداد نضوجاً. ومظاهر النضوج فيه لا يعبر عنها العفن الذي ينخر في جسد الأنظمة الرجعية وحسب، ولا في التناقضات التي تتفاقم داخلها، ولا في الشراسة المرتبكة التي تواجه فيها الأحداث الجارية، ولا في المخططات المتناقضة التي تعدها للاحتمالات الطارئة، بما فيها استدعاء الامبريالية الأميركية الى نجدتها، واستنفار العدوان الاسرائيلي لاخضاع المتمردين، بل تعبر عنها كل هذه الأمور مجتمعة، ومعها، في الوقت نفسه، حركة تغيير ثوري تنمو وتتطور، ببطء نسبي، وتكتسب حجماً وموقعاً يزداد تأثيرهما مع الأيام. ولقد دلت تجربتنا في الساحة اللبنانية، أن بمقدور قوة صغيرة أن تغلب قوة كبيرة، أو أن تعد هجومها، عندما تتوفر لها عناصر الصمود والتصدي ويتوفر لديها الاستعداد للقتال والتضحية. وبرهنت سوريا والجماهيرية الليبية، في تصديها للضغط الأميركي، وبرهنت اليمن الديمقراطية في تصديها لمحاولات الاستفزاز المستمرة على حدودها، أن إمكانيات التغلب على العدو الامبريالي الكبير متوفرة في الوطن العربي.

الحقيقة الرابعة: هي أن الموقف الدولي يزداد تغيراً لصالح نضالنا. فالاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية تزداد قدراتها على مواجهة النشاط الامبريالي والتغلب عليه، وتتعثر، أكثر فأكثر، مساعي الامبريالية الأميركية في محاولاتها الدائمة للتدخل من أجل قمع الحركات الثورية المتعاظمة في العالم، ولا سيما على حدودها الجنوبية، في كوبا وفي نيكاراغوا وفي السلفادور. ويلعب الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية، ودول عدم الانحياز، دوراً أكثر تأثيراً وفعالية في مجلس الأمن وفي الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي سائر المحافل الدولية لصالح نضالنا الوطني العادل. إن هذا التغير الحاصل في ميزان القوى لصالح النضال المعادي للامبريالية على الصعيد العالمي، يؤكد بطلان الموضوعة الرجعية التي تبثها الدوائر الامبريالية، وترددها الدوائر الرجعية والقوى اليمينية، في حركة التحرر الوطني العربية، للتشكيك بجدوى النضال وبجدوى التحالفات العالمية، موضوعة الوفاق الدولي ويالطا الجديدة. لا وفاق دولياً، ولا يالطا جديدة. ما يمكن أن يحصل، ولا

بد أن يحصل، هو نوع من فرض الاقرار بالوقائع الجديدة على الامبريالية الأميركية تضمنه قوة الاتحاد السوفياتي السياسية والاقتصادية والعسكرية، وقوة المنظومة الاشتراكية، وقوة المد الثوري الصاعد الذي يشمل العالم بأسره، من أقصاه إلى أقصاه، بما في ذلك منطقتنا العربية.

هذه الحقائق الكبرى لا بد أن تفعل فعلها، لا بد أن تترك تأثيرها في مجرى التطور الراهن في لبنان، ومنه، في الصميم، قضية الجنوب اللبناني، قضيتنا العزيزة.

وإذا كان لنا من كلمة أخيرة نقولها، بهذا الصدد، فهي أن الوضع العربي الراهن، المؤقت، الذي أشرنا إلى تأثيره السلبي الحالي على الوضع اللبناني، إنما هو وليد الأزمة التي تجتازها حركة التحرر الوطني العربية، في قيادتها الطبقية. فهي التي تتحمل، في العمق، مسؤولية أن نستمر نحن، في لبنان، حركة وطنية لبنانية وثورة فلسطينية، سبع سنوات نقاتل وحدنا، لا سيما في مواقع الصمود الأمامية في الجنوب وسط صعوبات لا حصر لها، خصماً كبيراً شرساً، دون أن تكون لفعل هذا الكفاح الثوري أصداء عملية على امتداد الوطن العربي كله. وهي أزمة آن للقوى الثورية العربية أن تنخرط، بشكل جدي ومسؤول، في ايجاد الحل الصحيح لها، الحل الذي تتوفر اليوم، أكثر من أي وقت مضى، الامكانيات الفعلية، الموضوعية والذاتية، لتحقيقه.

أيها الأخوة والرفاق،

كل الجهات هي الجنوب. تلك كانت صرخة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في أول احتفال دعا إليه في ذكرى الاجتياح الاسرائيلي للجنوب. وهي الصرخة التي ما تزال تدوي في كل مكان، وترددها القوى الوطنية اللبنانية والعربية، في كل مكان. الجنوب، منا جميعاً، هو في موقع القلب من الجسم. وكلنا حشد قوى وطاقات من أجل انجاده، من أجل أن يزداد صموده ويتعمق ويترسخ، من أجل أن نمنع عنه الأذى، من أجل أن نصد عنه العدوان.

تلك هي الإرادة التي نعتز بها، ونعتز، في الوقت نفسه، بأنه يكون المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، في كفاحيته النادرة المثال، في عطائه النموذجي، في ثباته على المواقف، برغم كل الصعاب، واحداً من أعمق التعبيرات عن هذه الارادة العظيمة.

شكراً لكم أيها الأخوة في قيادة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، وشكراً لكم أيها الأخوةوالرفاق، حضور هذه الجلسة الحميمة، على استماعكم، وإلى اللقاء، دائماً، في الجنوب، ومع الجنوب، ومن أجل الجنوب، ومن أجل قضيتنا الوطنية التحررية، اللبنانية والفلسطينية العربية.

(١٩٨٢/٣/٨)

هذا الكلام الذي قيل، عشية الاجتياح، إنما أكدته الأحداث التي تلت، خلال الاجتياح، ثم الاحتلال، ثم المرحلة التي نحن فيها، التي تحقق فيها المقاومة انتصاراتها، دون أن تلغى الأثر السلبي الذي أحدثه كل من الاجتياح والاحتلال، في لبنان، بعامة، وفي الجنوب، بخاصة، من تدمير.

غير أن مسألة الجنوب تظل، برغم ما تحقق، قضية وطنية لبنانية أساسية، سياسية واقتصادية واجتماعية، وقضية وطنية عربية. ففي الجنوب، وحول مصيره، سيظل يتمحور، إلى مدى طويل، جانب مهم من الصراع التاريخي بين اسرائيل والحركة الوطنية الثورية العربية.

الجذور التاريخية للمقاومة

كم هو صعب، حقاً، التحديد الدقيق للاتجاه الرئيسي في سير الأحداث، وفي حركة التطور التاريخي. فالأحداث، في ضوء النظرة العلمية، لا تقاس بعددها أو بحجمها، ولا يحدد موقعها الشكل الذي تتخذه، بل هي تقاس بالموقع الذي تحتله في حركة الصراع التاريخية؛ وبالدور الذي تمارسه والتأثير الذي تحدثه في هذه الحركة. أي أن المهم والأساسي في الأحداث، لا شكلها، الذي لا بد من أخذه بعين الاعتبار، بل جوهرها ومضمونها وتاريخيتها، وموقعها في الصراع.

ولسنا نستطيع، ولا يحق لنا، أن نفسر الأحداث التي شهدناها ونشهدها، في هذه المرحلة الدقيقة المعقدة من تطور النضال الوطني الثوري في بلادنا، بما يطفو على السطح من هذه الأحداث، بما يظهر ويرى بالعين المجردة. ففي ذلك افتئات على حركة التاريخ وهروب، عفوي أو مقصود، من التحديد العلمي الصحيح للأحداث الجارية ولموقعها في حركة التاريخ، وفي حقل الصراع الطبقي، في هذه الحركة تحديداً.

لنأخذ مثلاً على ذلك الحرب الأهلية، أولاً، ثم حربنا الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي.

في المثل الأول تتخذ الأحداث في جانب كبير منها، شكل صراع بين طوائف ومذاهب وأديان، أو بين قوى ديموقراطية وقوى دينية. في حين أن جوهر الحرب هو، بالتحديد، سياسي، صراع

٦

بين طبقات. فهي حرب بين اتجاهين، بين جبهتين، بين مشروعين: اتجاه وطني ديموقراطي عربي تنضوي تحت لوائه وتتحالف بأشكال مختلفة، جبهة من القوى الوطنية والديموقراطية المتعددة الانتماءات الطبقية، وتتبنى مشروعاً وطنياً ديموقراطياً عربياً لتطور لبنان، واتجاه طائفي فاشي انعزالي يجمع تحت لوائه الأقسام الأكثر رجعية والأكثر تخلفاً من البرجوازية، من ممثلي الطغمة المالية، ويطرح مشروعاً للبنان يقوم، ليس فقط على الطائفية، بل على قاعدة ربط لبنان بإسرائيل والدول الامبريالية، في شكل وطن قومي مسيحي أحياناً، وفي شكل كانتونات طائفية أحياناً، وفي شكل كونفدرالية طوائف، أحياناً، بما يكمل صورة اسرائيل الدينية العنصرية ويبررها، ويستخدم الطائفية والفاشية شكلاً لفرض مشروعه.

وفي المثل الثاني تجري محاولات تعسفية لاضفاء طابع ديني على المقاومة الوطنية، استناداً إلى بعض الظاهرات العفوية التي تستنفر فيها المشاعر الدينية، وهي بالغة الأهمية، مع اغفال متعمد لواقع أن هذا التطور في المقاومة إنما يعود، في الأساس، إلى ما تكون، بفعل الكفاح الوطني والديموقراطي، خلال عشرات السنين، وفي فترة الحرب الأهلية، وفي فترة الاجتياح الاسرائيلي، من تجربة غنية، في شكل الكفاح، وفي شكل تنظيمه، وفي الثبات والاستمرار فيه، وفي الجرأة والوضوح في تحديد خططه وأهدافه.

من هنا الأهمية الكبرى التي نعطيها، في تصدينا لدرس المقاومة الوطنية كظاهرة، لتطور حركة الأحداث، خلال مراحل عديدة من النضال الوطني والديموقراطي، والربط الصحيح بين هذه الظاهرة المعاصرة وبين حركة التاريخ في مراحله الأساسية السابقة. إذ ان المقاومة، كما أشرنا إلى ذلك في أكثر من مكان، ليست حركة جديدة، مفصولة عن تاريخ النضال الوطني الديموقراطي، وليست تولد الآن. بل هي جزء من حركة. وهي نتيجة طبيعية لتطور هذه الحركة. فهي، أي المقاومة، اذن، حركة لها تاريخ. ولا بد من تحليلها استناداً إلى النظرة العلمية لهذا التطور التاريخي، وتحديد مضامينه وتحديد اتجاهاته.

قبل أن تصبح المقاومة الوطنية ظاهرة ثورية لبنانية وعربية تستأثر بالاهتمام الواسع في كل الأوساط السياسية والاجتماعية والفكرية، كان يجري نقاش، حاد أحياناً، هادىء أحياناً، حول جدواها، وحول طبيعتها، وحول الأهداف المبتغاة منها. كانت الضربات الأولى لجبهة المقاومة تلقى الاهتمام، ولا شك. وكان الكثيرون من اللبنانيين والعرب، من مواقع مختلفة، ينظرون، بإعجاب شديد، إلى أولئك الشبان الوطنيين الشجعان المفعمين بالحماسة والرومانسية. ولم تكن لدى قسم كبير من هؤلاء قناعة حقيقية بأن مثل تلك العمليات العسكرية المتفرقة يمكن أن يشكل وسيلة ناجعة لتحرير الأرض من الغازي المحتل. وبعض هؤلاء انخرط، جزئياً في المقاومة، ثم تقاعس، وراح ينظر، من خارج المقاومة ومن خارج الاسهام الحقيقي في نشاطها العسكري والجماهيري، باتجاهات متناقضة، إما للتحرير السريع بواسطة المقاومة نفسها، أو لليأس والانكفاء أمام قوة الخصم، وصعوبة الكفاح وخطورة تبعاته. في حين أن فريقاً آخر من اللبنانيين، على رأسه حزب الكتائب وقواته والمتحالفون معه، كان يرى في هذه العمليات البطولية للمقاومة نوعاً من المغامرة، نوعاً من الارهاب، سمي في اعلام هذه القوى، في باديء الأمر، «عدواناً» على القوات الاسرائيلية. وقد بالغ هذا الفريق في رأيه فدمج، بشكل اعتباطي، وعلى أساس غير وطني، بين ما يمثله وجود قوات الاحتلال الاسرائيلية في لبنان وما يمثله وجود القوات السورية الشقيقة. وانحصر الهم الأساسي عند هذا الفريق في الدعوة إلى المفاوضات من أجل الوصول إلى اتفاق مع كل من القوات الاسرائيلية والقوات السورية يحدد شروط خروج هذه القوات جميعاً من لبنان. وكان واضحاً أن الهدف هو الوصول إلى عقد اتفاق، من نوع اتفاق كمب دايفيد، سرعان ما ظهرت بوضوح بنوده وأهدافه، فيما عبر عنه اتفاق السابع عشر من أيار من انخراط في نهج الخيانة والاستسلام للعدو.

وقد أثير جدل مصطنع حول البدائل والخيارات من أجل تحرير الأرض حاولت فيه السلطة الكتائبية وأنصارها، في الداخل والخارج، أن توهم اللبنانيين، يومذاك، بأن المقاومة الشجاعة لا تشكل بديلاً، وأن لا بديل، في ظروف لبنان الصعبة، سوى الدخول في

المفاوضات الى نهايتها، إلى توقيع اتفاق مع العدو، برعاية اميركية، تخرج بموجبه القوات الاسرائيلية. وكان ذلك جزءاً أساسياً مما كان يهدف إليه الاجتياح والاحتلال. والمؤسف أن قوى وطنية معينة، بما في ذلك أوساط دينية، قد انجرت الى هذا الطرح تحت رهبة الوضع الذي كان قائماً، وشراسة العدوان، وطول المسافة المفترضة بين المقاومة والتحرير. ولم تعر السلطة اهتماماً، لا للمقاومة التي كانت تتسع وتتعاظم، ولا للقوى التي كانت تغذيها وترفدها بالامكانات البشرية والمادية المتواضعة، ولا بالجماهير التي كانت تحتضنها وتزداد التفافاً حولها. بل إن بعض أجهزة الدولة تطوع لملاحقة أفراد المقاومة وعرقلة خططهم وصولاً إلى اعتقال بعضهم وإحالته الى المحاكمة، وتسليم بعض آخر إلى قوات الاحتلال. واستمر الجدل بين هذين الموقفين الأساسيين، بأشكال مختلفة. واستمرت المقاومة في تطورها، حتى كبرت وكبرت امكاناتها، وصولاً إلى تحقيق الانجاز التاريخي الكبير، بمساعدة متعددة الجوانب من الشقيقة سوريا، ومن الأصدقاء السوفيات: إسقاط اتفاق السابع عشر من أيار الذي ترافق مع طرد المارينز وقوات الاطلسي وتزعزع حكم الكتائب وخروج أقسام واسعة من المناطق من تحت سيطرته.

لقد تحولت المقاومة، في الواقع، إلى ثورة، إلى أداة حقيقية للتحرير. وانتهى، بذلك، الجدل العقيم. انهاه تطور المقاومة واتساعها والالتفاف السياسي والشعبي حولها، والانتصارات التي تحققت، بفعلها، وفي ظلّ وهجها. وأسهم هذا التطور العاصف الذي شهدته المقاومة ليس فقط في انسحابات متواصلة لقوات الاحتلال، بل في اسقاط رموز صهيونية بارزة من نوع بيغن وشارون وتجمع الليكود الصهيوني المتطرف، وفي مفاقمة الأزمة داخل اسرائيل، وفي اسقاط الأميركي البشع هيغ، الشريك الأول لهؤلاء الصهاينة الكبار في غزو لبنان وفي احتلال أرضه الواسعة وعاصمته.

هذه المقاومة التي تصبح ثورة أو جزءاً من عملية ثورية متسقة، لبنانية وذات اشعاع عربي، لم يكن من الممكن أن تكون وليدة اللحظة التاريخية الراهنة. بل إنها استمرار بشكل جديد، للحركة الثورية في تطورها المتعدد المراحل، منذ بداياتها حتى الآن، استمرار لتقاليد كفاحية بعضها قديم وبعضها الآخر جديد معاصر. وغايتنا هنا، أن نلقي الأضواء على هذا التواصل في الحركة الثورية، وعلى هذه التقاليد الثورية التي تغنيها المقاومة وترفدها بالجديد المتقدم من انجازاتها..

٢ العاميات الشعبية

أول ما نرى ضرورة الاهتمام به والتوقف عنده في هذا التراث هو العامّيات الشعبية الفلاحية التي انتشرت في القرن الماضي ومهدت لقيام حركة وطنية من أجل الاستقلال عن السلطنة العثمانية. وتشير هذه الحركات، والأفكار والنـزعـات التي ارتبطـت بها، وبعـض الشعارات التي أطلقتها، أنها كانت تتأثر، بشكل عام، بـالثـورة الفـرنسيـة البرجـوازيـة (١٧٨٩)، وبما شاع عن هذه الثورة من أنها قضت على نظام العبودية وحررت الفلاحين من ظلم الاقطاع وجوره وأرست أسس الاخاء والمساواة والحرية.

وأهمية الاشارة الى هذا التأثير تكمن في ما نفترض أنه أعطى لهذه العاميات من مضامين اجتماعية كانت تتطور وتتقدم باستمرار، من عامّية إلى أخرى، بدءًا بأول عامية جرت في انطلياس عام ١٨٢٠، مروراً بالعامية الثانية في لحفد ١٨٢١، وثورة ١٨٤٠ ضد ابراهيم باشا، ثم ثورة طانيوس شاهين ١٨٥٨.

عامية انطلياس قامت ضد الضرائب الاضافية التي فرضها الامير بشير الشهابي على الفلاحين. إذ اعتبرها الفلاحون غير مبررة، فضلاً عن أنها غير ممكنة، ومن شأن الموافقة عليها أن تؤدي إلى مزيد من افقارهم. فتنادوا من قرى المتن وكسروان والشوف الى عقد اجتماع حضره الفلاحون من كل الطوائف بالألوف، و«أقسمـوا، كـل حسـب طقـوسـه الدينية، اليمين على السير يداً واحدة وقلباً واحداً في النضال ضد تدابير الأمير بشير لجهة تحصيل الضرائب».

وبعد عام من عامية انطلياس جرت عامية لحفد. وكانت موجهة، أيضاً، ضد الامير بشير الشهابي الذي عاد، بعد ضرب عامية انطلياس، يجدد مطالبته بضرائب جديدة. فتجمع فلاحو جبيل والبترون من الطوائف المختلفة وزحفوا الى لحفد من القرى المختلفة حيث يعسكر جيش الامير بشير.

وفي عام ١٨٤٠، أي بعد تسع سنوات من المعاناة مما حمله ابراهيم باشا للفلاحين اللبنانيين من قهر، في حركته التي كانت الأولى من نوعها في محاولة اقامة وحدة قومية، قامت ثورة فلاحية كبيرة في وجهه من نفس طبيعة وأهداف العاميتين السابقتين.

(استقينا هذه المعلومات من كتاب يوسف خطار الحلو «العاميات الشعبية في لبنان»).

أما ثورة طانيوس شاهين (١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) فقد كانت أكثر وضوحاً في بعض مضامينها وفي أشكال تحركها وفي ردود فعل الاقطاعيين عليها، وفيما نتج عنها، وبعد عامين من قيامها، من أحداث طائفية استدعت تدخل الدول الأوروبية.

ونتبت فيما يلي النص الذي يتضمن مطالب الشعب الى المشايخ، كما ورد في كتاب انطون ضاهر العقيقي مؤلف كتاب «ثورة وفتنة في لبنان» حققه ونشره يوسف ابراهيم يزبك وصدر عن مجلة الطليعة عام ١٩٣٩:

«**أولاً** ـ إن الأموال الميرية يكون توزيعها بمقتضى الأصول مع مال الأعناق على كبير وصغير بموجب اللايحة المرتبة من سعادة شكيب باشا حق وجناب المشايخ ملزومون لدفع الذي يتوزع عليهم في مال الميري والأعناق من دون أن يحملوا الأهالي زوايد بارة الفرد.

ثانياً ـ التعديات والمظالم وأخذ الزوايد من تسافير وخدم والحوالات التي كانت تؤخذ من الأهالي بواسطة تفرقات جناب المشايخ حيث أنها خارجة عن قوانين الدولة العليّة والترتيبات الخيرية عند تحقيقها بالمحل الذي يتعين إن كان بالمجلس الحالي أو خلافه مع كل من فاعل هذه العقوبات والأشياء المغايرة النظام من بعد الإثبات فملتزم الفاعل أن يرد ويدفع ما أخذه تماماً.

ثالثاً ـ المعايدات ورسومات النكاح الذي كان جارياً من جناب المشايخ في بعض محلات أو معايدات المشايخ المرتبة عند مبيعهم من أرزاقهم للأهالي فهذه يلزم بطالتها وإزالتها بالكلية.

رابعاً ـ قضية المأمورية التي هي من أعظم المهام كونها لأجل سياسة الأهالي ورفع المظالم والمغايرات فللمأمور لأجل السياسة بمقتضى العدالة والقوانين حتى فيما بعد لا يوجد بواعث فيما بيننا وبين جناب المشايخ والذي يكون مأموراً لمعاطاة أشغالنا نترجى أن يكون مستحقاً بهذه المرتبة وأهلاً لها

وحافظاً جميع الشروط التي تليق بحق المأمورين وتصرفاتهم كما وأنه واجب على جميع الأهالي أن يقدموا واجبات الاطاعة والاعتبار للمأمور كونه يصير ممتازاً عن الجميع ويصير الاجتهاد بحفظ أوامره ويجب أن يقام بكل قرية وكيل أو وكيلان على قدر كبر القرية وصغرها تحصيلاً للراحة وتسهيلاً لنفوذ أوامر المأمور وتسهيلاً لأشغاله ومصالحه بدون انزعاج.

خامساً - حيث إن الدولة العلية صانها رب البرية أنعمت بالتسوية العمومية والحرية الكاملة حتى لا يكون تمييزات أو احتقارات بالمخاطبات وأن تتغير كافة الأصول القديمة بما يخص الكتابات وصارت رسومات جديدة للجميع فهذه نترجى ملاحظتها من غبطتكم.

سادساً - قضية المأمورين بكسروان هذه تسليمها لأمر غبطتكم بشرط أن يكون أمر المأمور نافذاً على الجميع من دون استثناء بموجب الترتيبات الخيرية حتى من الآن وصاعداً لا يكون معروفاً ومميزاً عن العموم إلا من يكون مأموراً وما بقي من جناب المشايخ إذا وقع منهم تعديات على الأهالي تجري عليهم التأديبات بموجب القوانين غب اثباتها مجلسياً كما يجري الأمر على المعتدي من الأهالي».

إن هذه الوقائع لا تحدد، بالنسبة للبنان والمنطقة العربية، وحدها ميزة القرن التاسع عشر. فقد كان هذا القرن حافلاً بالثورات والحركات الفكرية التي عمت كل أوروبا، وتركت تأثيرها الهائل في العالم المعاصر، وفي مجمل المتغيرات التي حصلت فيه، وأهمها الثورة البروليتارية الأولى، كومونة باريس (١٨٧١) والثورة الروسية الأولى (١٩٠٥) والثورة الاشتراكية الأولى التي ظفرت بالسلطة، ثورة أوكتوبر (١٩١٧). ولم تكن العاميات الشعبية والحركات الفلاحية في لبنان التي أشرنا إليها، إلا جزءاً من هذه الظاهرة العالمية. ففي الثلث الأول من القرن قامت ثورة الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري. وفي أواخر القرن، في مطلع الثمانينات، قامت ثورة عرابي في مصر والثورة المهدية في السودان. وكان هذا القرن أيضاً، وفي الثلث الأخير منه، تحديداً، بداية عصر النهضة في الحركة التورية العربية، الحركة الاصلاحية، السياسية الفكرية، التي تأثرت بكل ما كان يجري في أوروبا من حركات فكرية ومن ثورات، وليس فقط بما حملته الثورة الفرنسية البرجوازية

(١٧٨٩)، بل كذلك، بما حمله الفكر الاشتراكي العلمي الذي وضع أسسه ماركس وانجلز، وأنشأ الأممية الأولى وأحزابها وفروعها، وقادا نضالها من أجل انتصار الثورة الاشتراكية. فقد برزت في تلك الفترة حركات اصلاحية تجلت في تشكيل جمعيات طرحت فكرة الاصلاح من داخل السلطنة العثمانية، وظلت تتطور الى أن طرحت فكرة الاستقلال عنها. هذه الجمعيات هي: «جمعية الاخاء العربي» و«المنتدى العربي للموظفين والطلاب والأدباء العرب» في القسطنطينية (١٩٠٩)، و«الجمعية القحطانية» (١٩٠٩)، وجمعية «العربية الفتاة» في باريس (١٩١١)، و«حزب اللامركزية الادارية» العثماني (١٩١٢)، و«جمعية بيروت الاصلاحية» (١٩١٢)، التي كانت تطالب بـ «التطبيق العملي للمبادىء التي نادى بها المطالبون بالاستقلال الذاتي على أسس اللامركزية».

(معلومات حصلنا عليها من كتاب جورج انطونيوس «يقظة العرب» ومن الدكتور مسعود ضاهر).

ولا نستطيع، في هذا السياق من العرض للحركة الثورية العربية إلا أن نشير إلى ثورتين قامتا في فترة واحدة تقريباً: ثورة عمر المختار في ليبيا (١٩١١) وثورة عبد الكريم الخطابي في الريف ـ المغرب (١٩١٢). وأهمية ثورة عمر المختار أنها أثارت تضامناً قومياً عربياً. وقد شارك فيها الأمير شكيب أرسلان مع بضعة ألوف من الوطنيين اللبنانيين والسوريين.

ولا بد من التنويه هنا بأن اليمن قد استعصت على الاحتلال العثماني وبقيت محافظة على استقلالها.

٣ الحركة من اجل الاستقلال والمشاركة في الثورة السورية

في مطالع القرن الحالي، وبتأثير من التيارات الفكرية القادمة من أوروبا بوسائل مختلفة سهلتها حركة الصلة الواسعة والاهتمام الكبير الذي كانت قد بدأت تبديه دول أوروبا، فرنسا وانكلترا، ببلدان المنطقة، ومنها لبنان، وتجسدت بالإرساليات. (ومعروف أن أوروبا قد شهدت في القرن التاسع عشر ثورات عديدة، في فرنسا والمانيا بشكل خاص، وأهمها ثورة فرنسا (١٨٣٠) ثم ثورة فرنسا وألمانيا عام (١٨٤٨)، وكومونة باريس (١٨٧١)، وثورة ١٩٠٥ في روسيا التي تناقل أخبارها البحارة المتجولون في مرافىء مدن

المنطقة، وكذلك الصحافة التي كانت قد بدأت تشق طريقها في عدد من البلدان العربية، وبالأخص بمصر)، خرج مفكرون وأدباء لبنانيون وسوريون بأفكار جديدة، ثورية، متأثرون، بدرجات مختلفة، بالفكر الاشتراكي العالمي. وبدأت، في الوقت ذاته، حركة جديدة باتجاهين متلازمين: اتجاه الدعوة للاستقلال عن الامبراطورية العثمانية، واتجاه لتشكيل نواة الحركة العمالية. فجرى في العام ١٩٠٧، في لبنان، أول احتفال في العالم العربي بذكرى أول أيار، تكلم فيه عدد من المثقفين: مصطفى الغلاييني من بيروت، وفيلكس فارس من صلیما، وداوود مجاعص من الشوير، وجرجي نقولا باز من بيروت وخير الله خير الله من جران، البترون. «وكان هؤلاء الشبان يشكلون حلقة باسم «الشبيبة الحرة». وكانوا يعملون في سبيل الحرية وفي سبيل الدستور والحياة الديموقراطية».

ولم تكن حركة هؤلاء الشبان إلاّ جزءًا من حركة كانت تنمو وتتطور، في لبنان وسوريا وسائر البلدان العربية، من أجل الاستقلال عن السلطنة العثمانية. وكانت هذه الحركات في البدء مليئة بالأوهام، (الاعتماد على الانكليز والفرنسيين للتخلص من السيطرة العثمانية ونيل الاستقلال). ثم تحررت، تدريجياً، من هذه الأوهام. وتشكلت جمعيات سرية في فرنسا وانكلترا. وقام أعضاء هذه الجمعيات والطلاب المنتسبون إليها باتصالات في أوروبا تدعو للقضية العربية، إلى أن عقد المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ الذي عبر عن النزوع عند الوطنيين العرب نحو التحرر القومي، بوضوح أكثر. وقامت وتشكلت على أساس هذه النزعات القضية العربية، كقضية للتحرر والاستقلال. وهكذا سارت بشكل متوازٍ ومترابط، تقريباً، حركة النهوض القومي، على أساس أكثر تنظيماً، وحركة تكوُّن تنظيم للطبقة العاملة الناشئة، في أشكال أولية، فكرية وتنظيمية.

قبل انفجار الحرب العالمية الأولى كانت تسود أجزاء الامبراطورية العثمانية، ومنها لبنان، أوضاع اقتصادية واجتماعية بالغة الصعوبة، فضلاً عن الاستبداد العثماني، أدت بأقسام واسعة من اللبنانيين إلى الهجرة المكثفة إلى بلدان أميركا الشمالية والجنوبية.

وعندما انفجرت الحرب عام ١٩١٤ تفاقمت هذه الصعوبات وتفاقم الاستبداد والقهر، مترافقاً بالتجنيد الاجباري ثم «بالفرار» الذي تحول إلى ظاهرة لمقاومة هذا الاستبداد تراوحت بين نوعين: نوع اقتصر على النهب والاعتداء على القرى، ونوع حمل، في تطوره، بذوراً وطنية واجتماعية.

وفي تلك الفترة قامت ثورتان عربيتان: الأولى، هي الثورة التي قادها عمر المختار في ليبيا (١٩١١)، والثانية ثورة الريف التي قادها عبد الكريم الخطابي (١٩١٢).

وفي عام ١٩١٥، وفي خضم الحرب، اعتقل السفاح التركي جمال باشا العشرات من الوطنيين العرب المكافحين ضد الطغيان التركي، ومن أجل استقلال بلادهم ومن أجل وحدتها القومية. وكان بين هؤلاء عدد من المشاركين في المؤتمر العربي الأول (١٩١٣). وفي ليل ١٥ آب (١٩١٥) شهدت ساحة البرج في بيروت اعدام القافلة الأولى من هؤلاء الوطنيين. وفي ٦ أيار (١٩١٦) شهدت الساحة نفسها، وكان قد صار اسمها ساحة الشهداء، اعدام القافلة الثانية. ونذكر من بين أبرز أسماء هؤلاء الشهداء عبد الحميد الزهاوي، عبد الغني العريسي، عبد الكريم حمد، أحمد طبارة، محمد المحمصاني، عبد الكريم الخليل.

ولم تكد تنتهي الحرب إلا وكانت فرنسا وبريطانيا الدولتان الامبرياليتان المنتصرتان في الحرب، قد وضعتا اتفاقاً سرياً لتقاسم البلدان العربية بينها، هو اتفاق سايكس ـ بيكو المشهور. وأعطت بريطانيا، في ذلك الحين (١٩١٧)، وعداً لليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين، التي كانت من حصة بريطانيا بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو، هو الوعد الذي يحمل اسم وزير الخارجية البريطاني، آنذاك، بلفور. وهذا التقاسم للبلدان العربية الذي وضع بشكل سرّي قبل انتهاء الحرب، سارعت السلطة السوفياتية الجديدة التي قامت في أعقاب انتصار ثورة أوكتوبر العظمى، إلى فضحه، ونبهت الشعوب العربية إلى مخاطره، ودعتها إلى النضال ضده واسقاطه، وقدمت لهم، في نموذج الثورة العظيمة المنتصرة، ثورة العمال والفلاحين، دليلاً للنضال ومرشداً للعمل، وأكدت لهم، في الموقف الذي اتخذته في كشف المعاهدة السرية، أنها سلطة صديقة للشعوب العربية في كفاحها من أجل الحرية.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الثورات العديدة التي قامت في عدة بلدان عربية، في مصر (١٩١٩) وفي العراق (١٩٢٠)، وفي سوريا ثورة ابراهيم هنانو (١٩٢٠) والثورة السورية الكبرى (١٩٢٥) واللتان قامتا ضد الاستعمار الفرنسي، وحتى ثورة فلسطين (١٩٣٦)، إنما تأثرت، في قيامها وفي شكل تصدّيها لمهمات التحرر من السيادة الأجنبية، وتحريك الجماهير وتعبئتها في النضال، بثورة أوكتوبر الاشتراكية، وبوهج أفكارها.

ويهمنا في هذا السياق أن نشير إلى أسماء لبنانية بارزة ربطت في نشاطها السياسي والفكري، بين النضال من أجل الاستقلال، والنضال لخلق الأدوات الحقيقية لهذا النضال، سواء بتشكيل حزب ثوري، على غرار الحزب الذي قاد ثورة أوكتوبر وانتصر فيها، حزب للعمال والفلاحين، أو بوضع نظرية ثورية، أو بتبني نظرية ثورية قائمة تتجسد فيما قدمته الماركسية من تعاليم. من هذه الأسماء اللبنانية التي لمعت نذكر أسماء رفيق جبور ونقولا

حداد وفرح أنطون وشبلي الشميل وفؤاد الشمالي، وانطون مارون، الذي كان زعيماً للحركة النقابية وقائداً في الحزب الشيوعي المصري من نوع نادر المثال. وقد استشهد في (١٩٢٤) في السجن على يد الجلادين الانجليز الذين كانوا يستعمرون مصر. ومن بين هذه الأسماء، ومن أهمها، خير اللّه خير اللّه الذي شارك في احتفال أول أيار (١٩٠٧)، وشارك في المؤتمر العربي الأول في باريس (١٩١٣)، وشارك في كل النشاطات السياسية اللاحقة، ولا سيما في مجال تشكيل لجان لبنانية في العديد من البلدان تحت شعار: الاستقلال التام للبنان بحدوده الطبيعية، وبدون أية قيود، أو شروط، ونقل باسم هذه اللجان المطالب الوطنية اللبنانية والعربية إلى مؤتمر السلام في فرساي وإلى مؤتمر عصبة الأمم (١٩١٩). والمهم في نشاط خير اللّه خير اللّه في هذه الفترة أنه أسس مع عدد من المثقفين اللبنانيين حزباً أسماه الحزب الاشتراكي ـ الفرع العربي من الأممية العمالية، ثم عقد اجتماعاً مشتركاً مع الحزب الاشتراكي المصري، تـمّ فيه الاتفاق على تأسيس التحالف الاشتراكي الشرقي.

وأدت هذه الارهاصات السياسية والفكرية إلى نشوء الحركة الشيوعية المنظمة في مصر وفلسطين، وإلى قيام الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني (١٩٢٤) على أساس النضال من أجل الاستقلال والدفاع عن مصالح العمال والفلاحين والكادحين، ومن أجل الاشتراكية، كأول حزب من نوع جديد ينشأ في البلدين العربيين. ولم يكد ينشأ الحزب حتى بدأ يخوض المعارك من أجل تحقيق الأهداف التي تضمنها برنامجه. ولم يكن مصادفة، قط، أن يكون عام ١٩٢٥ مشهوداً في خمس مناسبات وأحداث حددت هوية الحزب الشيوعي الوطنية الثورية:

١ ـ الاحتفال بعيد الشهداء في ٦ أيار في ساحة الشهداء.

٢ ـ احياء عيد أول أيار في مهرجان خطابي ـ في سينما كريستال.

٣ ـ تنظيم مظاهرة للمستأجرين دفاعاً عن حقوقهم، قمعتها السلطات وسقط فيها شهيد.

٤ ـ دعوة الجماهير الشعبية للاشتراك في الثورة السورية وحمل السلاح والانخراط في صفوفها.

٥ ـ عقد صلة بين فؤاد الشمالي الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني وعلي ناصر الدين الشخصية الوطنية اللبنانية الذي كان على صلة وثيقة بقيادة الثورة السورية، والاتفاق مع ممثل الأممية الشيوعية، بحضوره، على دعم الثورة بكل الوسائل، السياسية والعسكرية. كما قام الحزب بتنظيم لقاء بين علي ناصر الدين ويوسف السودا المحامي المعروف من أجل فهم طبيعة الثورة وأهدافها، والاتفاق على دعمها على أساس البندين التاليين: ١ ـ ان يحترم

القوميون العرب استقلال لبنان. ٢ ـ أن يتبنى اللبنانيون موقفاً سياسياً معادياً للامبريالية ومع حركة التحرر العربية.

ونثبت هنا مقتطفات من نص البيان الذي صدر عن الحزب الشيوعي في الدعوة للاشتراك في الثورة السورية:

« ... نحن نبرأ إلى اللّه من مسؤولية سفك الدماء، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة. يا ويح الظلم!... الى السلاح أيها الوطنيون، ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة. إن حربنا اليوم هي حرب مقدّسة ومطالبنا هي:

أولاً، وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

ثانياً، قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادةً مطلقة.

ثالثاً، سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش وطني لصيانة الأمن.

رابعاً، تأييد مبدأ الثورة الافرنسية وحقوق الانسان في الحرية والمساواة والاخاء. الى السلاح! لنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا».

هذه المطالب تتفق مع شعارات الانتفاضات الجماهيرية في سوريا، تلك التي قادها ضد سلطات الانتداب، يوسف العظمة في معركة ميسلون (١٩٢٠)، وثورة العلويين التي قادها الشيخ علي (١٩٢٠)، والانتفاضة التي قادها ابراهيم هنانو (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) وسواها، وتتفق مع شعارات ومطالب الأحزاب الوطنية، حزب «سوريا الفتاة» الذي شكله سوريون ولبنانيون في نيويورك (١٨٩٨) وحزب الاتحاد السوري الذي شكله مهاجرون لبنانيون وسوريون في مصر (١٩١٩)، والحزب الوطني العربي الذي أسسه سوريون ولبنانيون (١٩٢٠) في بيونس أيرس بالأرجنتين، كما تتفق مع المطالب التي أقرها المؤتمر السوري (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) في دمشق، وكان يضم لبنانيين وسوريين.

(استفدنا في المعطيات عن هذه المرحلة وتطورها من كتاب محمد دكروب «جذور السنديانة الحمراء»).

أما أهداف الثورة الأساسية فتتلخص كما أعلنها سلطان باشا الأطرش بما يلي:

(١) « مواصلة الحرب حتى تنال سوريا أمانيها المشروعة.
(٢) الاصرار على الاستقلال التام مع التمثيل الخارجي والوحدة الكاملة لسوريا.
(٣) تشكيل حكومة وطنية سورية وانتخاب مجلس تأسيسي يسن الدستور ويعين شكل الحكومة.
(٤) استفظاع الأعمال الحربية التي تقوم بها السلطة الفرنسية بتدميرها القرى الآمنة، وقتلها النساء والأطفال والعجز، بقنابل الطيارات والمدافع من دون انذار حتى بلغ عدد النساء المقتولات ٥٠٠.
(٥) مناشدة الأمم المتمدنة باسم الانسانية أن تحتج على فرنسا وتطلب العطف على سوريا ».

٤ حركة الانتفاضات ضد الانتداب الفرنسي

شكلت المقدمات الثورية التي أشرنا إليها عناصر دفع وتطوير لحركة مقاومة واسعة ضد الانتداب الفرنسي وسلطاته وقواته، وضد مؤسساته. وقد شملت هذه الحركة مختلف مناطق لبنان، واتخذت أشكالاً متعددة. وقد أسهم في تطويرها، ولا شك، قيام الثورة السورية آنذاك. إذ ان العديد من هذه الحركات والانتفاضات المسلحة كان على صلة بهذه الثورة. وكان يشكل امتدادات أو روافد لها. وبعض هذه الحركات كان قد بدأ قبل الثورة السورية، وفي فترة تكوّن الشروط التاريخية لقيامها. بدأت هذه الحركات في شكل « عصابات » مسلحة كانت تقتحم مواقع للقوات الفرنسية، ومراكز للسلطة، سرايات ومخافر. واستمرت من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٦. وتشير كتب المؤرخين، التي تتناول هذه الفترة، إلى نماذج متعددة من هذه الانتفاضات والحركات المسلحة خلال هذه السنوات الست. كما تشير إلى أن سلطات الانتداب كانت تبدي انزعاجها منها، وكان يربكها تطورها الخطير. وفي هذا المجال يعترف الفرنسيون بـ ٣٥ معركة في سوريا ولبنان عام ١٩٢٢ و٤٧ عملية عام ١٩٢٣. ويشير الجنرال « ويغان » في أحد تقاريره الى أن العمليات

لم تكد تنقطع طيلة عام ١٩٢٤. كما يعترف الفرنسيون بالعديد من القتلى في صفوف قواتهم التي بلغ مجموعهم ٦٩٦ قتيلاً خلال فترة الانتفاضات (١٩٢٠ - ١٩٢٦). وهو ما أشار إليه أحد نواب الحزب الشيوعي الفرنسي في خطاب ألقاه في ذلك الحين أمام الجمعية الوطنية، باستنكار، رافعاً شعار «سوريا للسوريين». وتشير معلومات متفرقة الى أن هذه العمليات التي اتخذت، أحياناً، شكل عصابات، وأحياناً، شكل انتفاضات، وأحياناً، شكل معارك واسعة، قد شملت مناطق البقاع الشمالي والبقاع الغربي والجنوب. ونورد هنا بعض أسماء هذه الحركات والأعوام التي جرت فيها، على سبيل المثال، لا الحصر. وفي ايرادنا لهذه الأمثلة لا نختار، بالضرورة، أهمها. فما نهدف اليه هو التأكيد بأن الانتداب قد واجهته الحركة الوطنية، وواجهه شعبنا، بمقاومة مسلحة وبانتفاضات. فحركة «ملحم قاسم» التي تكوّنت عام ١٩٢٣، في البقاع، قامت بانتفاضات عديدة، واتخذت لها، في بادىء الأمر، مراكز في حورتعلا وبريتال. وفي احدى المعارك التي قامت بها (١٩٢٤) اصطدمت بالقوات الفرنسية واستمرت المعركة شهرين متواصلين.

أما الحركات التي قامت بها «عصابات راشيا وحاصبيا» فقد احتلت السراي في البلدتين وسقط في المعركة ٦٥ قتيلاً من القوات الفرنسية. وقد شملت هذه الحركات، اضافة إلى راشيا وحاصبيا، كلاً من مناطق مرجعيون والشوف وعكار والضنيّة. وفي معركة جرت في مدّوخا في البقاع الغربي سقط للفرنسيين ٤٣ قتيلاً. وتابعت هذه الحركات انتشارها فامتدت إلى بعلبك والهرمل. وفي بعلبك قامت انتفاضة عام ١٩٢٦ قادها توفيق هولو حيدر الذي كان على صلة بسعيد العاص، أحد قادة الثورة السورية، حيث قام المسلحون باحتلال سراي بعلبك وهاجموا مخفراً للدرك في اللبوة، كما هاجموا قطاراً فرنسياً على طريق حمص، وأحرقوا المحطة. وقامت بعد ذلك انتفاضة في الهرمل في عام ١٩٢٦ قادها زين مرعي جعفر.

وانتشرت في العام نفسه حركات مماثلة في بنت جبيل وقرى عديدة في الجنوب. وقد كانت سلطات الانتداب الفرنسية تنظم حملات عسكرية ضد هذه الحركات وكانت تقوم بأعمال ارهاب ضد القرى وتنكل بسكانها، وتحمّل المسؤولية لوجهائها عن أعمال لم يقوموا بها، وتفرض غرامات باهظة على السكان، وأحياناً كانت تحرق قوى بكاملها.

ويشير المؤرخون إلى أن أحد أهم المعارك التي جرت بين هذه الحركات وبين القوات الفرنسية في عام ١٩٢٦ هي التي جرت في وادي فيسان حيث استخدمت المدفعية الثقيلة واشترك فيها ألوف الجنود الذين هزموا مرتين وخسروا ٦٠٠ قتيل وأسر لهم ٧٠ جندياً و٩

ضباط. وقد أدت هذه المعركة، والمعارك الأخرى المتفرقة خلال هذه الفترة، إلى حالة استنهاض وطني جعلت العشائر في منطقة البقاع تدعو إلى تشكيل جيش وطني عشائري وتطلب الانضمام إلى سوريا.

(هذه المعلومات استقيناها من الدكتور مسعود ضاهر، سواء من الكتب التي نشرها ولا سيما كتابه «تاريخ لبنان الاجتماعي»، أو مما حصل عليه من مراجع مختلفة ومنها كتب المؤرخ «مهيب حمادة» ولا سيما كتابه «تاريخ علاقة البقاعيين بالسوريين»).

وفي هذا السياق من الحديث عن الانتفاضات والحركات المسلحة ضد قوات الانتداب نشير إلى ما كان قد بدأ يتطور في منطقة الجنوب من حركات مارست نشاطها في البدء ضد الأتراك وتحولت تدريجياً في عهد الانتداب الفرنسي الى حركات بعضها اتخذ طابع مقاومة وطنية منظمة ضد الانتداب وبعضها ظل يحمل طابع عصابات للسطو والنهب وقطع الطرق.

أبرز ممثلي هذه الحركات صادق حمزة الفاعور وأدهم خنجر فضلاً عن مجموعة من الفرق الأخرى. وقد قاد صادق حمزة عمليات عديدة ضد القوات الفرنسية في منطقة صور وفي منطقة النبطية، وهجومات عديدة ضد القرى. وأصبحت «عصابته» ذات شأن، الأمر الذي جعلها تفرض الجزية على أبناء القرى إذ تغير عليها في وضح النهار إلى أن نصبت نفسها سلطة حاكمة بديلاً عن الدولة، وحدّدت نسبة الضرائب، وأخذت تجبيها بموجب ايصالات. إلا أن صادق حمزة لم ينشط فقط في الجنوب اللبناني. بل قام بنشاطات في منطقة الحولة في الجولان. وكان يتعاون مع أدهم خنجر في عدد من العمليات. ومن بين هذه الأعمال المشتركة التي قاما بها تنظيم خطة لاغتيال الجنرال غورو. وقد نفذت الخطة عام ١٩٢١ وأصيب الجنرال بجروح، ولكنه نجا من الموت، وقتل أمين سره، وأصيب بعض مرافقيه، ومنهم حقي العظم رئيس دولة سوريا في ذلك الحين.

(بعض هذه المعلومات حصلنا عليها من كتاب الدكتور علي مرتضى الأمين عن صادق حمزة الفاعور).

لن ندخل هنا في تعداد المزيد من العمليات العسكرية والانتفاضات التي كانت قد بدأت تتراجع في الثلاثينات، ليحل محلها النشاط السياسي للحركات والأحزاب الوطنية الذي تمحور بصيغه وأشكاله المختلفة حول ثلاثة أنواع من النشاط:

الأول: النضال من أجل الاستقلال.

الثاني: النضال ضد سلطة الانتداب وضد المرتبطين بها، وضد ممارساتها القمعية التي كان يعاني منها المواطنون.

الثالث: النضال دفاعاً عن مطالب الكادحين والعمل من أجل تنظيم صفوفهم، ورفع وعيهم السياسي والطبقي.

وقد كان الحسّ الوطني عند اللبنانيين، رغم ما خلفه فشل الثورة السورية وقمعها، من حالات يأس ومرارة، يدفعهم إلى المشاركة، في كل الحركات الوطنية، التي كانت تقوم في أي بلد عربي. وفي هذا السياق تجدر الاشارة إلى الدور الذي قام به الوطنيون اللبنانيون في الثورة الفلسطينية التي اندلعت عام ١٩٣٦ والتي قادها الشيخ عز الدين القسام. إذ إن الجنوبيين من صيدا إلى بنت جبيل، نظموا تظاهرات حاشدة دعماً للثورة، وشكلوا لجاناً لنصرتها ولمراقبة الطرق المؤدية إلى فلسطين لمنع تهريب الأسلحة والذخائر أو المواد الغذائية إلى عصابات الصهاينة. وتشكلت لجنة في صيدا حينذاك شارك في قيادتها كل من الشيخ أحمد عارف الزين، صاحب مجلة العرفان والشهيد المجاهد معروف سعد.

(من محاضرة لحبيب صادق بعنوان: حول المقاومة الوطنية في جنوب لبنان).

٥ الحركة المناهضة للفاشية

كان النضال ضد الفاشية، في نظر الوطنيين والديمقراطيين اللبنانيين، وجهاً من وجوه النضال من أجل الاستقلال والحرية. فلم يتأخروا في الانخراط في الحركة التي كانت تتطور على الصعيد العالمي لمواجهة خطر الفاشية الداهم. وقاموا، منذ مطالع الثلاثينات، عندما ظهرت الحركة الفاشية في المانيا وايطاليا، بتنظيم حركة سياسية واسعة ضدها. وقام الشيوعيون، بشكل خاص، بنشاطات متعددة، اصدار بيانات واصدار كتب ومجلات، وتنظيم تظاهرات، وسوى ذلك. وفي العام ١٩٣٢ هاجم عدد من الشيوعيين في بيروت القنصلية الالمانية، فنزعوا عنها اللوحة التي كانت تحمل شعار الدولة وداسوها بأرجلهم وكسروها ثم رموها من فوق السور إلى حديقة القنصلية وكتبوا على السور: «فليسقط هتلر الظالم، جلاد العمال الالمان، فليسقط الفاشست والاستعمار ولتحيا الحرية والشيوعية». وفي

العام ١٩٣٩، قام الحزب الشيوعي بتنظيم سلسلة من التظاهرات وحملات الاحتجاج على البربرية الفاشية وخطرها، كما قام مناضلوه بتوقيع عرائض وبرقيات شعبية، في مختلف أحياء دمشق. وفي بيروت جرت تظاهرة احتجاج على اجتياح البانيا كان على رأسها الشيخ حسن مكي وفرج الّله الحلو، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني، ونقولا الشاوي، رئيس تحرير جريدة «صوت الشعب»، والمهندس انطون ثابت رئيس عصبة مكافحة الفاشية، ومصطفى العريس رئيس نقابة عمال المطابع، وسعد الدين مومنة أحد أركان هذه النقابة.

وفي العام ١٩٣٦ نظم الحزب الشيوعي حملة واسعة ضد الفرانكوية تضامناً مع الجمهوريين الاسبان. كما تطوع عدد من المناضلين الشيوعيين في الفرقة الأممية للقتال دفاعاً عن الجمهورية الاسبانية.

وفي عام ١٩٣٧ تشكلت عصبة مكافحة الفاشستية على أثر اجتماع ضم فريقاً من الأدباء والمفكرين والمحامين والمهندسين والتجار والملاكين، مهمتها أن تجمع في صفوفها العاملين من أجل الحرية والاستقلال، المعادين للاستعمار، المناهضين للفاشية.

وبرز في تلك الفترة اسم سليم خياطة كأديب ومفكر ومناضل ضد الفاشية، في كتابين مهمين: «حميات في الغرب» و«الحبشة المظلومة». وبرز اسم مجلة الطليعة التي كانت مجلة فكرية سياسية مناهضة للفاشية، رئِس تحريرها الأديب والكاتب رجا حوراني.

وفي عام ١٩٣٩ عقد المؤتمر الأول لمكافحة الفاشية بدعوة من العصبة. وقد افتتح المؤتمر المهندس انطون ثابت رئيس العصبة، قدم تقرير اللجنة التحضيرية أمام المؤتمر مقرر اللجنة الأديب رئيف خوري. وألقى في المؤتمر كلمات كل من الشاعر الياس أبو شبكة والروائي توفيق يوسف عواد والشاعر الياس خليل زخريا ونائب بيروت جبران تويني. كما تلقى المؤتمر رسائل تحية من النائب لطفي الحفار والنائب شكري القوتلي والنائب أحمد اللحام والنائب فايز الخوري والنائب ناظم القدسي والنائب فايز الياس والنائب الشاعر بدوي الجبل، ومنير المالكي، من سوريا. وحضر المؤتمر، من لبنان، النائب اسكندر البستاني، والنائب حميد فرنجية والنائب كاظم الخليل والنائب توفيق لطف الله عواد.

وفي العام ١٩٤٢ عقد اجتماع موسّع لعصبة مكافحة النازية والفاشستية في سوريا ولبنان حضرته شخصيات بارزة من بيروت ودمشق وطرابلس وحمص وحلب والشوف والعلويين والبقاع ومرجعيون. وقد صدرت مجلة الطريق عام ١٩٤١ كمجلة ناطقة باسم العصبة وكان يرأس تحريرها الكاتب اللبناني العربي الكبير عمر فاخوري.

(المعلومات هنا مستقاة من كتيب لعبد الّله حنّا بعنوان «الحركة المناهضة للفاشية في سوريا ولبنان»).

٦ الوطنيون اللبنانيون في قلب الثورة الفلسطينية (١٩٣٦)

كان من الطبيعي أن يؤدي النهوض الوطني المعادي لاتفاقيات سايكس بيكو، بعد فضحها من قبل حكومة لينين السوفياتية، إلى نهوض وطني عام في البلدان العربية وإلى اندلاع ثورات تأثرت، بدرجات مختلفة، بما أنجزته ثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى، وما وعدت به، في مراسيمها الأولى، شعوب الشرق، بشكل خاص، من انجازات.

وقد قامت في فلسطين، ضد الانتداب البريطاني وضد الحركة الصهيونية وضد وعد بلفور، انتفاضات وحركات في أوائل العشرينات مهدت لقيام الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦. وكان قد عقد عام ١٩١٩ المؤتمر السوري العام الذي ضم مندوبين عن سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، وفيه تم رفض اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور، ورفض اقامة الوطن القومي اليهودي، ورفض تقسيم سوريا وفصل فلسطين ولبنان عنها.

ومما كان يزيد في تأجيج روح الثورة والتمرد في لبنان ضد سلطات الانتداب الفرنسي، ويقود الى تعاظم الحركة الوطنية تسهيل سلطات الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا، على أساس وعد بلفور، الهجرة اليهودية، عبر هذين البلدين العربيين، إلى فلسطين.

وقد قامت منذ البدء، وعلى امتداد العشرينات تظاهرات احتجاج في سوريا ولبنان ضد أشكال القمع التي كانت تواجه بها انتفاضات الشعب الفلسطيني.

وكانت تتحول الاحتفالات في ذكرى وعد بلفور، إلى مناسبات وطنية جماهيرية ضد الاستعمار. وكثيراً ما كانت تشارك الجماهير اللبنانية والسورية في الاضرابات التي كانت تنظمها الحركة الوطنية في فلسطين. وقد أدى اندلاع الثورة الفلسطينية التي قاد طلائعها الاولى الشيخ عز الدين القسام بدءًا من العام ١٩٣٥ إلى نهوض وطني عارم شمل بلدان الشرق العربي كله، ولا سيما لبنان وسوريا. وكانت تضم في قيادتها شخصيات وطنية بارزة من كل التيارات، بعضها استمر في الحركة الثورية وتطور موقفه وموقعه، (فؤاد نصار الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً لعصبة التحرر الوطني الفلسطينية، ثم أميناً عاماً للحزب الشيوعي (الاردني - الفلسطيني) بعد قيام اسرائيل)، وبعضها اتجه يميناً، وبعضها سقط في مستنقع الخيانة.

ولم تقتصر الثورة على فلسطين وحدها، إنما شملت، بأشكال مختلفة، لبنان وسوريا وشرق الأردن. فبالإضافة إلى المشاركة في النشاطات الجماهيرية، والاضرابات والتظاهرات وتشكيل لجان الدعم للثورة وسائر أشكال الاحتجاج والاستنكار ضد أعمال القمع التي كانت تقوم بها سلطات الانتداب البريطاني والمنظمات الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني الثائر، فقد ذهب المتطوعون اللبنانيون والسوريون أفراداً وجماعات إلى فلسطين للمشاركة في الثورة. وقامت، في المناطق اللبنانية على الحدود المشتركة مع فلسطين، حركات معادية للهجرة اليهودية. وكان من بين أوائل الذين ذهبوا إلى فلسطين على رأس قوافل المتطوعين العرب الضابط اللبناني فوزي القاوقجي بعد اتصالات بينه وبين قيادة الثورة، واضعاً خبرته العسكرية في حرب العصابات في خدمة الثورة الفلسطينية. وكان من بينهم، أيضاً، سعيد العاص والشيخ محمد الأشمر، من أبطال الثورة السورية، والمناضل اللبناني معروف سعد. وقد شاركت هذه الفصائل من المتطوعين العرب في معارك عديدة.

(هذه المعلومات حصلنا علينا من كتاب «ثورة فلسطين (١٩٣٦ - ١٩٣٩) وأثرها في لبنان» لزياد الصغير).

لقد كانت المشاركة الوطنية اللبنانية المتعددة الأشكال في الثورة الفلسطينية استمراراً للكفاح الذي كانت تمارسه، منذ بداية الانتداب، القوى الوطنية على اختلاف مواقعها ودرجات وعيها وتنظيمها في النضال الوطني من أجل الاستقلال. وقد تأكد، في هذه المشاركة، الشعور القومي وترابط المسألة الوطنية في كل بلد عربي مع المسألة الوطنية المشتركة بين الشعوب العربية التي كانت تطمح طموحاً مشروعاً لنيل استقلالها الوطني، من جهة، ولتحقيق الوحدة القومية، من جهة ثانية.

وتولى المثقفون الديموقراطيون اللبنانيون، رئيف خوري وأمين الريحاني وسواهما، مع العديد من المثقفين العرب، طرح القضية الفلسطينية في المحافل الدولية وفي المغتربات. وبرز رئيف خوري، بشكل خاص، في كتاباته المتعددة، وفي كتبه، في وقت مبكر (جهاد فلسطين) وفي المؤتمرات العالمية، وأهمها وأولها المؤتمر العالمي للشبيبة الذي عقد في نيويورك عام ١٩٣٨، كواحد من أقدر المدافعين عن هذه القضية القومية وأشدهم اخلاصاً. وانتزع رئيف خوري مع رفيقيه في المؤتمر، عبد المجيد عباس وعفيف طنوس، قراراً بتأييد القضية الفلسطينية طرح في المؤتمر كقرار عربي وجرى التصويت عليه باسم المؤتمر. وفيما يلي نصه:

«نحن شباب العرب، نريد سلاماً بين الأمم، مبنياً على أساس من العدالة

لا على أساس حفظ حالة راهنة بعيدة عن الانسانية.

السلامة الاجتماعية ضد المعتدين لوقاية الأمم الصغيرة والضعيفة خاصة، شيء نرغب فيه من صميمنا، والاستعمار هو عدونا اللدود الذي نحاربه، وفي كفاحنا اياه نعلم حق العلم أن مصيرنا يتوقف بمقدار كبير على حركات الشعوب المستعمرة الأخرى لأن قضيتنا في جوهرها هي قضيتهم ذاتها.

ونحن ندرك أن مصيرنا يتعلق بمصير الديموقراطيين المخلصين في داخل الدول المستعمرة، كما أن مصير هؤلاء أنفسهم يتعلق بمصيرنا. وهكذا نحن ندعو إلى التعاون الوثيق بيننا وبينهم، ونطلب منهم أن يدافعوا عن قضيتنا وضد حكوماتهم الاستعمارية، كما نطلب منهم أن يوسعوا حلقة الديموقراطية حتى تشملنا أيضاً.

الصهيونية في فلسطين نعتبرها حركة مؤذية لمصالح العرب القومية والاقتصادية ونعدها أيضاً حركة خادمة لمطامع الاستعمار، وقد رأينا أن الصهيونية لا تستطيع حل مشكلة الشعب اليهودي الذي تضطهده الدكتاتوريات الرجعية اضطهادها الهمجي، فمشكلة الشعب اليهودي، لا تنحل إلا بفوز الديموقراطية الصحيحة التي تكفل حقوق الانسان بصفته مواطناً أين كان وأياً كان.

أما مزاعم الصهيونية انها تبني الاشتراكية في فلسطين أو تشجع الديموقراطية الصحيحة أو تحارب من تسميهم الاقطاعيين العرب الرجعيين وحدهم فلا صحة لها مطلقاً.

إننا نريد لفلسطين الحريات الديمقراطية المعدومة من البلاد انعداماً تاماً. ونريد مجلساً ينتخب انتخاباً حراً يمثل السكان تمثيلاً نسبياً. ونعتقد أن هذا المجلس هو وحده كفوء لفهم مصاعب البلاد العظيمة ومعالجتها والوصول إلى تسوية بشأنها كقضية الهجرة وبيع الأراضي.

يجب على الاستعمار الانكليزي أن يعدل عن سياسته وخططه في توسيع الشقة والتفريق بين جماهير الفئتين من السكان قاصداً بذلك ترسيخ دعائمه.

إن اطلاق النار على الأطفال والنساء والأناس الأبرياء وقذف القنابل في الأسواق والحوانيت وسيارات الركاب ونسف البيوت وفرض العقوبات المشتركة والتشريد - كل هذه الأعمال الشائنة والفظائع التي ترتكب ضد السكان لا يمكننا أن نرضى عنها بقطع النظر عمن تصدر».

وبالتأكيد فإن هذا الاسهام الوطني اللبناني في التورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦، الذي تواصل فيما بعد واتخذ أشكالاً مختلفة في النضال ضـد الحركـة الصهيـونيـة، وضـد قيـام اسرائيل، وضد اعتداءاتها وحـروبها المتكـررة على البلـدان العـربيـة، وضـد اغتصـابها لفلسطين، هو الذي شكل الأساس في مرحلة السبعينات لقيام التحالف التوري بين الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية، الذي اعتبر نموذجاً رائعاً لـوحـدة الكفـاح القـومـي التحرري ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية.

٧ معركة الاستقلال (١٩٤٣) والجلاء (١٩٤٦)

هذه الحركات جميعها قادت في العام ١٩٤٣ إلى معركة الاستقلال. وأياً كان الرأي اليوم حول هذا الاستقلال وحول الميثاق الوطني، الطائفي الطابع، الذي قام عليه هذا الاستقلال، فمما لا شك فيه أن شعبنا قد خاض معركة الاستقلال بكل طاقاته، وقادته في هذه المعركة الوطنية حركة وطنية كانت قد كدَّست في معاركها الطويلة المتعددة تجارب غنية. ولكنها كانت تعاني من طغيان الاتجاه نحو التسوية الطائفية التي سلكتها بإصرار أطراف البرجوازية، وكانت تعاني، في الوقت ذاته، من الضغط الذي كان يمارسه الوجود الاستعماري المباشر في شكل قوات فرنسية وانكليزية. وهي أمور لا بد من رؤيتها وأخذها بعين الاعتبار في مجال تقييم الامكانات التي كانت تتوفر للحركة الوطنية، والصعوبات التي كانت تحول دون التطور في صيغتها التنظيمية، وفي برنامجها، بحيث يصبح الاستقلال الذي صنعته بكفاحها، في شكله ومضمونه، أكثر تقدماً. في ذلك الحين تشكل المؤتمر الوطني من العديد من الأحزاب والتيارات والشخصيـات، ومثـل الشيـوعيين فـرج الله الحلـو وأرتين مادويان، ومثّل التيار الديموقراطي والطبقة العاملة وحركتها النقابية، كل من انطون ثابت وجورج حنا ومصطفى العريس وسعد الدين مومنة.

وقد نصَّت أهدافه السياسية على ما يلي بالنص:

« ماهيته: هيئة سياسية وطنية نشأت إبان ثورة تشرين الثاني سنة ١٩٤٣.
أهدافه: استقلال لبنان استقلالاً كاملاً ناجزاً ومقاومة كل تدخل أو نفوذ من أية دولة أجنبية كانت.

سياسته: المؤتمر يؤيد التعاون مع الدول العربية بشرط أن لا يكون في هذا التعاون أي مساس بسيادته واستقلاله. كما أنه يؤيد انشاء علاقات مع كافة الدول الديموقراطية دون أي تفريق وعلى أساس الند للنّد والمؤتمر يبحث ويعمل في كافة نواحي الاصلاح العامة السياسية والاقتصادية والعمرانية بعيداً عن الحزبية ساعياً إلى توحيد جهود الشعب اللبناني في سبيل النفع العام».

ولم يأت الاستقلال بدون نضال. لم يأت هدية سهلة من سلطات الانتداب. بل اقتضى الوصول إلى تحقيق هذا الاستقلال المليء بالالتباسات الطائفية، أن تخرج الجماهير الوطنية إلى الشارع في تظاهرات وانتفاضات شعبية وأن تصطدم بقوات الانتداب، وأن يؤدي ذلك، في حينه، إلى اعتقال حكومة الاستقلال بكاملها، وأن تنهض لاستنكار هذا الاعتقال وللدفاع عن الاستقلال في تشرين الثاني ١٩٤٣، حركة جماهيرية واسعة شملت كل لبنان.

غير أن الاستقلال لم يلغ وجود القوات الأجنبية، الفرنسية والانكليزية. إذ كان من الصعب، في حينه، والحرب العالمية في أوجها، وقوات الحلفاء في أوج تقدمهم وهجومهم ضد قوات المحور الفاشية، أن تجري المطالبة بالجلاء الفوري لهذه القوات. فكان لا بد من طرح المسألة واختيار الظرف المناسب لبدء المعركة من أجل حلها بشكل صحيح لكي يصبح الاستقلال، بمعنى التحرر من الوجود الاستعماري المباشر، استقلالاً كاملاً ناجزاً. غير أن أقساماً من البرجوازية، بما في ذلك بعض القوى التي كانت تشارك في الحكم وفي الحكومة، كانت قد بدأت تدخل في مساومات حول أشكال معينة لوجود ما للقوات الفرنسية في لبنان، حتى بعد انتهاء الحرب. فكان على الوطنيين اللبنانيين، وفي مقدمتهم الشيوعيون، أن يخوضوا معركة الجلاء، معتبرين إياها معركة الاستقلال الحقيقية. وفي ذلك الحين عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره الأول، وحوله إلى منبر لطرح مسألة الجلاء وخوض المعركة حولها بكل الأشكال وفي أوسع تحالف وطني. ونثبت فيما يلي الميثاق الوطني للحزب الذي أقر في المؤتمر المذكور:

١ ـ استقلال لبنان وسيادته وتعزيز كيانه وتحرره الوطني الكامل.

٢ ـ نظام جمهوري ديموقراطي صحيح.

٣ ـ توثيق صلات التضامن الأخوي بين لبنان وسوريا وبقية الأقطار العربية وتوطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بينه وبينها.

٤ ـ المساواة بين جميع اللبنانيين على اختلاف أديانهم وعناصرهم وتمتين

روابط الاخاء والتضامن بينهم.

٥ ـ بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الأجنبية.

٦ ـ تأمين الحريات الديموقراطية العامة والفردية وفي مقدمتها حرية التعبير والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والأحزاب والنقابات، وحرية العبادة واحترام عقائد الناس الدينية.

٧ ـ تنظيم شؤون الإدارة والقضاء بروح ديموقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع.

٨ ـ تربية النشء تربية وطنية والعناية بالشباب وتشجيع الرياضة البدنية وتعميمها ونشر الثقافة في البلاد واحياء التراث الفكري القومي.

٩ ـ تعزيز مكانة رجال الفكر والعلم والفن وحماية الأساتذة والمعلمين.

١٠ ـ تعميم المدارس الرسمية في المدن والقرى وتوحيد برامج التعليم بروح وطنية ديموقراطية، وجعل التعليم الابتدائي مجانياً اجبارياً.

١١ ـ العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجاناً للمواطنين المعوزين.

١٢ ـ حماية العائلة اللبنانية من أخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الأم والطفل.

١٣ ـ رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيع الاصطياف وتحسين المواصلات.

١٤ ـ حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم.

١٥ ـ معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب.

١٦ ـ حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوي العلاقات بينهم وبين أصحاب العمل على أساس العدل والمصلحة الوطنية.

١٧ ـ العناية بحالة الفلاح اللبناني وتحريره من البؤس والجهل والتأخر.

١٨ ـ رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة.

١٩ ـ توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام.

ولا شك أن الانتصار الذي حققه الاتحاد السوفياتي، مع الحلفاء، في القضاء على الهتلرية، قد فتح آفاقاً رحبة أمام الشعوب في نضالها من أجل الانعتاق والتحرر من كل أشكال العبودية والتبعية والسيطرة الاستعمارية عليها. لقد انتهت الحرب بتحول الاتحاد السوفياتي إلى قوة عظمى، من جهة، وبقيام منظومة اشتراكية عالمية، وبنشوء وضع عالمي جديد. هذا التطور أدى إلى قيام حركات عديدة في البلدان المستعمرة والتابعة، وإلى ثورات وطنية، استناداً إلى هذا الانجاز العظيم الذي تحقق. ولم يكد يمضي وقت قصير حتى انهار النظام الكولونيالي العالمي وتفككت الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى، وبرزت إلى الوجود بالعشرات دول جديدة مستقلة، دخلت تباعاً إلى أسرة الدول المتحررة، في الأمم المتحدة، وفرضت بقيامها، وبدعم الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية لها، علاقات دولية من نوع جديد. ويذكر اللبنانيون بامتنان كبير الدور الأساسي الذي لعبه الاتحاد السوفياتي في مجلس الأمن عام ١٩٤٦ في دعم قضيتنا الوطنية التي كان يحملها إلى الهيئة الدولية وفد رسمي برئاسة حميد فرنجية وعضوية رياض الصلح، يرافقهما نقولا شاوي رئيس تحرير «صوت الشعب». وفي ذلك الحين، وفي الدفاع عن قضية استقلال لبنان، وجلاء القوات الأجنبية عنه، استخدم الاتحاد السوفياتي، ولأول مرة، حق الفيتو. وعندما عاد الوفد منتصراً، وعاد نقولا شاوي، نظم الحزب الشيوعي استقبالاً لشاوي في طرابلس ضم عشرات الألوف. وقد أدى هذا الانتصار الكبير إلى المزيد من تطوير الحركة الوطنية وفتح أمامها آفاقاً جديدة. ولكن سرعان ما عادت الدوائر الامبريالية إلى النشاط لتستعيد المواقع التي فقدتها. فأثارت الحرب الباردة وزرعت القواعد في كل مكان، وحاولت أن تفرض أحلافها العدوانية ومشاريعها على الشعوب ومنها شعبنا اللبناني، وخلقت، عن طريق قيام دولة إسرائيل، مشكلة كبيرة صعبة معقدة للنضال الوطني الثوري للشعوب العربية.

٨ بيروت مركز للحركة الوطنية العربية

كانت بيروت في الخمسينات، بشكل خاص، عاصمة كل العرب، مثلما كان لبنان، دائماً في مدنه الرئيسية، طرابلس وصيدا وبعلبك، مركزاً أساسياً لانطلاق الحركات الوطنية العربية للدفاع عنها والتضامن معها. في ذلك الحين كانت تنتشر في كل أرجاء

الوطني العربي، في مشرقه ومغربه، حركات وطنية متعددة، من أجل الاستقلال، وضد الأحلاف والقواعد الأجنبية، وفي التصدي لعدوان أجنبي كان يهددها أو كانت تتعرض له. وكان في مقدمة هذه الحركات حركة الدفاع عن القضية الفلسطينية. وفي مصر كانت حرب القنال (١٩٥١) التي أطلقتها القوى الوطنية ضد القواعد البريطانية التي كانت تقيم قاعدة عسكرية لها هناك، واحدة من أبرز هذه الحركات. وقد شاركت فيها جماهير الشعب المصري بشجاعة نادرة. ويومها توقف العمال المصريون، وكانوا يعدون بعشرات الألوف، عن العمل وتركوا القنال، كأحد أشكال المساهمة في المعركة، بالإضافة إلى انخراط أعداد كبيرة منهم في المقاومة. كانت الحرب حرب أنصار، حرب مقاومة، بالسلاح، وبالعمل السياسي، بأشكاله كافة. وكان الشعب المصري كله مجنداً فيها وحولها. وقد أسهمت هذه المقاومة الوطنية المسلحة في انضاج ظروف التغيير التي استند إليها وإلى ردة الفعل الوطنية على خيانة الأنظمة الرجعية في القضية الفلسطينية، الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر في اعلان ثورتهم الوطنية التحررية، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وكانت تنهض حركة وطنية جديدة في السودان لعب الحزب الشيوعي دوراً أساسياً فيها. وقامت حركة مماثلة في الاردن. وفي سوريا أسقطت الحركة الوطنية والشعبية دكتاتورية الشيشكلي.

وكان المغرب العربي يغلي بالحركات الاستقلالية، تونس والمغرب وليبيا، والجزائر. وجرت في هذه الحركات مواجهات عنيفة ضد السلطات الاستعمارية انتهت، لاحقاً، بالحصول على الاستقلال. غير أن ثورة الجزائر كانت أكبر هذه المواجهات وأعنفها، لأن السلطات الاستعمارية كانت ترفض من حيث المبدأ الاقرار للشعب الجزائري بحقه في الحرية والاستقلال. وكانت تجري في العراق انتفاضات شعبية ضد المعاهدات القديمة والجديدة، أبرزها انتفاضة ١٩٤٨ الموجهة ضد معاهدة بورتسماوث. وكانت الحركة الوطنية في اليمن الجنوبي في بداية انطلاقتها التي ظلت تتطور في صعود إلى أن حققت أول انجاز من نوعه في الحركة الوطنية التورية العربية، بإقامة سلطة للعمال والفلاحين تتجسد في جمهورية اليمن الديموقراطية . وكانت منطقة الخليج (البحرين) والجزيرة العربية (السعودية) تشهد حركة وطنية وعمالية ناهضة.

في هذه الأجواء، وفي ظل هذا التطور الذي كانت تشهده الحركات الوطنية التحررية في البلدان العربية، تحولت بيروت، ولبنان كله إلى مركز للتضامن ورفع الصوت، دفاعاً عن هذه القضايا الوطنية، ورفع راية الوحدة الكفاحية بين كل هذه الحركات، في النضال من أجل التحرر والوحدة القومية ومن أجل التقدم.

وقد كانت تسود في تلك الفترة التيارات الرئيسية التالية في الحركة الوطنية اللبنانية والعربية: التيار الشيوعي وتيار حركة القوميين العرب والتيار البعثي الذي كان قد تأسس حديثاً. وفي أواسط الخمسينات أصبح التيار الناصري أكثر هذه التيارات قوة وتأثيراً، وأكثرها قدرة على تحريك الجماهير وتعبئتها في المعارك الكبرى. وكانت، في الوقت ذاته، تتحول سوريا، بعد اسقاط حكم الشيشكلي، وقيام نظام وطني بقيادة البرجوازية المعادية للاستعمار، إلى قلعة للحركة الوطنية، والديموقراطية العربية، وتصبح هدفاً للمؤامرات الامبريالية.

ولا جدال في أن الثورتين المصرية والجزائرية قد لعبتا دوراً أساسياً في تطوير المعارك الوطنية في كل البلدان العربية، وخلقتا نهوضاً وطنياً واسعاً شاركت فيه الجماهير العربية بأشكال نادرة المثال. إذ لم يسبق أن انخرطت الجماهير بهذا الاتساع وهذا الحزم والاصرار في النضال ضد الامبريالية، بشعارات كانت تزداد تقدماً وتجذراً في مضمونها. وقمة هذا التحول برزت في ردة الفعل الوطنية العربية على العدوان الثلاثي الانكليزي - الفرنسي - الاسرائيلي ضد مصر عام ١٩٥٦، إثر القرار التاريخي الذي اتخذه الرئيس عبد الناصر بتأميم قناة السويس. فقد تحولت البلدان العربية كلها إلى ساحة قتال، بأشكال مختلفة، ضد هذا العدوان، وساحة تضامن كفاحي مع شعب مصر وثورته. وكانت بيروت واحدة من أبرز طلائع هذه الحركة الجماهيرية. بل إنها أصبحت، في ظروف العدوان، مركزاً لمثقفي مصر الوطنيين، ولصحافة مصر الوطنية، ولكل أشكال الدعم للثورة. ويومها أصبحت بور سعيد المدينة البطلة المقاومة المستعصية على الغازين، نموذجاً في المدن الوطنية العربية شبهتها الجماهير بستالينغراد التي قاومت الغزو الهتلري خلال الحرب العالمية الثانية، وصمدت في الحصار وانتصرت. وفي الوقت ذاته كانت الانتصارات التي تحققها الثورة الجزائرية مثار اعجاب الوطنيين. فكانت تتشكل لجان التضامن، وكانت تنظم التظاهرات تضامناً مع الثورة.

ومع ذلك فقد ظلّت القضية الفلسطينية تحتل الموقع الأساسي. وكان ذلك أمراً طبيعياً. وبتأثير من الثورة المصرية التي أعلن عبد الناصر أن هدفاً أساسياً من أهدافها هو تحرير فلسطين، نمت وتطورت أشكال النضال حولها واستقطبت العديد من القوى والحركات.

إلا أن بيروت ولبنان كانا أوسع وأرحب في موقفهما المبدئي هذا من حركات التحرر الوطني. فقد شهدت تلك الفترة نمواً عاصفاً في الحركات الوطنية وفي الثورات التحررية في العديد من البلدان، في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. ولذلك فقد كان طبيعياً أن تحظى هذه الحركات بأشكال واسعة من التضامن، من الوطنيين اللبنانيين، انطلاقاً من وحدة

الكفاح التحرري على الصعيد العالمي في وجه العدو المشترك، الامبريالية. تظاهرات عديدة نظمت واصطدمت بقوى السلطة، تضامناً مع الثورة الفيتنامية، والثورة الكوبية، وثورة لومومبا في الكونغو، واستنكاراً للتدخل الأميركي، تحت لواء الأمم المتحدة، ضد الشعب الكوري.

ولا بد أن نشير الى الحركة التي اتخذت شكلا جماهيرياً في ذلك الحين، أي في الخمسينات، حركة الدفاع عن السلم والتوقيع على النداءات المطالبة بتحريم السلاح النووي ووقف السباق على التسلح.

وفي خضم هذا التطور بأشكاله كافة، في الحركة الوطنية اللبنانية، وفي الحركة الوطنية العربية، كانت تتوضح أكثر فأكثر الأشكال التنظيمية للتحالف الوطني للعمل الجبهوي. وكان الشيوعيون أكثر القوى الوطنية وعياً لأهمية وضرورة هذا العمل. وتميزوا بمبادرات خلاقة في هذا المجال. وقد نجحت المحاولات العديدة التي قاموا بها، جزئياً أو كلياً، في تشكيل نماذج مختلفة من العمل الوطني المشترك، حول مواضيع محددة، كانت تعيش لفترة قصيرة، أحياناً، وكانت تتطور، أحياناً، ويتسع نطاقها. أبرز نموذجين لهذا النوع من العمل الجبهوي المؤتمر الوطني الذي تشكل في عام ١٩٥٤ وكان أمينه العام المحامي الديموقراطي والشخصية الوطنية البارزة، حبيب ربيز، ثم جبهة الاتحاد الوطني التي تشكلت عام ١٩٥٧ ضد مبدأ ايزنهاور. وكانت تطويراً للمؤتمر الوطني. وكان من أركانها كمال جنبلاط ورشيد كرامي وجورج حنا وانطون تابت وحبيب ربيز ومعروف سعد وصائب سلام والعديد من الشخصيات الممثلة لتيارات سياسية ووطنية في اتجاهها العام، معادية للمشاريع الاستعمارية.

بيروت كانت في الخمسينات، وفي الستينات، وفي السبعينات، مثلما هي اليوم، مركزاً للحركة الوطنية العربية، وساحة من ساحات صراعها الدائم، المتعدد الأشكال، مع الامبريالية والصهيونية والرجعية، وضد مشاريعها وخططها ومؤامراتها.

٩ ثورة ١٩٥٨ والمعارك الوطنية ضد الأحلاف الاستعمارية

لم يكن الاستقلال الذي حققه الشعب اللبناني عام ١٩٤٣ وجلاء القوات الأجنبية عنه

عام ١٩٤٦ نهاية المطاف في مواجهة أشكال السيطرة الامبريالية المتعددة الجوانب. فقد كان لبنان، مثل جميع البلدان العربية، هدفاً لمحاولات متكررة من أجل اخضاعه واعادة السيطرة الاستعمارية عليه، عن طريق إدخاله في أحلاف ومشاريع كان يقف وراءها جميعها وينظمها المستعمرون الأميركيون والانكليز والفرنسيون. فمن مشروع سوريا الكبرى والهلال الخصيب في النصف الثاني من الأربعينيات، إلى البيان الثلاثي الأميركي ـ البريطاني ـ الفرنسي ـ عام ١٩٥٠، إلى مشروع الدفاع المشترك، أو قيادة الشرق الأوسط، عام ١٩٥٢، إلى الحلف التركي ـ الباكستاني عام ١٩٥٣، إلى حلف بغداد عام ١٩٥٤، إلى مبدأ ايزنهاور عام ١٩٥٧، إلى الحلف الاسلامي عام ١٩٦٥، كلها مشاريع وأحلاف امبريالية كانت تستهدف اخضاع البلدان العربية واعادة السيطرة عليها والتحكم بمصيرها وبتطورها. ولذلك فقد اعتبرت الحركة الوطنية اللبنانية والعربية أن مهمة اسقاط هذه المشاريع والأحلاف لم تكن تنحصر في الدفاع عن الاستقلال لهذه البلدان بل كانت تشكل في ذلك الحين نضالاً من أجل اعادة بناء الاستقلال، على أسس جديدة وترسيخه وتثبيت دعائمه. وقد كان لبنان من أهم المراكز، إذا لم يكن أهمها، التي تميزت بحركات جماهيرية واسعة نظمت ضد هذه المشاريع والأحلاف.

وقد كان الحزب الشيوعي اللبناني في طليعة القوى التي دعت إلى خوض هذه المعركة بكل موجباتها، بما في ذلك إقامة أوسع تحالفات، وعقد مؤتمرات وطنية وتنظيم تظاهرات وخلق حركة جماهيرية واسعة. وكاد الشيوعيون في فترات معينة ينفردون بقيادة هذه الحركة وبتنظيم التظاهرات ضد هذه الأحلاف والمشاريع، وضد زيارات مبعوثي الامبريالية إلى بلادنا. وكانت هذه التظاهرات تواجه، أحياناً، من قبل السلطة بالقمع الوحشي وبالشراسة. وقد سقط في هذه التظاهرات عدد من الشهداء نذكر منهم المناضلين الشيوعيين أنور العشي وسليمان علي الشريف وجورج عزّو ونذكر إسم المناضل حسان أبو اسماعيل من الحزب التقدمي الاشتراكي.

إلا أن المعركة ضد مبدأ ايزنهاور، التي بدأت، مع بداية عام ١٩٥٧، بانتفاضة شعبية ووطنية واسعة شاركت فيها كل القوى، بما في ذلك أقسام عليا من البرجوازية، قمعها حكم شمعون بشراسة، سرعان ما تحولت في مطلع عام ١٩٥٨، بعد مقتل الصحافي الوطني نسيب المتني، إلى ثورة موجهة، في آن واحد، لإسقاط مبدأ ايزنهاور واسقاط حكم شمعون. وقد كانت سوريا في ذلك الحين، بعد قيام الوحدة السورية ـ المصرية، مركز الحركة القومية العربية الناصرية المعادية للامبريالية، وكانت الوحدة في أوج انطلاقها محط

آمال وأحلام الجماهير ومصدر الهام لها في النضال.

لقد شملت ثورة ١٩٥٨ كل المناطق اللبنانية حيث حمل الشيوعيون إلى جانب سائر القوى الوطنية، وتحت لواء جبهة الاتحاد الوطني التي كانت شكلاً لتحالف أوسع مما كان عليه المؤتمر الوطني (١٩٥٤)، فضمت قوى وشخصيات من كل الأوساط، من الطبقة العاملة إلى فئات عليا من البرجوازية، ومن كل الطوائف، ونظمت، من أجل استمرار الثورة والنجاح فيها، حركة مسلحة تطوع في صفوفها المئات من المقاتلين، في الشمال والبقاع والشوف والمتن وبيروت والجنوب، في المدن والقرى. وجرت مواجهات عسكرية عديدة. وعندما عجز حكم شمعون عن قمع هذه الثورة استنجد بأسياده الاميركيين مستفيداً من الهلع الذي أصابهم من جراء قيام ثورة ١٤ تموز في العراق التي أسقطت حلف بغداد، طالباً منهم تدخلاً عسكرياً يحمي به حكمه من جهة، ويشكل، بوجود هذه القوات الاميركية في لبنان، حاجزاً أمام امتداد تأثير ثورة ١٤ تموز على لبنان والمنطقة. فكان الانزال الاميركي المشؤوم في أواسط عام ١٩٥٨ في لبنان. وكان لا بد لشعبنا أن يقاومه ويتصدى له، بكل إمكاناته، ويمنعه من اجهاض الثورة، في لبنان وفي العراق. ورغم أن الانزال أحدث هلعاً عند بعض الأوساط في جبهة الاتحاد فإن الحزب الشيوعي وأوساطاً وطنية أخرى عملوا على تعبئة الجماهير، والمقاتلين منهم بالأخص، من أجل مقاومة هذا التدخل الأميركي الفظ واحباط أهدافه. وقد وجه الحزب الشيوعي نداءً يدعو فيه إلى التصدى لقوات المارينز بكل الوسائل.

فيما يلي النص الحرفي لهذا النداء:

« أيها المواطنون، يا أبناء شعبنا البطل، لقد استباح المستعمرون وطننا الغالي، لقد اجتاحت قوات الاستعمار الأميركي، برابرة القرن العشرين، أراضي لبنان الحبيب لتعيث فيها فساداً وتعيد اليه حكم الاحتلال البغيض وتكبله بقيود العبودية الاستعمارية.

لقد حشد الغزاة الاميركيون الوحوش أساطيلهم وطائراتهم ونزلوا بجحافلهم إلى سواحل هذا البلد المسالم للقضاء على انتفاضة شعبنا المقدسة وتمزيق استقلاله ودعم حكم الخيانة، حكم العملاء، حكم شمعون والصلح ومالك الذين استذلوا الشعب وأراقوا دماءه أنهاراً مع أعوانهم المارقين (...) لكي يجعلوا من لبنان عبداً للاستعمار وقاعدة للتآمر والعدوان على أشقائه العرب في شتى ديارهم.

يا أبناء لبنان البواسل.

إن قلوبكم تنتفض اليوم حقداً ونقمة ضد الغزاة الذين دنسوا أرض وطننا، أرض الآباء والأجداد التي سقيناها بدماء ألوف الشهداء لننعم فيها بالاستقلال والحرية ونعيش في ربوعها حياة العزة والكرامة.

فلنتكاتف اليوم جميعاً على اختلاف الاتجاهات والطوائف والطبقات وأياً كانت النظرة لهذه القضية أو تلك من قضايانا اللبنانية الداخلية.

فلنتكاتف ونزيد من وحدة صفوفنا الوطنية لطرد العدو الدخيل وسحق عدوانه واستئصال شأفة طابوره الخامس المأجور. إن مصلحة الوطن العليا، مصلحة لبنان وكيانه ومصيره، تحتم ذلك.

إلى السلاح والقتال، رجالاً وشباباً، نساء وأطفالاً، في كل بقعة من بقاع وطننا الحبيب الغالي لاجلاء الغاصبين عن ديارنا.

حاربوا الغزاة الطامعين بكل سلاح لديكم، اقتلوهم حيثما وجدتموهم، اقتلوهم برصاص بنادقكم، برصاص رشاشاتكم، برصاص مسدساتكم، صوّبوا اليهم قنابلكم، هاجموهم بكل ما تقع عليه أيديكم، مزقوهم بأسنانكم، اجعلوا حياتهم جحيماً فوق أرضنا الحرة ليرحلوا عنها مدحورين خائبين!

يا أبناء شعبنا البطل،

إن عدوان المستعمرين على لبنان هو عدوان سافر على كل العالم العربي. فالأميركيون الذين احتلوا لبنان، والبريطانيون الذين احتلوا الاردن، والفرنسيون الذين استعجلوا بإرسال قطع من اسطولهم إلى بيروت، إنما يهدفون إلى الاعتداء، في المرحلة الثانية على الشعب العراقي الشقيق الذي ثار منذ أيام على حكم نوري السعيد وحلف بغداد وكنس النظام الملكي وأقام الجمهورية في بلده، كما يهدفون أيضاً إلى الاعتداء على الاقليم السوري من الجمهورية العربية المتحدة، والثأر لهزيمتهم المنكرة إثر عدوانهم الغادر على مصر.

ولكن خابت حساباتهم. فما كادوا يشرعون في مغامرتهم ضد لبنان، حتى انتصبت جميع شعوب العالم وجميع قوى الحرية في الدنيا وفي نفس بلدانهم تصرخ في وجوههم، ارفعوا أيديكم عن لبنان! ارفعوا أيديكم عن شعوب العالم العربي!

أيها اللبنانيون!

إن العالم بأسره ينظر اليوم إلينا. إن ثمة خطر حرب جديدة تهدد العالم من جراء عدوان الاستعمار الأميركي البريطاني على لبنان والاردن.

إن المستعمرين في عزلة. انهم يقفون في قفص الاتهام في مجلس الأمن الدولي وأمام الرأي العام العالمي. إن قوى الخير والحرية في كل بقاع الأرض تقف إلى جانب الشعب اللبناني والشعوب العربية، وتنصرنا في نضالنا الحق دفاعاً عن استقلالنا وكرامتنا وحرمة أراضينا. وفي رأسها شعوب الاتحاد السوفياتي التي يدافع مندوبه في مجلس الأمن دفاع الأبطال عن استقلال لبنان وسيادته ويفضح أغراض المستعمرين القذرة ومطامع احتكاراتهم البترولية الجشعة في دنيا العرب.

أيها المواطنون الاباة،

إن النصر لنا في النهاية لا محالة، والخزي والعار للاستعمار الأميركي وأعوانه!

إن شعبنا البطل سيتغلب على مؤامرات المستعمرين وخيانات شمعون وطغمته، كما تغلب شعب العراق البطل على مكائد نوري السعيد وخياناته!

لنجعل من أرض لبنان وربوعه الثائرة التي تغلي اليوم كالبركان مقبرة للغزاة الأميركيين!

إلى النضال، إلى القتال، بكل ما ملكت أيدينا، مع جميع أشقائنا العرب وجميع قوى السلام والخير في الدنيا، لإزالة كابوس الاحتلال الاستعماري الأميركي عن ديارنا الحبيبة!

عاش لبنان العربي سيداً حراً مستقلاً عزيزاً!

عاش نضال الشعب اللبناني ضد الاحتلال الأميركي، في سبيل الاستقلال والحرية والسلم، في سبيل العزّة والكرامة!

وتلبية لهذا النداء نفذ الشيوعيون بعض العمليات الجريئة ضد قوات المارينز هذه. ولكن المقاومة لم تكن بالمستوى المطلوب، بمستوى المهمة المطروحة. إذ فرضت الفئات العليا من البرجوازية، من موقعها في قيادة الجبهة، مواجة من نوع معيّن، ورضخت كل القوى لذلك. وفي خلال فترة زمنية قصيرة، ولأسباب عديدة، انسحبت قوات الاحتلال. وبانسحابها انتهت ثورة ١٩٥٨ باتفاق مساومة بين أطراف البورجوازية كان الأساس فيه

عدم المس بجوهر النظام، ولكن بتحقيق مكسب وطني هو إنهاء حكم شمعون واسقاط مبدأ ايزنهاور.

إلا أن الحرب ضد الاحلاف استمرت، لأن المؤامرات الامبريالية الصهيونية تواصلت، واتخذت، في تواصلها، أشكالاً جديدة. وكان العدوان الاسرائيلي المباشر، وحروب اسرائيل ضد البلدان العربية، ومحاولات ضرب الحركة الوطنية الثورية العربية وقمع أهدافها في تحقيق التحرر الوطني والوحدة القومية والتقدم الاجتماعي، أبرز أشكال هذه المؤامرات. وشكلت حرب حزيران قمة هذه الحروب وأعمال العدوان بما نتج عنها من هزيمة واحتلال أراضٍ عربية جديدة، وتراجع في الحركة الوطنية الثورية العربية. غير أننا لا نستطيع إلاّ أن نشير، في هذا السياق من الحرب التي كانت تتسع وتتعمق وتزداد عنفاً وشراسة، إلى «الحلف الاسلامي» الذي تقدمت به الرجعية كردّ على النهوض والتقدم والتجذر في الحركة الناصرية، والذي أسقطته الحركة الوطنية العربية، بدور خاص لعبد الناصر وللتورة الناصرية والفكر الناصري.

١٠ مرحلة المواجهات الكبرى مع اسرائيل بعد قيام الثورة الفلسطينية الثانية

عشية الاعلان عن قيام اسرائيل (١٩٤٨) وتنظيم حرب التدخل العربية التي قادتها البرجوازية، من ضمن خطة امبريالية لتثبيت دولة اسرائيل ومنع قيام دولة عربية، اجتاحت العصابات الصهيونية المسلحة حدود لبنان الجنوبية، ووصلت إلى مجرى الليطاني، مكتسحة، في طريقها، العديد من القرى والمزارع، ونظمت مجزرة جماعية في بلدة حولا، في الشريط الحدودي، سقط فيها سبعون شهيداً.

لم يكن موقف اللبنانيين جميعاً، والجنوبيين منهم بشكل خاص، من هذا الهجوم الصهيوني موقفاً محايداً. بل إن العديد من الشبان انخرطوا، آنذاك، في جيش الانقاذ، وشاركوا ببسالة في أكثر من معركة، وسقط منهم العديد من الشهداء والعديد من الجرحى.
(من محاضرة لحبيب صادق بعنوان: حول المقاومة الوطنية في جنوب لبنان).

وقد ظل يتطور هذا الاسهام الوطني اللبناني في المعركة القومية، وفي مناهضة الحركة

الصهيونية، وفي التصدي للعدوان الاسرائيلي، إلى أن بلغ، في أواخر الستينات وأوائل السبعينات، ومع انطلاقة الثورة الفلسطينية الثانية (١٩٦٥) منعطفاً جديداً. وأبرز ما تميز به هذا الانعطاف هو الالتفاف الجماهيري، بشكل عام، والشباب منهم بشكل خاص، حول العمل الفدائي الفلسطيني. انخرط في صفوف هذا العمل العديدون، ليس فقط في لجان دعم الثورة داخل لبنان، بل، كذلك، في العمليات التي كانت تجري داخل الأراضي المحتلة. وقد كان أول شكل لبناني للتعبير عن المرحلة الجديدة وعن هذا الانعطاف في الكفاح الوطني اللبناني ضد العدوان الاسرائيلي والارتقاء بهذا الكفاح إلى مستوى التصدي المسلّح، اعلان الحزب الشيوعي اللبناني (منظمة الجنوب) انشاء «الحرس الشعبي» الذي حددت مهمته بالدفاع بالسلاح عن الأرض، بشكل منفرد، أو بشكل مشترك، مع الفدائيين الفلسطينيين ضد أي عدوان اسرائيلي. وقد تشكل الحرس الشعبي في ٦ كانون الثاني ١٩٧٠. وسبقت الاعلان عن قيام الحرس الشعبي وترافقت معه حركة اعداد واسعة للشيوعيين في معسكرات تدريب داخل لبنان وخارجه، وبالتعاون مع المنظمات الفلسطينية، ومع الأشقاء السوريين، من أجل التمكن من مقاومة أي عدوان اسرائيلي، بما في ذلك إمكانية خلق مقاومة مسلحة في حال قيام اسرائيل باحتلال أرضنا.

وفي ما يلي نص البيان الذي أعلن قيام **«الحرس الشعبي»**.

«أيها المواطنون في القرى الأمامية،
يا أبناء الجنوب كافة،
أيها المواطنون في كل المناطق اللبنانية،

الاعتداء الاسرائيلي الغادر الذي تعرضت له منذ أيام قرية كفركلا، واختطفت فيه القوات المعتدية عدداً من المواطنين، هو تتمة طبيعية للاعتداءات الصهيونية المتكررة التي تعرضت لها وتتعرض منطقة العرقوب وحاصبيا والخيام وإبل السقي وبنت جبيل وقرى عيترون وميس الجبل وحولا وراشيا وسواها من قرى الحدود. وهي تستهدف، منذ أن بدأت، ضرب الصمود لدى أبناء هذه القرى وإجبارهم على النزوح من أرضهم والتخلي عنها تمهيداً لتحقيق المطامع التوسعية لاسرائيل في أرضنا وفي جزء عزيز من وطننا. وقد أكدت ذلك على الدوام بيانات وتصريحات زعماء الصهيونية في اسرائيل وفي خارجها.

وإذا كانت قد اشتدت هذه الاعتداءات واتسعت في الآونة الأخيرة

فلأنها جاءت لتخدم أهداف الرجعية الداخلية ومخططها مسهلاً لها ذلك تقاعس الدولة عن القيام بأبسط مستلزمات الدفاع عن الوطن والمواطنين، والهدف الرئيسي للرجعية الآن، بعد اتفاق القاهرة، هو من جهة، عرقلة تطبيق هذا الاتفاق، وضرب العمل الفدائي، ومن جهة ثانية، العمل بكل الوسائل، لمنع لبنان من القيام بالتزاماته في المعركة العربية المشتركة.

إن كل مواطن يتساءل الآن، كما كان يتساءل دائماً، إزاء هذه الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على قرانا والمطامع الصهيونية التي لا تخفى، في قسم من أرضنا، ما الذي فعلته الدولة وما الذي تنوي أن تفعله! إلا أنه سرعان ما يجد الجواب على الحدود، في تخاذل الدولة وتقاعسها عن القيام بواجب الدفاع عن الأرض والحدود والوطن والمواطنين، ومن اتخاذ أي تدبير ملموس باتجاه تحصين المنطقة الأمامية وتدريب سكانها وتسليحهم، ورفع القدرة الدفاعية للبلاد لتكون في مستوى المواجهة مع العدو، ولتستطيع صد اعتداءاته. ويجد الجواب كذلك في تنكيل الدولة بالقرى التي تصمد وبالمواطنين الذين يحملون السلاح دفاعاً عن أرضهم، كما حصل في قرية كفركلا. إن المواطنين في القرى الأمامية، وفي الجنوب عامة، إزاء هذا الواقع المرير، يحملون الدولة مسؤولية النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة التخاذل والاستسلام التي تسلكها. فإن هذه السياسة لا تقود فقط إلى المزيد من الاعتداءات، وإلى المزيد من الضحايا والخسائر، وإلى المزيد من نزوح مواطني القرى الأمامية مع ما يحمل ذلك من مشاكل اقتصادية واجتماعية كبيرة، بل هي تقود إلى تسليم العدو جزءًا من الأرض التي يتمسك بها أصحابها ويتمسك بها كل المواطنين، تمسكاً بجزء من الوطن، وحفاظاً على السيادة والاستقلال الحقيقيين.

إن المعارك التي خاضها ويخوضها أبناء القرى الأمامية في وجه الاعتداءات الاسرائيلية هي معارك دفاع عن الوطن. والشهداء الذين سقطوا ويسقطون فيها هم شهداء الدفاع عن الوطن.

أيها المواطنون في الجنوب،

أيها المواطنون في كل لبنان،

إن منظمة الحزب الشيوعي في منطقة الجنوب التي كان لها شرف النضال

باستمرار في سبيل التحصين والتدريب والتسليح والتجنيد الاجباري، والدفاع عن مطالب أبناء الجنوب الاقتصادية والاجتماعية، التي تمكنهم من الصمود، إدراكاً منها لاتساع الاعتداءات الاسرائيلية وتكررها، ووعياً منها لخطورة تقاعس الدولة وغيابها، وانطلاقاً من المبادىء الأساسية التي يستند إليها الشيوعيون في التمسك بالأرض والدفاع عن الاستقلال والمساهمة في المعركة العربية المشتركة ضد الصهيونية والاستعمار، وفي مساندة ودعم العمل الفدائي، قد رأت من واجبها أن تدعو الشيوعيين في القرى الأمامية وفي كل منطقة الجنوب، للمشاركة في حراسة قراهم بالسلاح، وفي تنظيم لجان الحرس الشعبي دفاعاً عن القرى والأراضي والمواطنين، الذين هم جميعاً هدف الاعتداءات الاسرائيلية المستمرة. وإذا كانت منظمتنا قد قدمت في الأسابيع الماضية شهيدين من مناضليها الشيوعيين، أحدهما ابراهيم جابر، وهو يقوم بواجب الكفاح في الأراضي المحتلة، والثاني علي سويد وهو يقوم بواجبه خلال العدوان الاسرائيلي الغاشم، الذي تعرضت له بلدة الخيام، فهي ترى أن هذا هو شرف تعتز به، ومناضلوها، الذين يستوحون في كفاحهم مبادىء حزبهم الشيوعي، سيسترخصون الحياة في هذه المهمة الوطنية الكبيرة المقدسة.

وإن منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب لتعتبر أن المساهمة في حراسة القرى الأمامية بالتعاون مع منظمات المقاومة الفلسطينية ضد الاعتداءات الاسرائيلية الغادرة، هي مهمة جميع القوى الوطنية والتقدمية، ليس في الجنوب وحسب، بل في كل لبنان. لأن الدفاع عن الحدود ولا سيما عندما تغيب الدولة وتتقاعس وتتنكر لواجباتها، يصبح مهمة كل الوطنيين في كل منطقة وفي كل ناحية من البلاد. وهي لذلك تتوجه إلى كل المواطنين في الجنوب وفي سائر المناطق اللبنانية، للمشاركة بشرياً ومادياً في هذا العمل الوطني الكبير، مع الاستمرار في النضال لتحصين مناطق الحدود، والعمل للدفاع عن المطالب الاقتصادية والاجتماعية لأبناء الجنوب الصامدين منهم في القرى، والذين يضطرون للنزوح. وهي ترى أن المعركة الراهنة، معركة الصمود والدفاع عن حدود البلاد والمشاركة في المعركة ضد العدو الاستعماري الصهيوني، تتطلب أكثر من أي وقت مضى اتحاداً متيناً وصلباً بين القوى الوطنية والتقدمية وتلاحماً بين هذه القوى وبين حركة المقاومة

الفلسطينية. وستبذل منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب، كل ما تستطيع في ضوء الخط العام للحزب الشيوعي الذي تنتمي إليه، لتحقيق هذه الوحدة وهذا التلاحم بين الحركة الوطنية اللبنانية والحركة الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، في المعركة المشتركة لصد العدوان الغادر على حدودنا، ومن أجل انتصار القضية العادلة للشعب العربي الفلسطيني.

أهمية إنشاء «**الحرس الشعبي**»، هو أنه شكّل تطوّراً نوعياً في تصدي الحركة الوطنية اللبنانية للعدوان الاسرائيلي، في وقت كانت فيه الثورة الفلسطينية تتعاظم شأناً وقوّةً وينتشر تأثيرها، في لبنان وفي الوطن العربي، وتصبح، في نظر الجماهير العربية، الأمل المنشود في تغيير شكل وطبيعة المواجهة الوطنية لاسرائيل ولعدوانها المتواصل ولاحتلالها للأرض العربية ولاغتصابها لفلسطين، تغيير يمكن أن يشكل أساساً لاستعادة الأرض المحتلة والمغتصبة وتحقيق مطامح هذه الجماهير العربية في التحرر الوطني والوحدة القومية والتقدم الإجتماعي. فقد كانت هذه الجماهير تعاني من الهزائم العربية المتكررة، وكانت تصاب بالخيبات الواحدة تلو الأخرى، مما جعلها ترى في الكفاح المسلح الذي أعلنته الثورة الفلسطينية شكلاً أساسياً للنضال الوطني التحرري المعاصر.

وأهمية «الحرس الشعبي»، ايضاً، تكمن في أن الحركة الوطنية اللبنانية التي كانت في ذلك الحين تعمّق تحالفها مع الثورة الفلسطينية، كانت تنتقل، هي الأخرى، في شكل تصديها لتحقيق المهمات المطروحة، إلى الكفاح المسلّح. وأهميته أيضاً تكمن في أنه أعطى الحركة الوطنية اللبنانية، في هذه المرحلة الجديدة المعقدة، استقلاليتها، في إطار التحالف مع الثورة الفلسطينية، انطلاقاً من أن القضية الوطنية اللبنانية، برغم كل ما يربطها من علاقات عميقة مع القضية الفلسطينية، تملك خصوصيات لا يمكن اغفالها ولا يجوز، وتواجه مهمات وطنية لبنانية معقدة، لا يمكن تجاهلها ولا يجوز، مثلما لا يمكن وضع قضية وطنية ما، في أي بلد عربي، في موضع التبعية لقضية وطنية أخرى حتى ولو كانت هذه القضية بمستوى القضية الفلسطينية التي تعتبر، بحق، القضية المحورية في النضال الوطني التحرري العربي. وهي مسألة رأى الحزب الشيوعي اللبناني من الضروري أن يتصدى بجرأة لتوضيحها، منذ البدء، في وجه أفكار ونظريات خاطئة حملتها معها إلى لبنان بعض التيارات والفصائل في الثورة الفلسطينية، وحاولت أن تغرق بها العمل الوطني اللبناني في فترة نهوضه العاصف. وأخطر ما في هذه الأفكار والنظريات، التي استمرت طويلاً، ودفعت الحركة الوطنية اللبنانية والثورة الفلسطينية ثمناً باهظاً لها، يتجسّد في محاولات إلغاء أي دور وأي موقع

للحركة الوطنية اللبنانية وجعل كل النضال على الساحة اللبنانية يصب، بالمطلق، في خدمة الثورة الفلسطينية التي هي، كما كان يقال، طليعة النضال الثوري العربي، والتي ينبغي، حسبما كان يقال أيضاً، أن تحشد كل الجهود وكل الامكانات من أجل تطويرها، لأن تطويرها وحده يمكن أن يؤدي إلى تحقيق الأهداف الأساسية المطروحة في ساحات النضال الوطني الثوري العربي! ولم يكن من الممكن لمثل هذه النظريات أن يساعد في تجنيد حقيقي للجماهير اللبنانية في النضال الوطني. إذ أنه لا بد من التفريق، هنا، بوضوح، بين مشاعر التضامن الذي لا حدود له مع الثورة الفلسطينية، كجزء من مهمات الثورة الوطنية اللبنانية، وصولاً إلى الإنخراط في صفوفها وممارسة الكفاح معها، وبين التغييب المفتعل للقضية الوطنية اللبنانية والانكفاء عن الدفاع عنها والنضال من أجل انتصارها، أي من أجل إحداث التغيير، وهو ما يعبّر عنه الشعار المطروح في برنامج الحزب الشيوعي اللبناني، وفي ما تطرحه، الآن، القوى الوطنية جميعها، بأشكال مختلفة، شعار المرحلة، الحل الوطني الديموقراطي على طريق قيام الحكم الوطني الديموقراطي.

كان تشكيل «الحرس الشعبي»، إذن، بداية الإنخراط الوطني اللبناني في الكفاح المسلح ضد العدوان الإسرائيلي، وفي العمل المشترك، وفي التحالف مع الثورة الفلسطينية، لبنانياً وفلسطينياً وعربياً، على أساس برنامج مواجهة وطنية وقومية مشتركة ضد قوى التحالف المعادي. وقد نشأت، بفعل ذلك، وبتأثير من الثورة الفلسطينية ودورها ووهجها، إمكانات حقيقية لاستخدام هذا الكفاح في النضال، عندما تقتضي الضرورة، في معارك الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين وجماهير الكادحين، ضد سلطة الطغمة المالية وقمعها، بالإضافة إلى استخدامه في مواجهة العدوان الاسرائيلي. وسرعان ما أصبح هذا النهج في الكفاح شاملاً، وتحول النصف الأول من السبعينيات إلى مرحلة إعداد الجماهير الوطنية للكفاح المتعدد الأشكال، بما في ذلك الكفاح المسلح، بانتظار كل الاحتمالات بما فيها احتمال كانت شروطه تتوفّر أكثر فأكثر، احتمال لجوء الطغمة المالية إلى العنف في الدفاع عن مصالحها، واحتمال قيام إسرائيل بعدوان أو حتى باحتلال أجزاء من لبنان. لا سيما في الجنوب. وبالفعل فقد كانت الأعوام التي تلت ذلك أعواماً مليئة بالمعارك، على كل الجبهات الوطنية والقومية ضد العدوان الاسرائيلي الذي تفاقم، ودفاعاً عن الثورة الفلسطينية، وضد المؤامرات الامبريالية والصهيونية والرجعية ومشاريعها، وفي مواجهة سلطة الطغمة المالية والاحتكارات وقمعها ودفاعاً عن مصالح الكادحين. وظلت هذه المعارك تتواصل إلى أن وقعت الحرب الأهلية.

لقد كان من الطبيعي، في ظل هذا النمو العاصف في الثورة الفلسطينية وتطوّر أشكال مواجهاتها، وفي ظل التطور الذي شهدته الحركة الوطنية والشعبية اللبنانية، وفي ظل التحالف بين الحركتين في كفاحها ضد الاعتداءات الإسرائيلية، من جهة، وضد قمع السلطة، من جهة ثانية، أن تنهض الطبقة العاملة اللبنانية للدفاع عن مصالحها ومصالح جميع الكادحين، وأن تلف حولها جميع الفئات الشعبية المتضررة من حكم الطغمة المالية. وفي الواقع فقد شهدت السبعينات موجة عارمة من النضالات شملت كل القطاعات العمالية وجميع الفئات الشعبية. وبمقدار ما كان يزداد القمع من قبل السلطة، وتزداد الشراسة في الصراع، كانت تزداد الكفاحية وتتوسع القاعدة الجماهيرية للمعارك الوطنية والاجتماعية. وقد بلغت هذه الحركة من النضالات، بشتى أشكالها، وبتعدد جبهاتها، أقصى درجات تطوّرها عشية الحرب الأهلية. فقد تحولت قضية التغيير إلى القضية الأولى، واكتسبت شعبية كبيرة، وأصبحت شعاراً عاماً. وفي تحليلنا لهذه الظاهرة اعتبرنا أن أزمة النظام الرأسمالي التي كانت تتفاقم، في شتى المجالات، قد جعلت الطبقة العاملة تتحول إلى قوة ذات وزن وتأثير لم يعد من الممكن حل قضايا البلاد بدون مشاركتها وبدون دور أساسي لها. ولذلك لجأت البرجوازية، وحكم الطغمة المالية، في مواجهة هذا التطور الخطير، إلى العنف الذي ظل يتطور تدريجياً إلى أن بلغ أقصى درجاته شراسة بإشعال الحرب الأهلية. وقد كان الهدف واضحاً. كانت تريد الطغمة المالية استنفار كل امكاناتها من أجل منع هذا التطور العاصف في وحدة جبهتي الكفاح، الوطني والاجتماعي، أن يصل إلى نهايته، إلى التغيير. فقد كانت ترى الطغمة المالية أن نهوض الطبقة العاملة هذا وتعاظم نضالها وتوحيد كل الفئات الاجتماعية المتضررة من نظام الطغمة المالية حولها وانخراطها العميق في معركة الدفاع عن القضية الوطنية اللبنانية والقضية الوطنية العربية، يشكّل أساساً لتحويل شعار التغيير إلى موضوع جدّي، إلى نقطة على جدول الأعمال، إلى حقيقة، الأمر الذي كان يشكل خطراً حقيقياً على النظام الطائفي الذي استطاعت الطغمة المالية، بالإستناد إليه وإلى أدواته، وإلى التحالفات الخارجية التي عقدتها، أن تقسّم صفوف الطبقة العاملة وتعطّل نضالها، وتحدّ من آفاق هذا النضال باتجاه التغيير الديموقراطي.

في تلك الأعوام المشهودة، أعوام السبعينات، خرجت الطبقة العاملة إلى الشوارع في تظاهرات ضخمة وفي معارك صدامية، أبرزها التظاهرة التي دعا لها الاتحاد الوطني للنقابات، وانتفاضة عمال غندور، وما ولدته هذه الحركة من أساس لانتفاضات أخرى قام بها العمال في مراكز متعددة، ومزارعو التبغ في النبطية، وما ادت إليه من تصاعد في الحركة الطلابية وفي الحركة في وسط المعلمين وأساتذة الجامعة والحرفيين وسائر الفئات الاجتماعية.

وكانت جميع هذه المعارك تترافق بتظاهرات واضرابات وانتفاضات لم تنقطع، دفاعاً عن الثورة الفلسطينية، دشّنتها انتفاضة ٢٣ نيسان (١٩٦٩) وطبعتها بطابعها الكفاحي. وكانت تزدحم تلك الفترة، أيضاً، بمعارك متعددة في مواجهة اسرائيل سقط فيها العديد من الشهداء اللبنانيين والفلسطينيين. وكان بين أوائل الذين استشهدوا وهم يكافحون على هذه الجبهات عدد من مناضلي الحزب الشيوعي، منهم من استشهد وهو يقاتل في داخل الثورة الفلسطينية (ابراهيم جابر ١٩٦٩)، أو استشهد وهو يقاتل القوات الاسرائيلية الغازية في الجنوب (علي أيوب ١٩٧٠) أو استشهد وهو يدافع عن الثورة الفلسطينية (صفوان دندشي في انتفاضة ٢٣ نيسان ١٩٦٩).

لقد أثبتت الطبقة العاملة، أثبت حزبها، تحديداً، أنه، في البرنامج الذي طرحه كأساس للنضال من أجل حكم وطني ديموقراطي قد كان يمارس الدور الطليعي الذي يعود له وللطبقة العاملة التي يشكل فصيلها الطليعي. وكان بذلك يغني الحركة الوطنية ويسهم إسهاماً أساسياً في تطويرها وفي إعدادها لمواجهة مهماتها الصعبة في الحرب الأهلية التي كانت تتهيأ ظروف قيامها. وهذا الدور المتعاظم للطبقة العاملة، إنما أسست له كل تلك النضالات التي تمتد طويلاً وعميقاً في التاريخ، منذ احتفال أول أيار (١٩٠٧) الذي ظل يتطور، إلى أن نشأ حزب الطبقة العاملة (١٩٢٤)، وصولاً إلى تلك المعارك الضارية والانتفاضات التي توحدت فيها الطبقة العاملة مع جماهير الفلاحين وسائر الكادحين. وقد كانت انتفاضات الفلاحين الجريئة الواسعة ضد الاقطاع، في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات، في الجنوب وعكار والبقاع، روافد عظيمة لهذا التطور في الثورة التي قادتها ولا تزال طلائع الطبقة العاملة على طريق الظفر.

كل شيء كان يجري باتجاه تفجير الحرب الأهلية. وكان لا بد للحركة الوطنية أن تُهيّىء نفسها لهذا النوع الجديد من المواجهة. وقد كانت هذه الحركة، في الواقع كما أشرنا إلى ذلك آنفاً، وفي النصف الأول من السبعينات، تملك، بما خاضته من نضالات، وبما اكتسبته من كفاحية، القدرة على مواجهة هذا الوضع الجديد، والرد على العنف الفاشي بالعنف الثوري. كانت فصائل الحركة الوطنية قد تمرست بالكفاح، في ظل التعاون والتحالف اللذين قاما بينها وبين الثورة الفلسطينية. ولذلك لم يفاجئها قرار الطغمة المالية بالاستنجاد بأكثر القوى إيغالاً في الرجعية والفاشية من أجل إعلان حربها على هذا التحالف الوطني اللبناني الفلسطيني. العنف الثوري كان، إذن، الرد الطبيعي على العنف الفاشي. وقد قاد الشهيد كمال جنبلاط الحركة الوطنية في هذه المجابهة في أروع وحدة سياسية وتنظيمية تجسدت بصيغة المجلس السياسي المركزي للحركة الوطنية تنظيمياً، وفي صيغة البرنامج المرحلي سياسياً، وفي صيغة القوات المشتركة للحركة الوطنية والثورة الفلسطينية شكلاً للتحالف النوعي الجديد في الحركة الوطنية الثورية العربية. وهي وحدة أملتها ضرورات المرحلة ومهماتها، ولكنها لم تلغ عناصر الخلاف الفكري والسياسي، وبعض جوانب الخلل وحتى التناقض، التي سرعان ما ظهرت، بشكل صارخ، في الفترة التي أعقبت الاجتياح، وتطورت. وكان ذلك أمراً طبيعياً، سواء في العلاقة داخل التحالف الطبقي والسياسي في الحركة الوطنية، أم في العلاقة مع الثورة الفلسطينية، ومع بعض فصائلها، بشكل أكثر تحديداً. ولسنا نرى من الضروري الإسهاب في الحديث عن هذه المرحلة في سياق هذا البحث. غير أننا نعتبر أن قيام الحرب الأهلية، قد شكل، منذ بدايته، حتى الآن، أعنف حالة صراع واجهتها الحركة الوطنية من موقعها السياسي والطبقي، بالحد الضروري من الوضوح، رغم كل ما برز خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة من ظاهرات سلبية، سواء مما افتعله الخصم أو مما تولّد من أخطاء ارتكبها كلّ من الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، بدرجات مختلفة من الخطورة والمسؤولية، في أشكال النضال، وفي العلاقة مع الجماهير. وفي خضم هذه الحرب المتمادية، وبالاستناد إلى التجربة الغنيّة التي

اكتسبتها فيها الحركة الوطنية، عبر المواجهات العديدة التي فرضت عليها مع قوى المشروع الفاشي، ومع الاعتداءات وحملات الغزو والاجتياح الاسرائيلية، استطاعت هذه الحركة، بفصائلها الطليعية، بالدرجة الأولى، أن تواجه الإجتياح الاسرائيلي (١٩٨٢) وأن تنشىء، في قلب المعركة، الأدوات الصالحة للاستمرار في هذه المعركة، بشكل أفضل. فكان قيام جبهة المقاومة الوطنية التجسيد الحيّ لهذا التطوّر ولهذه التجربة ولهذا الغنى الذي تتميّز به اليوم الحركة الوطنية اللبنانية، في كفاحها المتعدد الجبهات، وفيما حققته من انجازات فائقة الأهمية، فائقة الدلالة.



هذا التراث الغني بالكفاح من أجل الحرية، على امتداد قرنين، الحافل بالثورات والانتفاضات والمعارك على كل الجبهات، ضد الاستعمار وضد الاقطاع وضد قمع سلطة البرجوازية، ومن أجل التحرر والتقدم والوحدة القومية، الذي تعتز به الحركة الوطنية الثورية في لبنان وفي الوطن العربي، هو الذي كانت ترتكز اليه الحركة الوطنية اللبنانية، وتنهل من معينه، فصائلها الطليعية، عندما أطلقت، بقوة وبثقة، حركة شجاعة حاسمة وحازمة، لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي وتحرير الأرض منه، وحققت هدفها.

ويحق لنا، ونحن نقوم بهذا الاستعراض التاريخي لتطور الكفاح الوطني الثوري من أجل التحرر والتقدم، لهذا التراث الغني من المقاومة، بشتى أشكالها، في شتى مراحلها، أن نجيب على بعض التساؤلات التي طرحت، أحياناً، والتي يستمر البعض في طرحها، بصيغ مختلفة، حول نشأة المقاومة وظروف هذه النشأة، والقدرة العجيبة التي امتلكتها في تحولها، بسرعة استثنائية، إلى ظاهرة وطنية وشعبية، وإلى حركة حقيقية للتحرير. الجواب بسيط جداً، في نظرنا. فالمقاومة الوطنية لم تكن وليدة اللحظة التي قامت فيها. ولم تأت من فراغ. وتاريخها لا يعود إلى ذلك اليوم المجيد الذي صيغ فيه النداء (١٦ أيلول ١٩٨٢) بإطلاقها، خلال اجتياح اسرائيل، بعد الحصار الطويل، للعاصمة بيروت. بل إن هذا النداء نفسه، وتلك الانطلاقة التي أعقبته ولم تتوقف، إنما كانا يرتكزان، أولاً، إلى هذا التاريخ المديد المجيد الذي عرضنا، بشكل سريع، لمحطاته المشرقة، في تسلسلها التاريخي، وتواصلها وتداخلها، وترابطها، ويرتكزان، ثانياً، إلى المرحلة الأخيرة من هذا الكفاح الطويل، التي وضعت فيها الحركة الوطنية، في أواخر الستينات، الأسس والقواعد العلمية والعملية التي كان يحتاج إليها العمل الوطني في مواجهة عدوان اسرائيل والخطط التي كانت تعدها هذه الدولة بتشجيع من الدوائر الامبريالية، وتواطؤ من الأنظمة الرجعية لاجتياح لبنان ولاحتلال

أرضه، وللبقاء فيها طويلاً، وتغيير خارطة لبنان الجغرافية والسياسية.

الجواب على كل الأسئلة، من كل الأنواع، حول المقاومة، يتلخص في أن المقاومة هي جزءٌ من النضال الوطني الديموقراطي المتواصل، جزء من الثورة التي تتعمق وتغتني، الثورة الوطنية الديموقراطية، في مرحلة متقدمة من مراحلها، هي المرحلة الراهنة التي تتحقق فيها استعادة وحدة لبنان واستقلاله وتحرُّره الكامل من الاحتلال، وتستعاد فيها عروبته الحقيقية، ويوضع على طريق التطور الديموقراطي.

ليس، إذن، عجيباً، أن يحصل هذا التطور السريع في المقاومة، وفي فعلها، العسكري والسياسي، وفي احتضان الجماهير لها. وكل ظاهرة سلبية غريبة، من أي نوع كان، علقت بها، أو يمكن أن تعلق بها، لا بد أن يزيلها هذا الدور التاريخي الذي يعود لها، وهذا الأساس الثوري الذي ترتكز إليه، وهذا المضمون الذي يغتني به كفاحها وتغني به التراث الوطني الثوري العظيم لشعبنا اللبناني ولأمتنا العربية.

القسم الثامن

المقاومة والثقافة

المقاومة لم تخلق ثقافتها بعد! هذا الكلام يقال، ويجري تكراره، بين الحين والآخر. يردده بعض مثقفينا، على وجه الخصوص. وقد يكون في هذا الكلام شيء من الصحة. غير أننا لا نميل إلى الأخذ به، ولا الانخراط في النقاش حوله. فما يهمنا، في هذا الموضوع بالذات، هو أمر آخر، مختلف. وبرغم ذلك فإننا نرى أن هذا المفهوم، «ثقافة المقاومة»، يحتاج إلى نقاش ما، إلى تحديد.

I

فما المقصود، هنا، بـ «ثقافة المقاومة»؟

إذا كان المقصود هو الفكر فإن فكر المقاومة موجود في الفكر الثوري، فكر الحركة الوطنية الثورية في لبنان وفي الوطن العربي، موجود في النظرية الثورية المعاصرة للكفاح من أجل التحرر والتقدم. ذلك أن المقاومة الوطنية اللبنانية الراهنة ليست، في نظرنا، بالمطلق، عملاً منفصلاً عن الحركة الثورية في بلادنا، بل هي جزء من هذه الحركة، لا يتجزأ، ولدتها ظروف العمل الثوري خلال تطوره، وأعطتها الأحداث والوقائع المتتالية شكلها الملموس.

أمّا إذا كان المقصود بالفكر، هنا، ما هو خاص بلبنان في النظرية الثورية لحرب

الأنصار فإنّ مثل هذا الفكر لا ينشأ، في الأساس، بمعزل عن الممارسة، ولا يتخذ شكله المحدد ومحتواه إلاّ بالإرتباط مع الممارسة. وفي هذا المجال بالذات نشعر، نحن الوطنيين الثوريين اللبنانيين، أننا لسنا جديدين على هذا النوع من الكفاح، لا من حيث الاعداد له والإستفادة من تجارب الآخرين في ذلك، ولا من حيث ممارسته، ولا من حيث الفكر المرتبط به المنظر له. فقد نشأت فكرة المقاومة عندنا منذ بدايات الحركة الوطنية، وتطورت معها، واتخذت مع تفاقم العدوان الإسرائيلي في أواخر الستينات، وبالاستناد إلى تجربة الثورة الفلسطينية والتحالف معها، شكلها الخاص، ومحتواها الذي ظل يتقدم، بدور متميز وفاعل للطبقة العاملة وفكرها، بوضوح متزايد، إلى أن قامت جبهة المقاومة بقرار ثوري واع، وابتدعت أشكال ممارستها الفذّة للكفاح الوطني التحرري، في قلب الحركة الثورية اللبنانية والعربية، وباسم أهدافها، وتحت شعاراتها.

فكر المقاومة، إذن، كان موجوداً قبل أن ندخل في هذا الظرف التاريخي المحدد وتمارس فيه حرب المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي، ونطورها ونحقق فيها انجازات عظيمة. وقد اغتنى هذا الكفاح، ولا شك، بالتجربة، وكدس المعارف، وابتدع أساليبه الخاصة، في الوقت الذي كان فيه يغرف مما قدمته النظرية الثورية الكونية للكفاح الثوري، ويغتني بالتجارب الثورية الناجحة القديمة والمعاصرة، في البلدان الأخرى.

٣

هل المقصود بـ «ثقافة المقاومة» الأدب والفن وفروعها؟

في هذا الموضوع، أيضاً، تزخر الحركة الوطنية الثورية اللبنانية والعربية بتاريخ حافل وتراث غني. وهما تاريخ وتراث يتراوح الغنى فيهما حسب المرحلة المعينة. ولا يحدد درجة الغنى هنا كون المرحلة التاريخية أكثر، أم أقل، تقدماً، في قلب العملية الثورية. فقد دلت التجربة أنه من الممكن أن يترافق تطوّر العملية الثورية، في مراحل معينة منه، بالكثير من التعقيد الذي يصعّب الرؤية فيخلق، بذلك، بعض حالات من الإنقطاع النسبي بين مستوى تطوّر الحركة وتطور برنامجها، ومستوى استيعاب بعض أوساط المثقفين لها، لا سيما بين المبدعين منهم في مجالات الأدب والفن. وهذه الحالة هي ما شهدنا نموذجاً لها في الحرب

الأهلية، بشكل عام، وفي بعض مراحلها، بشكل أكثر تحديداً. وهي الحالة، أيضاً، التي رافقت، أحياناً، بعض ما علق من التباس في موضوع المقاومة، بالذات، لا سيما في المحاولات التي جرت على نطاق واسع، وبالكثير من الضجيج، من أجل إغراق المقاومة وبطولاتها وشجاعة المقاتلين في صفوفها بالموجات الطائفية والمذهبية والمناطقية.

إن ذلك كله لا يغير في قناعتنا بأن أدباً وفناً للمقاومة قد نشآ مع المقاومة، وهما يتطوران الآن، ويؤسسان لمرحلة لاحقة لا شك أنها ستكون أكثر ثراء، وأكثر غنى، وأكثر تعبيراً عن التجربة الحية للمقاومة الوطنية كجزء متميز من الكفاح الذي تخوضه حركتنا الثورية وتحقق فيه أهدافها وتتقدم على طريق التغيير الثوري.

ليس ما قلناه انخراطاً في النقاش الذي أشرنا إليه في البدء، بل هو رأي نعلنه، ونشعر أننا بحاجة لأن نضيف إليه بعض الملاحظات. غير أننا نود أن نتوقف، قبل ذلك، عند ظاهرتين لبنانية وفلسطينية:

الظاهرة الأولى هي المعروفة بظاهرة أدب المقاومة الفلسطينية. هذه الظاهرة كانت، خلال الستينات، الظاهرة الأبرز في الأدب العربي. وقد عبّرت بقيامها، ليس فقط عن الطموح الجارف عند الجماهير العربية، آنذاك، إلى التحرر القومي والإجتماعي واستعادة الأرض الفلسطينية المغتصبة، بل عبرت، كذلك، عن حركة تجديد في الأدب العربي، والشعر منه بشكل خاص. فبرزت أسماء اميل حبيبي وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم ومعين بسيسو وسالم جبران والشاعر السابق عليهم، الذي رحل، أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي). هذه المدرسة الجديدة في الأدب العربي لم تحمل بالصدفة اسم المقاومة. فقد كان الزمن، في بداية نشوئها، زمن مقاومة جماهيرية ضد السيطرة الاستعمارية بأشكالها كافة، على البلاد العربية، عبرت الحركة الثورية، بقيادة جمال عبد الناصر، عن أهدافها في جلة من المعارك والحروب التي خاضتها ضد العدوان والاغتصاب الاسرائيليين، وضد الأحلاف الاستعمارية، ومن أجل استعادة الثروات القومية، ومن أجل إحداث التحولات الاجتماعية، ومن أجل تحرير فلسطين، ومن أجل تحقيق الوحدة القومية لشعوب الأمة العربية. في هذه المدرسة الأدبية النضالية تعلم الكثيرون من الأدباء الشباب واغتنت التجربة الأدبية ذات المحتوى الثوري، بشكل عام.

الظاهرة الثانية هي التي إقترنت بأسماء مارسيل خليفة وزياد الرحباني وخالد الهبر

واحمد قعبور والعديد من هؤلاء الفنانين المبدعين الذين، وإن اختلفت مستويات ابداعهم، فإنهم شكلوا، مع الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم في مصر، ظاهرة جديدة في الأغنية والموسيقى أهم ميزاتها انها دخلت إلى وعي الجماهير وإلى مشاعرها الانسانية وأحاسيسها الوطنية، ومارست تأثيراً عميقاً، وتحوّلت، بفعل هذا الدور الذي اكتسبته، إلى قوة مادية ترسخت في حياة شعبنا وفي وجدان الشبيبة، وأصبحت جزءاً من الكفاح الوطني الثوري، وصار المقاومون الشجعان يذهبون إلى مهماتهم الصعبة، في كل جبهات القتال، على أنغام هذه الموسيقى الثورية وكلمات أغنياتها وأصوات المغنين التي كانت تعطي لهؤلاء المقاتلين المزيد من القوة والعزم والتصميم وتعمق ثقتهم بالنصر.

هاتان الظاهرتان لا تعبّران وحدهما عن هذا التراث الذي أشرنا إليه من آداب المقاومة وفنونها، بل هي تشكل في هذا التراث، أحد أبرز التعبيرات الحية المباشرة عنه.

ولسنا نرى، في هذا المجال، ما يدعو إلى المقارنة مع سوانا من الشعوب ومن تجاربها، ومن ثقافاتها، ومن نتاجها الأدبي والفني المنخرط في المقاومة. ولذلك فحين نشير إلى أسماء برزت عند شعوب أخرى، واجهت مثل الذي نواجهه نحن الآن من مهمات اقتضت مثل هذا النوع من الكفاح، فإننا نقصد بذلك، فقط، استلهام المثل، وتزويد تراثنا بالجديد الغني من تراث الحركة الثورية العالمية التي نحن جزء منها. ففي الاتحاد السوفياتي برزت أسماء ايليا إهرنبورغ وقسطنطين سيمونوف وبوريس بوليفوي، (الخ...) الذين كانوا أدباء مقاتلين على الجبهة في الحرب الوطنية العظمى. وبرزت في فرنسا، خلال حرب المقاومة ضد الاحتلال النازي، أسماء بول ايلوار ولويس اراغون وزملائهما شعراء وأدباء المقاومة الفرنسية الذين لعبوا دوراً بالغ الأهمية في المقاومة. فقد كانت أشعارهم توزع، في شكل مناشير، بالملايين على الشعب الفرنسي. وبرز اسم الشاعر اليوناني رتسوس والشاعر الاسباني غارسيا لوركا، والشاعر الشيلي بابلو نيرودا، والمغني الزنجي الأميركي بول روبسون، وشاعر الثورة في أفريقيا الجنوبية الشاب مولويزي الذي اغتالته القوى العنصرية والفاشية في السجن، منذ فترة قصيرة.

الأمثلة على هذا النوع من أدب المقاومة عديدة لا تحصى. وهي في كل بلد وكل شعب تأخذ شكلها الخاص ونكهتها الخاصة، في قلب المعركة، وخلال تطورها، وفي ظل ما تحققه من إنجازات، وما يجترح فيها من بطولات. وطموحنا في لبنان أن تتطوّر كل أشكال التعبير الأدبي والفني المقاتل، بالإرتباط مع تطور المقاومة وتطور النضال الوطني الثوري على طريق

التحرر الوطني الكامل والتغيير الديمقراطي، لكي تأخذ هذه الأشكال الأدبية الفنية صفتها الخاصة، وطابعها الثابت المميز، ونكهتها الخاصة.

٣

هنا نرى ضرورة أن نطرح بعض الملاحظات ونقدم بعض الإقتراحات.
الملاحظات التي نود أن نتوقف عندها تتلخص بالآتي:

ملاحظة أولى: حول العلاقة بين الثقافة والسياسة. إننا نعتبر أن النقاش الذي يجري، أحياناً، حول هذا الموضوع، لا يأخذ، دائماً، طابع النقاش الصحيح الذي لا غنى عنه، حتى في المواضيع التي تبدو وكأنها، لشدة الوضوح فيها، لا تحتاج إلى نقاش. الخلل في هذا النقاش أن بعض الذين يشاركون فيه يضعون نوعاً من التعارض، يكاد يكون مطلقاً، بين الثقافة والسياسة. فهل يمكن أن تكون هناك ثقافة بدون موقف سياسي، طبقي؟

إن المثقف لا يستطيع إلا أن يكون جزءاً من مجتمعه، أي جزءاً من تناقضات هذا المجتمع، وطرفاً في الصراع الطبقي والسياسي الذي يدور فيه. والموضوع الذي لا بد من مناقشته، هنا، يتعلق بتحديد الدور الذي ينبغي أن يضطلع به المثقف في مجتمعه، والموقع الذي ينبغي أن تحتله الثقافة في النضال الثوري من أجل التقدم. ولن نقحم هنا اسماء كبار المثقفين في العالم، في القديم من تاريخ البشرية، وفي الجديد منه، لكي نبرهن أين ينبغي أن يكون المثقف وما هو دور الثقافة. فليست هذه، وحدها، الطريقة التي ندافع فيها عن وجهة النظر الحزبية في الثقافة، عن العلاقة الصحيحة بين الثقافة والسياسة.

ملاحظة ثانية: حول الموقف من الإحتلال، والموقف من المقاومة. فليس صحيحاً أن الإحتلال ومقاومته يشكلان حدثين مقطوعين عن الأسباب والنتائج في الأحداث المتتالية وفي الصراع الدائر حولها، وفي قلبها، بين الحركة الثورية والحركة المعادية للثورة. الإحتلال جزء من الهجمة المعادية، والمقاومة جزء من النضال ضدها. كلاهما جزء من الحرب الأهلية، واستمرار وتطور لها، بشكل مختلف. من هنا ضرورة أن ينظر إليهما، في موقعهما الحقيقي في حركة الصراع، لا خارج هذا الموقع. ومن هنا أهمية أن نتعامل معهما في الوسط

الثقافي، بتياراته الديموقراطية، تحديداً، إنطلاقاً من الموقع الديموقراطي الثوري للثقافة والمثقفين، لا خارج هذا الموقع، أو على هامشه أو على حدوده. فمن غير الطبيعي، مثلاً أن نحصر اهتمامنا، في غمار الأحداث الجارية، بالمقاومة، فنمجدها، ونمجد أبطالها، ونتجنب الخوض في الحرب الأهلية، كالتباس سياسي وفكري في الصراع لا يعني المثقف الديموقراطي. إن ذلك يشكل، في التعامل مع الأحداث التاريخية، ومع الصراع المرافق لها، نوعاً من التعسف الذي لا يغير في مجرى التطور، إلا أنه يدفع بصاحبه، موضوعياً، إلى الوقوع في حالة هي أقرب إلى التهميش منها إلى أي شيء آخر. وهو ما لا نريد، قط، أن ينزلق إليه أي مثقف ديموقراطي من مثقفي عصرنا الراهن، العصر الذي تحقق فيه الحركة الثورية تقدماً ملموساً وثابتاً، برغم كل تعقيدات الصراع وصعوباته والتباساته.

ملاحظة ثالثة: حول النتاج الفكري والأدبي والفني، في هذه المرحلة، في علاقته بالنضال الوطني الثوري. إننا نعتبر أن الحرب الأهلية، وحرب المقاومة ضد الإحتلال الإسرائيلي، قد أنتجت، إلى حد بعيد، ثقافتها، فكراً وأدباً وفناً. في مجال الفكر المسألة تختلف. فالفكر الثوري يتطور ويتعمق، حتى في ميدان البحث في موضوع المقاومة وحرب الأنصار. أما في مجال الأدب والفن فثمة حاجة إلى اختمار، إلى وقت ضروري للإبداع. ومع ذلك فقد مرت فترات معينة كان الإبداع فيها غنياً. إلا أن ما يحتاج إلى العناية والإهتمام، بشكل خاص، فهو ما تشير إليه وتبشر به بعض المواهب الفتيّة من آفاق للتطور.

٤

هذه الملاحظات التي نقدمها، ليست إلا شكلاً من أشكال الدعوة لاستمرار النقاش وتعميقه في الوسط الثقافي حول موضوع المقاومة، كمظهر من مظاهر الصراع الذي يحتدم، بكل الأشكال، بين الحركة الوطنية الثورية، في لبنان والوطن العربي، وأهدافها في التحرر الوطني والإجتماعي، وبين التحالف الإمبريالي ـ الصهيوني ـ الرجعي ومشاريعه العدوانية المختلفة.

غير أننا نتقدم، من أجل أن يزداد إسهام المثقفين في المقاومة، بخاصة، وفي الحركة

الثورية، بعامة، بالإقتراحات التالية، موجهة إلى كل الوسط الثقافي، وإلى كل العاملين فيه، وكل المعنيين بشؤون الثقافة، بما في ذلك الأحزاب والتنظيمات الوطنية، والمؤسسات الإجتماعية، وكذلك الدولة:

إقتراح أول: بتجميع تراث المقاومة النضالي، في كل مجالاته، في العمليات العسكرية، وفي الإنتفاضات الجماهيرية، وفي المقاومة داخل المعتقلات وداخل زنزانات التعذيب، وفي العمليات الاستشهادية، وسوى ذلك، وتحويلها إلى مادة خام، مادة أولية، ونشرها، كما هي، في كتب وكراريس تروي ما حدث ببساطة وعفوية وصدق، ونشر ما كتب عنها. وما روي وما صار جزءاً، ولو بسيطاً متواضعاً، من تراثنا في هذا المجال.

اقتراح ثانٍ: بإعادة إنتاج هذا التراث، في شكل إبداعي، قصة ورواية وشعراً ومسرحاً وسينما وفناً تشكيلياً وموسيقى وغناء. وهي مهمة صعبة، ولا شك، وتحتاج إلى وقت، وإلى جهد، وإلى تشجيع. كما تحتاج من الأدباء والفنانين أن يستوعبوا هذا التراث وهذه التجربة، بعمق، وأن يتمثلوهما، وأن يتفاعلا في وجدانهم، وأن يقتنعوا بهما، لكي يتمكنوا من ممارسة فعل الإبداع.

إقتراح ثالث: بدعوة المؤسسات الخاصة، ومؤسسات الدولة، تحديداً، إلى إعتماد هذا التراث جزءاً من تاريخ لبنان الحديث، فيجري إدخاله، بأشكال مختلفة، إلى المدرسة، إلى كتب التربية وكتب التاريخ، فتتثقف به أجيالنا الجديدة، وتتكون ثقافتها الوطنية، ويتعمق شعور الإنتماء إلى الوطن عندها، على أساس هذا التراث.

المقاومة مستمرة، والثقافة، في كل ميادينها، هي جزء منها، وجبهة من جبهات الصراع فيها. هكذا نفهم المسألة.

كيف واجه المناضلون جلاديهم في المعتقلات!

في تاريخ الحركة الوطنية اللبنانية والحركة الوطنية العربية، وفي تاريخ الحركة الثورية العالمية، تراث مجيد من الكفاح الثوري تجسد في الصراع الصامت بين المناضلين الوطنيين الثوريين وبين جلاديهم في السجون والمعتقلات. هذا الكفاح المجيد العريق، المتواصل منذ القديم من الزمان، شكّل، في المقاومة الصامتة، مدرسة نضالية فـذّة تعلمت منها الأجيال، ولا تزال، دروساً كبيراً في الصمود والتضحية ونكران الذات، وأغناها كل جيل بالجديد الرائع من إبداعه وعطائه وصلابة موقفه وثباته في الموقع النضالي دون تردد ودون اهتزاز.

الرموز الساطعة لهذا النوع من الكفاح عديدة في لبنان والوطن العربي والعالم. ولقد حفلت الحركة الثورية العالمية في فترات زمنية مختلفة من هذا القرن، منذ مطالعه حتى اليوم، مع كل قفزة جديدة وانعطاف جديد في تطورها، بنماذج من القمع الوحشي من قبل البرجوازية وقوى العدوان والاحتلال الخارجيين، ومن الصمود البطولي في وجه هذا القمع، ومن حركات التضامن الأممي الهائلة التي كانت تهز العالم. وسوف يكون من الصعب جداً علينا أن نستعرض هذه النماذج بدقة بالنظر لتعددها وتنوعها. غير أننا سنكتفي بإشارات سريعة من أجل إعطاء فكرة، مجرد فكرة، عن هذا النوع من الكفاح. فأجيالنا الجديدة في لبنان، بخاصة، وفي الوطن العربي، بعامة، التي تنخرط في كفاح طويل وصعب، وتواجه شراسة الخصم والجديد الفظيع من وسائل قمعه الممهورة بطابع العصر وبالوسائل التقنية الحديثة فيه، بحاجة لأن تتعرف إلى تلك النماذج القديمة الرائعة من الصمود، من أجل أن تزداد ثباتاً في كفاحها، وتزداد ثقة بالنصر.

كان معروفاً، منذ زمن طويل، في الأحزاب الشيوعية والعمالية، على وجه الخصوص، وفي كل الحركات الثورية، أن على المناضل الذي يقع في اسر العدو أن يتمسك بالمبادىء والشروط الضرورية لأشكال مواجهة الإعتقال والإستجواب والتعذيب خلال التحقيق. المبدأ الأول والأساسي هو الإمتناع، أيّاً كانت الظروف، عن تقديم أي من المعلومات، مهما تكن قليلة للعدو. فالقليل من المعلومات يقود المحقق لطلب المزيد منها، مما يشكل خطراً، ليس فقط على الرفاق خارج المعتقل، وعلى نشاط الحركة، بل، بشكل خاص، على المناضل نفسه الذي يكون قيد الإعتقال. إذ أن الطمع في المزيد من المعرفة من شأنه أن يزيد في التعذيب ويفرض على المناضل أن يقدم المزيد من المعلومات معرّضاً حياته للموت، ومعرّضاً سمعته للتشويه، حتى بعد الموت.

الصمت الكبير الذي لا حدود له هو الشكل الرئيسي للكفاح في مواجهة الخصم عندما يكون المناضل بين يدي هذا الخصم مجرداً من كل سلاح للمقاومة، داخل الأسر، وبين الجلادين. ينبغي أن تكون القضية التي من أجلها يكافح هذا المناضل ويضحي، أعظم من كل شيء، وأرفع، وأن يكون شكل العطاء من أجلها، أرقى وأروع. والمناضل الذي ينخرط في الكفاح يضع أمامه، منذ اللحظة الأولى، أقصى الإحتمالات بما في ذلك الإستشهاد. وهو ما ينبغي أن يفكر فيه، بشكل خاص، في مواجهة الإعتقال والتعذيب اللذين يمكن أن يتعرض لهما. فكما أن الذهاب إلى المعركة والقيام بتنفيذ عملية أنصارية والمشاركة في مظاهرة ممنوعة يمكن أن تؤدي بالمناضل إلى الإستشهاد كذلك الإعتقال والتعذيب داخل المعتقل. هذا المبدأ، إذن، في الإمتناع عن تقديم أية معلومات للمحققين، داخل المعتقل، ينبغي أن يُحترم احتراماً كاملاً من قبل المناضل وأن يترافق بالشعور العميق بالمسؤولية، وبالإندماج الكامل بالقضية، وبنكران للذات لا حدود له. وهذا المبدأ، على قاعدة هذه الشروط هو ما أخذ به واتبعه كل أولئك الأبطال الذين تمتلىء بأسمائهم وبطولاتهم كتب التاريخ الجديدة والقديمة. ومنهم من استشهد تحت التعذيب فكان رمزاً لشعبه وللحركة الثورية في بلاده وفي العالم. ومنهم من خرج من السجن والإعتقال بطلاً مثلما دخل، حرره

صموده وحركة التضامن الوطنية والأممية التي تشكل في عصرنا ميزة من أروع ميزاته. وتعطي للكفاح الثوري المعاصر مضموناً أكثر عمقاً وأكثر شمولية.

لائحة هذه الرموز طويلة جداً. ولكننا سنكتفي هنا بذكر نماذج منها. على سبيل المثال:

العائلة الأميركية روزينبرغ (الزوج والزوجة) قضت عليها المكارتية في أميركا، في أوائل الخمسينات، بالإعدام بطريقة الكرسي الكهربائي. ونفذ الحكم رغم حملة التضامن التي هزت العالم، ورغم صلابة المناضلين اللذين رفضا التهمة الموجهة إليهما بالتجسس للإتحاد السوفياتي، وأصرا على موقفهما الأممي من العداء للأمبريالية الأميركية وفي الدفاع عن السلم العالمي وعن الصداقة مع الإتحاد السوفياتي، دون أدنى تراجع. أما هنري مارتان الفرنسي الذي اعتقلته السلطات الإستعمارية الفرنسية لأنه كان، مع جمهور كبير من رفاقه الشيوعيين، يناضل من أجل إيقاف الحرب الإستعمارية الفرنسية ضد الشعب الفيتنامي، فقد خرج منتصراً من الإعتقال إبّان هزيمة القوات الإستعمارية في معركة «ديان بيان فو». وهكذا كان الأمر بالنسبة للمناضلة الأميركية الزنجية أنجيلا ديفيس، وبالنسبة للمناضل الشيوعي اليوناني مانوليس غليزوس، قبلها. ورغم أن هنري اليغ، القائد الشيوعي الجزائري، الذي وقع في أسر السلطات الإستعمارية الفرنسية خلال الثورة الجزائرية، قد واجه في اعتقاله الطويل شتى صنوف التعذيب، فقد خرج من الإعتقال صامداً وألّف كتاباً عن هذه الفترة يسجل فيه وقائع التعذيب الذي تعرض له بعنوان «المسألة». في حين أن القائد الشيوعي العراقي فهد ورفيقيه زكي بسيم وحسين الشبيبي قد تعرضوا للتعذيب الوحشي وواجهوا حكم الإعدام بشجاعة. كذلك واجه القائد الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو في معتقله التعذيب حتى الإستشهاد، وذُوّب جسده، بعد ذلك، بالأسيد، من أجل إخفاء الجريمة. وواجه القائد الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب ورفاقه الكثر الشفيع احمد الشيخ وجوزيف قرنق وهاشم العطا وسائر أعضاء قيادة الثورة السودانية المجيدة التحقيق وحكم الإعدام بشجاعة المناضلين الثابتين. وواجه القائدان الشيوعيان المصريان فريد حداد وشهدي عطية في سجنهما الطويل التعذيب حتى الشهادة.

هذه الأسماء الكبيرة تُضاف إليها أسماء العديد من المناضلين البارزين في الحركة الثورية العالمية من شيوعيين وديمقراطيين قضوا في السجون، أو في معسكرات الإعتقال الفاشية خلال الحرب العالمية التانية. ويدخل في هذه القائمة كممثل بارز لنهوض أفريقيا المعاصر من أجل التحرر باتريس لومومبا زعيم الثورة الكونغولية الشهيد، والعديد من قادة الحركة الثورية في أسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وآخرهم في هذه القافلة شاعر جنوب أفريقيا

الزنجي الشاب بنجامين مولويزي الذي أعدمته السلطات العنصرية بعد اعتقال طويل، في أواخر عام ١٩٨٥، ونيلسون مانديلا زعيم المؤتمر الوطني الافريقي في جنوب افريقيا الذي يستمر في الاعتقال منذ عشرين عاماً.

أبطالنا المعاصرون في لبنان والوطن العربي لا يُعدّون. وفي لبنان وفي قلب المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي ومع تطورها الصاعد، وقع في الأسر عند العدو الإسرائيلي وعملائه ألوف المعتقلين الذين مروا في مدرسة الكفاح، في مراحلها المختلفة، وواجهوا جلاديهم بشجاعة، وكانوا، في الأسر وتحت التعذيب وفي معسكرات الإعتقال، مثلما كانوا، في القتال وخلال تنفيذ عملياتهم البطولية وفي قلب الإنتفاضات الجماهيرية، مكافحين ثوريين، بدون هوادة، فاشتهرت معتقلاتهم، وفي مقدمتها معتقل انصار، في لبنان وفي العالم، بصفتين متلازمتين: الإرهاب الإسرائيلي البالغ الشراسة والمقاومة لهذا الإرهاب البالغة الدلالة.

٢ يوليوس فوتشيك «تحت أعواد المشانق»

ونقدم، هنا، صورة لنموذج من هؤلاء الأبطال الأفذاذ، الذي واجه القهر والتعذيب والموت، في الزنزانات وفي التحقيق الفاشي، وأعطى حياته لقضية الحرية ولقضية الثورة. هذه الصورة هي مقتطفات من الكتاب الرائع «تحت أعواد المشانق» الذي ألفه، في شكل مذكرات، داخل السجن، وقبل إعدامه (١٩٤٢)، الكاتب التشيكوسلوفاكي الشيوعي، عضو اللجنة المركزية للحزب، يوليوس فوتشيك.

مقتطفات من الفصل الثامن من الكتاب بعنوان، نبذة تاريخية:

. . . .

في ٩ حزيران ١٩٤٣.

يتدلى الحزام أمام زنزانتين. حزامي أنا. إشارة الذهاب، سينقلوني ليلاً إلى الرايخ، إلى المحكمة و...

ومن هذه القطعة الصغيرة من حياتي، يسلخ الزمن الجائع آخر لقمة منها. أربعمائة وأحد عشر يوماً في بانكراك مضوا بسرعة مبهمة. كم بقي لي من الوقت بعد؟ وأين؟ وأي منها؟

ولا أكاد أجد مناسبة للكتابة خلال هذه الأيام. إذن هاك آخر شهادة. نبذة تاريخية أنا شاهدها الأخير الحي بلا شك.

★ ★ ★

في شباط ١٩٤١ إعتقلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بكاملها، مع اللجنة البديلة المعدة لليوم السيء. كيف كان يمكن لضربة قاسية جداً أن تنصب على الحزب، هذا ما لم يتضح تماماً بعد. ربما سيقول مفوضو الغستابو شيئاً، عندما يستجوبونني في المستقبل... وأنشأنا أبسط جهاز للحزب، لكي نستخدم أقل عدد ممكن من الناس. فألغينا سلاسل الإتصال الطويلة التي - كما أظهر ذلك شباط ١٩٤١ - لم تحم جهاز الحزب بل كانت خطراً عليه. وكان هناك أكثر من خطر واحد يهدد كل واحد منا، أما الحزب فهو في مأمن من ذلك. ولا يمكن لضربة كمثل نكسة شباط أن تنال منه.

لهذا السبب، إستطاعت اللجنة المركزية التي اكتملت بعضو جديد، أن تستمر في عملها بطمأنينة عندما تم اعتقالي. حتى أقرب المعاونين لي لم يعرف سلفاً من سيكون خلفي في المستقبل.

واعتقل هونزا زيكا في ليلة ٢٧ آيار ١٩٤٢. كان ذلك سوء طالع مرة أخرى. بعد ليلة على اغتيال هيدريش، وكانت كل ماكينة المحتلين متأهبة لشن غزوات في كل زاوية من براغ. فاخترقوا مسكن ستريوفيس، حيث كان يختبىء زيكا. كانت أوراقه مستوفية شروطها وكان محتملاً ألا يلفت انتباههم. لكنه لم يشأ أن يضع تلك العائلة اللطيفة التي لجأ إليها في الخطر: حاول أن ينجو بنفسه من نافذة الطابق الثاني، فسقط مصاباً بجرح قاتل في عموده الفقري ونقل إلى مستشفى السجن. لم يعرفوا أبداً من الذي وقع بين أيديهم، إلا بعد ثمانية عشر يوماً وهم يقارنون الصور الفوتوغرافية لاحظوا هويته ونقلوا المحتضر إلى قصر بيتشنيك لاستجوابه. وهناك رأيناه لآخر مرة، عندما استدعوني للمواجهة. فتصافحنا بشد الأيدي، وابتسم ابتسامة عريضة صافية وقال:

- صحتك جيدة، جول!

هذا كل ما سمعوه منه، لم يزد كلمة واحدة. وبعد بضعة ضربات على الوجه فقد وعيه. وبعد ساعات قلائل لفظ أنفاسه.

عرفت باعتقاله في ٢٩ آيار. لأن صلات الوصل تعمل جيداً. وبفضلهم كنت متفقاً وإياه على جزء من سلوكي اللاحق. وقد استحسن فيما بعد هذا الخط بمجمله هونزا سيرني. وكان ذلك قرارنا الأخير.

واعتقل هونزا سيرني في صيف ١٩٤٢، لم يكن اعتقاله صدفة بل نتيجة عدم إنضباط خطير وقع فيه جان بوكورني الذي تربطه به علاقة شخصية. لم يكن سلوك بوكورني في مستوى واجبه كمقاتل قائد. وبعد بضعة ساعات من الإستجواب ـ صحيح أن ذلك كان قاسياً، عليه أن يتوقع أكثر ـ بعد بضعة ساعات من الإستجواب سقط فريسة الرعب واعطى عنوان السكن الذي كان له فيه لقاء مع هونزا سيرين. وبدأوا باقتفاء أثر هونزا الذي وقع بعد أيام بين أيدي الغستابو.

وواجهونا فور وصوله.

ـ هل تعرفه؟

لا أعرفه!

وتوافق الجواب. ولم يتخلّ عنه إطلاقاً. وحال جرحه القديم دون تعذيب طويل مرير. فسرعان ما كان يفقد وعيه. وقبل أن يقرروا إستجواباً آخر، يكون هو قد استعلم عن كل شيء بجزئياته ويتدبر الأمر بنفسه.

لم يأخذوا منه شيئاً. واحتفظوا به زمناً في السجن، إنتظروا طويلاً، معتقدين أن شاهداً جديداً سوف يرغمه على الكلام. وكان عليهم أن ينتظروا كثيراً.

لم يغير السجن فيه شيئاً أبداً. فهو مضطرم، مرح شجاع، إستمر شارحاً للآخرين أبعاد الحياة، وبالنسبة له فليس أمامه سوى الموت.

نقلوه من بانكراك فجأة في نهاية نيسان ١٩٤٣. لست أدري إلى أين. فالإختفاء الفجائي هنا، هو دائماً علامة شؤم. إلا أن الخطأ وارد. لكنني لا أتصور أننا سنراه مرة أخرى.

لقد حسبنا للموت حساباً. كنا نعرف ذلك. فالسقوط بين أيدي الغستابو يعني النهاية بلا شك. ولهذا جيء بنا على هذا النحو إلى هنا.

ويقترب دوري أيضاً من نهايته. لن أكتب هذه النهاية، لأنني ما زلت أجهلها. لم يعد دوراً من الأدوار. إنها الحياة.

وفي الحياة لا وجود للمتفرجين.

يرتفع الستار.

أيها الناس، لقد أحببتكم...

إسهروا!

. . . .

مقتطفات من الفصل الثاني بعنوان: «إلى سكرة الموت»:

. . . .

«عندما تنطفىء أشعّة الشمس، ويخبو ضياء النجوم من أجلنا، فهي تنطفىء من أجلنا...».

رجلان محدودبا الظهر، يداهما مجموعتان إلى بعض، يمشيان بخطى ثقيلة بطيئة، في ذلك القبو الأبيض، يدوران منشدين بصوت مديد متناثر النغم مزموراً حزيناً دينياً.

«يلذّ للأنفس أن ترتفع إلى السماء،

أن ترتفع إلى السماء...».

واحد مات. من؟ حاولت أن أدير رأسي، ربما أرى النعش، والفقيد، والشمعتين المضاءتين فوق رأسه.

«حيث ينتهي الليل

ينتشر النور الأبدي...».

وفتحت عيني. لم أر أحداً. لا يوجد أحد هنا. هما الإثنان فقط وأنا. لمن ينشدان المزامير إذن؟

«هذه النجمة المشعة أبداً، هي يسوع،

هي يسوع...».

هذا مأتم. إنه دفن حقيقي. ومن ترى يدفن في الأرض؟ من هنا؟ هما الإثنان فقط، وأنا. أيعقل أن تكون جنازتي؟

اسمعاني، يا صديقيّ، هناك خطأ

أنتما في خطأ كبير، لست ميتاً.. إنني حيّ وها أنا أنظر إليكما، حديثي لكما، توقفا.. لا تدفناني.

«عندما يقول لنا أحد وداعاً إلى الأبد،
إلى الأبد...».

أفلا يسمعانني، هل هما أصمّان؟ إنني أتكلم بصوت عال. أم أنني حقاً ميت، ولا يمكنهما سماع صوتي بدون جسد؟ إن جسمي هنا ملقى على بطنه، فهل يمكن أن أشاهد جنازتي بعيني! طرافة غريبة!

«يرفع نظره التقيّ الورع إلى السماء،
إلى السماء...».

تذكّرت: التقطني شخص عن الأرض.. ألبسني ثيابي، ورفعني على محمل الموتى. وكانت قدماه المصفحتان بالحديد ترنّ في عمق الرواق، ثم.. هذا كل شيء، لا أعرف أكثر.

لا أعرف شيئاً أبداً.

«...حيث ينتشر النور الأبدي..».

كان ذلك كله بلا معنى. أنا حيّ، أنا حي. أحس بوجع بعيد. وبي عطش شديد ملحّ. والموتى لا يعطشون.. أركز كل قواي كي أتحرك، مع يدي، وصوت غريب، وشخص آخر.. يخرج من حلقي:

ـ إسقني!

توقف الرجلان عن الدوران.. هما ينحنيان الآن عليّ، يرفع واحد منهما رأسي الثقيل، ويعطيني كأساً من الماء.

ـ يجب أن تأكل شيئاً، يا صاح، منذ يومين وأنت تشرب، تشرب باستمرار.

ـ ماذا تقول؟ منذ يومين وأنا أشرب الماء؟ في أي يوم نحن؟

ـ الإثنين!

الإثنين. كان يوم جمعة عندما اعتقلت. كم هو ثقيل رأسي، وكم هو منعش هذا الماء!

أريد أن أنام. أريد أن أنام!

مثلما تعكر نقطة ماء صفحة النبع الصافية. إنه نبع في حضن مرج نضير، ينساب في وسط الجبال، تذكرت.. إنه بالقرب من بيت حرس الغابات، على أقدام جبل روكلان... والرذاذ الناعم المتواصل يتمتم على أفنان الشجر... ما ألذ النوم.

عندما استيقظت من نومي، كان يوم ثلاثاء، وأمامي كلب. إن عسبور (سلالة

من الكلاب قوية البدن تتميز بالفهم)، ينظر إليّ، يتفحصني بعينيه الوديعتين، ويسأل:

ـ أين كنت تسكن؟

لا! هذا صوت إنسان، لا يمكن أن يكون صوتاً لهذا الكلب. أجل هناك شخص آخر، أرى جزمة كبيرة، وتلك جزمة أخرى، وهذه سراويل عسكرية، لا. لا أرى شيئاً.. سينتابني الدوار إذا تطلعت، ما همّ. أتركوني أنام قليلاً...

الأربعاء. كان الرجلان اللذان أنشدا المزامير. يجلسان على طاولة ويأكلان في قصعة من الفخار. أعرفهما... أحدهما فتي والآخر أكبر سناً. ليسا راهبين، لا. وقبو الكنيسة ذاك، ليس قبواً حقيقياً. إنها زنزانة سجن عادية، هذه هي مزالقها المشتركة تنطلق من أمام عيني لتصل إلى الباب الأسود الثقيل...

ها هي المفاتيح تصرّ في أحشاء القفل. فيقفز الرجلان متأهبين. ويدخل آخران يرتديان بزة رجال الأس. أس. ويأمرانني بارتداء ملابسي.

كنت أجهل حتى الآن، كم من الأوجاع تختبىء في كل جنب من بنطلوني وفي كل كمّ من قميصي.

رفعاني على حمّالة ونقلاني إلى تحت درج طويل. والأحذية المصفحة بالحديد ترن في جوف ذلك الرواق.. هذا هو الطريق الذي منه جئت، وخرجت، ورجعت فاقد الوعي.. أين ينتهي؟ إلى أي جحيم يؤدي؟

ورُميت على الأرض في المكتب القائم البشع لقلم محكمة سجن الشرطة الالمانية في بانكراك. وعلا صوت أجش من فمّ أبلد تشيكي يترجم لي سؤالاً بصقه بصوت ألماني بغضب:

ـ أتعرفها!

سندت ذقني بيدي. ورأيت، أمام نقالتي، صبيّة عريضة الوجنتين، تقف بإعتزاز وكبر، رافعة الجبين، غير معاندة، وقورة، منخفضة العينين قليلاً، تماماً ما كان يلزم لرؤيتي وإلقاء التحية علي.

ـ لا أعرفها.

أذكر أنني رأيتها مرة واحدة، قد تكون لحظة خاطفة، في تلك الليلة المتوحشة في قصر بيتشنيك. وهذه هي المرة الثانية الآن، وللأسف، لن تكون هناك مرة ثالثة، أبداً، أستطيع أن أصافح فيها كبر سلوكها. إنها زوجة أرنوست

لورينز. وقد نفذ بها الحكم بالإعدام في أول يوم من إعلان الأحكام العرفية سنة ١٩٤٢.

ـ وهذه؟ إنك تعرفها طبعاً.

أنيكا جيراسكوفا. رباه، أنيكا، كيف وصلت إلى هنا؟ لم ألفظ اسمك قط. لم يجمعني بك أي شيء مشترك؟ أنا لا أعرفك.. أتفهمين معنى ذلك... لا أعرفك...

ـ لا أعرفها.

ـ كن عاقلاً يا هذا.

ـ لا أعرفها.

ـ فات الأوان يا يوليوس، قالت أنيكا. وحدها شدة الأصابع الواهنة على منديلها تدلّ على مدى انفعالها:

فات الآوان. سلّموني.

من؟

ـ إخرسي! وأوقف أحدهم جوابها، دافعاً بها بوحشية إلى الوراء عندما انحنت لتصافح يدي.

أنيكا.

لم أسمع بعده سؤالاً آخر. فقط من بعيد وئيداً ودون ألم، فكأنني مشاهد نفسي أشعر كأن رجلي الاس. اس. يرجعان إلى الزنزانة. يمرجحان النقالة بشراسة. ويسألاني مقهقهين بفظاظة إذا كنت أفضّل أن أتمرجح معلقاً من رقبتي.

الخميس، ها أنا ألمح الآن واحداً من رفاق الزنزانة... الأصغر... واسمه شارل. يخاطب الثاني الأكبر سناً يقول: «أبي». أخبراني قصتها. لكن الأشياء تختلط في رأسي، ففي داخله منجم وأولاد يجلسون على البنوك... أسمع صوت جرس... وتشتعل النار في كل مكان.

يبدو أن الطبيب ورجل الأس. أس. يزوراني كل يوم: ليست حالتي خطرة. سأتعافى عمّا قريب. هو «الأب» الذي قال ذلك، ويقوله بإصرار، ويؤكد شارل كلامه، لكنني أعرف انها كذبة مقبولة لترضيني. ما أطيبها. وكم آسف ألا أصدقها.

وبعد الظهر، إنفتح باب الزنزانة، وأسرع بمنتهى الهدوء، كلب على أطراف

قوائمه. ها هو يقف أمام رأسي، ينظر الي بكل إنتباه.. ثم.. جزمتان كبيرتان ـ عرفت الآن: الجزمة الأولى لصاحب الكلب، مدير سجن بانكراك. والثانية لرئيس قسم مكافحة الشيوعية في الغستابو، وهو الذي أشرف على استجوابي الليلي.

وخلفها سراويل مدنية.

ألاحقها بعينين من أسفل إلى فوق. نعم، أعرف هذا، إنه المفوض الطويل المزيل الذي قاد الفرقة الخاصة ضدنا. جلس على الكرسي.. وبدأ الإستجواب.

ـ فشلت في مشروعك. أنقذ رأسك على الأقل، تكلم!

ـ كم مكثت لدى عائلة باكسا؟

ـ ألسنا نعرف كل شيء؟ تكلم!

ـ ما دمتم تعرفون كل شيء. فلماذا أتكلم؟ أنا ما عشت سدى، لم تكن حياتي عقيمة. لن أفسد إذن نهايتي.

واستمر الإستجواب ساعة. لم يزعقوا بأصواتهم، رددوا الأسئلة بأناة. ولم يتلقوا جواباً واحداً. طرحوا سؤالاً ثانياً وثالثاً وعاشراً.

ـ ألا تفهم؟ إنتهى الأمر، فهمت، ضاع كل شيء.

ـ وحدي أنا من قضي عليه.

ـ ما زلت تؤمن إذن بانتصار الكومونة؟

ـ بكل تأكيد.

ـ أتعتقد ذلك؟ سألني الرئيس باللغة الالمانية وترجم المفوض الطويل ـ مازال يؤمن بانتصار روسيا؟

ـ بكل تأكيد. لن ينتهي الأمر إلا كذلك.

تعبت. ركّزت كل قوتي لكي أتجنب أسئلتهم، لكن عقلي الآن ينطلق بسرعة كالدم النازف من جرح عميق. أحس الآن بوضوح، كيف يمدون لي يدهم، ربما هم يقرأون إشارة الموت على جبيني. فثمة بلدان من عاداتها أن يعانق الجلادُ المحكوم عليه بالإعدام قبل التنفيذ.

وفي المساء. رجلان محدودبا الظهر، مضمومي الأيدي، يدوران الواحد خلف الآخر ينشدان بصوت مديد متنافر النغم مزموراً حزيناً:

«عندما تنطفىء أشعة الشمس،

ويخبو ضياء النجوم من أجلنا...».

كفى! يا صديقيّ، توقفا، هي دون شك أغنية جميلة لكننا اليوم في أول آيار، أجمل وأحلى عيد للإنسان. حاولت أن أنشد شيئاً ما مرحاً، سيكون ذلك أشد حزناً، لأن شارل يشيح برأسه، والأب يمسح بيده عينيه. ما همّ. لن أستسلم. سأستمر في الإنشاد. وعلى مهل، رويداً رويداً إنضم الإثنان إليّ. ونمت بفرح.

في فجر أول آيار. دقت ساعة البرج الصغير في السجن ضربات ثلاث. سمعتها لأول مرة بوضوح، ولأول مرة منذ دخلت السجن. إنني بكامل وعيي. أحس النسيم العليل يدخل من أسفل النافذة المفتوحة يتنزه حول فراشي، أشعر برؤوس القش تنطبع على صدري، على بطني، وكل جزء صغير من جسمي يؤلمني بألف وجع، إنني أتنفَّس بصعوبة. وها أنا الآن فجأة، أرى الأشياء بوضوح. كأنما أفتح نافذة جديدة:

هي النهاية.

إنني في سكرة الموت.

طال وصولك أيها الموت.

تمنيت لو تعرفت إليك فيما بعد. بعد سنين طويلة.

تمنيت عيشة إنسان حر..

تمنيت لو عشت لأعمل كثيراً، أحب كثيراً، أغني كثيراً وأجوب العالم كثيراً.

فأنا الآن نضجت، وكانت لي قوة عظيمة، لم تعد لي. إنطفأت كلها فيّ.

أحببت الحياة جمالها. وذهبت إلى ساحة المعركة. أحببتكم أيها الناس، وكنت سعيداً عندما كنتم تشعرون بمحبتي لكم.

وتعذبت، يوم لم تفهموني. فليسامحني من أسأت إليه. ولينسني من آسيته.

أود ألا ترتبط الكآبة أبداً باسمي، هي وصيتي لكم، يا أبي وأمّي وشقيقتي، يا حبيبتي غوستا.

ولكم يا رفاق، ولكل من أحببت.

وإذا كانت الدموع تمحو زوبعة التعب الحزينة، فابكوا لحظة صغيرة صغيرة.

ولا تتأسفوا.

فأنا، عشت للفرح، وأموت للفرح.

قد تسيئون إلي إن وضعتم على قبري ملاك الحزن.

كان أول أيار فيما مضى، في نفس الساعة. كنا يومذاك واقفين في ضواحي المدينة، لجهز راياتنا. وفي نفس الساعة في شوارع موسكو، تمشي المجموعات الأولى لتشارك في العرض. والآن أيضاً، وفي نفس الساعة، تقاتل ملايين الناس من أجل المعركة الأخيرة للحرية البشرية وتسقط الألوف الألوف في هذه المعركة. أنا واحد منهم. أن أكون واحداً منهم، واحداً من المقاتلين في المعركة الأخيرة، لشيء رائع.

سكرة الموت ليست جميلة.

أكاد اختنق.. يصعب علي التنفس.

أسمع الحشرجة في حلقي.

أخشى أن أوقظ رفاق زنزانتي.

لو كان حلقي أقل يباساً...

وقد نفد الماء من الأبريق، وهناك على بعد أمتار مني بيت خلاء فيه ماء كثير. كيف الوصول...

زحفت على بطني على مهل رويداً رويداً، كأن مجد الموت ألاّ أوقظ أحداً، وصلت. شربت الماء بنهم. كم استغرق ذلك من الوقت لست أدري! كم توجب عليّ في العودة زاحفاً، لست أدري!

ها أنا أفقد وعيي مرة أخرى...

أجس النبض في معصمي.

لا أحس شيئاً.

فقد صعد قلبي إلى حلقي، ثم سقط.

وسقطت معه.. سقطت طويلاً، أثناء جولتي وما زلت أسمع صوت شارل.

ـ إسمع يا أبي، إسمع! إنه مشرف على الموت هذا المسكين.

جاء الطبيب في الصباح.

عرفت ذلك بعد وقت طويل طويل.

وصل، تفحّص صدري بسماعته، وهز رأسه. ثم دخل إلى غرفة التمريض.

ومزق وثيقة وفاتي التي حضروها في المساء، وقال بثناء الأخصائي:

ـ أي عافية في هذا الإنسان.

الماركسية

وحرب الأنصار والحرب الثورية

بحث ـ ونصوص

الماركسية
وحرب الأنصار والحرب الثورية

لن يكون في مقدورنا هنا، وليس من مهمتنا، أن ننخرط في بحث علمي تاريخي حول التطوّر الذي شهدته الحركة الثورية والأشكال التي اتخذتها هذه الحركة في تطوّرها لكي نحدد الدور الذي مارسته الماركسية منذ نشوئها كنظرية علمية ثورية للتطوّر التاريخي هي الاشتراكية العلمية وكحركة تناضل من أجل تحقيق الشيوعية أرقى نظام يمكن أن تصل إليه البشرية على طريق التقدم. مهمتنا هي أكثر تواضعاً. إننا نريد أن نؤكد، في سياق بحثنا عن المقاومة ودورها وموقعها في الحركة الثورية اللبنانية والعربية، أن ما نشهده الآن من تطوّر عاصف في الحركة الوطنية الثورية للشعوب، في حركة التحرر والتقدم، بأشكال النضال التي تمارسها كافة، إنّما هي استمرار وتواصل لكفاح ثوري قديم أغنته الماركسية وطورته، ووضعته على الطريق السوي، فيما اكتشفته من قوانين موضوعية للتطور، وفيما قدمته من نظرية كونية للثورة، وفيما خلقته من أداة تنظيمية كفاحية، لاستمرار الثورة ولنجاحها، والتي تتجسد في الحزب الثوري، حزب الطبقة العاملة، الحزب الشيوعي. وقد أكدت الماركسية، في نظريتها العلمية للتطور التاريخي، أن الصراع بين الطبقات هو المحرك الأساسي للتطور. وقد اتخذ هذا الصراع أشكالاً عديدة، اختلفت بين طور تاريخي وطور آخر. وما يهمنا من هذه الإشارة إلى هذا الأمر هو أنّ الكفاح الثوري من أجل التحرر من

السيطرة الأجنبية، والكفاح من أجل التغيير الثوري، إنما يستندان إلى هذا القانون، قانون الصراع بين الطبقات، أياً كان شكل تجليه. وما يهمنا، أيضاً، هو أن نؤكد أن الصراع هذا، في شتى مراحل تطوّره، وعلى كل جبهاته، هو، في المجتمع الطبقي، صراع عنيف لأنّه قائم بين قوى متناقضة، في مصالحها ومواقعها وفي فكرها، تناقضاً تناحرياً لا ينتهي إلا بالحسم الثوري، إلا بالثورة التي تغير الواقع القائم وتنشىء بديلاً جديداً له هو نقيضه. «العنف هو القابلة القانونية التي تصنع المجتمعات الجديدة». هذا ما قاله ذات يوم، انجلز مؤكداً في هذا القول أن الصراع بين الطبقات، المحرك الأساسي لتطور التاريخ ولتجديد المجتمع، هو صراع عنيف. واستناداً إلى ذلك رصد ماركس وإنجلز، باهتمام كبير وبدقة استثنائية، حركة الأحداث في عصرهما وفي العصور السابقة. راقبا تطور الحروب التي كانت تجري في أوروبا، بين بلدان هذه القارة، على وجه الخصوص، والحروب التي كانت تجري بين الامبراطوريات الأوروبية، من جهة، وشعوب البلدان المستعمرة، من جهة ثانية. كما رصدا حركة الثورات التي اندلعت بكثافة في القرن التاسع عشر والتي كانت تحمل طابع العصر وتناقضاته وصراعاته، طابع الطور التاريخي الجديد الذي كانت تنتقل إليه البشرية، عصر قيام النظام الرأسمالي الذي بشرت به وفتحت الآفاق أمامه كل من الثورتين البرجوازيتين الانكليزية في القرن السابع عشر، والفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر. فقد كانت تلك الحروب والثورات تعبّر بوضوح بتزايد على الدوام عن تطور الصراع الطبقي، وتبلوره، أكثر فأكثر، بين قطبي التناقض في المجتمع الجديد، بين الطبقة العاملة وفئات الشغيلة والشعوب التي يستثمرها الرأسمال، من جهة، وبين الرأسمال، من جهة ثانية. واستناداً إلى ذلك رأى ماركس وانجلز، منذ بداية عهدهما في تأسيس النظرية العلمية للإشتراكية، في الحركات الأولى التي قامت بها شعوب الشرق ضد الاضطهاد القومي والطبقي تعبيرات، بدرجات متفاوتة عن نشوء حركة ثورية تحمل، موضوعياً، وفي أشكال أوليه، مضمون الحركة ذات الطابع الثوري المعادي لسيطرة الرأسمالية، حركة الصراع الطبقي، من موقع الطبقة العاملة في نضالها للإطاحة بالنظام الرأسمالي واقامة المجتمع الاشتراكي البديل. ولذلك لم يكن مستغرباً أن يعالجا في سلسلة من مقالات، كتباها في الخمسينات من القرن التاسع عشر، لصحف أميركية وانجليزية حول الصين وايران والهند والجزائر ولبنان وأفغانستان وبورما وسواها، في الوقت الذي كانا يرصدان فيه تطور الحركات الثورية في أوروبا كلها ولا سيما في فرنسا والمانيا التي كانت تقودها الطبقة العاملة عبر أحزابها الاشتراكية الناشئة.

ولقد تميز كل ما كتباه، حول هذه الحركات الوطنية وحول الثورات ذات الطابع البروليتاري، بالتأكيد على أن أشكال النضال لا حدود لها وأن أرقى أشكال النضال الثوري هو النضال المسلح الذي تقوده الطبقة العاملة من أجل التغيير، والذي يتطلب من القوى المنخرطة فيه أن تحمل السلاح وتحسن استخدامه، من أجل تحقيق الانتصار للثورة. إلاّ أن الكفاح المسلح لم يكن بالنسبة لهما إلاّ شكلاً، من أشكال النضال، يحدد طريقة اللجوء اليه وزمانه ومكانه حسن استخدام الحركة الثورية له كعلم وكفن قائمين بذاتهما. من هنا تأكيدهما على لسان إنجلز في كتابه **«الثورة والثورة المضادة في المانيا»، «إن الانتفاضة هي، مثل الحرب، فن كسائر الفنون، تخضع لقوانين وقواعد»**.

وعلى أساس نظريتهما هذه شكل ماركس وإنجلز الحزب الشيوعي واصدرا البيان الشيوعي، وأنشآ الجمعية العالمية للشغيلة، الأممية الأولى، عام ١٨٦٤. وعلى هذا الأساس، أيضاً، حذّرا من قيام كومونة باريس قبل أن تحصل، خوفاً عليها من أن تجهض، وقيّماها تقيماً عالياً، بعد وقوعها.

وقد تميزت عبقرية لينين في أنه حوّل الفكرة إلى واقع في تأسيسه لنظرية انتصار الثورة في بلد واحد، والاعداد لثورة أكتوبر الاشتراكية، والعمل من أجل انتصارها، وفي إغنائه النظرية العلمية للاشتراكية، في الفكر الثوري وفي الممارسة الثورية، وفي استناده إلى الانتصار العظيم الذي حققته ثورة أكتوبر بإقامة أول سلطة للعمال والفلاحين، أول نظام اشتراكي، أول علاقات انتاج من نوع جديد على انقاض النظام البرجوازي القديم، وتوحيد البروليتاريا العالمية وشعوب البلدان المستعمرة والتابعة في حركة واحدة ضد الامبريالية وضد نظامها الرأسمالي، والانتقال بالبشرية إلى عصر جديد، عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

وهكذا تكوّنت وتطورت حركات ثورية من نوع جديد شملت العالم كله ومارست تأثيراً أساسياً في تطورها ثورة أكتوبر والآثار العظيمة التي خلفتها في الوضع العالمي. لقد دشنت ثورة أكتوبر عصراً جديداً في الثورات المعادية للامبريالية وللنظام الرأسمالي، ثورات عمالية وثورات وطنية تحررية، توحدت جميعها في حركة كونية ضد العدو الرئيسي للشعوب المضطهدة وللطبقات المستثمرة، الامبريالية العالمية ونظامها الرأسمالي، نظام الاحتكارات والقهر الطبقي والقومي، نظام الحروب العدوانية ضد الشعوب، والتوسع على حساب مصالحها القومية وعلى حساب مصير البشرية وأمنها وسلامها.

إننا حين نتحدث اليوم عن المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي، وعن حرب الأنصار، وعن الانتفاضات المسلحة، وعن الثورات والحروب الأهلية، في لبنان وفي الوطن العربي وفي العالم، فإننا نتحدث عن هذه الحركة الثورية بتطورها العاصف. ولكننا، ونحن ننظر إلى المستوى المتقدم الذي بلغته هذه الحركة في عصرنا، لا يمكن إلا أن نشير إلى الإتساق العام في تطوّرها وإلى الترابط التام بين أجزائها وأن نرى في هذا الاتساق والترابط تعبيراً عن التجلي الموضوعي لفعل القوانين الموضوعية. ويتجسّد ذلك في ثورات أوروبا، في منتصف القرن الماضي، وكومونة باريس، في أواخر القرن، والثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥، وثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى ١٩١٧، والثورة الصينية والثورة الفيتنامية والثورة الكوبية وسواها من الثورات المعاصرة. وهي الثورات التي تميزت بدور أساسي في قيامها وفي قيادتها للطبقة العاملة وحزبها. وهو ما أكده انتصار ثورة أكتوبر التي ارتبط بانتصارها قيام عصر جديد هو عصر الثورات المتواصلة، عصر انتقال البشرية إلى الاشتراكية وهي السّمة التي تطبع كل الحركات الثورية وتجعل من غير الممكن لأي ثورة، لكي تنتصر وتحافظ على انتصارها إلا أن تضع أمامها مهمة الاندماج في حركة التغيير الثوري، وأن يكون للطبقة العاملة وحزبها دور طليعي وأساسي فيها.

وقد أثبتت حركات المقاومة التي قامت في أوروبا الشرقية والغربية خلال الحرب العالمية الثانية أنه بمقدار ما كانت المقاومة أكثر ارتباطاً بهدف التغيير الثوري للمجتمع بقيادة الطبقة العاملة وحزبها بمقدار ما كانت هذه الحركات تتحوّل من مجرد مقاومة إلى ثورات للتحرر الوطني من السيطرة الفاشية والتحرر الإجتماعي على السواء. كذلك كان الأمر بالنسبة للحركات الثورية بأنواعها المختلفة المتعددة التي عمت قارات آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، في ظل وهج الانتصار الساحق على الفاشية، الذي لعب الدور الأساسي والحاسم فيه الاتحاد السوفياتي، والذي أدى إلى قيام منظومة اشتراكية عالمية.

ولا شك أن هذه التجارب العديدة الغنية المتنوعة في الكفاح من أجل الحرية والتقدم قد شكلت بمجموعها تراثاً للبشرية التقدمية كلها هو ملك لكل شعب وللحركة الثورية فيه وللطبقة العاملة، بشكل خاص. ونعتبر أننا كحزب شيوعي، كحزب للطبقة العاملة، وكحركة وطنية ثورية، في لبنان، إنما ننخرط في الحرب الأهلية من هذا الموقع الطبقي الثوري، بشقيه الوطني والاجتماعي، من موقع الطبقات الاجتماعية ذات المصلحة في عملية التغيير الثوري للمجتمع بعد تحريره من كل أشكال السيطرة الأجنبية. ونعتبر أنّ الإنتصار في هذه الحرب لجبهتنا ولمثلها ولبرنامجها مشروط بمقدار ما تقدمه الحركة الثورية من وضوح

في خطها السياسي ومن ثبات في نهجها، القائمين على الخيار الوطني الديمقراطي، ومن قدرة على الإستخدام العلمي الصحيح لكل أشكال النضال بما فيها الكفاح المسلح من أجل تحقيق أهداف الثورة. ثم إننا نعتبر أخيراً أن شكل مقاومتنا للإحتلال الإسرائيلي إنما يحمل في داخله نفس مضمون النضال الذي نخوضه في الحرب الأهلية من أجل انتصار مشروعنا الوطني الديمقراطي والذي بمقدار ما يتحقق يتحقق معه هدفنا المرحلي في إقامة حكم وطني ديمقراطي، بديل لنظام الطغمة المالية الطائفي الرجعي.

لقد أسست الماركسية نظرية متكاملة للكفاح المسلح، هي جزء من النظرية العلمية الثورية للنضال من أجل التحرر والتقدم، وبناء المجتمع الاشتراكي الجديد على أنقاض النظام الرأسمالي الهرم. وهي نظرية ثورية للكفاح برهنت صحتها الثورات المنتصرة، وتصدي أحزاب الطبقة العاملة لقيادتها أو للعب الدور الطليعي فيها، في بلدان مختلفة شملت كل القارات. وقد كانت ممارسة الكفاح المسلح، في أشكاله كلها، في التورات، وفي الانتفاضات، وفي مقاومة العدوان الخارجي والاحتلال، وفي الحروب الأهلية، ميداناً لتجربة غنية ما تنفك تزداد غنى وثراء، وتزداد معها الحركة الثورية تقدماً وتحقق المزيد من الانجازات.

هذه النظرية وهذه التجارب الغنية، والدروس التي تم استنتاجها منها، هي كلها أمور نحن بحاجة لأن نتعلم منها الكثير، ونعلم أجيالنا، ولنحاول، ونحن نتعلم ونعلم، أن نتجنب الأخطاء ونفيد منها ونبتكر أساليب جديدة تجعل كفاحنا أكثر قدرة على تحقيق المهمات المطروحة أمامه بنجاح.

٢ نصوص ماركسية ونصوص لماركسيين معاصرين

وسوف نقدم هنا بعض المقتطفات من نصوص ماركسية كلاسيكية، ومقتطفات من نصوص لماركسيين معاصرين، قادوا أو ساهموا في قيادة ثورات وانتفاضات وحروب

أنصار، في بلدان مختلفة، وفي مراحل تاريخية مختلفة، وفي ظروف داخلية واقليمية وعالمية مختلفة. وهي نصوص تبرز الموقع الذي يحتله الكفاح الثوري المسلح، في أشكاله كافة، في العملية الثورية.

ماركس وانجلز . . . .

كثيرة هي النصوص التي يمكن الاستشهاد بها مما كتبه مؤسسا النظرية الماركسية، ماركس وانجلز. ولكننا اخترنا هنا نموذجين من هذه النصوص: النموذج الأول مأخوذ من كتاباتهما الأولى حول حروب التوسع والاستعمار التي كانت تقوم بها الدول الأوروبية ضد بلدان وشعوب آسيا وأفريقيا. النموذج الثاني مأخوذ من كتاباتهما حول الثورات الأوروبية، ولا سيما كومونة باريس.

من النموذج الأول نختار ثلاثة نصوص، نصين لماركس ونصاً لانجلز.

في النص الأول عن «الصين وايران» الذي نشر في جريدة «نيويورك ديلي تريبيون» في ٥ حزيران ١٨٥٧ يقول ماركس:

... من الواضح أنه يسود حالياً بين الصينيين روح مغاير عمّا بدر منهم في الحرب من ١٨٤٠ حتى ١٨٤٢. كان الشعب هادئاً في ذلك الحين، وقد ترك لجنود الامبراطور أن يقاتلوا الغزاة، واستسلم بعد الهزيمة لسلطان العدو بتلك القدرية الشرقية. لكن جماهير الشعب في الوقت الراهن، على الأقل في الأقاليم الشرقية التي اقتصر النزاع عليها حتى الآن، تسهم بنصيب فعال، بل متعصب، في النضال ضد الأجانب. إنهم يسممون خبز المستعمرة الأوروبية في هونغ كونغ، بالجملة وبتصميم يتصف ببرودة الأعصاب التامة (لقد أرسلت عدة أرغفة إلى ليبيغ لفحصها، فوجد كميات كبيرة من الزرنيخ في جميع أجزائها، مما يبين أن الزرنيخ مزج بالعجين نفسه. وعلى أية حال، فقد كانت المقادير كبيرة جداً بحيث عملت كمقيء، وبالتالي عدلت آثار السم). وإنهم ليصعدون بأسلحة مخبأة إلى المراكب التجارية، وفي أثناء الرحلة يقضون على الملاحين وعلى المسافرين الأوروبيين ويستولون على المركب. وإنهم يختطفون ويقتلون كل أجنبي تصل إليه أيديهم. بل إن الحمالين الذين يسافرون إلى البلدان الأجنبية يتمردون، كما لو كانوا على اتفاق سابق، على ظهر كل سفينة ركاب، ويقاتلون من أجل الاستيلاء عليها، ويرفضون الاستسلام، مفضلين أن يغرقوا مع السفينة إلى قاع البحر أو يفنوا في النيران المشتعلة فيها. وحتى خارج الصين، وهم أضعف الرعايا وأخنعهم حتى هذا التاريخ، يتآمرون ويهبون على حين غرة في عصيان ليلي، كما حدث في سارافاك؛ أو لا يمكن قهرهم إلا بالعنف واليقظة وحدهما، كما حدث في سنغافورة. إن السياسة العملية التي تنتهجها الحكومة البريطانية قد أدت إلى هذا الانفجار العمومي لجميع الصينيين ضد جميع الأجانب، وأضفت عليه صفة حرب الإبادة.

ماذا يستطيع الجيش ضد شعب يلجأ إلى مثل هذه الوسائل في الحرب؟ أين، وحتى أي

مكان، يستطيع أن يتغلغل في أراضي العدو. وكيف يستطيع البقاء هناك؟ إن تجار الحضارة الذين يرمون القنابل الحمر على مدينة عزلاء ويجمعون السلب إلى القتل قد يصفون هذه الأساليب بالجبن والهمجية والوحشية، ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة إلى الصينيين بشرط أن يكون النجاح حليفهم؟ وما دام البريطانيون يعاملونهم على أنهم برابرة، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا عليهم كل فضائل همجيتهم. وإذا كانت عمليات الاختطاف التي يقومون بها، والمجمات المفاجئة، والمذابح الليلية، هي ما نسميه جبناً، فيجب على تجار الحضارة ألا ينسوا، وهذا ما اعترفوا به هم أنفسهم، أن الصينيين لا يستطيعون أن يقاوموا وسائط الدمار الأوروبية بوسائلهم الحربية العادية.

وباختصار، فبدلاً من مواعظنا عن الفظائع الرهيبة التي يرتكبها الصينيون، كما تفعل الصحافة الانكليزية الباسلة، يحسن بنا أن نعترف بأن هذه الحرب هي حرب للدفاع عن المال والمأوى، حرب شعبية في سبيل الحفاظ على القومية الصينية، بكل ما تشتمل عليه من أوهام جارفة، وبلاهة، وجهل يدعي المعرفة، وهمجية متحذلقة إذا شئتم، لكنها حرب شعبية مع ذلك. ولا يمكن في الحرب الشعبية مقارنة الوسائل التي تستخدمها الأمة الثائرة مع القواعد المعترف بها عامة للحرب النظامية، أو مع أي مقياس مجرد آخر، بل مع درجة الحضارة التي بلغتها تلك الأمة الثائرة فقط.

وإن هناك لشيئاً واحداً أكيداً، الا وهو أن الساعة الأخيرة للصين العتيقة تقترب سريعاً. إن الحرب الأهلية قد فصلت من قبل جنوب الأمبراطورية عن شمالها، والملك الثائر في حرز من القوات الامبراطورية فيما يبدو (إن لم يكن من مكائد أتباعه الخاصين) في نانكنغ، كما أن امبراطور السماء في حرز من العصاة في بكين. وإنّ كانتون لتخوض حتى الآن نوعاً من الحرب المشتعلة ضد الانكليز، وضد جميع الأجانب على العموم، وبينما تتدفق الأساطيل والقوات البريطانية والفرنسية إلى هونغ كونغ، فإن القوزاق على الحدود السيبيرية يتقدمون بمرابطهم ببطء لكن بثبات من جبال داوور إلى ضفاف نهر آمور، وقوات البحرية الروسية تطوق بالتحصينات مرافيء منشوريا الرائعة. إن التعصب الذي يتصف به الصينيون الجنوبيون في نضالهم ضد الأجانب يبدو أنه يشكل دلالة على وعي الخطر الأكبر الذي تجابهه الصين العتيقة؛ ولسوف نكون شهوداً، قبل مضي سنوات كثيرة، على نزاع أقدم امبراطورية في العالم، وبزوغ عصر جديد بالنسبة إلى آسيا بمجموعها.

وفي النص الثاني عن «الثورة في الصين وفي أوروبا» الذي نشر في جريدة «نيويورك ديلي تريبيون» في ١٤ حزيران ١٨٥٣ يقول ماركس، أيضاً:

ان واحداً من أعمق وأغرب أولئك الذين أعملوا الفكر في المبادىء التي تتحكم بحركات

البشرية، قد اعتاد أن يمجد ما يسميه قانون وحدة الأضداد على اعتبار انه أحد أسرار الطبيعة الرئيسية. ولقد كان يعتقد أن المثل الشائع الذي يقول ان «الضدين يلتقيان» هو حقيقة عظمى وفعالة في كل مجال من مجالات الحياة، بدهية لا يستطيع الفيلسوف أن يستغنى عنها أكثر مما يستطيع الفلكي أن يستغنى عن قوانين كبلر أو الاكتشاف العظيم الذي توصل نيوتن اليه.

وسواء أكانت وحدة الأضداد مثل هذا المبدأ العمومي أم لا، فإن مثالاً بارزاً عنها يمكن أن يصادف في التأثير الذي يبدو أن الثورة الصينية تمارسه على العالم المتحضر. وقد يتراءى ان هذا التأكيد غريب جداً، وهو تأكيد يتصف بالمفارقة حتى درجة عظيمة، حين نقول ان الانتفاضة التالية لشعوب أوروبا، وحركتهم التالية في سبيل الحرية الجمهورية واقتصاد الحكم، سوف يتوقفان على الأرجح على ما يجري في الوقت الحاضر في الامبراطورية السماوية ـ وهي نقيض أوروبا التام ـ أكثر من توقفها على أي سبب سياسي آخر قائم حالياً ـ حتى أكثر من تهديدات روسيا وامكانية الحرب الأوروبية المترتبة على هذه التهديدات. ومع ذلك فليست تلك مفارقة في حال من الأحوال، وهو ما يستطيع الجميع فهمه اذا ما درسوا ظروف هذه الحال بكل عناية.

«وكائنة ما كانت الأسباب الاجتماعية، وكائناً ما كان الشكل الديني أو السلالي أو القومي الذي يمكن أن تتخذه هذه الأسباب التي تسببت في العصيانات المزمنة المتعاقبة في الصين حتى ما قبل عشر سنوات، والمتجمعة حالياً في ثورة جبارة واحدة، فإن فرصة هذا الانفجار قد وفرتها بصورة لا يطالها الشك المدافع الانكليزية التي فرضت على الصين ذلك العقار المنوم المسمى الافيون...

وفي النص الثالث عن «الجزائر» الذي نشر في «نيو أميركان انسكلوبيديا» عام ١٨٥٨، يقول انه لز:

... ومنذ احتل الفرنسيون الجزائر لأول مرة (١٨٣٠) حتى الآن، كانت هذه البلاد البائسة ميداناً لأعمال متواصلة من اراقة الدماء والسلب والعنف. لقد احتلت كل مدينة، كبيرة أم صغيرة، الواحدة تلو الأخرى، لقاء تضحيات هائلة. ان القبائل العربية والبربرية التي تقدر الاستقلال بأغلى الأثمان والتي تشكل كراهية السيطرة الأجنبية مبدأ أعز من الحياة نفسها بالنسبة اليها قد سحقت من جراء غزوات رهيبة أحرقت ودمرت خلالها مساكنها وممتلكاتها، وأتلفت مزروعاتها، بينما أولئك البائسون من أفرادها الذين بقوا على قيد الحياة قد سقطوا ضحية القتل الجماعي أو فريسة أهوال العهر والوحشية. ولقد ثابر الفرنسيون على استخدام هذه الأساليب الهمجية في الحرب ضاربين عرض الحائط بجميع قواعد الانسانية والحضارة والمسيحية، وكانوا يزعمون، تبريراً لأعمالهم، ان القبائليين قساة وميالون الى القتل، وانهم يعذبون أسراهم، وان التسامح حيال المتوحشين يشكل خطيئة فادحة.

«وفي ١٨٤٥، خرج الجنرال بيليسيه في حملة ضد عدة عشائر وقرى بني سالا الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب؛ وكما هي العادة، أحرقت ودمرت مزروعاتهم وجميع الممتلكات التي أمكن الوصول اليها. وفي زاب، وهي منطقة خصبة على حدود الصحراء، نشبت اضطرابات خطيرة في أعقاب تنبؤات أحد الشيوخ، فأرسلت ضد العصاة حملة تتألف من ١٢٠٠ رجل باءت بالهزيمة. لقد تبين ان العصيان امتد على نطاق واسع، تحرض عليه منظمات سرية سميت «سيدي عبد الرحمن» كان غرضها الرئيسي آفناء الفرنسيين. ولم تتحقق السيطرة على العصاة حتى أرسلت ضدهم حملة بقيادة الجنرالين كانروبير وهيربيللون. ومن جهة ثانية، فإن حصار المدينة العربية معسكره قد أثبت أن السكان الأصليين لم يفقدوا الشجاعة كما أنهم لم يقعوا في حب الغزاة. فقد قاومت المدينة جهود المحاصرين طوال ٥١ يوماً، وأخيراً أخذت عنوة. ولم تكن القبيلة الصغيرة قد استسلمت حتى عام ١٨٥١، حين أخضعها الجنرال سان أرنو، مقيماً بذلك خطاً للمواصلات بين فيليبفيل وقسطنطينة...

(هذه النصوص مأخوذة من كتاب «عن الاستعمار» مجموعة مقالات ومراسلات لماركس وانجلز ترجمة فؤاد أيوب).

. . . .

من النموذج الثاني نختار نصين الأول لانجلز والثاني لماركس.
النص الأول لانجلز مأخوذ من كتاب «الثورة والثورة المضادة في المانيا». وهو يحدد مفهوم الانتفاضة:

. ان الانتفاضة مثل الحرب، فن مثل سائر الفنون. وهي تخضع لقواعد معينة يؤدي اغفالها الى هلاك الحزب الذي يرتكب الخطيئة في عدم مراعاتها. وبما ان هذه القواعد عاقبة منطقية تنبع من جوهر الأحزاب، من جوهر تلك الظروف التي يتأتى العمل في ظلها في مثل هذه الحال، فهي واضحة وبسيطة الى حد ان التجربة القصيرة في عام ١٨٤٨ أطلعت الالمان عليها بصورة كافية. أولاً، عدم اللعب أبداً بالانتفاضة اذا لم يتوفر التصميم على السير الى النهاية. الانتفاضة هي معادلة ذات اعداد غير محددة اطلاقاً، ويمكن أن تتغير مقاديرها في كل يوم، القوى القتالية التي يتأتى العمل ضدها تملك كلياً أفضلية التنظيم والانضباط والمكانة التقليدية؛ اذا لم يستطع المنتفضون أن يحشدوا قوات كبيرة ضد عدوهم، هزموهم وأبادوهم. ثانياً، حين تبدأ الانتفاضة، يتعين العمل بأعظم ما يكون من الحزم والانتقال الى الهجوم. ان الدفاع هو موت الانتفاضة المسلحة؛ ففي حال الدفاع، تهلك الانتفاضة قبل أن يتسنى لها أن تقاتل العدو. ينبغي أخذ العدو على حين غفلة، ما دامت قواته مبعثرة؛ ينبغي احراز النجاحات كل يوم، حتى ولو كانت صغيرة؛ ينبغي الاحتفاظ بالتفوق المعنوي الذي يوفره لك أول تحرك ناجح يقوم به المنتفضون؛ ينبغي أن تجتذب الى جانبك تلك العناصر المتقلقلة التي

تسير دائماً وراء الأقوى وتنحاز دائماً الى الجانب الأوثق، ينبغي اكراه العدو على التراجع قبل أن يتمكن من حشد قواته ضدك، خلاصة القول: اعمل بموجب قول أعظم معلم بين مشاهير معلمي التكتيك الثوري الذين عرفهم التاريخ حتى الآن، وهو دانتون: «de l'audace, de l'audace, encore de l'audace!» (الجرأة، الجرأة، وأيضاً الجرأة).

النص الثاني لماركس مأخوذ من كتاب «الحرب الأهلية في فرنسا». ويتحدث عن موقع كومونة باريس في العملية الثورية، وعن دلالات هذه الكومونة، في قيامها، وفي الانحار الذي حققته، وفي الضربة التي وجهت لها وقضت عليها:

. وكان على باريس هذه الآن إما أن تنزع سلاحها نزولاً على أمر مهين من مالكي العبيد المتمردين في بوردو وتقر بأن ثورة ٤ أيلول (سبتمبر) التي قامت بها، لم تعن شيئاً سوى نقل بسيط للسلطة من لويس بونابرت الى المدعين الآخرين بالعرش، واما أن تناضل بنكران الذات لأجل قضية فرنسا التي لا يمكن انقاذها من الانحطاط التام وبعثها الى حياة جديدة الا عن طريق التحطيم الثوري لتلك الأوضاع السياسية والاجتماعية التي أدت الى الامبراطورية الثانية وبلغت تحت رعايتها، منتهى العفونة. ان باريس التي أضنتها المجاعة خلال خمسة أشهر لم تتردد لحظة واحدة. لقد كانت مليئة عزماً بطولياً على اجتياز جميع مخاطر النضال ضد المتآمرين الفرنسيين، رغم المدافع البروسية التي كانت تهددها من قلاعها هي. غير ان اللجنة المركزية، بدافع من مقتها للحرب الأهلية التي حاولوا فرضها على باريس، ـ ظلت تلتزم خطة دفاعية بحتة، ضاربة عرض الحائط باستفزازات الجمعية الوطنية وتدخل السلطة التنفيذية عنوة واغتصاباً وحشد الجيوش على نحو خطر في باريس وحولها.

« .. ان باريس العمال قد أضرمت النار، خلال التضحية بنفسها على نحو بطولي، في بنايات ونصب تذكارية. وعندما يمزق ظالمو البروليتاريا جسدها الحي ارباً ارباً، لا يجوز أن يتوقعوا بعد ذلك أن يعودوا ظافرين الى مساكنهم السليمة. ان حكومة فرساي تصرخ: « حرق متعمد! »، وتهمس في آذان أذيالها حتى في أقصى قرية، الشعار التالي: « طاردوا أعدائي في كل مكان بوصفهم مجرد حارقين متعمدين ». ان برجوازية العالم كله التي تنظر بعين الرضى الى تقتيل الناس بعد المعركة، تستاء من « تدنيس » الآجر والملاط!

.. وبعد أفظع حرب من حروب الأزمنة الحديثة، اجتمع الجيش الغالب والجيش المغلوب من أجل الاشتراك في التنكيل الدموي بالبروليتاريا. إن هذا الحدث الخارق لا يبرهن، كما ظن بيسمارك، على أن المجتمع الجديد الذي يشق طريقه قد غلب على أمره نهائياً ـ كلا، انه يبرهن على التفسخ التام في المجتمع البرجوازي القديم. وأعلى وثبة بطولية كان المجتمع القديم ما يزال قادراً على القيام بها هي الحرب القومية، وقد ثبت الآن ان هذه ليست سوى تدليس صرف من الحكومة، أما القصد الوحيد من هذا التدليس فهو ارجاء النضال الطبقي، وحين يشب النضال

الطبقي ويتحول الى حرب أهلية، يتناثر التدليس هباء.

إن السيطرة الطبقية لم تعد قادرة على التنكر في ثوب قومي! ان الحكومات القومية ضد البروليتاريا هي يد واحدة.

... ومن الطبيعي أن يقف أعضاء جمعيتنا في المقدمة حيثما ينشب النضال الطبقي وأياً كان الشكل الذي يرتديه وأية كانت الظروف التي يصبح فيها ملموساً. ان التربة التي تنمو عليها هذه الجمعية هي المجتمع الحديث بالذات. ولا يمكن استئصال هذه الجمعية مهما أريق من الدماء ولاستئصالها ينبغي على الحكومات أن تستأصل طغيان الرأسمال على العمل، أي ان تستأصل أساس وجودها الطفيلي بالذات.

« .. في أثناء الحرب قصر عمال باريس همهم على المطالبة بالمضي النشيط في النضال. ولكن الآن، بعد عقد الصلح على أثر استسلام باريس، اضطر تيير، رئيس الحكومة الجديدة، الى الاقتناع بأن حكم الطبقتين المتملكتين ـ ملاكي الأراضي الكبار والرأسماليين ـ سيظل معرضاً للخطر ما دام عمال باريس مسلحين. وكان أول اجراء قام به هو محاولة تجريدهم من السلاح. ففي ١٨ آذار (مارس) وجّه قوات الميدان مع تعليمات بالاستيلاء على المدفعية التابعة للحرس الوطني وهي التي تم صنعها أثناء حصار باريس بالأموال العامة المجموعة بالاكتتاب. وفشلت هذه المحاولة؛ فقد هبت باريس كلها، هبة رجل واحد، تدافع عن نفسها بالسلاح وأعلنت الحرب بين باريس والحكومة الفرنسية الموجودة في فرساي. وفي ٢٦ آذار (مارس) تمّ انتخاب كومونة باريس وفي ٢٨ منه تم اعلانها. وسلّمت اللجنة المركزية للحرس الوطني التي كانت تقوم بوظائف الحكومة حتى ذلك الحين والتي كانت قد أصدرت مرسوماً بالغاء «شرطة الأخلاق» الفاضحة في باريس، صلاحيتها الى الكومونة. وفي ٣٠ آذار (مارس) ألغت الكومونة التجنيد الاجباري والجيش الدائم وأعلنت ان القوة المسلحة الوحيدة هي الحرس الوطني الذي يتألف من جميع المواطنين القادرين على حمل السلاح.

لينين . . . .

وقد أغنى لينين هذه النظرية وطورها، ليس فقط، في الميدان الفكري، بل في الميدان العملي، أيضاً. وقد قاد بنفسه ثورة ١٩٠٥، وكتب الكثير عن دروسها، وقاد الى الظفر أول ثورة اشتراكية في التاريخ، ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى. وتميزت كتاباته عن هاتين الثورتين وعن كومونة باريس وعن كل الحركات الثورية التي كانت تجري في عصره بما قدمته من دروس واستنتاجات نظرية وعملية أسهمت اسهاماً أساسياً في تعميق وتطوير العملية الثورية. ونقدم، هنا، مقتطفات من مقاله المشهور عن «حرب الأنصار» الذي نشره في جريدة «البروليتاري» عام ١٩٠٦:

ان مسألة أعمال الأنصار تهم حزبنا وجماهير العمال الى حد كبير. ولقد تناولنا هذه المسألة

مراراً عديدة، ولكن عرضاً، واننا لننوي الآن، كما سبق لنا ووعدنا، تقديم عرض أكمل لوجهات نظرنا بهذا الصدد.

لنبدأ من البداية. أية مقتضيات أساسية يترتب على كل ماركسي أن يبديها فيما يتعلق بمسألة أشكال النضال؟ أولاً، ان الماركسية تختلف عن جميع الأشكال البدائية للاشتراكية، لأنها لا تربط الحركة بشكل وحيد محدد من أشكال النضال. انها تقبل بأكثر أشكال النضال تنوعاً، ولا «تخترعها»، بل تقتصر على تعميم أشكال نضال الطبقات الثورية، الأشكال التي تنبثق بصورة عفوية في مجرى الحركة بالذات، على تنظيم هذه الأشكال، على بث الوعي فيها. ان الماركسية التي تعادي اطلاقاً جميع الصيغ المجرّدة وجميع وصفات المذهبيين الجامدين، تتطلب النظر بانتباه الى النضال الجماهيري الجاري الذي يولد بلا انقطاع أساليب جديدة للدفاع والهجوم تزداد تنوعاً يوماً بعد يوم، وذلك بقدر ما تتطور الحركة ويتقدم وعي الجماهير وتتفاقم الأزمات الاقتصادية والسياسية. ولهذا لا تنبذ الماركسية سلفاً وبصورة مطلقة، أي شكل من أشكال النضال. وهي لا تقتصر في أي حال من الأحوال على أشكال النضال الممكنة والقائمة في فترة معينة، وهي تقرّ بأن التغير في الأوضاع الاجتماعية يؤدي حتماً الى ظهور أشكال جديدة للنضال لا يعرفها مناضلو الفترة المعنية. ومن هذه الناحية، تتعلم الماركسية، اذا جاز القول، في مدرسة الجماهير العملية، وهي أبعد من أن تدعي تعليم الجماهير أشكال نضال يخترعها «صانعو المناهج» في زوايا مكاتبهم. قال كاوتسكي مثلاً في معرض بحثه أشكال الثورة الاجتماعية: نحن نعرف ان الازمة المقبلة ستحمل معها أشكال نضال جديدة لا نستطيع التنبؤ بها الآن.

ثانياً، ان الماركسية تقتضي اطلاقاً البحث في مسألة أشكال النضال من ناحيتها التاريخية. ان وضع هذه المسألة خارج الظروف التاريخية الملموسة يعني جهل ألف باء المادية الديالكتيكية. ففي مختلف فترات التطور الاقتصادي، وتبعاً لمختلف الظروف السياسية والقومية الثقافية والمعيشية، .، تحتل مختلف أشكال النضال المرتبة الأولى وتغدو الأشكال الرئيسية؛ وتبعاً لذلك تتغير بدورها أشكال النضال الثانوية، التابعة فإذا حاولنا الاجابة بنعم أو لا بصدد وسيلة محدّدة للنضال دون أن نبحث بالتفصيل الظروف الملموسة للحركة المعنية، عند درجة التطور التي بلغتها هذه الحركة، فهذا يعني اننا تركنا تماماً الميدان الماركسي.

ذانك هما المبدآن النظريان الأساسيان اللذان ينبغي أن نسير على هديهما. ان تاريخ الماركسية في أوروبا الغربية يقدم لنا كثرة من الأمثلة تؤيد ما أوردناه أعلاه. فإن الاشتراكية ـ الديموقراطية الأوروبية تعتبر البرلمانية والحركة النقابية في الوقت الحاضر بمثابة شكلي النضال الرئيسيين. وكانت فيما مضى تقرّ بالثورة، وهي مستعدة كل الاستعداد للاقرار بها مرة ثانية في المستقبل عند تغير الأوضاع، ـ خلافاً لما يعتقد البرجوازيون الليبراليون من اضراب الكاديت الروس وجماعة «بـززاغلافتسي». فبين ١٨٧٠ و١٨٨٠ نبذت الاشتراكية ـ الديموقراطية الاضراب العام بوصفه الدواء الشافي لعموم الأمراض الاجتماعية، بوصفه الوسيلة لاسقاط البرجوازية دفعة واحدة عن طريق غير طريق النضال السياسي؛ ولكن الاشتراكية ـ

الديموقراطية تقبل تماماً بالاضراب السياسي الجماهيري (ولا سيا بعد التجربة التي جرت في روسيا عام ١٩٠٥) بوصفه وسيلة من وسائل النضال لا غنى عنها في بعض الظروف. وقد قبلت الاشتراكية - الديموقراطية بمعارك المتاريس في الشوارع بين ١٨٤٠ و١٨٥٠ ونبذت هذه الوسيلة بسبب ظروف معينة في أواخر القرن التاسع عشر، وأعلنت انها مستعدة كل الاستعداد لاعادة النظر برأيها الأخير وللاقرار بفائدة معارك المتاريس، بعد تجربة موسكو التي أوجدت تكتيكاً جديداً للمتاريس كما قال كاوتسكي...

يقولون لنا ان أعمال الأنصار تشوش تنظيم عملنا. فلنطبق هذا القول على الوضع الذي عقب ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٥، على مرحلة المذابح التي نظّمها المئة السود، والقانون العرفي فما الذي يشوّش أكثر من غيره تنظيم الحركة في مرحلة كهذه: انعدام المقاومة أم نضال الأنصار المنظم؟ قارنوا بين روسيا الوسطى والاقليمين الواقعين على الحدود الغربية، بولونيا واقليم لاتفيا. لا سبيل الى الشك أبداً في ان حرب الأنصار أكثر انتشاراً وتطوراً بكثير في المناطق الغربية. كذلك لا سبيل الى الشك في ان الحركة الثورية بعامة والحركة الاشتراكية - الديموقراطية بخاصة هما أشد تشوشاً في روسيا الوسطى منها في الأقاليم الواقعة على الحدود الغربية ويقيناً اننا لبعيدون عن الاستنتاج من ذلك ان الحركة الاشتراكية - الديموقراطية في بولونيا ولاتفيا هي أقل تشوشاً بفضل حرب الأنصار. كلا، أبداً. انما ينبغي الاستنتاج ان لا علاقة لحرب الأنصار بتشوش حركة العمال الاشتراكية - الديموقراطية الروسية، في عام ١٩٠٦.

«وغالباً ما يتذرعون بطابع الأوضاع القومية الخاص. ولكن هذه الذريعة تفصح بوضوح خاص عن ضعف الحجج الدارجة. فإذا كان الأمر يتعلق فعلاً بالخصائص القومية، فليس ثمة حينذاك أي علاقة بالموضوع للفوضوية والبلانكية والارهاب، لهذه العيوب الشائعة في عموم روسيا، وفي الأقاليم الروسية على الأخص، فالأمر اذن يتعلق بشيء آخر. ابحثوا هذا الشيء الآخر بصورة ملموسة أيها السادة! تروا حينذاك ان الاضطهاد القومي او التناحرات القومية لا تفسّر شيئاً، لأنها كانت قائمة دائماً في الأقاليم الغربية، في حين ان نضال الأنصار لم يظهر الا في المرحلة التاريخية الحاضرة. فثمة كثير من المناطق يقوم فيها الاضطهاد القومي والتناحرات القومية، دون ان نرى فيها أي نضال للأنصار، ونضال الأنصار هذا انما يتطور أحياناً في أماكن لا يمكن التحدث عن وجود اضطهاد قومي فيها. ان تحليل المسألة تحليلاً ملموساً سيبيّن ان الأمر لا يتعلق بالاضطهاد القومي، بل بشروط الانتفاض. ان نضال الأنصار شكل نضالي محتم في مرحلة بلغت فيها حركة الجماهير بالفعل حد الانتفاضة وتقع فيها فترات كبيرة الى هذا الحد أو ذاك بين «المعارك الكبيرة» من الحرب الأهلية. ان ما يشوش الحركة، ليس عمليات الأنصار، بل ضعف حزب عاجز عن أن يأخذ بيده هذه العمليات. ولهذا فإن الحَرَمَ الذي يلقونه عادة عندنا، نحن الروس، ضد عمل الأنصار، انما ينطبق على عمليات يقوم بها الأنصار، ولكنها عمليات سرية، طارئة، غير منظمة، تشوّش الحزب فعلاً، فإذا كنا عاجزين

عن فهم الظروف التاريخية التي تولّد هذا النضال، فإننا عاجزون أيضاً عن شل تأثير جوانبه السلبية. ولكن النضال يستمر مع ذلك، تثيره عوامل اقتصادية وسياسية جبارة. ولا يتوقف علينا القضاء على هذه العوامل ولا القضاء على هذا النضال. فحين نتشكى من حرب الأنصار، فإنما نتشكى من ضعف حزبنا في قضية الانتفاضة.

ان ما قلناه عن تشويش التنظيم ينطبق أيضاً على فساد المعنويات. فإن ما يفسد المعنويات، ليست حرب الأنصار، بل فقدان التنظيم، وما تتصف به أعمال الأنصار من طابع متوّش، « لا حزبي». ولن نتملص ابداً من فساد المعنويات هذا الذي لا جدال فيه اطلاقاً بصب اللوم واللعنة على عمل الأنصار ألأنّ هذه الملامات وهذه اللعنات عاجزة اطلاقاً عن وقف ظاهرة تثيرها أسباب عميقة، اقتصادية وسياسية. قد يعترضون علينا قائلين: اذا كنا عاجزين عن وقف ظاهرة غير طبيعية، وتفسد المعنويات، فليس ذلك بسبب يدفع الحزب الى تبني وسائل نضالية غير طبيعية وتفسد المعنويات ولكن اعتراضاً كهذا يصدر عن برجوازي ليبرالي صرف لا عن ماركسي، لأن الماركسي لا يستطيع أن يعتبر، بوجه عام، الحرب الأهلية أو حرب الأنصار التي هي شكل من أشكال الحرب الأهلية، أمراً غير طبيعي ويفسد المعنويات. فالماركسي يقف في مجال النضال الطبقي لا في مجال السلم الاجتماعي. وفي بعض المراحل، مراحل الأزمات الاقتصادية والسياسية الحادة، يؤدي النضال الطبقي في سير تطوره، الى حرب أهلية حقيقية، أي الى نضال مسلح بين قسمين من الشعب. في مثل هذه المراحل، يجب على الماركسي أن يقف الى جانب الحرب الأهلية. فكل شجب معنوي للحرب الأهلية غير مقبول اطلاقاً من وجهة النظر الماركسية

في مرحلة الحرب الأهلية، يكون حزب البروليتاريا المثالي حزباً كفاحياً. ذلك أمر لا جدل فيه اطلاقاً. اننا نقر تماماً بأن ثمة من يستطيع ان يثبت، وهو يثبت فعلاً، من وجهة نظر الحرب الأهلية، إن هذا الشكل من الحرب الأهلية أو ذاك، في هذه الفترة أو تلك، هو غير مناسب. ونقر تماماً بأن يصار الى انتقاد شتى أشكال الحرب الأهلية، من حيث مناسبتها العسكرية، ونحن موافقون اطلاقاً على الاقرار بأن الكلمة الحاسمة في مسألة كهذه تعود الى المناضلين في الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية في كل منطقة من المناطق. ولكننا، باسم المبادىء الماركسية، نطالب بصورة جازمة بعدم التهرب من تحليل شروط الحرب الأهلية، بواسطة تعابير مكررة، صمّت الآذان، عن الفوضوية والبلانكية والارهاب، كما نطالب بألاّ يُصار أمامنا إلى التلويح بفزاعة بعض الأساليب الخرقاء التي طبقتها هذه المنظمة أو تلك من منظمات الحزب الاشتراكي البولوني في هذه الفترة أو تلك، في مسألة اشتراك الاشتراكية ـ الديموقراطية في حرب الأنصار على وجه العموم.

ينبغي لنا أن ندرس بعين نقادة الذريعة القائلة بأن حرب الأنصار تشوش الحركة. ان كل شكل نضالي جديد، ينطوي على مخاطر جديدة وضحايا جديدة، لا بدّ له أن « يشوش » المنظمات غير المهيأة له. فإن حلقات دعاتنا القديمة قد تشوشت عندما انتقلنا الى التحريض ولجاننا

تشوّشت عندما انتقلنا فيما بعد الى التظاهرات. ان كل عملية عسكرية، في أية حرب من الحروب، تسبب بعض التشوش في صفوف المحاربين. غير انه ينبغي لنا ألا نستنتج انه ينبغي ألا نحارب. انما ينبغي ان نستنتج انه ينبغي تعلم الكفاح. هذا كل ما في الأمر.

حين أرى اشتراكيين ـ ديموقراطيين يعلنون بزهو واعتداد: نحن لسنا فوضويين ولا سرّاقين ولا نهّابين، نحن فوق كل هذا، نحن ننبذ حرب الأنصار، فإنني أتساءل ما اذا كان هؤلاء القوم يفهمون ما يقولون. ففي عموم البلاد، تجري المناوشات والمعارك بين حكومة المئة السود والأهلين. وهذه الظاهرة أمر محتم اطلاقاً في الدرجة المعينة التي بلغها تطور الثورة. فيرتدي رد فعل الأهلين شكل مناوشات وهجمات مسلحة، وذلك بصورة عفوية، وغير منظمة وبسبب ذلك بالضبط، بصورة غالباً ما تكون أيضاً غير حاذقة، رديئة، واني لأفهم انه في وسعنا أن نقدم، بسبب ضعف تنظيمنا وعدم تهيئته، على التخلي في منطقة معينة، وفي فترة معينة، عن تأمين قيادة الحزب لهذا النضال العفوي. واني لأفهم انه ينبغي للمناضلين المحليين حلّ هذه المسألة حيثما توضع، وأنه ليس من السهل اعادة تربية المنظمات الضعيفة وغير المهيأة. ولكن، حين أرى نظرياً أو صحافياً من صفوف الاشتراكية ـ الديموقراطية لا يأسف لانعدام التهيئة بل يكرر، برضى وقح وبافتتان نرسيس بنفسه، تعابير حفظها عن ظهر القلب أيام شبابه، عن الفوضوية والبلانكية والارهاب، فاني أتألم لرؤية المذهب الأكثر ثورية في العالم يُحقَّر على هذا النحو.

«يقولون لنا: ان حرب الأنصار تقرّب البروليتاريا الواعية من السكارى المنحلين، من سفالة الناس. وهذا صحيح. ولكن الاستنتاج الوحيد الواجب استخلاصه من ذلك هو انه ينبغي لحزب البروليتاريا الا يعتبر أبداً حرب الأنصار الوسيلة الوحيدة أو حتى الوسيلة الرئيسية للنضال، وانه ينبغي اخضاع هذه الوسيلة لغيرها من الوسائل، وانه ينبغي أن تكون هذه الوسيلة منسقة مع الوسائل الرئيسية، وانه ينبغي تشريفها بتأثير الاشتراكية التربوي والتنظيمي. فإذا لم يتم هذا الشرط الأخير، فإن جميع وسائل النضال بلا استثناء، في المجتمع البرجوازي، تقرب البروليتاريا من شتى الفئات غير البروليتارية القائمة فوقها أو تحتها، فيدب فيها التلف، وتتشوه، وينخفض شأنها الى الحضيض، اذ تترك لمجرى الأمور العفوي. فإن الاضرابات، المتروكة لمجرى الأحداث العفوي، تنحط الى «Alliances» أي الى اتفاقات بين العمال وأرباب العمل ضد المستهلكين. ويغدو البرلمان بيتا للدعارة تتاجر فيه عصابة من الساسة البرجوازيين، بالجملة والمفرّق، «بالحريات العامة»، و«الليبرالية»، و«الديموقراطية»، والنزعة الجمهورية، والعداء للاكليروس، والاشتراكية، وغير ذلك من البضائع الدارجة. وتنحط الصحافة الى قوّادة، في متناول الجميع، الى أداة لافساد الجماهير، وتتملق بفظاظة الغرائز المنحطة لدى الغوغاء، الخ، الخ... ان الاشتراكية ـ الديموقراطية لا تملك وسائل نضالية شاملة قادرة على ان تفصل البروليتاريا عن الفئات القائمة بعض الشيء فوقها أو تحتها، بوساطة ضرب من سدّ الصين. ان الاشتراكية ـ الديموقراطية تستعمل وسائل مختلفة، تبعاً

للأزمنة، وتخضع دائماً تطبيق هذه الوسائل لشروط فكرية وتنظيمية محددة تحديداً دقيقاً.

ان أشكال النضال في الثورة الروسية متنوعة فوق العادة حين تقارن بأشكال النضال التي طبقتها الثورات البرجوازية في أوروبا. وقد تنبأ كاوتسكي جزئياً بهذا الأمر عام ١٩٠٢، حين أكّد ان الثورة المقبلة (وأضاف قائلاً: وقد نستثني روسيا) ستكون نضالاً بين قسمين من الشعب أكثر منها نضالاً يخوضه الشعب ضد الحكومة. ان تطور هذا الشكل الأول من النضال في روسيا هو، بلا ريب، أكثر اتساعاً مما هو عليه في الثورات البرجوازية الغربية. ان اعداء ثورتنا بين صفوف الشعب هم قليلو العدد، ولكنهم ينتظمون أكثر فأكثر بقدر ما يتفاقم النضال، وهم يحظون بتأييد الفئات الرجعية من البرجوازية. ولذا كان من الطبيعي والمحتوم تماماً في مرحلة كهذه، في مرحلة الاضرابات السياسية العامة، ألاّ ترتدي الانتفاضة الشكل القديم، شكل الأعمال المنفردة، المحدودة بفترة وجيزة جداً من الزمن وبمساحة صغيرة جداً من الأرض. ومن الطبيعي والمحتوم تماماً ان تكتسب الانتفاضة اشكالاً عليا وأكثر تعقيداً، اشكال حرب أهلية متواصلة، تشمل البلاد بأسرها، أي أشكال نضال مسلح بين قسمين من الشعب. وليس بالامكان تصوّر حرب من هذا النوع إلاّ سلسلة من معارك كبيرة قليلة العدد، تفصل بينها فترات طويلة نسبياً تقع خلالها مناوشات صغيرة لا عدّ لها. فما دامت الحال على هذا النحو ـ ويقيناً انها لكذلك ـ فإنه يترتب على الاشتراكية ـ الديموقراطية بشكل مطلق أن تأخذ على عاتقها مهمة انشاء منظمات تكون قادرة، بأقصى درجة ممكنة، على قيادة الجماهير في هذه المعارك الكبيرة، وبقدر الإمكان، في هذه المناوشات الصغيرة. وفي مرحلة يتفاقم فيها النضال الطبقي حتى درجة الحرب الأهلية، يترتب على الاشتراكية ـ الديموقراطية أن تشترك في هذه الحرب الأهلية، وليس هذا وحسب، بل يترتب عليها أيضا أن تضطلع فيها بدور قيادي. ينبغي على الاشتراكية ـ الديموقراطية أن تربي منظماتها وتهيئها، لكي تبرز فعلاً طرفاً محارباً لا يهمل أية مناسبة لانزال الخسائر بالعدو.

وانها، بالطبع، لمهمة صعبة. ولا يمكن القيام بها دفعة واحدة. وكما ان الشعب بأسره يربي نفسه من جديد ابان الحرب الأهلية ويتعلّم في غمرة النضال، كذلك ينبغي تربية منظماتنا واعادة تنظيمها، مع أخذ التجربة بعين الاعتبار، لكي تتمكن من اداء هذه المهمة.

ونحن لا ندعي ابداً بأن نفرض على المناضلين شكل نضال من جعبتنا، ولا أن نحل في برجنا العاجي مسألة دور هذا الشكل أو ذاك من حرب الأنصار في مجرى الحرب الأهلية العام في روسيا. واننا لا نفكر أبداً بأن نرى في تقدير ملموس لهذه الأعمال أو تلك من أعمال الأنصار قضية اتجاه للاشتراكية ـ الديموقراطية. ولكن مهمتنا تقوم، حسب رأينا، في المساهمة قدر قوانا في ابداء تقدير نظري صحيح لأشكال النضال الجديدة التي فرضتها الحياة؛ كما تقوم أيضاً في الكفاح بلا هوادة ضد الصيغ الجاهزة والأوهام التي تمنع العمال الواعين من وضع هذه القضية الجديدة الصعبة بصورة صحيحة ومن ايجاد السبيل الصحيح لحلها.

(من المختارات باللغة العربية المجلد الثالث)

قاد كفاح الشعب السوفياتي في الحرب الوطنية العظمى وفي الدفاع عن النظام الاشتراكي وفي توطيده، وبقيادته تم إنحار النصر على الفاشية وسحقها. ننشر له، هنا، نصين: الأول هو النخب الذي رفعه للشعب الروسي في عيد النصر (أيار ١٩٤٥) والثاني «جواب إلى الكولونيل رازين» (١٩٤٧) حول نظرية كلوزويتز العسكرية، ننقلهما من كتاب يجمع بعض الأحاديث الصحفية لستالين بعنوان: «بعد النصر، من أجل سلم دائم» اصدار «المنشورات الاجتماعية».

يقول ستالين في: **النص الأول:**

إسمحوا لي ايها الرفاق ان أرفع نخبا أخيرة. أريد أن أرفع نخب الشعب السوفياتي، نخب الشعب الروسي، بالدرجة الأولى. أرفع هذا النخب للشعب الروسي لأنه الأكثر تميزاً بين الشعوب التي يتشكل منها الاتحاد السوفياتي. أرفع هذا النخب لأن الشعب الروسي إستحق إعتراف الجميع بأنه يشكل، بين شعوب بلادنا، القوة القائدة في هذه الحرب. أرفع هذا النخب للشعب الروسي، ليس فقط لأنه شعب قائد، بل لأنه يتمتع بالوضوح في الرؤية ويمتلك صفات القوة والصبر. لقد ارتكبت حكومتنا الكثير من الأخطاء. ومررنا في فترات كنّا فيها في وضع بائس، وتحديداً في عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ عندما كان جيشنا يتراجع ويتخلى عن المدن في أوكرانيا وبيلوروسيا ومولدانيا وفي منطقة لينينغراد وفي جمهوريات البلطيق وجمهورية كاديليا ـ فنلندا ذات الحكم الذاتي، كان يتخلى عنها لأنه لم يكن يملك خياراً آخر. شعب آخر، غير الشعب الروسي، كان بمقدوره أن يقول لحكومته: «لا تستحقون ما كنّا ننتظره منكم. إذهبوا. سنختار حكومة أخرى توقع السلم مع المانيا وتجلب لنا الطمأنينة».

غير أن الشعب الروسي لم يفعل ذلك، لأنه يثق بصحة سياسة حكومته. وقد اختار التضحية من أجل سحق المانيا. وهذه الثقة التي منحها الشعب الروسي للحكومة السوفياتية كانت القوة الحاسمة التي أمنت النصر التاريخي على عدو البشرية، على الفاشية. شكراً للشعب الروسي على هذه الثقة. لنشرب نخب الشعب الروسي.

يقول ستالين في **النص الثاني:**

تلقيت رسالتك الموجهة إليّ في ٣٠ كانون الأول والمتعلقة بـ كلوزويتز وبنظرياتك حول الحرب وحول الفن العسكري.

١ ـ إنك تسأل إذا كانت نظريات لينين المتعلقة بـ كلوزويتز قد أصبحت قديمة؟

برأيي إنك لم تطرح السؤال بالشكل الصحيح. فالطريقة التي تطرح بها سؤالك تحمل على

الاعتقاد إن لينين قد حلّل أعمال كلوزويتز وعقيدته العسكرية، وإنه أعطانا تقيماً عسكرياً لها وأورثنا سلسلة توجهات متعلقة بالقضايا العسكرية علينا ان نقبل بها. إنّ طرح السؤال بهذا الشكل ليس دقيقاً. اذ لا توجد، عملياً، «نظرية» للينين بشأن عقيدة وأعمال كلوزويتز.

على العكس من الهلز فإنّ لينين لم يكن يعتبر نفسه خبيراً في القضايا العسكرية. وهذا ليس فقط في الماضي، قبل ثورة أكتوبر، بل حتى فيما بعد الثورة، وحتى بعد نهاية الحرب الأهلية. فقد كان يفرض علينا، نحن الذين كنّا، آنذاك، الاعضاء الشباب في اللجنة المركزية، أن ندرس العلوم العسكرية بعمق. امّا فيما يتعلق به شخصياً فكان يقول لنا صراحة إن الوقت قد فات بالنسبة له لكي يدرس هذه العلوم.

وهذا ما يفسر في الواقع إن لينين، في إشارته إلى كلوزويتز وملاحظاته التي دونها على صفحات كتبه، لا يتطرق إلى القضايا العسكرية كقضايا عسكرية، مثل الستراتيجية والتكتيك العسكريين وترابطها، العلاقة بين الهجوم والتراجع، الدفاع والهجوم المضاد الخ...

فما الذي كان، إذن، يثير إهتمام لينين في كتابات كلوزويتز، وكيف نفسر إمتداحه له؟

كان لينين يمتدح كلوزويتز الذي تمتع في عصره بشهرة كبيرة كخبير في القضايا العسكرية، لأنّ هذا الأخير أثبت في أعماله، دون أن يكون ماركسياً، الموضوعة الماركسية المعروفة حول العلاقة المباشرة بين الحرب والسياسة، وأكدّ ان الحرب هي وليدة السياسة وهي امتداد لها بوسائل العنف.

إن الرجوع إلى كلوزويتز كان ضرورياً للينين من أجل أن يؤكد، مرة أخرى، الطابع الشوفيني والإمبريالي لإشتراكية بليخانوف وكاوتسكي. ويعود امتداح لينين لكلوزويتز، كذلك، إلى أنّ هذا الأخير كان يؤكد النظرية، الصحيحة من الوجهة الماركسية، التي تقول بأن التراجع في الظروف غير الملائمة. هو شكل من أشكال القتال المشروعة تماماً مثل الهجوم.

كان لينين بحاجة إلى الإستشهاد بكلوزويتز ليدحض حجج الشيوعيين «اليساريين» ممن كانوا لا يعترفون بالتراجع كشكل مشروع من أشكال القتال. ولذلك فإنّ لينين لم يكن يقرأ كتابات كلوزويتز كرجل عسكري، بل كرجل سياسي. وكان يهتم بالفقرات التي تبين ارتباط الحرب بالسياسة. فنحن، إذن، ورثة لينين، لسنا ملزمين بأية توجهات منه يمكن أن تُحد من حريتنا في مجال نقض عقيدة كلوزويتز العسكرية. نستنتج من ذلك بأن حكمكم على مقالة الرفيق مشتشرياكوف بأنها «تخريجة معادية للينينية» وتحريف لها، لأنه ينتقد، في هذه المقالة، العقيدة العسكرية لكلوزويتز، حكمكم هذا هو حكم خاطىء.

٢ - هل علينا في الواقع أن ننتقد النظرية العسكرية لكلوزويتز؟.

نعم، إن ذلك من واجبنا. فنحن مضطرون، إنطلاقاً من مصلحة قضيتنا ومصلحة العلم العسكري، أن ننقد، ليس فقط كلوزويتز، بل كذلك مولتكي وشليفن ولودندورف وكيتل وسائر الاختصاصيين الذين يعبرون عن الأيديولوجية العسكرية في المانيا. فخلال السنوات الثلاثين الأخيرة فرضت ألمانيا حربين دمويتين على العالم وخرجت مهزومة في كلتيها. هل

كان ذلك محض صدفة؟ طبعاً لا. هل يعني ذلك إنّ المانيا لم تصمد أمام التجربة، ليس فقط بسبب الوضع العام، بل بسبب أيديولوجيتها العسكرية؟ لا شك في أنّ هذا هو الواقع. كلنا يعلم كم يعترف العسكريون في العالم أجمع، بمن فيهم العسكريون الروس، بقدرة المانيا العسكرية. ألم يحُن الوقت لوضع حدٍ لهذه الشهرة بغير استحقاق؟ هذا ضروري. ومن أجل ذلك فإنّ النقد ضروري، لا سيا من قبلنا نحن الذين حققنا الانتصار على المانيا.

فيما يتعلق بـ كلوزويتز، بشكل خاص، فمن الواضح أنه، كاختصاصي عسكري ذو وزن، قد تخطاه الزمن. فقد كان كلوزويتز يمثل عصر المانيفكتورة بينما نحن اليوم في عصر التكنولوجيا الحربية الآلية. ولا شك أنّ العصر الحالي يتطلب منظرّين عسكريين من نوع آخر. فمن المضحك، إذن، أن نأخذ اليوم دروساً من كلوزويتز. لأننا لا نستطيع أن نخطو إلى الامام ونطوّر العلوم دون أن نُخضع للتحليل النقدي النظريات والآراء القديمة التي تجاوزها الزمن. وذلك لا يصح فقط على العلوم العسكرية بل يصح، كذلك، على ما له علاقة بكلاسيكي الماركسية.

كان أنجلز يقول ذات يوم إنّ الجنرال بركلي دو تولي هو الوحيد بين القادة العسكريين الروس في فترة ١٨١٢ الذي يستحق الإهتمام. من الواضح إنّ أنجلز كان على خطأ. لأنّ كوتوزوف كقائد عسكري كان يفوق بركلي بكثير. وقد نجد في عصرنا أيضاً من يدافع بحماس عن رأي أنجلز الخاطىء هذا. يجب أن يستند موقفنا النقدي ليس إلى النظريات والآراء التي أطلقها كلاسيكيو الماركسية على الأحداث المنفردة، بل علينا أن نستوحي موقفنا النقدي من إشارة لينين الشهيرة في عصره حين قال: «لا نعتبر أبداً إنّ نظرية ماركس هي شيء مكتمل ومقدس. على العكس من ذلك، نحن على قناعة بأن الماركسية لم تضع سوى أحجار الزاوية لهذا العلم، وانّ على الشيوعيين أن يعملوا دوماً على تطويره في كل الإتجاهات حتى لا تتخطاهم الحياة.. نحن نعتقد انّ الشيوعيين الروس هم بحاجة إلى تطوير روسي خاص للنظرية الماركسية، لأنّ نظرية ماركس لا تعطي إلاّ التوجهات العامة التي تختلف من حيث التطبيق بين إنكلترا وفرنسا، بين فرنسا والمانيا، بين المانيا وروسيا..».

هذا الشكل من تناول القضايا هو ضروري للسلطات التي تعمل في الميدان العسكري.

٣ ـ فيما يتعلق بموضوعاتك عن الحرب والفن العسكري لا أستطيع أن أقدم سوى بعض الملاحظات العامة نظراً لكون هذه الموضوعات ذات طابع تبسيطي، وهي تتضمن الكثير من التنظير والأفكار التجريدية. وليس من الممتع أبداً سماع مصطلحات كلوزويتز عن قواعد الحرب ومنطقها. فالمسألة المتعلقة «بوجهة النظر الحزبية» في العلم العسكري مطروحة بشكل بدائي جداً. وإنه لمزعج سماع المدائح المبالغ بها الموجهة لستالين. فهي، ببساطة، تزعج الذي يقرأها. وينقص موضوعات كلوزويتز الفصل المتعلق بالهجوم ـ المعاكس. وأقصد بكلامي هنا الهجوم المعاكس الذي يأتي بعد هجوم ناجح للعدو لم يعط نتائجه النهائية، هجوم يجمع خلاله الذي هو في موقع الدفاع قواه، وينتقل إلى الهجوم المعاكس ويُلحق بالعدو هزيمة

ساحقة. وأعتقد انّ هجوماً معاكساً منظماً تنظيماً جيداً هو بمثابة شكلٍ جيدٍ للهجوم. لقد كان عليك كمؤرخ أنّ تهتم بهذا الامر. فحتّى في العصور القديمة كان «البارثيون» (Parthes) يعرفون هذا الشكل من الهجوم المعاكس عندما استدرجوا القائد العسكري الروماني كراسوس مع جيوشه إلى داخل بلادهم، وانتقلوا بعد ذلك إلى الهجوم المعاكس وسحقوا هذه الجيوش.

وقد كان قائدنا العسكري العبقري كوتوزوف يعرف جيداً هذا الشكل من القتال، كوتوزوف الذي دمر جيوش نابليون بعد هجوم معاكس معدّ له اعداداً جيداً.

روزا لوكسمبورغ . . . .

القائدة الثورية البولونية، أحد المؤسسين الأول للحزب الشيوعي الالماني، وأحد قادة الثورة الالمانية في عام ١٩١٨. ننقل لها هذا النص مقتطفاً من بحث عن الأهمية الأساسية للثورة الروسية، مأخوذ من كتاب بعنوان «كتابات مختارة» اصدار «دار الطليعة».

... كل السلطة في يد جماهير العمال والفلاحين، في يد السوفياتات. تلك كانت الطريق الوحيدة للتغلب على المصاعب التي وجدت الثورة نفسها تواجهها، كانت هذه ضربة السيف التي حلت العقدة المستعصية، وخلصت الثورة من الزقاق الضيق المسدود وفتحت أمامها طريقاً رحبة إلى الآفاق الحرة المنفتحة.

هكذا كان حزب لينين الوحيد في روسيا الذي استطاع أن يلتقط المصلحة الحقيقية للثورة في تلك المرحلة الأولى، وكان العنصر الذي دفع بالثورة إلى أمام. وبذلك كان الحزب الوحيد الذي اختط حقاً سياسة اشتراكية.

وهذا أيضاً ما يوضح لماذا استطاع البلاشفة أن يصلوا في أقصر وقت إلى قيادة الثورة وأن يجمعوا تحت لوائهم كل جماهير الشعب الحقيقية: البروليتاريا المدينية والجيش والفلاحون وكذلك العناصر الثورية في الديمقراطية، والجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين. استطاعوا ذلك رغم أنهم كانوا في بداية الثورة أقلية مطاردة مضطهدة تتعرض للافتراء والهجوم عليها من كل جانب.

ضاق الوضع الحقيقي الذي وجدت الثورة الروسية نفسها فيه بعد بضعة شهور، بحيث لم يعد أمامها سوى أحد خيارين: إما انتصار الثورة المضادة وإما دكتاتورية البروليتاريا، إما كاليدين وإما لينين. هكذا كان الوضع الموضوعي، تماماً كما يبرز نفسه في كل ثورة بعد أن ينفرط الشمل، وكما أبرز نفسه في روسيا نتيجة مسألتين عيانيتين ملحتين، هما مسألتا الأرض والسلام اللتان لم يكن لهما من حل ضمن اطار الثورة البورجوازية.

وقد أكدت الثورة الروسية بذلك الدرس الأساسي لكل ثورة عظيمة كما أكدت قانون وجودها الذي ينص على ما يلي: «إما أن تتقدم الثورة في نسق سريع وعاصف وصارم فتحطم كل الحواجز بيد من حديد وتضع لنفسها أهدافاً متقدمة باستمرار، وإما أن تدحر سريعاً وتلقى خلف نقطة بدايتها الضعيفة وتقمعها الثورة المضادة. فليس ممكناً أبداً لأية ثورة أن تتوقف عن الحركة، أن تترك الزمن يمضي وهي واقفة أو أن تقنع بأول هدف تتمكن من بلوغه. ومن يحاول أن يطبق الحكمة البيتية، المستقاة من المعارك البرلمانية بين الفئران والضفادع، في حقل التاكتيك الثوري، إنما يبرهن بذلك أنه غريب عن سيكولوجية وقوانين وجود الثورة ذاتها، وأن التجربة التاريخية سر مكنون بالنسبة له....

كارل ليبكنخت . . . .

أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الالماني ولأحد قادة الثورة الالمانية، ننقل له هذا النص من كتاب يضم مختارات له بعنوان: «العسكرية والحرب والثورة» إصدار فرنسوا ماسبيرو.

نظراً لانعدام تقاليد العمل الثوري داخل الجيش في المانيا وضعف الخبرة في هذا المجال فإنّ مهمة تنظيم انتفاضة أو مقاومة ضخمة أو أي تحرك ثوري على جبهة القتال نفسها تبدو صعبة للغاية. لا يمكننا أب نتجاوز بسهولة الحواجز التي تتجسد بصعوبة الاتصال والتفاهم مع الرفاق الموزعين في مختلف وحدات الجيش أو المعزولين إلاّ في الحالات النادرة والاستثنائية حيث تتواجد كتلة مهمة من الرفاق في احدى الوحدات الكبيرة في الجيش. إن العمل التحضيري يجب أن يتركز أساساً في الصفوف الخلفية أي في صفوف الشباب والمدعوين للخدمة العسكرية قبل انخراطهم في الجيش، وفي صفوف الجنود قبل توجههم إلى الجبهة، وكذلك في صفوف الجنود الذين يقاتلون على الجبهات في فترات إجازاتهم، على أن يُستكمل هذا العمل التحريضي معهم بالمراسلة بعد عودتهم إلى الجبهة. وبالطبع فلا بد من أن تتوفر كل الشروط الموضوعية التي تسمح بأعمال ثورية مثل هذه داخل الجيش، على أن يكون هذا العمل مستنداً إلى الوضع العام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ليأتي كتعبير جزئي عن النضوج الثوري للبروليتاريا كطبقة داخل الجيش وخارجه، فيكون العمل الثوري متكاملاً على الصعيدين، داخل الجيش وخارجه.

إن ذلك لأمر بديهي. وهو لا يحتاج إلى تأكيد في المانيا حيث أن المبادرة الفردية والاستعداد للعمل تقمعان، دائماً، بالتردد في اتخاذ المواقف، وبشتى أنواع الاعتبارات.

تميزت كتابات ماوتسي تونغ الأولى، قبل انتصار الثورة الصينية، وفي مرحلتها الأولى، بإسهامات نظرية جديدة، مستندة إلى الماركسية، لإغناء وتطوير موضوعة الحرب الشعبية المسلحة. وننشر هنا نصاً يناقش فيه بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الشيوعيين الصينيين حول ما سمي «وجهة النظر العسكرية» وهو نص ننقله عن كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة إبراهيم العابد وماهر كيالي:

إن وجهة النظر العسكرية الخالصة منتشرة بصورة غير عادية بين عدد من الرفاق في الجيش الأحمر وهذه هي تظاهراتها:

١ ـ معارضة العمل العسكري والعمل السياسي، وعدم الإعتراف بأن العمل العسكري هو مجرد وسيلة من وسائل تحقيق المهات السياسية. بل المناداة بأنه «إذا سارت الأمور على ما يرام عسكرياً، فمن الطبيعي أن تسير على ما يرام سياسياً. وحين تتعثر عسكرياً، فلا بد أن تتعثر سياسياً أيضاً». خطوة أخرى وإذا الميدان العسكري يتفوق على الميدان السياسي.

٢ ـ إعتبار مهمة الجيش الأحمر مماثلة لمهمة الجيش الأبيض، أي القتال فقط وجهل الحقيقة التالية، ألا وهي أن الجيش الأحمر منظمة مسلحة تنفذ مهات الثورة السياسية. ومن المؤكد، على الأخص في الوقت الراهن، أن الجيش الأحمر لا يمكن أن يقتصر على القتال وحده. إن من واجبه أيضاً، فضلاً عن القتال من أجل سحق قوة العدو العسكرية، أن يأخذ على عاتقه مهات عظيمة الشأن مثل تحريض الجماهير، وتنظيمها، وتسليحها، ومساعدتها على إقامة السلطة السياسية الثورية، بل على تأسيس منظات للحزب الشيوعي. إن الجيش الأحمر لا يخوض غمار الحرب لمجرد القتال، بل هو يستهدف تحريض الجماهير، وتنظيمها، وتسليحها، ومساعدتها على إقامة السلطة السياسية الثورية. ومن دون هذه الأهداف يفقد القتال معناه، ويفقد الجيش الأحمر مبرر وجوده.

٣ ـ ويؤدي هذا في ميدان التنظيم إلى إخضاع أجهزة العمل السياسي في الجيش الأحمر لأجهزته العسكرية، وإلى هذا الشعار: «قيادة الجيش تعامل الناس». وإذا استمر مثل هذا الرأي في التطور، فقد يؤدي إلى الإنعزال عن الجماهير، وإلى سيطرة الجيش على الحكم، وإلى التحول عن القيادة البروليتارية ـ وبنتيجة هذا الإنزلاق نحو تلك النزعة العسكرية ـ التي اتبعها جيش الكيومنتانغ.

٤ ـ التغاضي في مجال العمل التحريضي والدعائي عن أهمية فصائل التحريض. والتغاضي في ميدان تنظيم الجماهير عن خلق مجالس الجنود في الجيش والمنظمات الجماهيرية المحلية العمالية والفلاحية، الأمر الذي يؤدي إلى توقف العمل التحريضي والعمل التنظيمي على السواء.

٥ ـ التكبر بعد الإنتصارات والإكتئاب بعد الهزائم.

٦ ـ الأنانية الضيقة، يعني الإقتراب من سائر الأشياء في مصالح الجيش الرابع فقط، دون

الإدراك بـأن تسليـح الجماهير المحليـة هـو إحـدى مهمات الجيش الأحمر الهامــة. إنها الروح التعصبية نفسها، لكن على صعيد أوسع.

٧ ـ يعتقد بعض الرفاق القلائل، المحدودن بالجوار المباشر للجيش الرابع، إنه لا توجد أية قوى ثورية أخرى غير هذا الجيش. ومن هنا كانت الفكرة المتأصلة في الجذور، القائلة بالمحافظة على قواتنا وتجنب الأعمال العسكرية، تلك البقايا للروح الإنتهازية.

٨ ـ التعامي عن الشروط الذاتية والموضوعية، والإنحراف بالتهور الثوري، ورفض بذل أية جهود صابرة، دقيقة، غير ملحوظة، بين الجماهير، بل الرغبة في المآثر الكبيرة فقـط، والامتلاء بالأوهام. وتلك بقايا لروح المغامرة وإن أسباب مثل هذه الروح العسكرية الخالصة هي:

١ - المستوى السياسي ومن هنا كان عدم إدراك روح القيادة السياسية في الجيش، وعدم إدراك الفارق الجوهري بين الجيش الأحمر والجيش الأبيض.

٢ - عقلية القوات المرتزقة. ذلك إن الأعداد الكبيرة من الأسرى الذين جندوا في الجيش الأحمر قد جلبوا معهم هذه العقلية المرتزقة المتأصلة فيهم، وبذلك نشأت في الوحدات الدنيا الظروف الملائمة لقيام الروح العسكرية الخالصة.

٣ - إن سبباً ثالثاً ينشأ عن السببين الآنفي الذكر، إلا وهو فرط الثقة في القوى العسكرية ونقص الثقة في قوى جماهير الشعب

٤ - ينبغي للحزب أن يعنى باستمرار بالعمل العسكري ويناقشه بكل انتباه وينبغي أن ينفذ كل عمل بواسطة الجماهير بعدما تصير مناقشته وتقريره في الحزب

٥ - وضع قواعد وتنظيمات تحدد بكل وضوح مهمات الجيش الأحمر، والعلاقة بين أجهزة العمل العسكري وأجهزة العمل السياسي، والعلاقة بين الجيش الأحمر وجماهير الشعب، وسلطات مجلس الجنود ووظائفه وعلاقته بالأجهزة العسكرية والسياسية.

وننقل هذا النص لماوتسي تونغ أيضاً، من كتاب بعنوان «حرب العصابات» اصدار «دار الفكر» بالقاهرة. والنص بعنوان «المبدأ الأساسي هو «للمحافظة على أنفسنا وإبادة العدو»»

.. قبل أن نناقش المشاكل الاستراتيجية لحرب العصابات بشكل خاص، من المهم أن نتكلم قليلاً عن المشاكل الرئيسية للحرب.

تبدأ جميع المبادىء الموجهة للعمليات العسكرية بدون استثناء من مبدأ أساسي واحد، وهو أن نحاول بقدر الإمكان المحافظة على قوانا الذاتية وابادة قوة العدو. وفي الحرب الثورية، يرتبط هذا المبدأ مباشرة بالمبدأ السياسي الأساسي. فمثلاً المبدأ السياسي الأساسي لحرب الصين ضد اليابان، أي هدفها السياسي، هو طرد الامبريالية اليابانية وتأسيس صين جديدة، مستقلة وحرة وسعيدة. ويعني هذا المبدأ ـ بتعبير العمليات العسكرية ـ استخدام القوات المسلحة للدفاع عن أرضنا الأم، ولطرد المحتلين اليابانيين. وللوصول إلى هذه الغاية، يتشكل نشاط

القوات المسلحة بشكلين: فمن ناحية تحاول المحافظة على قواتها الذاتية بقدر المستطاع، ومن ناحية أخرى تبيد قوى العدو. ولما كان الأمر كذلك، فكيف يمكننا أن نبرر دعوانا عن التضحية البطولية في الحرب؟. إن كل حرب تتطلب ثمناً، وأحياناً ما يكون الثمن غالياً جداً. ولكن، ألا يتناقض هذا مع «المحافظة على القوى الذاتية»؟ في الحقيقة ليس هناك ثمة تناقض على الاطلاق، أو - لوضع المسألة بشكل أكثر تحديداً - هناك وحدة للأضداد، لأن مثل هذه التضحية لا يمكن الاستغناء عنها، لا لابادة العدو فحسب، ولكن أيضاً للمحافظة على قوانا الذاتية. «فعدم المحافظة» (التضحية أو دفع الثمن) بمعنى جزئي ومؤقت، ضروري «للمحافظة» بمعنى كامل ودائم. ومن هذا المبدأ الأساسي تنبع سلسلة مما يسمى بالمبادىء التي تحكم كل العمليات العسكرية، من مبدأ أحكام التصويب (التغطية وضرب النار، الأولى للمحافظة على الذات والثانية لإبادة العدو) إلى المبادىء الاستراتيجية، والتي تتشبع جميعها بروح هذا المبدأ الأساسي. وكل المبادىء الخاصة بالتدريب العسكري، والتكتيك، والحملات، والاستراتيجية تهيء الظروف لتطبيق هذا المبدأ الأساسي. إن مبدا المحافظة على القوى الذاتية وإبادة العدو هو أساس كل المبادىء العسكرية.

هوشي منه . . . .

قاد الثورة الفيتنامية مند بداياتها الأولى، وفي مراحلها المختلفة، وقد حققت أول انتصار لها مع نهاية الحرب العالمية الثانية بإقامة دولة إشتراكية في الجزء الشمالي من البلاد. ولكن حرب الدفاع الوطنية، حرب التحرير، إستمرت طويلاً، وواجهت عدوين، الإمبريالية الفرنسية التي هزمت في أوائل الخمسينات بسقوط قلعة «ديان بيان فو»، والإمبريالية الأميركية التي هزمت في أوائل السبعينات، وعادت إلى الفيتنام وحدتها في ظل الاشتراكية، وإلى دول الهند الصينية كلها حريتها واستقلالها وتطورها على طريق الاشتراكية. لقد شكلت تجربة الثورة الفيتنامية أغنى تجربة معاصرة في الحرب الشعبية. وكان القائد الفذ لهذه الثورة والمجدد في إستراتيجيتها وتكتيكها هوشي منه. الذي أغنى بتعاليمه في هذا النوع من الكفاح النظرية الماركسية. ننقل له هنا نصاً مأخوذاً من كتاب له يتضمن مجموعة من كتاباته. والنص هو عبارة عن توجيهات عن حرب الأنصار قدمها هوشي منه إلى الكوادر في إحدى محاضراته:

في ملاحقتكم للعدو أظهرتم الكثير من المميزات، من تفانٍ وشجاعة وتلاحم. اتركوا الحسنات الآن لأعلمكم عن الأخطاء الأساسية التي ينبغي أن تتلافوها.

١ - إن الكوادر في الجيش والمنظمات الشعبية والإدارة والحزب لا تدرس بشكل دقيق توجيهات وأوامر اللجنة المركزية والحكومة. هنا تكمن الثغرة الكبرى في عمل هذه الكوادر. إن توجيهات اللجنة المركزية والحكومة تنطلق من نظرة شمولية تأخذ بعين الإعتبار كل تجارب المنظمات في المناطق وتستند إلى درس دقيق للأوضاع المختلفة والظروف المتعددة. يجب أن تُدرس هذه التوجهات بدقة ليجري تطبيقها بشكل يتلاءم مع الظروف الملموسة والمختلفة

بين منطقة وأخرى. إنّ منظمات المناطق لا تتمتع بشمولية اللجنة المركزية والحكومة. إنها ترى الأشجار ولا ترى الغابة، ترى الجزء ولا ترى الكل. إنّ إنجازاً ما في منطقة معينة قد يُعتبر فشلاً إذا ما وُضع في الإطار العام لمجمل الوضع في البلاد. هذا ما يحصل إذا لم تُدرس توجهات اللجنة المركزية والحكومة بشكل معمّق ودقيق.

٢ ـ إنّ معرفة القتال أمر جيد على أن تكون هذه المعرفة شاملة ولا تقتصر على أمور الحرب فقط بل تتعدّاها لتشمل السياسة والإقتصاد والدعاية وتثقيف الشعب، وإلاّ أصبحت جزئية ترى جانباً واحداً من الأمور. فالقتال لا ينفصل عن السياسة والإقتصاد. ونحن إذا حاربنا دون التفكير بإقتصادنا سنصل إلى مرحلة نفتقر فيها إلى القوت الضروري (الرز). ولن نستطيع بالتالي متابعة قتالنا.

٣ ـ من الأخطاء الأخرى: إن القوات النظامية وتشكيلات الأقاليم وميليشيات الأنصار تريد خوض المعارك الكبيرة وإحراز الإنتصارات الكبيرة دون اللجوء إلى دراسة دقيقة لوضعنا ولوضع العدو، ودون التحديد الدقيق للأهداف التي نرمي إليها، ولطريقة القتال التي يجب اتباعها؛ لن نبادر إلى الهجوم في أي مكان إذا لم نكن واثقين من النصر، وعلينا أن نمتنع عن القيام بذلك عندما نكون مطوّقين من قبل العدو.

٤ ـ إن الكوادر العسكرية لا تتعاطى إلاّ الأمور العسكرية والكوادر الإدارية لا تفهم إلاّ بأمور الإدارة. ويقتصر إهتمام الكوادر الحزبية على الأمور الحزبية فقط. إنهم مثل الرجل الذي يقف على رجلٍ واحدة. إنه لمن الأخطاء الفادحة أن تقتصر معرفة الكادر على ميدان واحد. فالكوادر العسكرية والشعبية والإدارية والحزبية تؤلف جسماً واحداً. لا يكون قوياً ومكتملاً إلا إذا إجتمعت كل هذه العناصر. بيد أن كوادر الحزب والإدارة تترك كلياً مهمة مقاتلة العدو للكوادر العسكرية ولا تعرف أن إدارة الحزب يجب أن تشمل كل الميادين وأنّ الحرب لا تُخاض بنجاح إلاّ بالتنسيق الكامل بين كل هذه الميادين.

٥ ـ أما بالنسبة لكوادر الحزب، وبسبب الصعوبات التي تمليها الظروف الحالية في المناطق المحتلة، فإنها لم تنجح حتى الآن بإرساء الأسس المتينة التي يقوم عليها الحزب على مستوى القاعدة. فليكن واضحاً أمامهم أن تثبيت الوضع التنظيمي بشكل جيّد سيحل الكثير من المشكلات وستسير الأمور عندئذٍ على ما يرام.

٦ ـ إن محاربة التجسس مازالت ضعيفة ولا يُحترم مبدأ السرية كما يجب.

٧ ـ إن الإعلام في صفوف الزمر المرتزقة قد حقق بعض النجاحات ولكن ليس في كل مكان. لقد أثمر العمل الإعلامي فقط حيث أخذت الكوادر المبادرة ولكن أهمل في أماكن أخرى. لقد أنتأ العدو حرساً في المدينة وحرساً في الريف. يجب إقتلاع كل هذه الأشواك. عليكم أن تتبادلوا الخبرات لكي تحرزوا تقدماً على صعيد عملكم الإعلامي.

٨ ـ أما بالنسبة للعمل الدعائي في الصفوف الخلفية للعدو فقد أحرزنا نجاحات كبيرة قبل ثورة آب بفضل مبادراتنا رغم وجود اليابان والفرنسيين والخونة. كان العمل الدعائي يسري

من الأفواه إلى الآذان وبواسطة الصحف. وحالياً تقوم اللجنة المركزية والحكومة بكل ما بوسعها لإدخال الصحف، مثـل (الخلاص الوطني) و(الشعـب) إلى المنـاطـق الواقعـة تحت سيطرة العدو. ولكن هذا غير كافٍ ولا يخلو من الصعوبات. في الخطوط الخلفية للعدو يجب إصدار جرائد تعتمد على الطباعة الحجرية أو الصلصال. وليس هناك أية ضرورة لإعتماد المقاسات الكبيرة ولا لإصدارٍ يومي. المهم أن نصل إلى نشر خط الحزب وسياسة الحكومة لنُفهم الجماهير معنى نجاحاتنا ولنُطلعهم كذلك على هزائم وجرائم العدو. هنا يكمن العمل التثقيفي للحزب.

٩ ـ الآن لنتكلم عمّا يجب أن نفعله:

أولاً: العمل على تحقيق الوحدة في صفوفنا أي بين الجيش والمنظمات الجماهيرية والإدارة والحزب. يجب أن يسبق أي عمل مناقشة جديّة له ووضع حسنات وأخطار هذا العمل في كفة الميزان. إن وحدة الفكر والعمل ضرورية وكذلك التعاون المتبادل والنقد الذاتي كما أن النقد المخلص ضروري أيضاً.

ثانياً: إن الدراسة الدقيقة والمعمقة لتوجهات وأوامر اللجنة المركزية والحكومة ضرورية ويجب تطبيقها بشكل صحيح وكامل.

ثالثاً: نقطة أساسية: إن القوات النظامية وقوات الأقاليم وقوات الأنصار يجب أن تبقى على تلاحم دائم مع الجماهير. وإذا ابتعدت عن الجماهير فإنها حتماً ستلاقي الفشل. إن التلاحم مع الجماهير يعني بالضرورة إكتساب عطفها وثقتها. يجب الفوز بمحبتها واحترامها. عندها فقط نستطيع أن نُحرز النصر. من أجل ذلك علينا المدافعة عن الجماهير ومعاونتها وكذلك تثقيفها. إن تثقيف الجماهير لا يعني تزويدها بالكتب وإجبارها على القراءة. عمل كهذا يُعدُّ بيروقراطياً وقمعياً. إن الإكراه قد يُعطي نتائج ولكن مؤقتة وسطحية. علينا أن نجعل الجماهير تنفذ ما نطلبه منها بطيبة خاطر وعن قناعة تامة.

رابعاً: إن على الوحدات النظامية التي تعمل في الصفوف الخلفية للعدو أن تساعد تشكيلات الأقاليم وميليشيات الأنصار من أجل تنظيمها وتثقيفها. عليها أن تساعدها لا أن تقوم هي بالحلول مكانها. إنّ عليها كذلك أن تقدم العون للجماهير: لقد حققت بعض الوحدات نجاحاً في هذا المجال بينما بقيت وحدات أخرى مقصّرة.

في المناطق الواقعة تحت رقابة العدو يجب اتباع تكتيك حرب الأنصار وليس تكتيك الحرب النظامية كما في المناطق المحرّرة. هناك مثل يقول: «نأخذ شكلاً دائرياً إذا كنا داخل يقطينة ونستطيل إذا وُجدنا في أنبوب» يجب أن لا نُقدم على خوض المعارك الكبيرة بهدف إحراز إنتصارات كبيرة إلاّ إذا كنا واثقين تماماً من النصر.

خامساً: ليست الإنتصارات الكبيرة هي هدف حرب الأنصار. علينا في حرب الأنصار أن نعمل بالأحرى على قضم واستنزاف قوة العدو. يجب أن نقطع عليه شهية الأكل والنوم. علينا أن نستنزفه مادياً ومعنوياً لنقضي تدريجياً عليه. في كل خطوة يخطوها العدو يجب أن نكون له

بالمرصاد. علينا أن ننغّص عيشه ولا ندع له مجالاً للراحة. هذا ما كتبه بعض الجنود الفرنسيين في رسائلهم: «كان الموت يتربص بنا في كل حفرة، في كل مستنقع، وبين الأشواك».

انطونيو غرامشي . . . .

أحد مؤسسي الحركة الشيوعية الايطالية. كتب كثيراً وأغنى الماركسية بكتاباته. وفي هذا النص بعنوان «متاريس وخنادق وأسلاك شائكة» يتحدث من سجنه عن تأثير ثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى. وهو نص ننقله من كتاب أصدرته المنشورات الاجتماعية بعنوان «مختارات من غرامشي».

إن الحشد الكبير الذي نُظم بمناسبة زيارة مندوبي السوفياتات في بتروغراد كان اعلاناً عن مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الشعبية. ولم يكد يمضي شهر واحد على هذا الحدث حتى أعلن عمال مدينة توران الحرب المسلحة على الامبريالية والنظام العسكري في ايطاليا. حصلت الانتفاضة في ٢٣ آب من سنة ١٩١٧. وخلال خمسة أيام خاض العمال الحرب في شوارع المدينة. واستطاع الثوار الذين كانوا يملكون البنادق والقنابل اليدوية والرشاشات أن يحتلوا بعض احياء المدينة، وحاولوا ثلاث مرات أو أربع أن يستولوا على وسطها حيث كانت تتواجد المؤسسات الحكومية ومراكز العمليات العسكرية.

ولكن سنتين من الحرب والحرب المضادة أضعفت تنظيم البروليتاريا القوي وهُزم العمال بسبب عدم التكافؤ في السلاح. كانوا ينتظرون، بدون جدوى، مساعدة الجنود لهم. ولكن هؤلاء خدعوا بفكرة أن الثورة قامت بتحريض من الالمان. أقام الشعب الحواجز والمتاريس وحفر الخنادق وحاصر بعض المناطق بالأسلاك الشائكة المكهربة. واستطاع أن يقاوم لمدة خمسة أيام هجمات البوليس. لقد سقط أكثر من ٥٠٠ عامل في هذه المواجهة وجُرح أكثر من ألفين بجروح بالغة. بعد الهزيمة أبعدوا وألقى القبض عليهم، أفضل العناصر في الحركة العمالية، وفقدت بذلك البروليتاريا زخمها الثوري. ولكن المشاعر الشيوعية عند البروليتاريا لم تخمد. وأكبر دليل على ذلك أنه بعد فترة قصيرة من انتفاضة آب جرت انتخابات المجلس الاداري للتحالف التعاوني، وهو تنظيم ضخم يؤمن التموين لأكثر من ربع سكان مدينة توران.

ديمتروف . . . .

القائد الثوري البارز في الحركة الشيوعية العالمية ومؤسس بلغاريا الاشتراكية. ننشر له هنا نص التوجيهات التي أرسلها في ٢٧ آب ١٩٤٤ لهيئة الأركان العامة لقوات الأنصار من أجل تشكيل الفرقة الأولى من جيش التحرير الوطني ننشرها نقلاً عن المؤلفات المختارة، الجزء الثاني .

إستخدموا كل السبل الممكنة لتبليغ اللجنة المركزية للحزب مايلي:

١ ـ العمل على جمع كل القوى الديمقراطية التقدمية وكل الفئات الشعبية من مناضلين وعناصر معادية للألمان حول اللجنة الوطنية لجبهة الوطن من حيث كونها الممثل الوحيد للشعب البلغاري والمنظم والقائد لصراع الشعب ضد اللصوص الألمان وعملائهم الفاشيست من البلغار.

٢ ـ أخذ التدابير الفورية لشلّ قدرة الوحدات الألمانية وعملاء الغستابو وذلك بنزع السلاح فوراً من أيديهم والقضاء بشكل حذري على كل معارضة وكل عمل مناهض لجبهة الوطن وللجيش الأحمر.

٣ ـ دعوة الشعب والجنود والضباط للتصدي للألمان وعملائهم والعمل بكل الإمكانيات على دعم جهود اللجنة الوطنية من أجل تشكيل حكومة جبهة الوطن.

٤ ـ تجنيد كل القوى للقضاء على المحاولات العسكرية ضد الجيش الأحمر من قبل الألمان وعملائهم الفاشيست.

٥ ـ أخذ التدابير السريعة لتأمين حرية العمل للجنة الوطنية لجبهة الوطن ولأحزابها ولإطلاق حرية الصحافة والإفراج عن المعتقلين الوطنيين.

٦ ـ دعوة الشعب البلغاري وقواه المسلحة لمساندة الجيش الأحمر في معركة تحرير بلغاريا من التبعية الألمانية ومشاركة هذا الجيش بتطهير الأرض البلغارية من الزمر الألمانية ومن عملائهم الخونة.

تيتو . . . .

هذا نص لتيتو مؤسس يوغوسلافيا الاشتراكية مأخوذ من كتاباته العسكرية التي يحدد فيها دروس حرب الأنصار التي قادها وقاد بواسطتها يوغوسلافيا إلى الاشتراكية. أخذنا هذا النص من كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة إبراهيم العابد وماهر كيالي.

لقد احتجنا إلى قدر كبير من الصبر والإصرار لكي نقنع كل الجنسيات أن حرب تحرير شعبية ضد الغزاة وضد الرجعيين الخونة هي الوسيلة الوحيدة لإستعادة حقوقنا الوطنية ولخلق

يوغوسلافيا جديدة، بدون حكامها القدامى، بناء على أسس جديدة تماماً. وعندما اقتنعت كل شعوب يوغوسلافيا بصحة هذه السياسة كما حددها الحزب الشيوعي اليوغوسلافي للجماهير، أصبحت القضية القومية أيضاً عاملاً قوياً في معركة التحرير. ما هي الملامح المحددة لحرب التحرير الشعبية اليوغوسلافية؟

أولاً: بسبب جبن وخيانة وعجز الضباط الكبار إستسلم الجيش اليوغوسلافي بعد أيام قليلة من المقاومة الضعيفة. وقد أخذ معظم الجنود إلى معسكرات اعتقال بينما استولى الغزاة على كل المعدات والأسلحة. ونتيجة لخيانة القادة العسكريين والحكوميين وجد الشعب اليوغوسلافي نفسه بلا جيش وبلا سلاح في مواجهة أعتى عدو عرفه في تاريخه، عدو لم يأت ليستعبد بل أتى ليفني.

ثانياً: تفكك الجهاز الحكومي وانهار، بينما فرت الحكومة وعلى رأسها الملك إلى الخارج وتركت البلاد تواجه مصيرها.

ثالثاً: بعد أن ترك الشعب اليوغوسلافي بدون جيش وبدون سلاح وبدون مخازن تموين وبدون جنرالات وضباط (ما عدا القليل جداً) ثار بقيادة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي وبدأ المعركة ضد الغزاة. كان أفراد الشعب اليوغوسلافي يستولون على السلاح من جنود العدو بأيديهم العزلاء، وكانوا يحاربون معركة حياة أو موت في سبيل الحرية والإستقلال.

رابعاً: عند بدء المعركة مع الغزاة لم يقم أي تحالف مع الأحزاب الأخرى، فقد وضع العديد من قادة تلك الأحزاب أنفسهم في خدمة الغزاة، بينما التزم قادة آخرون بالسلبية ووقفوا يترقبون سير الأمور. كان ذلك صحيحاً في كل أنحاء يوغوسلافيا (ما عدا سلوفنيا حيث تم تكوين جبهة التحرير). وإستجابة لنداء الحزب الشيوعي إشترك الناس في الحرب بصرف النظر عن إنتمائهم الحزبي أو الديني أو الوطني.

خامساً: مع استمرار الحرب شاهدنا بروز جيش شعبي جديد كانت نواته كتائب الأنصار التي قادها ضباط جدد خرجوا من بين الناس واكتسبوا خبرتهم في ميدان المعركة.

سادساً: لم يحارب الجيش الشعبي ولا كتائب الأنصار حرباً أسطورية (تم تكوين أول كتيبة من الجيش الشعبي في كانون الأول ١٩٤١ على أسس وحدة جيش نظامي، وتبعتها كتائب جديدة ثم فرقة جيش التحرير الشعبي الذي برز إلى الوجود عام ١٩٤٢). لقد حاربوا حرباً دائمة، حرب عصابات بكل ما ينتج منها، وحرب إفناء ضد الغزاة وضد الخونة. كانت حرب أمة بكاملها. وكانت حرباً منظمة تجري إدارتها من مركز واحد ـ القيادة العليا ـ مسؤول عن حرب الأنصار وعن حرب المواجهة، حسب وجود مناطق محررة وتكوين وحدات عسكرية كبيرة وفرق.

سابعاً: رغم تفوق العدو العددي والتقني، ورغم أن حرب التحرير كانت تشن في كل أنحاء يوغوسلافيا بأسلحة أخف من أسلحة العدو فإن العدو لم ينجح في تحطيم القوات الشعبية

في أي مكان وفي أية مرحلة أثناء الحرب. كانت القوات الشعبية تخرج من المعارك القاسية أقوى مما دخلتها.

ثامناً: رغم ضراوة المعركة ورغم تطلبها تضحيات كبيرة بالرجال والممتلكات، فإن الشعب لم يكل ولم يتراجع ولم يدر ظهره للمعركة. بالعكس، تلك التضحيات بالرجال والممتلكات (غالباً ما هجرت مناطق بكاملها ودمر ما فيها من ممتلكات)، جعلت الناس يزدادون تصميماً على القتال حتى النهاية.

تاسعاً: كان الشعب اليوغسلافي يحارب الخونة المحليين بالإضافة إلى الغزاة. ورغم أن الغزاة والخونة قد وحدوا قواهم فإن الشعب قد انتصر في معركته العظيمة.

هذه هي ملامح حرب التحرير الشعبية اليوغوسلافية وهذه هي عظمتها ومن حق شعبنا أن يفاخر بنضال كهذا.

تم ظهور دولة جديدة أثناء الحرب. دولة لها نظام إجتماعي مختلف تماماً عن النظام اليوغوسلافي قبل الحرب. ثم إنشاء الجمهورية اليوغوسلافية الإتحادية الشعبية. وقد حلت هذه الدولة قضية الوحدة الوطنية بشكل صحيح، وأرست أسساً ديمقراطية جديدة ذات نظام إجتماعي واقتصادي جديد. كيف تم ذلك مع أن تحولاً كبيراً كهذا يحتاج إلى ثورة وإلى حرب مفتوحة ضد مضطهدي الشعب؟ في الإجابة على السؤال تكمن الملامح المحددة لخلق ونمو يوغوسلافيا الجديدة.

قامت الدولة الجديدة على أنقاض النظام القديم. فلقد فتحت المأساة التي أصابت بلادنا عيون الوطنيين على دور الخونة الرجعيين. فنظراً لجبن وخيانة الفئة الحاكمة السابقة ولسياستها غير الوطنية، كره الشعب اليوغوسلافي الماضي وقرر ألا يسمح بعودته. فلا يكفي أن ندعو الناس للقتال ضد الغزاة لكي يهبوا للحرب، بل علينا أن نفهمهم أن نضالهم سوف يؤدي إلى شيء جديد، إلى شيء أفضل، وإلى أن القديم لن يعود، عندئذ يهتمون بالمعركة ويحاربون حتى النصر.

وهكذا، كان علينا منذ بداية المعركة عام ١٩٤١ أن نقضي على شكل الحكومة الجديدة في القرى والمدن وأن نخلق أجهزة جديدة للسلطة سميناها لجان التحرير الشعبية وهي لجان ديمقراطية جداً. وقد أخذ الناس يشكلون هذه اللجان لا في المناطق المحررة فقط بل في المناطق المحتلة أيضاً.

كانت هذه اللجان نواة الدولة الجديدة التي برزت تدريجياً أثناء حرب التحرير الشعبية. لم تكن هذه اللجان فورية أو عفوية. بل جرى إعدادها بدقة مدروسة وجرى تنظيمها بعناية، ولم تثبت وجودها بسهولة، بل واجهت ذلك مصاعب ومعارك دموية مع الخونة المحليين الذين شنوا حرباً لا هوادة فيها كحلفاء للغزاة وذلك بغية إجهاض الدولة الجديدة وإنقاذ النظام القديم.

يتضح لنا إذن من خلال الحقائق المذكورة أعلاه أن استنفار كل القوى الوطنية وتوسيع

وتقوية جبهة المقاومة هي العوامل التي ساعدت على التغلب على أكبر المصاعب في هذه الحرب. هذا صحيح بالنسبة للحرب وبالنسبة لتطور بلدنا في وقت السلم.

فيدل كاسترو . . . .

زعيم الثورة الكوبية ننقل له هنا مقتطفاً من كتاب بعنوان: «أحاديث مع صحفيين اميركان وفرنسيين عام ١٩٨٣» يؤكد فيه ميزات الثورة الكوبية واستعداد الشعب اليوم لمواجهة احتمالات الغزو»

الثورة شيء، والجيش النظامي شيء آخر. عندما يُهزم جيش نظامي على جبهة قتال تقليدية تتوقف كل مقاومة. على العكس من ذلك في كوبا. لم تكن المقاومة عنيفة مثلما كانت بعد انتهاء الحروب التقليدية. والتاريخ يُعطينا العديد من الامثلة الأخرى. كان لنابليون جيش قوي لا يُقهر. احتل اسبانيا واستولى على الحكم. ولكن الشعب الاسباني أعلن الحرب على نابليون واستطاع، على المدى الطويل، أن يُجبر هذا الجيش على التراجع. إنّ أقوى جيش في أوروبا اضطر إلى التراجع أمام الشعب الاسباني.

كوبا بلد ثوري. انه شعب ثوري. وقواته المسلحة الثورية تتمتع بعقلية مختلفة. لم نخض الحرب بجيش بل بحفنة من الرجال. وعندما استأنفنا القتال ضد باتستا كنا نملك سبعة بنادق بينما كان يحاربنا باتيستا بـ ٨٠ ألف جندي مسلح. ولكننا استطعنا أن نهزم جيشه خلال ٢٥ شهراً.

لن يكون على الولايات المتحدة أن تواجه فقط قواتنا المسلحة بل سيكون عليها أن تواجه ما هو أقوى بكثير، الشعب، في حرب شعبية شاملة. ستواجه مئات الألوف من الرجال والنساء المسلحين، ستواجه شعباً بأكمله. وعند ذلك لن تفيدها بشيء المدرعات وحاملات الطائرات والأسلحة النووية. أميركا ستخسر مثل هذه الحرب ضدنا لأنها ستواجه شعباً مسلحاً. شعباً مثقفاً، متعلقاً بوطنه، منضوياً تحت علم واحد. لا، لن يكون باستطاعتهم أن يخضعوا بلادنا. ربما كان باستطاعتهم أن يغزوا بلادنا ويحتلوها، بثمن باهظ، ولكنهم سيواجهون بالتأكيد حرباً شعبية. لقد أخذنا كل الاستعدادات لهذه الحرب، ليس لأننا الأكثر شجاعة، ولكن تهديدات الولايات المتحدة، وتهديدات ريغان بشكل خاص، أجبرتنا على ذلك. لقد أعددنا الشعب نفسياً لمواجهة الحرب، اتخذنا كل التدابير العملية، في المجالات التنظيمية والسياسية والعسكرية، لمواجهة أي حصار اقتصادي، لمواجهة القصف والهجوم وحرب الاستنزاف وحتى الغزو والاحتلال.

لقد وضعنا كل الاحتمالات. وليس أمامنا خيار آخر:
انني أتكلم بجديّة وبصراحة.

قاد دوكلو، من موقعه في قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي، خلال الحرب العالمية الثانية، حركة الأنصار الشيوعيين «وكتب الكثير عن هذه التجربة». وأفرد لها في مذكراته التي نشرها في سبعة مجلدات مكاناً كبيراً. ونقتطف، هنا، جزءاً من مقدمة المجلد الثالث:

.. إنّ الذين عاشوا في صفوف حزبنا في مرحلة المقاومة لا يمكنهم أن ينسوا التضامن الأخوي الرائع الذي كان يسود علاقاتنا ولا روح التفاني التي كانت تلهبنا. كنا مطاردين ومضطهدين وملاحقين بحكم الموت.والذين يضطهدوننا كانوا قد أوصلوا فرنسا إلى الحضيض، رغم ذلك اتسم إندفاعنا الوطني بحماس كبير وروح تضحية وثقة بالمستقبل ربما لم يعرفها غيرنا من رجال المقاومة.

إن الخطر الجدي الذي كانت تواجهه فرنسا المنهكة هو الوقوع في نوع من التعايش السلمي مع المتلريين.وهذا ما كان يديره رجالVichy. كنا نعرف طبعاً أن الظروف الدولية لا تسمح بحرب قصيرة في النصف الثاني من سنة ١٩٤٠ عندما كان هتلر يحتل قسماً من أوروبا وإنكلترا تتخبط بصعوبات كبيرة للدفاع عن نفسها داخل الجزيرة وفي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة خارج الحرب.

أما بالنسبة للإتحاد السوفياتي فكنا على يقين أنه سيدخل الحرب عاجلاً أم آجلاً. ولكننا لم نكن لنتوقع في أية ظروف أو في أي وقت سيحصل ذلك.

كان علينا إذن أن نُعيد تنظيم حزبنا ليس على الأسس التي قام عليها قبل الحرب إنما على أسس جديدة: على قاعدة المجموعة الثلاثية على مختلف المستويات ـ القيادة الثلاثية ـ كما كنا نسميها في ذلك الوقت.وهذه المجموعة كانت مؤلفة على الشكل التالي: مسؤول سياسي ومسؤول تنظيمي ومسؤول إعلام (دعاية) وبسرعة أُضيف مسؤول عسكري.

لقد خطر لي في تلك المرحلة أن أشبه تنظيمنا الشيوعي ـ في حياة الحزب ـ ببارجة حربية كبيرة مؤلفة من عدة أجزاء هي بمثابة سدود.وشرحت وقتها أن إحكام السد بين هذه المجموعات هو ضمانة لتحصين حزبنا طبعاً مع الأخذ بعين الإعتبار تأمين الصلة مع القيادات العليا.

عندما أنشأنا في خريف سنة ١٩٤٠ المجموعات الأولى من «التنظيم الخاص» بهدف التحضير للمواجهة المسلحة مع المحتلين الهتلريين كنا ندرك جيداً أننا لم نكن بمستوى الخوض بمواجهات مسلحة قاسية ضد المحتلين، ولكن الأمر كان بمثابة إستعداد لذلك.وقد أعطيت التوجيهات لمناضلينا بإعادة تجميع السلاح الذي كان مبعثراً في كل أنحاء فرنسا.

إن مجموعات «التنظيم الخاص» تلك كانت الطلائع الأولى للأنصار الفرنسيين. وتعبير قناص أخذ عن المقاتلين غير النظاميين في سنة ١٨٧٠ وتعبير أنصار أخذ عن المقاتلين الثوريين في

روسيا الفتية السوفياتية الذين لبوا دعوة القائد الكبير لينين للدفاع عن الثورة والذين انتصروا في نهاية الأمر.

جوكوف . . . .

كان من أبرز القادة العسكريين السوفيات في الحرب العظمى. ننقل هنا نصاً مأخوذاً من مذكراته حول دور حرب الأنصار السوفيات، ترجمة يوسف عطا الله الذي سيصدر قريباً عن دار الفارابي؛

... قاد الحزب الشيوعي النضال الوطني الشعبي ضد الغزاة بكفاءَة عالية فقدم بذلك مساعدة بالغة الأهمية للقوات النظامية. لم يكن الشيوعيون الأنصار يقاتلون والسلاح في أيديهم فقط، وإنما كانوا يقودون عملاً سياسياً كبيراً في توعية الاهلين عن طريق توزيع المنشورات والنداءات وبلاغات مكتب الأنباء السوفياتي وفضح دعايات العدو الكاذبة.. وقد أحدثت عمليات الأنصار تأثيراً بالغاً في تدهور الحالة النفسية لقوات العدو...

... ووفقاً لمعطيات هيئة الأركان المركزية لحركة الأنصار تضاعف عدد قوات الأنصار في العام ١٩٤٣، وتوحد عدد كبير من الفصائل، وظهرت وحدات وتشكيلات كبيرة مؤهلة لتنفيذ عمليات بالغة الأهمية في مؤخرة العدو ومشاغلة قسم كبير من القوات الالمانية.

ويمكن القول إن جبهة جبارة من المقاومين الشعبيين كانت تعمل في مؤخرة العدو بكل ما يكنُّه هؤلاء الأبطال من كراهية للغزاة.

أما أقوى وحدات الأنصار فهي التي كانت منتشرة في ربوع بيلوروسيا وأوكرانيا..

... في عمق مؤخرة العدو نفذت فصائل الأنصار ووحداتهم وتشكيلاتهم عمليات جريئة بالتنسيق المسبق مع سير عمليات القوات النظامية. وفي أركان الجبهات نفسها خصصت أقسام لادارة عمليات حركة الأنصار. وقد قامت هذه الأقسام بأعمال مجيدة في مجالات الاتصالات وتأمين الامدادات المادية والتقنية لوحدات الأنصار والتنسيق مع عملياتهم. ولا بد من التنويه بأن وحدات الأنصار أظهرت نشاطاً وشجاعة خارقتين في عملية بيلوروسيا، وساعدت على ذلك طبيعة الأرض المكتظة بالغابات الكثيفة حيث استطاع أكبر عدد من الجنود والضباط، أثناء تراجع جيوشنا في العام ١٩٤١، الاختباء فيها...

... في مطلع صيف ١٩٤٤ كان يعمل في بيلوروسيا ٣٧٤ ألف نصير جيد التسليح ضمن فصائل ووحدات وتشكيلات قوية. وقد تولت القيادة العامة لكفاح الأنصار منظمات الحزب الشيوعي السرية في الجمهورية بقيادة لجنته المركزية وعلى رأسها السكرتير الاول الرفيق بونومارنكو الذي ظل كذلك يشغل منصب رئيس الأركان المركزية لحركة الأنصار في الاتحاد السوفياتي حتى كانون الثاني ١٩٤٥...

... ومع هجوم جيوشنا استهدفت عمليات الأنصار البيلوروس تدمير القطارات الحديدية وطرق المواصلات والجسور ومنشآت السكك الحديدية الهامة. فتمكنوا من اخراج أكثر من ١٥٠ قطاراً محملاً بالجنود والمعدات العسكرية عن القضبان الحديدية. كما أدت عمليات الأنصار الجريئة على طرق المواصلات في مؤخرة القوات الالمانية إلى شل نشاط عربات التموين والامدادات، وأدّت أكثر فأكثر إلى تحطيم الحالة النفسية للجنود الالمان وضباطهم...

... لقي سير عملياتنا الهجومية المظفر دعماً هاماً من قوات الأنصار في الاتحاد السوفياتي على شكل عمليات بطولية نفذتها على مدى سنوات ثلاث لم تتح للعدو خلالها لحظة يستريح فيها، فدمرت خطوط مواصلاته وأثارت الرعب في مؤخرته. وعندما دخلت القوات السوفياتية أراضي بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا والمجر تلقت مساعدات كبيرة من وطنيي هذه البلدان الذين كانوا يخوضون غمار الكفاح بقيادة أحزابهم الشيوعية والاشتراكية...

... عمل في المناطق المحتلة من جمهورية روسيا الاتحادية، وفقاً لمعطيات غير كاملة، ضمن فصائل الأنصار المنظمة ٢٦٠ ألف مقاوم شعبي، وفي أوكرانيا ٢٢٠ ألفاً، وفي بيلوروسيا ٣٧٤ ألفاً. وأرغمت قيادة قوات العدو عملياً على فتح جبهة ثانية في المؤخرة لمقاتلة الأنصار خصصت لها اعداداً كبيرة من قواتها. وقد اثر ذلك تأثيراً جدياً على الوضع العام للجبهة الالمانية، وبالتالي على مجمل سير الحرب كلها.

كونييف . . . .

كان من أبرز القادة العسكريين في الحرب. وننقل له هنا نصاً مأخوذاً من كتابه «عام النصر» ترجمة غصبان السعد من منشورات دار الفارابي؛

... ومما لا شك فيه أن مأثرة الجيش السوفياتي في الحرب الوطنية العظمى ستبقى خالدة أبد الدهر لأن هذه المأثرة كانت حرباً وطنية هبّ فيها الشعب السوفياتي للدفاع عن وطنه الاشتراكي. وكانت حرباً عظمى لأن الشعب السوفياتي دخل في صراع مميت مع الفاشية كان يتوقف على مآله، لا مستقبل الدولة السوفياتية وحسب، بل وأيضاً مستقبل الحركة العمالية العالمية وحركة التحرر الوطني والبشرية جمعاء. لقد أعلن الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية أن الشعب السوفياتي سيخوض الحرب حتى النصر التام على الفاشية، وأنه سيساعد الشعوب المستعبدة والمناضلة من أجل استقلالها الوطني في خلع نير الغزاة الامبرياليين.

إزاء هذه المأثرة الوطنية والانسانية يحاول الجنرالات والمؤرخون البورجوازيون تزييف تاريخ الحرب العالمية الثانية والحرب الوطنية العظمى على وجه الخصوص.

لذلك سأتناول، انصافاً للتاريخ، نقطتين هما في نظري من بين النقاط الهامة الرئيسية الأخرى؛

أولاً ـ محاولة التقليل من الدور الرئيسي الذي لعبه الاتحاد السوفياتي... والجيش السوفياتي في الحرب العالمية الثانية في دحر المانيا الهتلرية وتحطيم ماكنتها الحربية. إذ يزعمون أن المساعدات المادية الأميركية والانزال في نورماندي والعمليات الحربية في الجبهة الغربية هي التي مكنت الجيش السوفياتي من احراز التقدم والتغلب على المقاومة النازية.

ثانياً ـ معزوفة ارتباك القيادة السوفياتية.

لا حاجة بنا إلى الرجوع إلى العديد من المصادر بهذا الشأن. ولكننا نكتفي بالقول أن الجبهة الثانية لم يجر فتحها من جانب الحلفاء لا في عام ١٩٤١ ولا في عامي ١٩٤٢ و١٩٤٣، بل تم فتحها فقط في منتصف عام ١٩٤٤ عندما اتضح أن أيام المانيا النازية قد أصبحت أياماً معدودات، وأن مصيرها قد تقرر سلفاً، وأن حركة التحرر الوطني والمقاومة الوطنية في أوروبا قد أصبحت عاملاً بارزاً من عوامل تحطيم الغزاة الهتلريين، وأنها تهدد، كما هو الحال في فرنسا، النظام الرأسمالي الامبريالي. لذلك ليس غريباً أن يكون وجود قوات الحلفاء ـ فيما بعد ـ سبباً في تحالف القوى الرجعية المحلية ضد القوى التقدمية وفي مقدمتها قوى الشيوعيين واليساريين...، وبالتالي أن يكون سبباً في تدعيم النظام البورجوازي الرأسمالي في بلدان أوروبا الغربية، وفي سحق آمال شعوب هذه البلدان، أو كما هو بالنسبة للشعب اليوناني الذي فرضت عليه بالقوة حكومة ملكية فاشستية من قبل المحررين الأنكلو أميركيين.

على عكس ما حدث في بلدان أوروبا الشرقية من ثورات ديمقراطية شعبية، استطاعت مساعدة الجيش السوفياتي تدعيم سلطتها الثورية الجديدة والتطور نحو اقامة النظام الاشتراكي في هذه البلدان.

كان هذا الدور المشرف الذي قام به الاتحاد السوفياتي وجيشه الأحمر، بكل نزاهة واخلاص لمبادىء الأممية البروليتارية، منسجماً مع الدور الذي حدده ستالين في أمره اليومي الرقم ٧٠ والمؤرخ في ١ مارس ١٩٤٤، عندما اجتازت القوات السوفياتية حدود الاتحاد السوفياتي مطاردة العدو النازي، دخلت أراضي البلدان المجاورة محررة، عندما كان الجيش السوفياتي يدق بمدافعه أعناق الغزاة حاملاً رايات النصر وهو على أبواب المانيا الهتلرية نفسها، حيث جاء فيه: «ولكن مهامنا لا يمكن أن تقتصر على طرد القوات من أراضي وطننا. ان القوات الالمانية تشبه الآن وحشاً جريحاً، مضطراً إلى الزحف نحو حدود «عرينه» المانيا لكي يعالج جراحه. ولكن الوحش الجريح الذي يهرب الى «عرينه» لا يكف عن كونه وحشاً خطيراً. ولكي نخلص بلادنا والبلدان الحليفة لنا من خطر العبودية ينبغي مطاردة الوحش الالماني الجريح دون هوادة ثم الاجهاز عليه في «عرينه». وخلال مطاردتنا للعدو ينبغي أن نحرر من العبودية الالمانية أخواننا البولنديين والتشيكوسلوفاكيين وغيرهم من شعوب أوروبا الغربية الحليفة، الواقعة تحت أقدام المانيا الهتلرية».

وكان هذا الدور منسجماً تماماً مع الدور التحرري ومساعدة الشعوب الأخرى في حربها التحررية عندما حدد ستالين أيضاً مهمات الجيش السوفياتي في الحرب ضد المانيا الهتلرية في

بداية الحرب في عام ١٩٤١ حيث قال « ... ان مساعدتنا تنحصر في معاونة هذه الشعوب في كفاحها التحرري ضد الطغيان الهتلري وتركها تقرر بحرية، وكما تشاء، نظام بلادها، وشكل الحكم فيها».

ومن الجدير بالملاحظة في هذا المجال أن نذكر أن حركة المقاومة في بلدان اوروبا الغربية وتحت تأثير انتصارات الجيش الاحمر في موسكو وستالينغراد وكورسك... قد اشتد ساعدها ونمت وتطورت.. ففي فرنسا مثلاً مارست تأثيراً ملموساً على عمليات القطعات الالمانية وكذلك على عمليات جيوش الحلفاء بعد الغزو. فمنذ أواخر ١٩٤٣ وبداية ١٩٤٤ ونتيجة لنشاط الحزب الشيوعي الفرنسي تشكلت القوات المسلحة الفرنسية الداخلية « اف. اف. اي» من مختلف الجماعات المعادية للفاشستية وبلغ تعدادها ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل من صفوف الـ « فرانس تيرر» في صيف ١٩٤٤، كما شنت الـ «أف. اف. اي» نضالاً منظماً ونشيطا شمل البلاد بأسرها، وبدأت انتفاضة شعبية مع نزول الحلفاء وبلغت ذروتها عندما حرر الثائرون باريس بين ١٩ و٢٥ آب ١٩٤٤. وقد قال شارل ديغول في ١٩٤٤/١/٢ « ... ان الشعب الفرنسي يدرك جيداً ما صنعته روسيا السوفياتية له، ويعرف ايضا بأن روسيا السوفياتية كانت العامل الحاسم في تحرير الشعب الفرنسي».

وفي ايطاليا كان هناك ٨٠,٠٠٠ مقاتل في مفارز العصابات في شمال ايطاليا يقاتلون العدو الفاشستي...، وفي بلجيكا تصاعد عدد المقاتلين في المفارز المسلحة حتى بلغ ١٥٠,٠٠٠ مقاتل في بداية عام ١٩٤٤، وفي يوغوسلافيا ظهرت تشكيلات جيش التحرير الشعبي في نهاية عام ١٩٤٢، وفي بولونيا اشتد ساعد الوطنيين البولونيين حتى بلغت مفارز العصابات ١٠٠ مفرزة مقاتلة في صيف ١٩٤٣، وفي اليونان بلغ تعداد المقاتلين في صفوف جيش التحرير اليوناني ٧٠,٠٠٠ مقاتل، وفي البانيا بلغ عدد المقاتلين في مفارز العصابات الالبانية ٢٠,٠٠٠ مقاتل، وفي كريت ١٢,٠٠٠ مقاتل مثلما انخرط الآلاف من المقاتلين الجدد في مفارز المقاومة في الدانمارك والنروج وهولندا ولوكسمبورغ....

جياب. . . . .

أهمية كتابات جياب قائد جيش التحرير الشعبي الفيتنامي أنه أسس للحرب الشعبية المعاصرة، في ضوء تجربة طويلة مدة قادت الفيتنام والهند الصينية إلى الانتصار على الامبريالية الأميركية وبناء ثلاثة دول اشتراكية فيها. ننشر لجياب هنا نصاً مأخوذاً من كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة إبراهيم العابد وماهر كيالي»

... ان حرب المقاومة التي شنها شعبنا كانت استمراراً للثورة الوطنية الديموقراطية الاجتماعية عن طريق النضال المسلح. لذا فإن الالتزام الثابت لثورة تحررية ديموقراطية في

قيادة حرب مقاومة هي مسألة معقدة وحاسمة.

في حرب المقاومة لعبت حرب العصابات دوراً كبير الأهمية. فهي تمثل نوعاً من القتال الذي تخوضه الجماهير، جماهير بلد ضعيف سيء التجهيز يتصدى لجيش عدواني يمتلك معدات أفضل.

هذه هي طريق خوض القتال في حرب ثورية تعتمد على الروح البطولية للانتصار على الأسلحة الحديثة، فهي تتجنب ملاقاة العدو عندما يكون قوياً وتهاجمه عندما يكون في وضع أضعف فتارة تكون مبعثرة القوى وأخرى جامعة لقواها، تارة تصمد وأخرى تبيد العدو مصممة على مقارعته في كل مكان بحيث يواجه حيثما يذهب الغرق في بحر من الشعب المسلح يواصل ضربه وبذلك يضعف روحه المعنوية ويستنزف قواه. وبالإضافة الى الوحدات التي يستلزم توزيعها كي تتصدى للعدو من الضروري إعادة تجميع القوى الكبيرة المسلحة في ظروف مؤاتية لكي يتحقق التفوق في الهجوم في نقطة معينة وفي موعد معين لإبادة العدو. إن إحراز الانتصارات في مواقع صغيرة يؤدي إلى استنزاف قوة العدو البشرية وفي نفس الوقت يعزز قوانا شيئاً فشيئاً. إن الهدف الأساسي للقتال يجب أن يكون تدمير قوة العدو البشرية وينبغي أن لا تستنزف قوانا بمحاولة الاحتفاظ أو احتلال الأراضي وبهذا تخلق الظروف النهائية لإبادة العدو بكامله وتحرر بلادنا.

إن حرب العصابات تتوافق كلياً مع سمات حربنا في المقاومة ففي المرحلة المبكرة من المقاومة لم تكن هناك ولم يكن ممكناً أن تكون في بلادنا حرب نظامية وإنما نشاطات فقط يقوم بها الثوار. وعندما بدأت الحرب في جنوب فيتنام كانت خطتنا تقوم على شن حرب عصابات وبالفعل فقد أخذت هذه الحرب شكلها في التطبيق. ولكن عندما اندلعت المقاومة وشملت الأمة بكاملها لم تنفذ سياسة شن حرب عصابات بصورة أساسية، بوضوح. وفي خريف عام ١٩٤٧ ومع بداية فصل الشتاء بذلت اللجنة المركزية جهوداً في بدء وتوسيع نشاطات الثوار في جميع المناطق المحتلة. فقد قسم جزء من قوتنا الرئيسية إلى سرايا مستقلة، تعمل منفصلة ونفذت إلى أعماق مؤخرة العدو كي تبشر بدعايتنا بين الشعب وتدافع عن قواعدنا وتصعّد حرب العصابات. كانت سياسة السرايا المستقلة والتي تلاقت مع الكتائب المركزة تجربة ناجحة حداً في مسار حرب العصابات. ومع تصاعد نشاطات الثوار وامتدادها الواسع تحولت مؤخرة العدو في أمكنة عديدة إلى خطوط أمامية لنا.

إن حرب العصابات من وجهة النظر الاستراتيجية تستنزف العدو عن طريق خلق العديد من المشاكل له وإلحاق الخسائر به. ولا بد لحرب العصابات كي تبيد العدو وتحرر الأرض من أن تنتقل تدريجياً نحو الحرب المتحركة. وبسبب من أن حرب المقاومة التي كنا نخوض كانت حرباً ثورية طويلة، كان من المحتم علينا أن تنتقل نحو الحرب المتحركة. ومن خلال حرب العصابات تشكلت قواتنا بالتدريج. وخاضت القتال في البداية بوحدات صغيرة ثم بوحدات

كبيرة منتقلة من القتال المبعثر إلى قتال أكثر تركيزاً. وتطورت حرب العصابات بالتدريج نحو حرب متحركة ـ وهي شكل من القتال تبدأ فيه مبادىء الحرب النظامية بالظهور تدريجياً وتتطور بتزايد ولكن تبقى تحمل طابع حرب العصابات. إن الحرب المتحركة هي طريقة خوض القتال بالقوات المتمركزة، بالجيش النظامي حيث تجمع قوات كبيرة نسبيا تقوم بعملياتها في أراضي ميدان واسعة نسبياً، وتهاجم العدو حيث يكون مكشوفاً نسبيا، قاصدة إبادة القوة البشرية للعدو، وسبر اغواره ثم الانسحاب بسرعة كبيرة، وامتلاك أقصى ما يمكن من الدينامية والمبادرة والحركة وسرعة اتخاذ القرارات في مواجهة أي وضع جديد. ومع استمرار حرب المقاومة أصبح الدور الاستراتيجي للحرب المتحركة أكثر أهمية مع كل يوم يمر، وكانت مهمتها إبادة عدد أكبر فأكبر من قوات العدو لكي تطور قوانا الخاصة بينما كانت مهمة حرب العصابات استنزاف وتدمير احتياطات العدو. لذلك كان على الحرب المتحركة أن تسير جنباً إلى جنب مع حرب الإبادة. فقط، بإبادة القوة البشرية التي يمتلكها العدو يمكننا أن نحطم هجماته الكبيرة وننقذ قواعدنا ومؤخرتنا، وننتقل لكسب المبادرة في العمليات ونستنزف المزيد من قوة العدو البشرية المهمة ونحرر مراكز أوسع واحداً تلو الآخر ونصل بالنهاية إلى تحطيم قوة العدو المسلحة كلياً ونحرر بلدنا بأكمله.

نحن درجنا على القول: يجب أن تنتشر حرب العصابات، فكان ينبغي لحرب العصابات، كي تبقى على نفسها حية ولكي تتطور، من أن تسير باتجاه الحرب المتحركة هذا قانون عام. وبالنسبة للظروف المادية التي تحيط بحربنا في المقاومة لم يكن بالإمكان وجود حرب متحركة بدون حرب عصابات. ولكن ما لم تنتقل حرب العصابات إلى حرب متحركة فإن عواقب ذلك لا يتوقف عند العجز عن تنفيذ مهمتنا الاستراتيجية التي تهدف إلى إبادة قوة العدو البشرية فحسب بل إن نشاطات حرب العصابات نفسها يصعب الإبقاء عليها وتوسيعها. إن القول بضرورة تطوير حرب العصابات إلى حرب متحركة لا يعني إهمال حرب العصابات بل على العكس فإنه يعني إنه في ظل نشاطات الثوار الواسعة تنمو وحدات الجيش النظامي تدريجياً ويكون بإمكانها شن حرب متحركة. وإلى جانب القوة الرئيسية يجب أن تكون على الدوام قوات ثوار عديدة ونشاطات عديدة لهم.

وما ان تظهر الحرب المتحركة على الجبهة الأمامية لحرب العصابات حتى يتوجب أن يحدث تنسيق وثيق وصحيح بين هذه الأشكال من القتال كي يصبح بالإمكان دفع حرب المقاومة إلى الأمام وإبادة قوات أكبر للعدو وتحقيق أكبر الانتصارات. وهذا قانون عام آخر في السلوك في الحرب. فمن جهة لا بد من توسيع حرب العصابات بحيث تستفيد من الظروف الإيجابية الجديدة التي أوجدتها الحرب المتحركة وتنسق مع الحرب المتحركة كي تبيد وتستنزف عدداً كبيراً من قوات العدو ومن خلال هذه الانتصارات تواصل تصعيد الحرب المتحركة، ومن

جهة أخرى لا بد من مزيد من التصعيد في مسار تطور الحرب المتحركة لإبادة أكبر عدد ممكن من الاعداء، وفي الوقت نفسه خلق ظروف جديدة مؤاتية لإحداث المزيد من التوسع في حرب العصابات، وسرعان ما بدأت حرب المواقع بالظهور تدريجياً. وهذه الحرب التي أصبحت جزءاً من الحرب المتحركة واصلت تطورها واحتلت مركزاً لها.

إن سلوك الحرب يجب أن يبقي على نسبة صحيحة بين أشكال القتال. ففي البداية كان علينا أن نثابر على حرب العصابات ونوسعها وبدخولنا إلى مرحلة جديدة، ظهرت خلالها ملامح الحرب المتنقلة، كان علينا أن نحافظ بثبات على التنسيق بين الشكلين اللذين شكلت حرب العصابات الحرب الرئيسية فيها. وكانت الحرب المتنقلة ذات أهمية أقل ولكنها لا تزال في طريقها نحو التقدم.

ثم جاءت مرحلة جديدة وأرقى انتقلت فيها الحرب المتحركة نحو المركز الرئيسي، وتمثل ذلك في البداية في ساحة قتال واحدة فقط ـ حيث ظهر إلى الوجود هجوم محلي مضاد ـ ثم انتشرت على نطاق واسع جداً. وقد توسعت حرب العصابات خلال هذه المدة بيد انها، على العكس من الحرب المتحركة، تراجعت من المركز الرئيسي الى مركز أقل أهمية في ساحة قتال معينة في البداية ثم على نطاق أوسع بكثير.

إن استراتيجية الحرب الطويلة الأمد والقاعدة الموجهة في القتال بالانتقال من حرب العصابات نحو الحرب النظامية بالتدريج مع الإبقاء على أشكال من حرب العصابات، كانت تجارب ناجحة جداً في حربنا في التحرر الوطني. تلك كانت استراتيجيات وتكتيكات حرب الشعب، وفن السلوك العسكري في حرب الشعب والحرب الثورية لبلد زراعي صغير ومتخلف يقوده حزبنا.

وفي مسار حرب التحرير الوطني تعتبر إقامة القواعد من أجل مقاومة ثابتة وطويلة مسألة استراتيجية هامة وكذلك تجربة ناجحة جداً لحزبنا. وانها لضرورة مطلقة بالنسبة لنا أن نجري دراسة عميقة ونقيم التجارب الغنية التي تتناول هذه القضية.

إن حرب المقاومة الناجحة التي خاضها شعبنا وجهت ضربة عنيفة للنظام الاستعماري المتفكك وبذلك شاركت جزئياً في تحطيم المؤامرات التي يحوكها الامبرياليون، وفي نضال شعوب العالم من اجل السلام والديموقراطية والاشتراكية.

غيفارا

كان غيفارا نموذجاً للثوري الذي أعطى حياته كلها للثورة وقد دلل على ذلك عندما قرر، بعد انتصار الثورة الكوبية التي كان أحد الذين قادوا انتصارها، إلى جانب فيدل كاسترو، أن يتابع نضاله الثوري في بلدان أميركا اللاتينية. واستشهد في احدى ساحات الكفاح الثورى المجيدة. ننشر له هذا النص الذي يحدد فيه صفات الفدائي الثوري، أخذناه من كتاب بعنوان «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة ابراهيم العابد وماهر كيالي؛

الفدائى هو مقاتل من اجل الحرية: وهو يمثل الناس في نضالهم من أجل الحرية. فحرب العصابات ليست، كما يعتقد الكثيرون، حرباً ضيقة النطاق تقاتل فيها مجموعات صغيرة جيشاً قوياً. حرب العصابات هى حرب الشعب كله ضد الاضطهاد الذي يلقاه. وحركة المقاومة هى طليعة ذلك الشعب، وجيش الفدائيين يضم كـل سكـان المنطقـة أو البلـد. ذلـك هـو سبـب انتصارهم الأكيد مهما كانت قوة الحكم الذي يريـد سحقهـم. الشعـب هـو قـاعـدة الجماهير وأرضها الصلبة.

ليس بالإمكان تصور تفوق مجموعات صغيرة، مهما كانت منظمة ومسلحة وخبيرة بالمنطقة، على جيش مجهز تجهيزاً جيداً إذا لم يساند الشعب هذه المجموعات. ويظهر ذلك من واقع ان كل قطاع الطرق وكل العصابات خضعت في النهاية للحكومة المركزية.

على كل عنصر في جيش الفدائيين، وهو جيش الشعب، أن يتحلى بصفات أفضل جنود العالم. على الجيش التقيد بالانضباط التام. وكون التنظيم الفدائي خـاليـاً مـن تقـاليـد الجيش الرسمية كضرب الحذاء والتحية الرسمية، لا يعني بتاتاً عدم وجود انضباط بين الفدائيين. والانضباط الفدائى يكون داخل كل عنصر. ويولد هذا الانضباط اقتناع الفدائي بأن إطاعة رئيسه ضرورية للمحافظة على حياته قبل المحافظة على فعالية المجموعة المسلحة. وإذا كان من الممكن تصحيح أي إهمال بسيط يصدر عن جندي نظامى فإن الأمر يختلف بالنسبة للفدائى الذي هو وحدة قائمة بذاتها. ومن ثم فإن أقل إهمال أو خطأ يكون قاتلاً. وهكذا لا يجوز لأي فدائي أن يكون مهملاً أو أن يرتكب أقل هفوة لأن حياته وحياة رفاقه مرهونة بتصرفاته.

وكثيراً ما يبدو لمن هم في الخارج أن الجندي النظامي أكثر انضباطاً من أي فدائي. لكن الواقع هو أن جيش التحرير لا مجال فيه لأي ضعف إنساني، فليس لدى هذا الجيش وسائل قمع ولا استخبارات، فلا يبقى له إذن سوى أمر واحد هو الانضباط الذاتي ووعي الواجب وتنفيذه. وعلى الفدائي، بالإضافة إلى انضباطه، أن يكون خفيف الحركة سريع الخاطر.

وليس في الإمكان تصور حرب فدائية ساكنة جامدة. والليل يعطي مجالاً للتحرك. يتحرك الفدائي ليلاً ويأخذ موقعاً ثم يهاجم وينسحب. ولا يكون الانسحاب بالضرورة إلى مكان بعيد عن مسرح العملية، لكن يجب أن يكون انسحاباً سريعاً لأن العدو سوف يركز فوراً على قواته في المنطقة التي هوجمت. وسوف يبدأ بالقصف الجوي ثم يرسل وحدات خاصة لتطويق

المنطقة وأخيراً يرسل جنوده لاحتلال الموقع فلا يجد فيه أحداً. وعلى الفدائيين خلق جبهة وهمية أمام العدو. يمكنهم الانسحاب مسافة قصيرة وانتظار العدو ثم ضربه والانسحاب مرة أخرى مما ينهك جيش العدو إنهاكاً بالغاً.

والفدائي ينفضّ من كمينه في اللحظة المناسبة. وعليه أن يعرف المنطقة معرفة جيدة. عليه أن يعرف موقع كمينه وممرات الانسحاب وبيوت أصدقائه وأعدائه في المنطقة، وأكثر الأماكن أماناً حيث يمكن إخفاء رفيق جريح أو حيث يمكن إقامة معسكر موقت. وهذا كله ممكن لأن جماهير الشعب، نواة قوات الفدائيين، هي وراء كل عملية.

إن سكان المنطقة هم الحمالون والمخبرون والممرضات ومصدر الفدائيين الجدد، وباختصار إنهم يشكلون أهم العناصر المساندة للطليعة المقاتلة.

ولقد يتساءل الفدائي «لماذا أقاتل؟» والجواب المقنع هو: «الفدائي هو مصلح اجتماعي. يحمل السلاح تعبيراً عن احتجاج الأهالي على مضطهديهم، ويقاتل لتغيير النظام الاجتماعي الذي يخضع إخوته للعزل للفقر والاضطهاد. إنه يقاوم النظام وهو مصمم على إزالة ذلك النظام».

أنريكو ليستر . . . .

كان ليستر أحد قادة الثورة الاسبانية الأساسيين في مراحلها الأولى، وخلال حربها الصعبة بعد سقوط الجمهورية. وقد كتب الكثير عن هذه الحرب ودروسها. وهذا نص من نصوصه نقلناه من كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة ابراهيم العابد وماهر عالي.

أود أن أبحث بعض مبادىء حرب العصابات المعروفة جيداً ولكنها لا تطبق دائماً. إن حرب العصابات لا يمكن شنها إلا في ظروف معينة ولأسباب محددة: قد تنشب حرب عصابات ضد جيش عدو احتل جزءاً من وطن شعب آخر. وفي تلك الحالة تقوم هذه الحرب لتدعيم الجيش النظامي الوطني في محاولته طرد الغزاة. ولقد أعطى شعب الاتحاد السوفياتي مثالاً رائعاً على هذا خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد تنشب حرب عصابات ضد جيش أجنبي يشن حرباً غير عادلة، حرباً عدوانية، وقد تمكن من هزيمة الجيش الوطني. في تلك الحالة، قد تلجأ بقايا الجيش المهزوم بمساعدة المدنيين الى حرب العصابات لمنع الغزاة من تقوية مراكزهم. وتعد حرب العصابات هنا لأشكال أعلى من النضال. كان هذا الوضع قائماً في إسبانيا عام ١٨٠٨، وفي فرنسا وغيرها خلال الحرب العالمية الثانية.

وقد تنشب حرب عصابات لمتابعة كفاح الشعب الذي هزمه رجعيو بلاده في حرب أهلية أو حرب ثورية وطنية، كما كان الوضع في إسبانيا عام ١٩٣٩.

وقد تنشب حرب عصابات لدفع الناس للثورة المسلحة ضد النظام الرجعي في بلادهم.

بالطبع هناك أشكال أخرى لحرب العصابات، كما أن أشكالاً جديدة سوف تظهر بمضي الوقت.

يجب على كل من ينظم حركة فدائيين (ثوار) ألا يخلط بين عطف الجماهير وبين تأييد الجماهير لتلك الحركة. العطف والتأييد أمران مختلفان. ففي إسبانيا ظفر الفدائيون بعطف الناس الذين كانوا يعتبرونهم أبطالاً. لكن العطف لم يتخط حدوده. لم يتحول العطف إلى تأييد جماهيري فعال لعمليات الفدائيين. كان ذلك التأييد ضرورياً وكان الفدائيون يعتمدون عليه.

لقد علمتنا تجربتنا أن على الحزب الذي يفكر بشن حرب عصابات أن يدرك أن عمليات الفدائيين وهي شكل من أشكال النضال السياسي لا يمكن عزلها عن الأشكال الأخرى التي يستعملها الناس. لا يمكن لحركة المقاومة أن تستمر إلا إذا أيدها الناس. وسوف تنمو هذه الحركة لتصبح حركة جماهيرية شرط أن يشارك الناس فيها، وشرط استعمال أشكال النضال التي تمليها الظروف الموضوعية في البلاد، بما فيها الثورة المسلحة.

من المهم أن نتذكر أن عمليات الفدائيين يجب أن تكون في توافق مع مشاعر وتطلعات الناس. وعندما لا يكون هذا التوافق موجوداً لا نحصل على حرب ثورية بل على إرهاب وانتقام. وهذه أمور لا تفيد الثورة بتاتاً.

إن لوحدات الفدائيين صفة الحركة الجماهيرية الثائرة ضد محتل أجنبي، أو ضد فئة داخلية تضطهد الشعب، أو كفاح شعبي لإسقاط حكم جائر. لكن العامل السياسي في كل حالة، وخاصة في الحالة الأخيرة، عامل حاسم وأساسي.

لا يمكن لحركة مقاومة أن تعيش وتنتشر إلا إذا فهمها الناس وأيدوها، وإلا إذا شكلت جزءاً من معركة الناس ضد عدو مشترك. كنا ندرك أن الشعب كله، وليس وحدات فدائيين فقط، قادر على إنهاء حكم فرانكو بالثورة عليه، وفعلنا كل ما في وسعنا لتنظيم تلك الثورة.

وقد استنتجنا أنه في بلد متوسط التقدم ـ وخاصة في بلد متقدم كثيراً ـ من الصعب شن حرب عصابات دون تحويلها إلى حرب ثورية جماهيرية، وحرب مسلحة، في المدن. بكلام آخر، لكي يكون النضال المسلح ناجحاً، يجب أن يكون جماهيرياً.

تظهر التجربة الإسبانية صعوبة القيام بكفاح مسلح في الريف وكفاح مكثف في المدن يشمل الأشكال القانونية وغير القانونية للكفاح في آن واحد، إلا إذا كانت هناك أزمة ثورية عميقة. من الصعب، في بلد تملك حكومته قوة قمع كبيرة وخطوط مواصلات سهلة تمكنها من توزيع ونقل قواتها، شن حرب عصابات لوقت طويل إذا كانت الحالة الثورية العامة ضعيفة أو غير موجودة.

يمكن أن تكون حرب العصابات عاملاً في خلق حالة ثورية. لكن ليس بإمكانها ذلك إلا في ظل أوضاع مؤاتية، أي اذا كانت شكلاً من أشكال النضال الأخرى التي تشترك فيها الجماهير.

تحدث لينين دائماً عن وحدات الفدائيين المرتبطة بكفاح شعب على أنها نتيجة اشتداد الكفاح وليست وسيلة قائمة بذاتها. وكتب يقول: «لا يمكن لحزب الطبقة الكادحة اعتبار حرب العصابات الوسيلة الوحيدة، أو حتى الرئيسية، في الكفاح... يجب أن تكون هذه الوسيلة خاضعة لوسائل أخرى... ويجب أن تتلاءم مع وسائل الحرب الرئيسية».

الدرس الثاني الذي تعلمناه ـ وإسبانيا ليست متميزة عن غيرها ـ هو أنه يجب على قادة حركة المقاومة أن يتمكنوا من إيقاف حرب العصابات خلال وقت قصير وأن «يطووا أشرعتهم» قبل فوات الأوان، إذا وضح لهم أنها ليست أفضل وسيلة وأنها قد تؤدي إلى استنزاف الطليعة الثورية والقضاء عليها.

يهانيدس . . . .

هو أحد قادة الحزب الشيوعي اليوناني وأحد قادة حركة الأنصار اليونانية في الحرب العالمية الثانية. وهو يكتب هنا بعض ذكرياته وملاحظاته حول هذه الحركة. نقلنا هذا النص من كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة ابراهيم العابد وماهر الكيالي؛

بعد خمسة أيام من دخول الألمان إلى سالونيكا (في ٩ نيسان ١٩٤١)، اجتمعت سراً لجنة الحزب الشيوعي في تلك المنطقة وقررت بدء الكفاح المسلح ضد الغزاة. تم الحصول على أسلحة وبدأ خلال أسابيع قليلة تكوين مجموعات فدائية في جبال لانغاداس. وفي أيلول ١٩٤١ سدد الفدائيون أول ضربة إلى قوات الاحتلال في منطقة مقدونيا.

لم يكن الكفاح ضد الألمان أمراً سهلاً، كان كصعود الجبل. فقد بعثرت الدكتاتورية اليونانية والاحتلال الألماني القوى والتنظيمات في البلاد. ولكن قطاعات حركة المقاومة أخذت تعيد تجميع نفسها بصعوبة وعناء. ولقد أعادت تسليح نفسها بسلاح الجنود القتلى أو بأسلحة خلّفها الأهالي، وبدأت بتكوين نواة وحدات مسلحة في المدن والجبال.

وبرزت جبهة التحرير اليونانية إلى الوجود بعد أشهر قليلة من الاحتلال. وكانت الجبهة تضم في البداية، أعضاء من الحزب الشيوعي ومن الحزب الاشتراكي وحزب المزارعين. كان لكل هذه الأحزاب ماضٍ سياسي مشرف إذ لم يشترك أي منها بالدكتاتوريات التي حكمت قبل الحرب. ولكنها قاتلت ضد دكتاتورية مكستاس. وسعت جبهة التحرير تنظيمها ومدى تأثيرها وتولدت قيادة المعركة تدريجياً وبعد جهود وتضحيات كبيرة. وقد انضمت أحزاب ومنظمات أخرى إلى الجبهة، بما فيها حزب الأحرار التقدميين، والشباب الحر، والاتحاد العام لنقابات العمال، واتحادات موظفي الدولة والسكك الحديدية، ومنظمات النساء المختلفة. لقد انضمت إلى المعركة كل مؤسسة سياسية واقتصادية لم يقض عليها مكستاس أو الألمان. فمثلاً، استطاعت

الدكتاتورية القضاء على حزب الأحرار السابق، ولم ينضم أي حزب تقليدي إلى حركة المقاومة.

وفي بداية عام ١٩٤٢، أصبحت جبهة التحرير قوة يحسب حسابها. فقد وحدت مجموعات الفدائيين المختلفة تحت قيادة مركزية واحدة. وأنشأت لجاناً تابعةً لها في كل أنحاء البلاد. وتم تنظيم عمليات التخريب في المدن، وتخطيط وتنفيذ عمليات عسكرية فدائية في الجبال.

ودعت جبهة التحرير الشعب اليوناني كله إلى تناسي خلافاته والاتحاد ضد العدو المشترك.

وأعلنت برنامجها التالي:

١ ـ تحرير اليونان من الغزاة واستعادة سيادتها الوطنية.

٢ ـ تأليف حكومة موقتة، بعد التحرير، من العناصر المناوئة للفاشستية، على أن تتكفل هذه الحكومة بإعادة الحريات الديمقراطية للشعب، وبتأمين العمل والطعام للجميع، والمحافظة على استقلال وسيادة اليونان، والعفو عن السجناء السياسيين، وتنظيم انتخابات حرة.

٣ ـ معاقبة العملاء ومجرمي الحرب.

٤ ـ عدم السماح للملك بالعودة إلى اليونان إلى أن يبت الشعب بأمر الملكية بواسطة استفتاء حر.

ووصلت جبهة التحرير إلى أوج نشاطها خلال الشتاء الأول من عهد الاحتلال. وكان يتم جمع مئة جثة صباح كل يوم من شوارع أثينا، وكان هؤلاء ضحايا سياسة التجويع الألمانية. وقاسى الفقراء أكثر من غيرهم بالطبع. وقامت جبهة التحرير بتوزيع الطعام والمؤن سراً على أهالي المدن. وأحياناً كانت الجبهة تتخذ اجراءات قاسية بجعل المزارعين الأغنياء وأصحاب الأملاك الكبار يتنازلون عن بعض محصولهم. كما حاربت الجبهة السوق السوداء وأجبرت أصحاب مخازن الطعام الكبيرة على فتح محلاتهم. كان يقلق الجبهة معرفتها بالانتقام المريع الذي سيقوم به الألمان رداً على عملياتها العسكرية. لذلك كان يتم تخطيط كل عملية بعناية وبشكل منفرد. كان المفروض في كل عملية أن تفيد الشعب اليوناني والحلفاء، وكان احتمال نجاحها يحسب بدقة. لم تعد الحرب حرباً فردية لعشر مجموعات أو اثنتي عشرة مجموعة متفرقة، بل أصبحت حرباً وطنية مدروسة. كان السلاح يتدفق على القيادة العامة من كل المنظمات.

وقد دعم النضال المسلح ودعمت وسائل العنف بوسائل مقاومة سلبية. كان كل يوناني يقترب منه ألماني أطرش أو أخرس أو أمياً. تظاهر كل يوناني انه لا يفهم الأوامر. ثم كان الشعب يقوم بالإضرابات. فقد نظمت جبهة التحرير إضرابين في أثينا ومدينة أخرى أجبرت خلالها قوات الاحتلال على زيادة الرواتب وعلى إقامة مطاعم للعمال وعائلاتهم، وعلى اعلان انها لن تصدّر أية مواد غذائية من اليونان إلى الخارج، كما نجحت جبهة التحرير في عرقلة جهود الألمان ومحاولاتهم الرامية إلى استقدام العمال اليونانيين للعمل في ألمانيا. كانت اليونان أكثر بلد محتل لم يتعاون مع الألمان وقاومهم بكل السبل.

اميلكار كابرال . . . .

كان قائد الحركة الثورية لشعوب المستعمرات البرتغالية (أنغولا وموزامبيق وغينيا بيساو «الرأس الأخضر»). تميز بالكفاحية وبالثقافة النظرية العالية. هذا النص هو توجيهات إلى المقاتلين عام ١٩٦٥ ونشرت فيما بعد في كتابه بعنوان «سلاح النظرية في حركات التحرر الوطني».

تذكروا دائماً أن الشعب لا يقاتل من أجل أفكار، من أجل ما يجول في الأذهان. الشعب يقاتل من أجل نيل مكاسب مادية، من أجل حياة أفضل ومن أجل السلام، من أجل أن يرى حياته تتقدم إلى أمام، ومن أجل ضمان مستقبل أطفاله...

يجب أن نعترف، ضميرياً، أن عملنا كان مشوباً بعدة أخطاء سياسية أو عسكرية، فإننا لم نقدم على عدد هام من الأمور في الوقت المناسب، أو أننا أغفلناها كلياً.

لم نقم بالعمل السياسي في صفوف الشعب والقوات المسلحة بطريقة صحيحة في بعض المناطق، لا بل في جميع المناطق. الكوادر السياسية لم تقم بالتعبئة والتكوين والتنظيم السياسي، أو هي عجزت عن ذلك. وبرز حتى بين المسؤولين اتجاه الى التسيب هنا وهناك... ومع أنه قد برز ميل الى التراخي، فإننا لم نناضل ضده ولم نتمكن من القضاء عليه...

على الصعيد العسكري لم ينفذ العديد من الخطط والأهداف التي وضعتها قيادة الحزب، مع أننا قادرون على بذل جهد أكبر وأفضل بالامكانات المتوافرة لدينا. وبعض الكوادر المسؤولة أساءت فهم وظائف الجيش وقوات الأنصار، فلم تنسق بين الاثنين بطريقة جيدة، وسمحت أحياناً بطغيان مشاغل الدفاع عن مواقعنا، متجاهلة أن أفضل وسيلة للدفاع بالنسبة لنا هي الهجوم.

ومع كل هذه الدلائل على عدم كفاية العمل السياسي في أوساط القوات المسلحة، برز اتجاه «عسكري» أدى ببعض المقاتلين وحتى ببعض القادة الى تناسي كوننا مناضلين مسلحين لا مجرد عسكريين. من هنا يجب مكافحة هذه النزعة بسرعة وابادتها...

إذا نزل عشرة رجال إلى حقل الأرز وقاموا بعمل يومي يستطيع أن يقوم به ثمانية رجال، فلا حاجة للشعور بالارتياح، الأمر نفسه ينطبق على القتال. عشرة رجال يقاتلون قدر قتال ثمانية رجال، هذا لا يكفي... يمكننا دائماً بذل المزيد من الجهد. بعض الناس يألف الحرب، وعندما يألف المرء الحرب ينتهي الأمر: يضع رصاصة في فوهة بندقيته ويتجول. يسمع صوت محرك على النهر فلا يستخدم مدفع «البازوكا» الذي بحوزته، وهكذا تمر البوارج البرتغالية دون أن يمسها سوء. اريد أن أكرر: نستطيع دائماً بذل المزيد من الجهد. ونحن مطالبون بطرد البرتغاليين...

... أنشئوا المدارس وعمموا التعليم في كافة المناطق المحررة. اختاروا الشبان بين الرابعة عشرة والعشرين، أي الذين أنهوا سنتهم الدراسية الرابعة، ليتلقوا المزيد من التدريب...

كافحوا، ولكن دون اللجوء للعنف، كافة العادات السيئة وكافة المعتقدات والتقاليد السلبية في صفوف شعبنا. افرضوا على كل عضو مسؤول ومتعلم في حزبنا بذل عمل يومي من أجل تحسين تربيته الثقافية.

حاربوا بين الشباب ـ وخاصة الذين جاوزوا العشرين من العمر ـ هوس السفر إلى الخارج للدراسة، والطموح الأعمى لنيل شهادة، وعقدة النقص والأفكار الخاطئة التي تدفع إلى الاعتقاد بأن الذين يتعلمون سوف ينالون الامتيازات في المستقبل... وكافحوا في الوقت نفسه أية اساءة للذين يتعلمون أو يطمحون إلى العلم ـ كافحوا العقدة التي تقول إن الطلاب سيتحولون الى طفيليين أو إلى مخربين للحزب.

في المناطق المحررة، ابذلوا ما في وسعكم لترسيخ حياة الشعب السياسية. يجب تدعيم لجان الحزب الفرعية والقطاعية والمنطقية بحيث ينتظم عملها. يجب عقد الاجتماعات الدورية لشرح مجريات النضال للشعب، وعرض مشاريع الحزب وخططه في كل ظرف، وفضح أهداف العدو الاجرامية.

في المناطق التي لا زالت في قبضة العدو، عززوا العمل السري، والتعبئة والتنظيم بين الأهالي، وهيئوا المناضلين للعمل ولمساندة مقاتلينا...

يجب تنمية العمل السياسي في صفوف القوات المسلحة، أكانت نظامية أم غير نظامية. اعقدوا الندوات الدورية. طالبوا المرشدين السياسيين بالعمل السياسي الجدي.. أسسوا اللجان السياسية من المرشدين السياسيين وقادة معدات الجيش النظامي.

كافحوا النزعات العسكرية، وحولوا كل مقاتل إلى مناضل حزبي نموذجي.

ثقفوا أنفسكم، ثقفوا مواطنيكم والشعب عامة، من أجل محاربة الخوف والجهل، والقضاء شيئاً فشيئاً على خضوعنا للطبيعة والقوى الطبيعية التي لم يسيطر اقتصادنا عليها بعد. اقنعوا الجميع تدريجياً، وبخاصة مناضلي الحزب، بأننا لا بد منتصرون على الخوف من الطبيعة، وبأن الانسان أقوى قوة من الطبيعة.

طالبوا أعضاء الحزب المسؤولين بأن ينكبوا بجدية على الدراسة، وأن يهتموا بأمور وقضايا نضالنا وحياتنا اليومية في جانبها الأساسي والجوهري وليس فقط في مظهرها... تعلموا من الحياة، تعلموا من الشعب، تعلموا من الكتب، تعلموا من تجارب الآخرين. تعلموا بلا كلل.

الأعضاء المسؤولون يجب أن يتسموا بالجدية وأن يعوا مسؤولياتهم وأن يحرصوا على تنفيذها وأن يتحلوا بالروح الرفاقية المرتكزة إلى العمل والواجب لا غير... والواقع أن ما من هذه الأمور يتعارض مع بهجة العيش أو مع حب الحياة ومسراتها، كما لا يتعارض مع الثقة بالمستقبل وبنضالنا...

عززوا العمل السياسي والدعاية في صفوف جيش العدو. اكتبوا الملصقات والمناشير والرسائل. اكتبوا الشعارات على الجدران. أقيموا صلاة حذرة مع أفراد العدو الذين يريدون الاتصال بنا. تصرفوا بجرأة وبمبادرة على هذا الصعيد... ابذلوا ما بوسعكم لمساعدة جنود

جيش العدو على الفرار. أمنوا لهم الحماية لتشجيعهم على الفرار. قوموا بالنشاط السياسي بين الأفارقة الذين لا زالوا في خدمة العدو، أكانوا مدنيين أم عسكريين. اقنعوا هؤلاء الأخوة على تغيير وجهتهم وخدمة الحزب داخل صفوف العدو أو الفرار بالأسلحة والذخائر والانضمام إلى وحداتنا.

يجب ممارسة الديمقراطية الثورية في كل وجه من أوجه حياتنا الحزبية. وكل عضو مسؤول يجب أن يتحمل مسؤولياته بشجاعة، افرضوا على الآخرين عملكم واحترموا بدوركم عملهم.

لا تخفوا شيئاً عن جماهير الشعب. لا تطلقوا الأكاذيب. افضحوا الأكاذيب حال سماعها. لا تتستروا على المصاعب والأخطاء والانتكاسات. لا تزعموا لأنفسكم انتصارات سهلة.

علي ناصر محمد . . . .

كان الرفيق علي ناصر محمد الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، رئيس مجلس الرئاسة في جمهورية اليمن الديموقراطية، أحد قادة الثورة اليمنية منذ بداياتها. وقد ساهم سياسياً وعسكرياً في كل المعارك التي خاضتها، حتى في المرحلة التي وصلت فيها الجبهة القومية إلى السلطة بعد الاستقلال. هذا النص الذي ننشره هو مقتطفات من حديث طويل أدلى به إلى مجلة «النهج» في عام ١٩٨٤ وصدر في كراس خاص:

كنا ندرك أن هناك فارقاً بين الثورة الشعبية التي ندعو إليها، وبين تلك الانتفاضات المسلحة العفوية التي اندلعت في بعض المناطق: انتفاضات منطقة العوالق السفلى عام ١٩٤٦، وحضرموت والمهرة خلال الأعوام ٤٤ ـ ١٩٥٥، والصبيحة عام ١٩٤٢، ويافع عام ٥٨، وحالمين والضالع والشعيب أعوام ٤٧ ـ ١٩٥٧، والواحدي ١٩٤١، والفضلي في ٥٦ ـ ١٩٥٧، والعواذل ٤٦ ـ ١٩٤٧. والحواشب «الراحة» عام ١٩٥٠، ودثينة عام ١٩٥٨ وبيجان ٤٣ ـ ١٩٥٧، وانتفاضة آل الزبيزي بداية الخمسينات.. كل هذه الانتفاضات آل إلى الفشل، وكان طبيعياً أن تنتهي إلى هذا المصير، لسبب واضح وبسيط هو افتقارها إلى الأداة السياسية التنظيمية التي تقودها. والواقع أنها كانت تعبيراً عن رفض جماهيري عفوي للوجود الاستعماري، إنها وليدة العفوية. زد على ذلك أن هذه الانتفاضات، المتقاربة زمنياً، كانت معزولة الواحدة عن الأخرى، فجماهير الحواشب تعلن تمردها على السلطة في الحواشب، وتقتصر على الحواشب، وتتحمل وحدها عبء التمرد المسلح. وبالطبع يسهل على الانجليز وعملائهم قمع التمرد ما دام صغيراً ومعزولاً. ثم ما أن تندلع انتفاضة أو تمرد في منطقة لحج أو الصبيحة أو العوالق، حتى تكون انتفاضة الحواشب قد خمدت. وتلعب الدعاية الاستعمارية دوراً في تشويه المعاني السامية لهذه الانتفاضات، مصورة إياها على أنها تمردات قبلية لا صلة لها بالمقاومة الوطنية للوجود الاستعماري، وأنها ثمرة نزاعات محلية بين القبائل ليس إلاّ... كانت

هناك طرق جرى تأمينها أصلاً لنقل الامدادات إلى جيش الثورة من تعز، لكن ذلك لم يكن كافياً... فالمقاتلون لم يكونوا يعانون من مصاعب اشتداد المعارك مع خصم يفوقهم في العدة والعتاد، بل كانوا يعانون أيضاً من المصاعب الناجمة عن قصف القرى، وتشرد الأطفال، والشيوخ والنساء. كان المشردون القادرون على حمل السلاح ينضمون إلى الثوار، أما النساء فيقدمن العون في توفير الماء ونقل الذخائر واعداد الطعام، غير أن شعاب الجبال كانت تؤوي أطفالاً وعجزة، وكان من الضروري توفير حلّ لوضعهم، يضاف إلى ذلك أن استمرار حصر المعركة في ردفان كان يعقد وضع الثورة أكثر فأكثر. لذلك ارتأينا أن تخفيف الضغط عن رفاقنا في جبهة ردفان يقتضي الاسراع في فتح جبهات أخرى، تتيح توسيع وتطوير العمليات العسكرية والنضال السياسي في مختلف أنحاء الجنوب، وترغم العدو بالتالي على اعادة توزيع قواته، والحيلولة دون تركيزها في جبهة ردفان...

... الحقيقة كان التنظيم يدرك منذ الوهلة الأولى لتحمله المسؤولية التاريخية في قيادة الثورة المسلحة، ان نجاح الثورة وفشلها يتوقفان على درجة صلتها بالجماهير. وكنا نعرف الأسباب والعوامل التي أدت إلى اجهاض تلك الانتفاضات المسلحة التي قامت في الأربعينات والخمسينات. وفشل أسلوب النضال السياسي السلمي ضد الاستعمار وعملائه. لذلك بينما كان العدو يراهن على تطويق ومحاصرة الثورة في جبال ردفان، والتعامل معها على غرار الانتفاضات المسلحة التي شهدتها بعض المناطق، فإن التنظيم كان قد اتخذ كافة الاجراءات ورسم المهام التي ينبغي أن يؤديها لكي تكتسب ثورة ١٤ أكتوبر مضمونها الشعبي التحرري..

وفي سياق الممارسة النضالية استطاعت الثورة أن تعزز صلتها بالجماهير، ساعدها في ذلك أن الكفاح المسلح كان هو الأسلوب الذي يلبي رغبات الجماهير ليس حبا منها في سماع ازيز الرصاص ودويّ قذائف المدافع والقنابل وإنما في المشاركة في الثورة وحمايتها.

كان المواطنون يقدمون كل اشكال الدعم للفدائيين في المدن ومناضلي جيش التحرير في الهضاب و الجبال والسهول والوديان، بل كان الفدائيون في الاوقات الصعبة يجدون الحماية من المواطنين سواء عند الانسحاب من ميدان المعركة أو عند الاختفاء عن عيون الجواسيس.

فمثلاً في احدى المرات وقع الفدائي الحاج صالح باقيس في مأزق بينما كان قادماً من تعز إلى لحج، وألقي القبض عليه في لحج من قبل البوليس الاتحادي، ولكنه استطاع بأعجوبة أن يفلت من قبضتهم ولم يكن ذلك ممكناً بدون تعاون المواطنين مع الفدائيين.

ومن القنوات الرئيسية التي كان يجري بواسطتها تعزيز وتطوير وتنظيم صلة الثورة بالجماهير، المنظمات الجماهيرية.. كان لنا نشاط فعال في داخل النقابات وفي وسط النساء والطلاب والأندية الرياضية والنوادي القروية..

بشير الحاج علي . . . .

أحد قادة حرب الطليعة الاشتراكية الجزائري. كان خلال الثورة الجزائرية واحداً من أبرز قادة الحزب الشيوعي ومن الذين ساهموا في قيادة العصائب المسلحة الشيوعية التي شاركت إلى جانب جبهة التحرير الجزائرية في الثورة. ننشر له هذا النص عن دروس الثورة الجزائرية الذي نقلناه من كتاب «الماركسية وحرب العصابات» ترجمة ابراهيم العابد وماهر الكيالي؛

... كيف بدأ الكفاح المسلح؟ ما هي العوامل الداخلية والخارجية التي أدى تأثيرها التراكمي إلى اشعال شرارة الثورة؟.

كان العامل الداخلي الاول تصاعد حركة التحرير الوطنية عشية الانتفاضة التي تميزت بالعمل التنظيمي والسياسي بين الجماهير وبإضرابات العمال والفلاحين، ومظاهرات التضامن مع شعوب فيتنام وتونس والمغرب بشكل لم يسبق له مثيل في الجزائر.

وكان العامل الداخلي الثاني تعاظم التناقضات بين شعبنا والاستعمار الفرنسي. لقد تأكد الشعب الجزائري كله من عدم جدوى الوسائل «القانونية» ومن ضرورة ايجاد وسائل أخرى للقضاء على الاستعمار. وأدى ذلك إلى ظهور كتائب فدائيين تتكون من عناصر وطنية، ومنظمة شبه عسكرية قائمة على الجناح الثوري للحزب الوطني الرئيسي في ذلك الوقت وهو «حركة انتصار الحرية الديمقراطية». وبالاضافة إلى ذلك كانت هناك كمية كبيرة من السلاح والمعدات، خاصة في القرى، تركها الحلفاء الذين نزلوا في شمال افريقيا في تشرين الثاني ١٩٤٢.

وقد عجلت الازمة السياسية في أوساط «حركة الحرية الديمقراطية» التي انقسمت إلى قسمين، في نمو الوعي السياسي بين الجماهير والقادة على حد سواء. ولقد فكر الثوريون الذين تركوا الحركة بإعادة الوحدة للحركة عن طريق الانتقال إلى شكل أعلى من النضال أي الثورة المسلحة.

ويمكن إضافة عاملين خارجيين إلى تلك العوامل الداخلية وهما:

١ ـ هزيمة الفرنسيين في ديان بيان فو التي أظهرت للوطنيين الجزائريين ان هزيمة الفرنسيين ممكنة.

٢ ـ ظهور المعسكر الاشتراكي الذي كان له تأثير كبير في الجماهير، حتى في القرى النائية، والذي ساعد الجماهير على إدراك ضرورة إنهاء السيطرة الفرنسية الاستعمارية بقوة السلاح...

... كان الفلاحون يؤلفون جيش الثورة الرئيسي. وكانت الحرب في الجزائر حرب تحرير شعبية، حرباً من أجل الأرض. وقد اشترك معظم الناس، بمن فيهم النساء، بالحرب. وشاركت كل الطبقات وكل الفئات الاجتماعية في الحرب بأشكال مختلفة، ولكن العبء الرئيسي كان يقع على عاتق أفقر فئات الفلاحين. كان التحالف السياسي لكل القوى الوطنية، باستثناء الاقطاعيين، قد تحقق داخل إطار جبهة التحرير الوطني. وقد تم تحقيق تحالف القوى العسكرية

من خلال جيش التحرير الوطني بقيادة جبهة التحرير الوطنية. وتم تحقيق وحدة اتحادات العمال من خلال الاتحاد العام للعمال.

لم تخل أية حركة تضم جماهير كبيرة من الأخطاء. وهذا ينطبق على جبهة التحرير الوطني التي لن تنسى أعمالها العظيمة أبداً.. بيد أنه من الانصاف أن نذكر ان أخطاء الجبهة لم تكن قط كبيرة إلى درجة تعريض انتصارات الثورة للخطر. وبالإضافة إلى ذلك، اكتشفت الجبهة تلك الأخطاء في الوقت المناسب وجرى تصحيح بعضها أثناء سير المعركة. وقد قام الحزب الشيوعي الجزائري بعرض هذه الأخطاء ونقاط الضعف في رسالتين سريتين بعث بهما إلى الحكومة المؤقتة في تشرين الثاني عام ١٩٥٨، وفي منتصف عام ١٩٥٩ (وقد جرى نشر هاتين الرسالتين بعد الاستقلال).

عند تفحص الأخطاء التي ارتكبتها الحركة نجد انها ترجع بصورة عامة إلى الظروف الموضوعية، كالمصاعب التي كان على جبهة التحرير مواجهتها خلال الحرب مثلاً. غير أن بعضها كان يرجع إلى الحركة نفسها. إن شعار «كل شيء للحرب وللكفاح المسلح» مثلاً، شعار صحيح لكنه كان يطبّق تطبيقاً ضيقاً أحياناً. فلم يفهم الناس لوقت طويل ان اعطاء الكفاح المسلح الأولوية على أي أمر آخر لا يعني بتاتاً إهمال العمل السياسي بل بالعكس، يجب أن يرتبط الكفاح المسلح ارتباطاً وثيقاً بالعمل السياسي وأن يكون خادماً للأهداف السياسية التي تكون في مصلحة الثورة.

بعض الدروس:

من أجل تأمين أفضل مناخ لنجاح النضال المسلح، نؤمن بأنه من الضروري:

١ ـ تكوين قيادة مركزية واحدة مع السماح بقدر من اللامركزية.

٢ ـ ربط الكفاح المسلح ربطاً وثيقاً بالنضال الجماهيري السياسي.

٣ ـ دعم الحرب بالنضال في المدن، مع المحافظة على أمن المدن كقواعد خلفية للكفاح المسلح.

٤ ـ العمل السياسي الدؤوب بين الجماهير، وفي أوساط جيش العدو، وبين شعب البلد الذي يشن الحرب العدوانية، وفي أوساط الرأي العام العالمي.

٥ ـ التقدم باقتراحات عملية وغير متناقضة لإنهاء الحرب على أساس تحقيق مطالب الشعب الوطنية، وذلك بأخذ المطالب المحددة لكل قطاع من المجتمع وربط هذه المطالب بالهدف الرئيسي.

٦ ـ استغلال التناقضات القائمة بين العدو وحلفائه، وتقوية روابط الشعب مع حلفائه الطبيعيين خارج البلاد.

الحزب الشيوعي في فلسطين
(فرع الأممية الشيوعية) . . . .

هذا نص بيان للحزب الشيوعي في فلسطين (فرع الأممية الشيوعية) عن ثورة ١٩٣٦ نشرته جريدة «المراسلات الأممية»، ننقله من كتاب الدكتور ماهر الشريف «الشيوعية والمسالة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩ ـ ١٩٤٨».

في أعقاب النضالات الباسلة التي خاضها الشعب العربي في سوريا ومصر، تلك النضالات التي دفعت قضية التحرر من الامبريالية، في الشرق الأوسط، خطوات إلى الأمام، تركزت أنظار الشعب العربي على فلسطين. فالحركة الثورية الواسعة التي تهيمن على هذا البلد منذ شهرين حققت للشعب العربي أكثر مما تمنى.

إن الإضراب العام الذي ساهم فيه الشعب بكامله، والمظاهرات العظيمة، والصدامات المسلحة مع الشرطة ومع وحدات الامبريالية الإنكليزية، وعمليات التخريب والثأر التي استهدفت الصهيونية التوسعية، إن كل ذلك قد أثبت بأن الجماهير العربية لا تنوي الاستمرار في الخضوع الأبدي للعبودية وفي تحمل ما كان قد قرره الدكتور وايزمان ووزارة المستعمرات البريطانية، بشكل مشترك، بخصوص مستقبلها. ومنذ أن سيطرت بريطانيا على فلسطين، بموجب نظام الانتداب، شهدت البلاد سلسلة من الانتفاضات (١٩٢١، ١٩٢٣، ١٩٢٩، ١٩٣٣)، غير أن الاضطرابات التي تشهدها حالياً قد تميزت عن سابقاتها واتخذت طابعاً خاصاً.

فإضراب الشعب العربي يتواصل منذ شهرين، حيث يمتنع العامل، ومنذ شهرين، عن تقاضي أجره، والفلاح عن بيع غلاله، ويستمر التاجر في إغلاق دكانه، ويهجر المستخدمون، في المدن، مكاتبهم. وتقع كل يوم معارك مع الوحدات العسكرية، وتجري كل يوم عمليات تفجير لجسور جديدة، وتقطع خطوط هاتفية جديدة، وتقفر شوارع جديدة، ويعترض مرور السيارات في الشوارع. وهكذا، فإن ضرورة الدفاع عن النفس، ضد عدوين قوميين إلى هذا الحد، قد جمعت في جبهة واحدة مناضلة ضد العدو المشترك جميع فئات السكان المحليين وجميع الأحزاب والديانات. وقد خيّب ظهور الزعماء المسلمين في الكنائس المسيحية، وتعزّز وحدة «اللجنة العربية العليا»، آمال الامبرياليين ومعاونيهم الصهاينة، الذين كانوا يأملون بوقوع انقسام في صفوف الجبهة المقابلة.

وتطرح حركة التحرر العربية المطالب التالية: ١ ـ إيقاف الهجرة اليهودية، ٢ ـ منع بيع الأراضي إلى اليهود، ٣ ـ إقامة حكومة وطنية مستقلة.

ويتعارض المطلبان الأول والثاني، من بين هذه المطالب، مع الصهيونية التوسعية، أما المطلب الثالث فيهدد، بشكل مباشر، سيطرة الامبريالية.

وعلى العكس من سوريا ومصر، ساهم عامل جديد في تعقيد الصراع الدائر مع الامبريالية

في فلسطين . فالصهيونية تطمح إلى تحويل هذا البلد ، الذي يقطنه العرب منذ خمسة عشر قرناً ، إلى بلد يهودي ، لتقيم فيه دولتها اليهودية . وهي تنوي أن تجعل من السكان العرب أقلية في هذا البلد . ولكن ، لا يوجد أي شعب بإمكانه أن يسمح بحدوث ذلك من دون أن يدافع عن نفسه حتى النهاية . ويهدف تعزيز هذا المركز الاستراتيجي ، لحماية الطرق البحرية والجوية المؤدية إلى الهند ، توجهت الامبريالية الانكليزية إلى الصهيونية . وحصلت الصهيونية ، بحماية المدافع البريطانية ، على الحق في « استيطان » فلسطين ، وعلى الحق في إحلال (العامل اليهودي) محل العامل العربي في مكان عمله ، وإحلال (المستوطن اليهودي) محل الفلاح في حقله . وقد تم السماح بـ « التوغل السلمي » للصهيونية في البلاد على شرط أن تشكل سداً في وجه الحركة العربية الهادفة إلى نيل الاستقلال والحقوق والحريات الديمقراطية . ولا تمثل الصهيونية حلاً ، لأنه لا يمكن لها أن تتحقق إلا على حساب إرادة الشعب العربي ، وبمساعدة حراب الجنود البريطانيين . وكأي جيش توسعي ، تتصرف الصهيونية « سلمياً » طالما أنها لا تجابه أي مقاومة تذكر . ويشكل النضال ضد الصهيونية مهمة ملحة ، بشكل خاص ، بالنسبة للحركة الوطنية العربية . فالاحتلال الامبريالي ـ الصهيوني ، الذي يتوسع باستمرار ، بات يتطلب مقاومة سريعة وفعالة ، وإلا فإن الشعب العربي سيخسر فلسطين ، وإلى الأبد ، من جراء سياسة النهب الصهيونية . ولهذا السبب ، فإن الحركة العربية الهادفة إلى الحرية تطالب ، وكمطلب أول في مطالبها ، بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، على اعتبار أن هذه الهجرة هي هجرة صهيونية . فمن خلال هذه الهجرة المتواصله ، تطمح الصهيونية إلى تحويل اليهود إلى أغلبية في البلاد ، لتتمكن ، بهذا الشكل ، من ممارسة اضطهادها المزدوج . ومن هنا ، كيف يمكن للحركة العربية الهادفة إلى الاستقلال أن تعمل على تشجيع مثل هذه الهجرة ، التي تعرف سلفاً بأنها ستزيد من عدد أولئك الذين يعارضون النضال من أجل حرية واستقلال فلسطين ، والذين يسعون ، بالتوافق مع الامبريالية الانكليزية ، إلى اضطهادها ؟

وهكذا ، يناضل الشعب العربي ، وبالإمكانات (القليلة) التي يمتلكها ، ضد التوسع الصهيوني وضد الامبريالية الانكليزية . وبما أنه من غير الممكن أن يكون اضراب الشعب العربي شاملاً ، كما في سوريا ، بسبب الدور الذي يلعبه مفسدو الإضراب الصهاينة ، فإن الحركة العربية لا يمكنها الاقتصار على استعمال هذا الشكل في نضالها . وليس بوسع الشعب العربي ، ضعيف التسلح ، إلا أن يلجأ ، في الوقت الراهن ، إلى أسلوب حرب العصابات في مواجهة جيش مجهز بأحدث المعدات الحربية وبالدبابات والطائرات ، مقتدياً في ذلك بالمثال المعظم للثوريين الصينيين . وتسعى الحركة العربية الهادفة إلى الحرية ، من خلال تدمير القاعدة الاقتصادية للغزاة الصهاينة ومن خلال أعمال التخريب وهجمات الأنصار ، الى أن تجعل من المستحيل الاستمرار في الاستيطان الصهيوني .

ويطالب السكان العرب بالحصول على الحق في تقرير مصيرهم بأنفسهم ويمنحهم دستوراً ديمقراطياً ، كما يريدون أن يقرروا بأنفسهم إلى أي درجة ممكن فيها أن تكون الهجرة اليهودية

متوافقة مع حقوق العرب. ويطالب السكان العرب كذلك بأن تبقى فلسطين، بطابعها وثقافتها، بلداً عربياً، وأن تتوحد مع سوريا، التي تشكل معها وحدة طبيعية وبقيت دوماً مرتبطة بها، وأن تبقى أيضاً متحدة مع بقية بلدان المشرق العربي التي لم تفصل عنها إلا لخدمة مصالح السياسة الامبريالية.

إن الشعب العربي الكبير يجهل الحقد العنصري، ويجهل البغضاء تجاه الشعوب الأخرى، ولكنه يناضل ضد جميع أولئك الذين، ومهما اختلفت قومياتهم، يرفضون منحه الحق في تقرير مصيره بنفسه، ويوصدون أمامه طريق الحرية.

لتسقط الامبريالية!

لتسقط الصهيونية!

من أجل الحرية والاستقلال! ينبغي أن يتمتع الشعب العربي بحقه في تقريره مصيره بنفسه وبحرية تامة!

شهدي عطية . . . .

كان أحد قادة الحركة الشيوعية المصرية البارزين. شارك في النضالات العديدة التي خاضتها الحركة الوطنية المصرية من موقعه القيادي واستشهد في السجن في أواخر الخمسينات. هذا النص عن حرب القنال (١٩٥١) الذي ننقله هنا هو جزء من كتاب له بعنوان: «تطور الحركة الوطنية المصرية».

... بدأت المعركة مبكرة، إثر إلغاء المعاهدة. بدأت بشكل يكاد يكون تلقائياً ولكن سرعان ما قامت معسكرات عديدة للفدائيين وتبلورت لها خطة واضحة.

... وقد كانت خطة الفدائيين في حملتها موجهة إلى ضرب قوات الاحتلال في أربع نَوَاح: تدمير ونسف ما يمكن أن يصل إليه الفدائيون من مخازن ومستودعات العدو، ثم تمزيق خطوط المواصلات التي يمد منها العدو، ثم الحيلولة دون وصول التموين، ثم جعل الحياة الاجتماعية مستحيلة على جنود الاحتلال لارهاقهم.

وكان تكتيك الفدائيين قائماً على الضربات السريعة المفاجئة في الظلام، ثم الانسحاب في سرعة قبل أن ينتبه العدو ويستعد.

وقد نجح الفدائيون في تحقيق كثير من هذه الأهداف، رغم قلة خبرتهم، ونقص تدريبهم ورغم كثير من الفوضى.

وكانت معارك الفدائيين تشتد عنفاً بازدياد خبرتهم، بل بلغ الأمر ببعض الكتائب أن دخلت في مصادمات مسلحة مباشرة مكشوفة مع قوات الاحتلال، وكان من أبرز هذه المعارك، المعركة التي استشهد فيها مصطفى أحمد محمود الشهير بالمردنلي، والذي كان عاملاً في المعسكرات البريطانية، وخبيراً في بث الألغام وتفجيرها.

لقد علق العدو على هذه المعركة بقوله: «إنها أول معركة تَصْدُرُ فيها عن المصريين مقاومة مكشوفة للجنود البريطانيين، كما انها أول معركة يصمد فيها المصريون هذا الصمود الطويل المصمم».

.. وقد كان انسحاب ثمانين ألفاً من العمال المصريين في القنال الذين لم يترددوا في التضحية بأجورهم العالية نسبياً، ضربة كبرى لقوات الاحتلال، وإرباكاً شديداً لصفوفها.

لقد ترك هذا الانسحاب المعسكرات البريطانية في حالة سيئة حقاً، إذ حرمها من أيدٍ عاملة فنية مدربة، كان من العسير استبدالها بنفس الأجر وبنفس السهولة.

لقد رفع هذا الانسحاب المعركة إلى مستوى عال سياسيا.

لقد قام العمال بدور بطولي حقاً في المعركة المسلحة.

كما لعب الكونستبلات الوطنيون في المعركة دوراً هاماً، فكانوا ينقلون أخبار المعسكرات البريطانية وتحركاتها إلى الفدائيين، وقد أسر منهم الكثير، كما سقط منهم فريد يسرى شهيداً.

... وقام جنود البلوكات ـ ومعظمهم من أبناء الريف ـ بدور رائع في المعركة، وسقط منهم عشرات من الضحايا، وأبدوا مقاومة عنيفة في الاسماعيلية، في معركة استمرت يومين بأكملها، قام الأهالي فيها بدور مساعد كبير حين كانوا يموّنون الجنود بالطلقات. وقد اضطر العدو إلى الاشادة ببطولتهم، رغم ضعف السلاح وقلة العتاد والتفوق العددي الضخم لقوات الاحتلال.

... كما أن بعض ضباط الجيش المصري أعانوا، بشكل سري، في تدريب بعض الفدائيين وإمدادهم بالعتاد الذي استولوا عليه من مهمات الجيش المصري.

هذه هي الجبهة المصرية...

... لقد كان اقتصار المعركة على الفدائيين، تضييق شديد للمعركة، يعرضها للتصفية.

... وقد تنبهت لهذا النقص الخطير بعض القيادات الشعبية الواعية، فعقدت شبه مؤتمر.

واستقر رأي المجتمعين على تدارك عناصر الضعف:

١ ـ بتحويل المعركة من معركة قاصرة على الفدائيين إلى معركة فلاحين أساسياً.

٢ ـ بالاعتماد في الأسلحة على الفلاحين المسلحين بطبيعتهم.

٣ ـ بانشاء تنظيمات سياسية في القرى المعرضة لضربات الانجليز، بحيث تستطيع أن تستمر في قيادة المقاومة، حتى ولو فكر الانجليز في احتلال الشرقية كلها.

٤ ـ بالسعي لخلق قيادة موحدة للمنطقة كلها.

٥ ـ باصدار مجلة سياسية عسكرية تربط مختلف أوجه النشاط...

جورج حاوي

هذا النص الذي ننقله هو جزء من سلسلة مقالات كتبها جورج حاوي الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، في مجلة «الطريق» عام ١٩٦٩ كمساهمة في النقاش حول العمل الفدائي الفلسطيني، من حيث هو شكل من أشكال كفاح الثورة الفلسطينية، في علاقته مع تطور الحركة الثورية في لبنان، بعد انتفاضة ٢٣ نيسان التي جرت تحت شعار الدفاع عن الثورة الفلسطينية في العام نفسه.

عودة إلى ٢٣ نيسان:

رغم انقضاء ثلاثة اشهر على انتفاضة الثالث والعشرين من نيسان، فمن الصعب الان اعطاء تحليل شامل، صحيح، وعميق، لتلك الاحداث التي شهدها لبنان يومذاك، ولتفاعلاتها اللاحقة التي ما زالت مستمرة. غير ان مجريات الاحداث قد اظهرت بعض الحقائق التي لا بد من تسجيلها باختصار كلي:

١ ـ حركة الجماهير في الثالث والعشرين من نيسان كانت ردة فعل على مؤامرة السلطة لتصفية العمل الفدائي. ان الرجعية اللبنانية، حفاظاً على مصالحها وخضوعاً للضغط الاستعماري ـ الصهيوني، حاولت ان تصفي المقاومة الفلسطينية، ففجرت الازمة وفتحت ابواب الصراع الحالي واسعة. وما كانت انتفاضة الجماهير بدعوة من القوى التقدمية سوى دفاع عن النفس ومقاومة للمؤامرة.

٢ ـ ان محاولة السلطة تصفية العمل الفدائي هي جزء من مخطط شامل لسياسة الدولة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، هذا المخطط الذي وجد احسن تعبير له، في مقررات مؤتمر الحلف ببرمانا، والذي جهدت الحكومة «غير الحلفية» لتطبيق اهم مقتضياته في محاولة توددها للحلف، واسترضائها للاستعمار الجديد الذي تعبر مقررات الحلف عن مصالحه، وذلك على ابواب معركة رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٠ املاً في اكتساب تأييد المستعمرين، والاميركيين خاصة في هذه المعركة، وانتفاضة الثالث والعشرين من نيسان ضد تصفية العمل الفدائي كانت انتفاضة ضد المخطط الشامل لسياسة الدولة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.

٣ ـ اتساع وعمق تأثير انتفاضة الثالث والعشرين من نيسان يعود اولا لكون نظام الحكم اللبناني في حالة من التفسخ والتعفن، ولكون ازمة هذا الحكم عميقة ومستعصية. ويعود ثانياً للدور الايجابي الذي لعبته استجابة جماهير واسعة لنداء القوى التقدمية بالتظاهر.

٤ ـ لقد كان لاحداث الثالث والعشرين من نيسان حجم اكبر من حجم قوى اليسار، وكان لها مضاعفات أوسع بكثير من امكانيات اليسار للاحاطة بها وقيادتها. من هنا نشأت مخاطر اغراق الحركة ضمن اطار الانقسام اللبناني التقليدي... كخطوة نحو اعادة حلها على أساس الحل اللبناني التقليدي.

فللمرة الاولى ربما، لم تتخذ الحركة الشعبية الوطنية أي مظهر من مظاهر الطائفية في

انطلاقها، وأي مظهر من مظاهر الصراع السياسي التقليدي يوم قيامها.

٥ ـ اذا كانت نسبة معينة من القوى قادرة على احداث خلل كبير في بناء هرم متصدع، فان هذه النسبة ذاتها غير قادرة على ازالة هذا البناء، وخاصة على اقامة بناء جديد بديل. من اجل ذلك لا بد من نسبة قوى ارفع واكثر فعالية. وهكذا الحال بالنسبة لاحداث ٢٣ نيسان. ردة الفعل الجماهيرية كان فيها الكثير من «العفوية» و«العاطفية». واذا كانت كافية لاحداث المزيد من التصدع في نظام الحكم المتفسخ، غير انها لم تكن من القوة والاتساع بالمقدار الذي يؤمن لها استمراراً يمكنها من اسقاط حكم الطغمة المالية (وهي لم تضع اصلاً مثل هذه المهمة نصب اعينها) ولا خاصة من اقامة حكم وطني ديمقراطي بديل.

وقد خشيت البورجوازية اللبنانية نتوء حركة «من نوع جديد»، واعلنت عن ذعرها لتطور هذه الحركة «على اساس جديد» فسعت وما زالت تسعى لاعادتها «إلى الصف»، إلى صف الصراع التقليدي والانقسام التقليدي. وما محاولات دفع الامور الى المزيد من التأزم، وكذلك محاولات التصعيد المفتعل، .. الا لاخراج الحركة الشعبية من اطار تأثير وقيادة القوى التقدمية إلى اطار القيادات السياسية البورجوازية التقليدية..

٦ ـ ان الحركة الشعبية والقوى الوطنية والتقدمية في الثالث والعشرين من نيسان، وفي النضالات والمواقف التي تلته حتى يومنا هذا، قد حالت دون تصفية العمل الفدائي، واثبتت ان المضي في محاولة تصفية هذا العمل البطولي يحمل معه أشد الاخطار على سيادة البلاد وأمنها وسلامتها، واستطاعت ان تحول حتى الان دون تنفيذ المخطط الاستعماري الصهيوني الرجعي. لقد شكلت الحركة الشعبية ونضال القوى الوطنية والتقدمية «قوة ضاغطة» على الحكم، فزادت في تعمق ازمته، وفجرت الكثير من تناقضاته، واظهرت عجزه عن تأمين الدفاع عن سيادة البلاد وسلامتها، وكشفت مسؤوليته في تردي اوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية والدفاعية...

٧ ـ ان القوى التقدمية لم يعد بامكانها الاكتفاء في الوضع الراهن بلعب دور «القوة الضاغطة» على الحكم. وبكلام اوضح، لن تستطيع القوى التقدمية احباط محاولة الرجعية اغراق الحركة الشعبية في اطار الانقسام التقليدي الا اذا انتقلت من مرحلة «المقاومة السلبية» لمخطط الرجعية إلى مرحلة «المقاومة الايجابية». ان شعار «ارفعوا ايديكم عن العمل الفدائي، واعملوا ما شئتم» ليس الشعار الملائم لتطور المعركة ولا الشعار المناسب لنصرة العمل الفدائي. وهذا يقودنا الى موضوع آخر اساسي يتعلق بالموقف من المقاومة الفلسطينية، وبالشكل الصحيح والفعال لنصرتها.

بين استراتيجية «الثورة الفلسطينية» «والثورة اللبنانية».

العلاقة بين ستراتيجية «الثورة الفلسطينية» وستراتيجية «الثورة اللبنانية» ليست بالبساطة

التي يطرحها البعض. فالموضوع شائك ومعقد. ولا بد من معالجته معالجة مستمرة بروح من الموضوعية والجدية والصراحة، مع عدم التردد في ممارسة النقد والنقد الذاتي، من مواقع تقدمية مخلصة لا هدف لها سوى ايجاد افضل السبل لنجاح النضال الثوري التقدمي على كل ارض عربية.

واسارع إلى القول انه لا يوجد، ولا ينبغي ان يوجد، تناقض بين النضال التحرري التقدمي الفلسطيني وبين النضال التحرري التقدمي اللبناني. فكل من النضالين جزء من حركة تحرر عربي واحدة، لها استراتيجية واحدة، وأهداف بعيدة واحدة. ومصالح النضال في كل بلد انما تخضع لمصلحة هذه الحركة بمجموعها لان في ذلك الضمانة الوحيدة الاكيدة لتحقيق انتصارات وطيدة وثابتة ليس فقط لحركة التحرر العربي بمجموعها، بل وكذلك لحركة تحرر كل شعب عربي.

لقد اعتبرت كل الشعوب العربية ان بين ابرز النتائج الايجابية للنضال العربي في السنوات الاخيرة، بروز الشخصية الفلسطينية المميزة، وقيام المقاومة الفلسطينية كتعبير عن ارادة شعب فلسطين العربي في قيادة حركته بنفسه، والسير بثورته حتى تحقيق اهدافها كاملة. غير ان «الشخصية الفلسطينية المميزة» لا ينبغي ان تفهم، او ان تصبح، «انفصالا للنضال الفلسطيني عن مجمل النضال العربي». ان اخذ الشعب الفلسطيني لقضيته بيده لا يعني تخلي سائر الشعوب العربية عن قضية فلسطين. فقضية فلسطين هي قضية عربية. وانتصارها النهائي غير ممكن بدون حشد كل الطاقات العربية في المعركة. ان المغالات في الطابع الفلسطيني لمعركة فلسطين تتخذه بعض الاوساط الفلسطينية سبيلاً للفصل بين مصالح «الثورة الفلسطينية»، وبين مصالح «الثورة العربية» فترى مثلاً ان لا جدوى من عملية التطور الاجتماعي في الاقطار العربية الاخرى، وان لا فائدة من التأميم والبناء الاقتصادي المستقل والسير نحو الاشتراكية... في هذا القطر العربي أو ذاك... لان هذه المعارك، برأي هذه الاوساط الفلسطينية، لا علاقة لها بالنضال «من اجل تحرير فلسطين»... بل تذهب اكثر من ذلك فتقول ان «الالتهاء» بهذه المعارك يضر الثورة الفلسطينية بما يؤدي اليه من اخضاع مصالح هذه الثورة لمصالح ومقتضيات تطور الانظمة العربية التي تتجه للبناء الاقتصادي الاجتماعي التقدمي المستقل، وبما تثيره هذه المعارك من «انقسامات» عربية تلحق الضرر بالقضية الفلسطينية...

وتذهب بعض الاوساط إلى أبعد من ذلك فتقول: كون القضية الفلسطينية هي قضية العرب الاولى يعطي الثورة الفلسطينية «مركز القيادة» في الثورة العربية الشاملة. وكون الثورة الفلسطينية «ثورة تحرر وطني» من الاحتلال الصهيوني يطبع حركة التحرر العربي بطابع التحرر الوطني فقط، لا بطابع التحرر الوطني الاجتماعي!.. وغني عن البيان ان الرجعية العربية ترحب بهذا «المنطق» وتدعمه. فهو أولا يبرر تخاذلها تجاه القضية الفلسطينية من خلال القول ان قضية فلسطين ينبغي ان تترك لشعب فلسطين. وهو ثانياً يأتي لصالحها في المعركة التي

تخوضها ضد الانظمة التقدمية وضد الحركة التقدمية في بلدانها بالذات. وهو ثالثاً يساعدها في احداث فجوة تصل إلى درجة التعارض بين «التحرر القومي» و «التحرر الاجتماعي» لتحاول الظهور بمظهر المستمر في الدفاع عن «المصالح القومية للشعوب العربية» بينما «انصرف» غيرها عن هذا النضال إلى «افتعال» معارك اجتماعية طبقية... وهذا المنطق يسمح، رابعاً، للرجعية العربية بتطويره إلى أبعد مما تريد الاوساط الفلسطينية المذكورة بكثير، كي يصل إلى درجة القول ان لا علاقة لقضية فلسطين بالنضال ضد الاستعمار هذا النضال الذي «تفتعله» وتغذيه الانظمة العربية التقدمية والقوى التقدمية العربية..

ولو سلمنا جدلاً بكون الثورة الفلسطينية ثورة تحرر وطني فحسب (وهذا موضوع نقاش آخر ليس هنا مجال الخوض فيه) بقي أن نَفْيَ المحتوى الاجتماعي لحركة التحرر الوطني العربية، انما يتنافى ابسط الحقائق الموضوعية على خط مستقيم. فحركة التحرر العربي قد اغتنت منذ زمان بعيد بمضامين اجتماعية جديدة، تقدمية واشتراكية. وهذه المضامين هي التي تطبع حركة التحرر الوطني العربية في مرحلة تطورها الراهنة بطابعها، مشكلة ابرز انتصارات هذه الحركة، سواء منها منجزات البلدان العربية ذات الانظمة التقدمية ام نضالات الطبقة العاملة والفلاحين بقيادة القوى التقدمية العربية في البلدان الأخرى. وهذه المنجزات بالذات كانت، ولا تزال، الهدف الرئيسي لعدوان اسرائيل في الخامس من حزيران ١٩٦٧، لانها، بتطورها، انما تشكل الخطر الرئيسي على اسرائيل. وهذا موضوع لا بد من النقاش حوله نقاشاً صريحاً مسهباً. واذا كان المجال الآن لا يتسع لذلك فلا بد من التأكيد على حقيقة أساسية أولية ترتبط بها مجمل المواضيع الاخرى: ان العرب لم يخسروا حرب الخامس من حزيران لان اهم واكبر بلدانهم اخذت تدابير اقتصادية واجتماعية وسياسية وضعتها على طريق التطور الاشتراكي. انما الخسارة كانت بسبب عدم السير كفاية وحتى النهاية في هذا الطريق. والعدو اذ استبق المعركة وحدد هو موعدها، وفرضها على العرب، أو جرهم اليها، فلمحاولة ضرب الخطوات التي تمت في هذا الطريق، ووقف تطورها الجذري اللاحق الذي يقض مضاجعه. ولسنا هنا في مجال بحث الاسباب الذاتية والموضوعية «لعدم السير حتى النهاية في طريق التطور الاشتراكي» حسبنا الآن التأكيد على ان السير في طريق التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التقدمية الجذرية هو الطريق الوحيد الصحيح لضمان انتصار حركة التحرر العربية في مختلف القضايا التي تواجهها، بما فيها قضية فلسطين. فهذا الطريق هو الوحيد الكفيل، في ظروف العالم العربي خاصة، بتجنيد كل الطاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، المادية والبشرية، لمواجهة عدو كالعدو الاسرائيلي. وهذا السياق من التفكير يقودنا الى التأكيد ولو مروراً (اذ ان هذا ليس موضوعنا اليوم) الى الارتباط المصيري بين حركة التحرر العربية بمختلف فصائلها وبين الحركة الثورية العالمية.

ان التركيز على الارتباط المصيري لمستقبل الثورة الفلسطينية بمستقبل الثورة العربية لا تمليه فقط تحليلات نظرية علمية. بل وكذلك المعطيات العملية الملموسة لطبيعة المعركة التي يخوضها

شعب فلسطين. ونقول بكل صراحة انه لو جرى حشد الشعب الفلسطيني بأسره في حركة المقاومة المسلحة، ودفعه في النضال المسلح ضد اسرائيل، فهو وحده يبقى عاجزاً عن تحقيق الانتصار الكامل على عدو في قوة العدو الصهيوني مادياً وبشرياً. ان الحسم في المعركة مع هذا العدو انما يرتبط بمعرفة استخدام طاقات الشعوب العربية كلها، مادياً وبشرياً، استخداماً كاملاً.

هل في هذا القول انتقاص من اهمية الثورة الفلسطينية، ومن الدور الخاص الملقى على عاتق الشعب الفلسطيني؟ على العكس من ذلك تماماً. فجماهير الفلسطينيين التي ظلت طوال عشرين عاماً بعيدة، ومبعدة، عن المعركة، إلى هذا الحد أو ذاك، لها دور في غاية الاهمية. وحشد كل طاقاتها وتجنيدها في مختلف اشكال النضال وفي مقدمتها النضال المسلح، هي مهمة من أولى المهمات التي ينبغي ان تحظى بالدعم كله. فكلما ازداد انخراط جماهير الفلسطينيين في الثورة الفلسطينية ازدادت قدرة هذه الثورة على المضي في مسيرتها تطويراً وتصعيداً. هذه حقيقة أولية لا جدال فيها، ولا خوف من المبالغة في التركيز عليها لمعالجة وضع من الاتكال استمر طويلاً... غير انها جزء من الحقيقة لا بد له ليتكامل من ان يرتبط بالأجزاء الأخرى وفي مقدمتها حقيقة الوحدة الإستراتيجية لحركة التحرر العربية. فالثورة الفلسطينية ترتدي اهمية أكبر عندما توضع في اطار الثورة العربية الشاملة، والشعب الفلسطيني يلعب دوراً أكثر أهمية عندما يدخل كفصيل رئيسي من فصائل هذه الثورة. فوحدة استراتيجية الثورة العربية لا تنفى استقلالية كل فصيل من فصائلها في تحديد وسائل نضالها، وخطط عملها، وشعاراتها القريبة المدى... في هذا الظرف التاريخي أو ذاك. انها تفترض مثل هذه الاستقلالية المنطلقة من تنوع الظروف الموضوعية، والذاتية، للنضال في كل بلد عربي. والارتباط الاستراتيجي لفصائل حركة التحرر العربي ليس ارتباطاً ميكانيكياً جامداً بل هو ارتباط دياليكتيكي متطور يتم عبر «التنوع». ولكن اذا كان الربط التام الميكانيكي الجامد بين حركة النضال في كل قطر عربي وبين حركة النضال العربي بمجموعها يحمل أخطاءً جسيمة على كل عملية التطور، فإن المبالغة في الفصل بين الحركتين تحمل هي الأخرى أخطاءً أشد وأكثر ضرراً. ان استقلالية فصيل من فصائل حركة التحرر العربي هي «استقلالية نسبية» بمقدار ما يحسن فهمها، ومعرفة مداها، يمكن احراز تقدم مستمر في النضال داخل كل قطر من جهة، وعلى الصعيد العربي العام من جهة ثانية.

اذا كنا قد استرسلنا بعض الشيء في هذا الموضوع فلكي نصل إلى استنتاجات رئيسية ترتبط مباشرة بالموضوع الاساسي للبحث الراهن:

ان النضال في سبيل انتصار الشعب الفلسطيني هو جزء من نضال كل شعب عربي في سبيل تحرره وتقدمه. ودعم ومساندة الثورة الفلسطينية هو واجب كل شعب عربي وواجب عربي عام. غير أن دعم الثورة الفلسطينية لا يمكن أن يتم فقط في اطار قيام «جبهة مساندة» لهذه الثورة في كل بلد عربي. فمثل هذه الجبهة هي ضرورية وأساسية، وخاصة في المرحلة

الأولى. ولكن اتخاذها شكلاً وحيداً ودائماً للنضال في تطوره ليس صحيحاً. ان تطور الثورة الفلسطينية ونجاحها في تحقيق مهماتها، رهن بتطور ونجاح حركة التحرر العربي بمجموعها. وعلى وجه التحديد فذلك مرتبط بالحفاظ على المنجزات التقدمية لحركة التحرر العربي، وبتطوير هذه المنجزات تطويراً ثورياً صحيحاً مستمراً، مرتبط بتطور ونجاح النضال المعادي للامبريالية والصهيونية والرجعية، والمتجه لإقامة وتوطيد أنظمة حكم تقدمية فعلاً، وثورية حقاً، في البلدان العربية. ان نجاح الثورة الفلسطينية مرتبط بنجاح «العملية الثورية» في كل بلد عربي، وخاصة في البلدان العربية المحيطة باسرائيل والتي تلعب دوراً أساسياً في القضية الفلسطينية. ان دفع «العملية الثورية» إلى الامام في هذه البلدان هو السبيل الوحيد الصحيح لنصرة الثورة الفلسطينية. وغني عن البيان ان تحقيق المهات الملموسة للثورة في بلد عربي ليس واجب الثورة الفلسطينية مباشرة بل هو واجب الشعب العربي المعني وقواه الوطنية والتقدمية. فهذه القوى بتشديد نضالها في بلدانها من اجل اقامة انظمة حكم تقدمية حقيقية تضع كل امكانياتها لنصرة النضال الفلسطيني، انما تقوم في الواقع، بافضل مساندة للثورة الفلسطينية.

على ضوء هذه الاستنتاجات يمكن تحديد ثلاثة اهداف مترابطة للمعركة اللبنانية:

١ - توسيع «جبهة مساندة العمل الفدائي» في لبنان وتوثيق ارتباطها بالجماهير وجعلها اكثر جدوى وفعالية.

٢ - توسيع النضال الشعبي الوطني التقدمي من اجل اضعاف حكم الطغمة المالية ومنعه من اللجوء إلى «الحلول السلبية» مع انتزاع اكثر ما امكن من المكتسبات لصالح تطور نضال الحركة الشعبية.

٣ - تطوير النضال الشعبي التقدمي لازالة سيطرة الطغمة المالية على الحكم، واقامة حكم وطني ديمقراطي.

هذه الاهداف الثلاث انما هي مترابطة لكونها اجزاء من معركة واحدة. وترابطها لا ينفي التفاوت في المستوى بين كل منها. فالهدف الأول هو الهدف البسيط الادنى من اهداف المعركة. انه ضغط سلبي على الحكم ضروري ومهم ولكنه غير كاف بحد ذاته حتى لتأمين الغاية منه: دعم العمل الفدائي. ان تطوير النضال في سبيل هذا الهدف ينبغي ان يرتبط بتطوير النضال في سبيل الهدف الثاني، أي اضعاف حكم الطغمة المالية وانتزاع المزيد من المكتسبات منه. فالهدف الثاني هو ارفع مستوى. والهدفان الاول والثاني ينبغي ان يخدما الهدف الثالث، الايجابي، وهو قيام حكم وطني ديمقراطي. ان هذا الهدف الذي يشكل المستوى الاعلى للنضال في المرحلة الراهنة يتوقف على النجاح فيه التحقيق الصحيح للهدفين الاول والثاني. فالحكم الوطني الديمقراطي هو الذي يستطيع اكثر من سواه دعم العمل الفدائي، وهو الذي يستطيع اكثر من سواه اعطاء مكتسبات جدية وملموسة للحركة الشعبية وللنضال الوطني التقدمي. ان منطق العمل التقدمي يفرض على الدوام الانتقال بالنضال من المستوى الادنى إلى المستوى الاعلى.

نظرة انتقادية لعمل القوى التقدمية:

على ضوء ذلك يمكن القاء نظرة انتقادية لعمل القوى التقدمية منذ الثالث والعشرين من نيسان حتى الآن.

لا شك ان تجمع الاحزاب والفئات التقدمية قد قام بدور مهم في الثالث والعشرين من نيسان وفي المعارك التي تلته. غير ان النشاط التقدمي في هذا الاطار وحده يبقى عاجزاً عن تحقيق المهات الموضوعة امام الحركة التقدمية اللبنانية. فتجمع الاحزاب والفئات التقدمية قد قام فقط «لنصرة الكفاح الفلسطيني المسلح». ومجمل ممارسته في هذا الميدان لم تتعد اطار الهدف الاول من اهداف الحركة التقدمية. ان ذلك هو عمل ايجابي مهم يدفعنا إلى الحرص على استمرار التجمع وبذل كل الجهود من اجل تطويره، وتطوير العمل المشترك بين اطرافه. فباستثناء قلة ضئيلة لا وزن لها، (ترسم اكثر من علامة استفهام حول نشاط بعضها وحول اهداف مزايداته التي تصل إلى درجة شتم وتحقير كل الناس في «تقارير ثورية» علنية توضع عملياً تحت تصرف السلطة واجهزتها...) باستثناء هذه القلة التي يلعب وجودها دوراً منفراً لاطراف تقدمية ووطنية اساسية، فالاطراف الاخرى، بغض النظر عن التفاوت في مدى نفوذها، هي قوى تقدمية معادية للاستعمار وللصهيونية، ومناضلة من اجل التحرر والتقدم. ان تطوير العمل المشترك بين هذه الاطراف يرتدي اهمية كبيرة، بالاستناد إلى نقاط الاتفاق الرئيسية التي تجمع بينها، مع ضرورة اقامة وتطوير حوار تقدمي ايجابي صريح وبناء توصلا كحد ادنى الى التغلب على الخلافات القائمة حول المهات المباشرة للعمل التقدمي اللبناني والعربي.

ان تطوير النضال التقدمي لنصرة العمل الفدائي يتطلب قبل كل شيء توسيع هذا النضال ليشمل أوسع القوى التقدمية والوطنية الممكن والواجب جمعها. وفي هذا النطاق تبرز خطورة الدعوات والاعمال التي تنطلق من هذا الطرف او ذاك مؤدية إلى «عزل اليسار» وابقائه في قوقعة. اننا ندرك تماماً أهمية العمل المثابر والطويل النفس لابراز «الوجه المستقل لليسار». وان قسماً اساسياً من تقييمنا للدور الايجابي المهم الذي لعبته احداث الثالث والعشرين من نيسان انما يقوم على ضوء هذا التحليل. ولكن الوجه المستقل لليسار لا يجب ان يتحول إلى «انعزال» و «انغلاق». ان المزايدات «اليسارية» «الثورية» غير المسؤولة، تحت ستار الحرص على «نقاوة» اليسار و «استقلاليته» بتوجهها ضد قوى تقدمية ووطنية يلعب وجودها دوراً اساسياً في كل «تجمع» تقدمي، ان هذه المزايدات تؤدي عملياً وبغض النظر عن نوايا القائمين بها، خدمة للمستعمرين وللرجعية بما تقود اليه من تقسيم للقوى ومن اضعاف للاوساط التقدمية بحيث يسهل على العدو توجيه الضربة لها. ان جبهة المساندة للمقاومة الفلسطينية بحاجة إلى توسيع. وتوسيعها حيوي جداً بالنسبة لاستمرارها ولنجاحها في نضالاتها اللاحقة. ولا شك ان عدم تمكن القوى التقدمية من القيام بكامل الدور المفترض فيها لعبه في التطور اللاحق

للاحداث بعد الثالث والعشرين من نيسان انما يعود بقسم كبير منه إلى عدم نجاح هذه القوى في استقطاب كل الاوساط التي ينبغي العمل معها في المعركة الراهنة. ورغم كل المحاولات التي بذلت وادت إلى عدم «انغلاق» اليسار دائماً، فقد استمر اليسار في عزلته النسبية. وفي عدم توسيع جبهة مساندة العمل الفدائي لا يكفي القاء اللوم على القوى التي هي خارج التجمع القائم أو التي قاطعت منذ مدة اجتماعاته. فلهذه القوى اعتبارات لا بد من فهمها. ان وجودها وعملها مرهونان بنوعية التجمع وتركيبه. وهذه الحقيقة ينبغي ان تدركها الاطراف الاخرى وتسعى لمعالجتها على ضوء ما تقتضيه مصلحة تجمع اوسع القوى التقدمية والوطنية الفعلية في البلاد لنصرة العمل الفدائي.

اما البحث باقامة امتدادات ولجان في المناطق تكون فروعاً للتجمع وترتبط به ارتباطاً بنيوياً فينبغي ان ينظر اليه على ضوء التطوير المطلوب في «القمة». اذ ان هذه الفروع، اذا كانت على شاكلة «القمة» ومثالها، واذا استبق قيامها نضوج الظروف الكفيلة باحداث التطوير في القمة، فهي ليست تطويراً للنضال بقدر ما يمكن ان تشكل عائقاً بوجه قيام لجان واسعة تمثيلية فعلية وفعالة تأخذ بعين الاعتبار في تركيبها وعناصرها الظروف الملموسة في كل منطقة، ونسبة القوى ووجودها الفعلي.

* * *

اذا كان تطوير تجمع الاحزاب والفئات التقدمية وتوسيعه ضرورياً وملحاً، فان هذا التطوير بحد ذاته لا يفي بغرض تحويل اليسار إلى قوة اكثر فعالية تستطيع ان تمسك بزمام تطور المعركة في البلاد. ان المطلوب هو تغير نوعي في استراتيجية اليسار وتركيبه وشعاراته بما يتفق مع ضرورة تطوير المعركة إلى معركة لبنانية تأخذ بعين الاعتبار كل خصائص الوضع اللبناني.

ان عمل القوى التقدمية اللبنانية لا يمكنه ان يكون «محض امتداد» لحركة المقاومة الفلسطينية او لفصيل من فصائلها. وجبهة المساندة اللبنانية للعمل الفدائي تفقد الكثير من امكانياتها «للمساندة» اذا اصبحت مجرد امتداد فكري وسياسي وتنظيمي لهذا العمل. كما ان عمل القوى التقدمية اللبنانية لا يمكنه ان يكون «محض امتداد» لحركات تقدمية عربية. ان أخذ الخصائص المميزة للوضع في لبنان بعين الاعتبار، وعدم النقل الميكانيكي والتطبيق الجامد للإستراتيجية الواحدة لحركة التحرر العربي، ان ذلك يفترض «يساراً لبنانياً عربياً» وليس «يساراً عربياً في لبنان». واذ نقول ذلك فنحن ابعد ما يكون عن «الكيانية» او عن «الاقليمية»، فاعتبارنا نابع من المبدأ الذي سبق وذكرناه، مبدأ «الاستقلالية النسبية» لكل فصيل من فصائل حركة التحرر العربي ضمن «الاستراتيجية العربية الواحدة».

إن معركة حماية العمل الفدائي في لبنان ليس من الضروري ان تجري تحت هذا الشعار، ولا ينبغي على كل حال ان تجري فقط تحت هذا الشعار. فالبرجوازية اللبنانية تبذل كل

جهدها لابقاء العمل الفدائي قضية مطروحة لوحدها على بساط البحث، وتعمل لحصر الخلاف حولها فقط مع السعي لعزلها عن مجمل سياسة الحكم. وهي بذلك ترمي إلى اثارة الانقسام الطائفي وتعزيزه بما يؤمن لها استمرار سيطرتها المطلقة على الحكم. ان الاستمرار في المعركة على هذا الاساس يعزز لعبة البرجوازية في تكريس طرفيها ممثلين لنصفي البلاد، وفي تكريس الاتفاقات التي يصل اليها طرفاها كاتفاقات تلزم كل البلاد. وهي بذلك لا تغرق الحركة الشعبية في دوامة الصراع التقليدي فحسب بل تصعّب افاق التطور اللاحق امام هذه الحركة، وامام التطور اللاحق لكل لبنان. لذلك فمع استمرار شعار نصرة ودعم العمل الفدائي كأحد الشعارات الرئيسية للحركة الشعبية والقوى الوطنية والتقدمية، لا بد من خوض معارك واسعة تحت شعارات اخرى تجمع اوسع اوساط الجماهير من كل الفئات الشعبية اللبنانية، وتستجيب لمصالح اوسع الفئات الاجتماعية الوطنية التي تتعرض مصالحها للضرر الفادح بسبب تعقد ازمة الحكم وتعمقها، والتي لها مصلحة في ازالة سيطرة الطغمة المالية عن الحكم واحداث تغيير جذري في اسس البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الراهن. ان هذه المعارك ليست «بديلة» لمعركة حماية العمل الفدائي، بل هي وضع لها في الاطار اللبناني. ان دعم الثورة الفلسطينية في لبنان يكون مجدياً وفعالاً أكثر بقدر ما تقرره وتحدده «استراتيجية الثورة اللبنانية»، وبكلام أوضح مصلحة تطور ونجاح النضال الشعبي الوطني التقدمي، وهذا يتطلب من القوى التقدمية، كل القوى التقدمية، ايجاد شكل جديد للعلاقات فيما بينها وفيما بينها وبين أوسع القوى الوطنية، يختلف نوعياً عن العلاقات القائمة الآن. ان الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه العلاقات هو الموقف من التطور اللاحق للبنان، وعلى ضوء ذلك، الموقف من المعارك والنضالات الآنية والمرحلية المساعدة في انتصار النضال من أجل التطور اللاحق. ان جبهة تقدمية وطنية في لبنان باتت ضرورية اكثر من أي وقت مضى. فمثل هذه الجبهة باستنادها إلى توسيع وتطوير النضال الشعبي الجماهيري في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وبعملها لتوحيد هذه النضالات في تيار واحد، تستطيع ان تمارس دوراً ايجابياً قيادياً من اجل منع الرجعية من حل ازمتها على حساب المصلحة الوطنية والمصالح الشعبية، ومن أجل اقامة حكم وطني تقدمي يستطيع تلبية حاجات ومطامح الشعب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

فبقدر ما تشتد المعارك الشعبية، وبقدر ما تزداد علاقات القوى التقدمية والوطنية توطداً في قيادة هذه المعارك، يخف دوران هذه القوى مع اطراف النظام في حلقته المفرغة، ويصبح بالامكان ابقاء الرجعية وحدها في الطريق المسدود...

محتويات الكتاب

القسم السابع:

القسم الثامن:

القسم التاسع:

القسم العاشر:

المقاومة

... اني أحاول أن أتصدى لمعالجة، من وجهة نظر ماركسية، لموضوع المقاومة ليس في جانب واحد منها، بل في كل جوانبها. وفي هذه المعالجة أحاول أن أضع المقاومة في غير المكان الذي يضعها فيه الحدث الذي تنتجه كل يوم، بل في موقعها الحقيقي من الصراع الجاري على الساحة اللبنانية، وفي كل جبهاته.

والجانب التاريخي في الكتاب ليس تاريخاً بل هو محاولة للربط الصحيح بين حاضر المقاومة، كوجه من وجوه الكفاح الوطني الثوري، وماضيها، وبين الآفاق الرحبة التي يتجه اليها، بحزم وثبات، هذا الكفاح الثوري الذي تشكل المقاومة جزءاً فاعلاً ومؤثراً فيه.

... اني، فيما أكتب، أدعو كل المعنيين في موضوع المقاومة، ممن أسهموا في تأسيس نواتها الأولى، وممن شاركوا وسيشاركون في نضالها، وممن ينظرون اليها كظاهرة تستوجب الاهتمام والتطوير، أدعوهم جميعاً إلى النقاش الذي نطمح، في أيامنا هذه، أن يكون غنياً، وأن يكون هادفاً، وأن يكون مثقفاً للجماهير، مسهماً في تعميق وعيها الوطني والديموقراطي، وأن يجري بحرية كاملة، وفي ظل أقصى الديموقراطية...

محمد يوسف الشيخ

الطبعة الثانية
١٩٨٥